شؤون فلسطينية

رئيس التحرير: محمود درويش
سكرتير التحرير: الياس خوري

٧٨ ايار (مايو) ١٩٧٨

شهرية فكرية لمعالجة احداث القضية الفلسطينية وشؤونها المختلفة
تصدر عن مركز الابحاث في منظمة التحرير الفلسطينية

جميع الآراء الواردة تعبر عن وجهات نظر كاتبيها ولا تعكس بالضرورة آراء منظمة التحرير الفلسطينية ولا المحررين ولا المستشارين ولا الناشرين ٠

العنوان : بناية الدكتور راجي نصر ، شارع كولومباني (متفرع من السادات) ، رأس بيروت ، بيروت ـ لبنان ، ص٠ب ١٦٩١ ٠ تلفون : التحرير ٣٥١٢٦١ ، التوزيع ٢٢٦٥٨٥ ، برقيا مرابحاث ، بيروت ٠

مدير التوزيع : غازي دانيال

الاشتراك السنوي (بريد جوي) : ٦٠ ل٠ل٠ في لبنان وسوريا ، ٧٥ ل٠ل٠ في سائر الاقطار العربية ، ١٠٠ ل٠ل٠ في اوروبا ، ١٢٥ ل٠ل٠ في بقية بلدان العالم

الاشتراك السنوي (بريد عادي) : ٦٥ ل٠ل٠ في جميع الدول غير العربية ٠

الغلاف - «ثورة النباتات» للفنان نذير نبعة
(من المعرض التشكيلي العالمي من اجل فلسطين)

المحتويات

الصفحة

٤ محمود درويش : الملف المفتوح ٠
٦ معن بشور : الحرب الخامسة في الجنوب ٠
١٤ محمد المجذوب : تساؤلات قانونية يطرحها القرار ٤٢٥ ٠
٢٤ سمير كرم : «السيناريو الكوري» لتطويق الثورة الفلسطينية٠
٤١ حنة شاهين : الاحتلال الاسرائيلي لجنوب لبنان : الدوافع والاهداف ٠
٥٩ هاني مندس : مشروعات التوطين ٠
٨٩ نزيه قورة : ملاحظات حول العمل العربي في الزراعة الاسرائيلية ٠
٩٨ زاهي الاقرع : العلاقات الاسرائيلية الفرنسية ١٩٥٦ ـ ١٩٦٧ ٠
١٠٦ احمد صدقي الدجاني : نظرة تحليلية في تاريخ فلسطين (٣) « فلسطين تحت حكم الرومان » ٠
١٢٣ : وديع حداد ٠

تقارير :

١٢٤ يوسف حمدان : قضايا الهجرة اليهودية ٠

الصفحة

١٣٢ مراجعات : **الف يوم مع الحاج امين** ، بيان الحوت ·
العلاقات الصهيونية مع المانيا النازية ·
رجا جورج ·
رد على مراجعة كتاب « تاريخ الصهيونية » ·
صبري جريس ·

١٦٠ شهريات : (١) **المقاومة الفلسطينية**، بلال الحسن·
(٢) **المناطق المحتلة**، عبد الحفيظ محارب·
(٣) **اسرائيليات** ، جمدان بدر ·
(٤) **قضايا عسكرية** ، محمود عزمي
(٥) **التحرك الجماهيري في الاردن خلال حرب الجنوب** ، غانم زريقات ·

١٩٤ شؤون ادبية :
عبد الكبير الخطيبي : **جاك بيرك او النكهة الشرقية** ·

٢١١ كتب : ١ ـ **الى الجحيم ايها الليل** ، محمود قدري·
٢ ـ **الولد الفلسطيني** ، ليانة بدر ·

٢٢٢ **جدول بالعمليات العسكرية لقوات الثورة الفلسطينية ٢/١٤ ـ ١٩٧٨/٤/٤** ، مروان حميد ·

الملف المفتوح

الملف الملف ، يفتحون ولا يفتحون · ولا حديث الا حديث الملف الذي يفتح ولا يفتح ·

كأن الملف هو القضية ، كأنه سر ، كأنه فضيحة ·

ولا احد يقول ان الملف مفتوح ·

ولا أحد يقول ان المطلوب هو اغلاق لبنان ، لا فتح ملف فلسطين ، وقص القضية الفلسطينية عن علاقتها اللبنانية ، وبتر لبنان والمسألة اللبنانية عن مقوماتها العربية · كيف تغترب اللغة عن الواقع الى درجة تفوق الانتحار ؟ وكيف لا يكون لبنان صهيونيا اذا انقلب على عناصره العربية ؟ ان الحروب تملأ الشوارع والاسئلة ، ولكن البلاغة ما زالت تصر على التهديد بفتح ملف مفتوح ، وباعلان حرب معلنة ·

ان الفوضى تعم المفاهيم ، وتتجلى المفارقات الساخرة بعيدا عن طقوس السحر ، وكل بديهية تأخذ شكل المعجزة · ومن اين نبدأ ؟ من الصفر او ما دونه ؟ بعد ثلاثين عاما من الصراع العربي ـ الصهيوني الساخن ، يعجز الحوار العربي ـ العربي عن صياغة جدول اعمال ، لان الفرضيات التي كانت واحدة تناحرت وانقسمت وتوغل بعضها في علاقة وعي « المصلحة المشتركة » مع العدو التاريخي ، في معركة تفوّق الاقليمية · ان شيئا خطيرا قد حدث ، وتبلور في الزيارة العربية الرسمية الاولى للصهيونية : تخلي وعي عربي ما عن قانون اساسي من قوانين الصراع ، هو ان اسرائيل ليست عدوة الفلسطينيين وحدهم !

ومن دون ملاحظة هذه الهزيمة في الوعي العربي ، لن نتمكن من معالجة الظواهر الغريبة التي تتألب على واقع الحياة العربية بغير البكاء · من دون مواجهة هذه الهزيمة في الوعي العربي ، لن نفهم كيف تؤدي بطولاتنا في حرب الدفاع عن جنوب لبنان ، وعن الثورة ، وعن الرجاء ، الى مواجهتنا بفزاعة الملف ، بدلا من انهمار الطاقات العربية لتنمية نموذج جديد ومثمر في خوض حرب طويلة ناجحة ضد العدو الصهيوني الذي يحتاج الى تعريف : العدو الذي يحتل ارض فلسطين وارض الامة ·

ليس جديدا ان يقال ان حرب الجنوب قد اعادت مفهوم الشرعية المعرض للانتهاك الى خط الصواب · ان الذين يقاتلون دفاعا عن ارض الوطن هم الذين يمتلكون الشرعية · اما المتفرجون على ايقاع الاحتلال ، والمصفقون لانهيارات القرى فلهم اسماء اخرى · لقد كان المقاتلان الفلسطيني واللبناني ، في دفاعهما عن الارض اللبنانية وجذوة الثورة العربية ، يعيدان صياغة الوعي القومي ، ويدمران التجزئة ·

ليس جديدا ان يقال ذلك ، ولكن حاجة هذا القول الى مزيد من المعارك يعني ان اشياء خطيرة قد حدثت ، ويعني اننا ندنو من انقلابات اخرى في الوعي والمفاهيم نجحت الثورة المضادة في طرحها على جدول اعمال الحوار العربي ـ العربي ، ليصبح التعامل مع منظمة التحرير الفلسطينية تعاملا مع خصم شامل لاغلبية الاجهزة العربية ، لانها تزعج شغف الطبقة الجديدة بالاستهلاك ، ولانها تعرقل النمـــو السرطاني للكيانات العنصرية ، ولانها تشاغب على قافلـــة المصالحة العربية الاسرائيلية من جانب واحد هو الجانب العربي الذي اعتذر للصهيونية عن خصومة تاريخية ناتجة عن سوء تفاهم بسيط !· هكذا تزدهر الاقليمية والانعزالية والطائفية ، وتتحول الحرب على الفلسطينيين وعلى الثورة الفلسطينية الى حرب وطنية،وتتحول العلاقة مع الكيان العنصري الصهيوني ـ النموذج من علاقة صراع سابق الى تحالف لاحق ، على اعتبار ان فلسطين هي العدو المشترك لكل الامراض الرائجة ·

اليس هذا هو الملف ؟

هذا هو الملف ·

لقد جاءت الثورة الفلسطينية لتفتح ملف الاعتداء الامبريالي الصهيوني العنصري المزمن على فلسطين ، وعلى كل العرب الساعين الى الحرية والتحرر والتقدم · جاءت لتواصل فتح ملف الصراع التاريخي باسم شعبها وباسم الامة · جاءت لتفتح ملف التقصير في هذا الصراع · لقد تغير العالم · تغير وعي العالم · وسقط السلام الاسرائيلي الى الابد · وصار السلام الفلسطيني ـ العربي هو السلام الحقيقي الوحيد في هذه المنطقة من العالم ، بعدما برهنت البندقية الفلسطينية على عـدم قابليتها للسقوط ، وبعدما برهن استسلام بعض الانظمة العربية على انه عاجز عن جني سلام جزئي او قطعة ارض صغيرة من مخالب العدو الصهيوني بلا صراع ·

الملف الفلسطيني مفتوح منذ نصف قرن · انه ملف الصراع مع القادمين مع الماضي الميت لمنع سكان القارة العربية من مواصلة الزحف الى المستقبل · انه ملف البطولة والامل · وهو مفتوح كالبحر والهواء ، ويغطي القارة الممتدة من المحيط الى المحيط ، ويغطي العلاقات الدولية بأسرها · انه ملف مائة مليون مواطن يبحثون عن مواطنيتهم ، عن خبزهم ولغتهم وهويتهم · يدكون عروش سيادة التجزئة والظلم الاجتماعي ليتحولوا من أسرى الى مواطنين ، ومن صدفة الى موج · الملف الفلسطيني هو ملف الامة مفتوح للصراع والنصر · وحدهم الذين لا تاريخ لهم هم الذين يعتبرونه سرا او فضيحة ، فيحاولون ان يحشروه في درج او برلمان او وطن ·

محمود درويش

معـــن بشـــور

الحرب الخامسة في الجنوب

بالقدر الذي يضطر فيه المشروع الانعزالي الى الافصاح عن علاقته بالمخطط الصهيوني ، وبالقدر الذي يضطر فيه العدو الصهيوني الى اعلان « شراكته » مع الجبهة الانعزالية في لبنان ، تكون المؤامرة على لبنان وفلسطين والامة العربية قد وصلت الى اعلى مراحلها ، وبالتالي الى اخر هذه المراحل ايضا ٠

وهذا « الافصاح » الانعزالي ، و «الاعلان » الصهيوني، ما كان لهما ان يتما لولا ان الانعزالية تعاني من ضعف يضطرها الى الاستنجـاد بالعـدو الصهيوني، الذي لم يزل معتبرا عدوا للبنان على الصعيدين الرسمي والقانوني ، ولولا ان الدولة الصهيونية رغم كل مظاهر تفوقها العسكري ، تزداد حاجتها الى غطاء سياسي تمارس من خلاله دورها ومخططاتها ٠

واذا كان الاعلان عن هذه العلاقة (الصهيونية ـ الانعزالية) في جذوره تعبيرا صريحا عن عمق المأزق الذي تمر به المؤامرة الامبريالية ـ الصهيونية على قضية فلسطين والامة العربية ، فان هذا الاعلان ايضا يقود الى مأزق جديد ، او الى تعميق المأزق القديم بدلا من تجاوزه ٠

وبهذا المعنى كانت (حـرب الجنوب) ، بما كشفته عـن الترابط الزماني والمكاني ، التاريخي والجغرافي ، بين الانعزاليـــة والصهيونية ، اعـــلانا صريحا عن هذا المأزق ومدخلا واسعا الى مأزق جديد ايضا ٠

فقد كانت اعلانا عن هذا المأزق حين اظهرت ان الانعزالية رغم كل ما اتيح لها من وسائل ، وما حصلت عليه من دعم ، وما تمكنت من استدراجه مـــن ادوات ، فشلت في تحقيق مشروعها ـ الحلم في السيطرة الكاملة على لبنان

ثم عزله كاملا عن مداه العربي الطبيعي ، بل انها على العكس من ذلك كانت تجد نفسها اثر كل مرحلة من الصراع وقد تخلت عن واحدة من ابرز مرتكزاتها الفكرية والسياسية والمصلحية · فالحرب التي بدأتها لاخراج كل ما هو عربي من لبنان وصلت الى مرحلة اضطر فيها الانعزاليون الى القبول بادخال كل العرب الى ارض لبنان · والمعارك التي خاضها الانعزاليون بحجة تجريد الفلسطينيين من سلاحهم الثوري ووضع الحد « لتجاوزاتهم » ادخلت السلاح الى كل بيت وطني في لبنان ، وتركت لبنان بأسره فريسة التجاوزات والارتكابات التي اصبح مقاتلو الميليشيات (فرسانها الميامين) في كل ناحية ومجال ···

كذلك كانت حرب الجنوب اعلانا عن المأزق الاسرائيلي ذاته حين وجد نفسه، بعد ثلاث سنوات من اشغال الثورة الفلسطينية بأتون الحرب الاهلية في لبنان ، بكل ما كلفها ذلك من خسائر فادحة في الكوادر والمقاتلين والطاقات والامكانات، مضطرا الى ان يعود ليتدخل بدباباته وطائراته وبحريته من اجل تصفية الثورة الفلسطينية بنفسه بعد ان عجزت الادوات المحلية عن ذلك ، ليفاجأ ، فوق كل هذا، بأن هذه الثورة خرجت من تلك الحرب القاسية المدمرة اصلب عودا ، واشد مراسا ، واكثر قدرة على التصدي له في الحرب ــ المعجزة التي دامت سبعة ايام على ارض الجنوب ·

غير ان هذا المأزق الاسرائيلي ــ الانعزالي الذي كشفت عنه الحرب لا يقل عنه خطورة وعمقا المأزق الاخر الذي قادت اليه الحرب ونتائجها على الصعيدين الاسرائيلي والانعزالي :

فعلى الصعيد الاسرائيلي يعبر هذا المأزق الجديد عن نفسه في جملة قضايا ، وعدة نواحي ومجالات لعل ابرزها الموقف من بقاء الاحتلال الاسرائيلي للجنوب·

فمما لا شك فيه ان اسرائيل في مواجهتها لمسألة احتلال جنوب لبنان تختلف عنها في مواجهتها لاي احتلال سابق على اي من الجبهات العربية الاخرى ، فهي تدرك بدون شك الصعوبات الكبرى (السياسية والعسكرية والديمغرافية) التي تواجهها فيما لو اصرت على البقاء في الجنوب ، كما تدرك ايضا الاغراءات العريضة (التوسعية والاقتصادية والامنية) التي يحملها لها بقاؤها في ارض الجنوب ·

فعلى الصعيد السياسي ، لا تجد اسرائيل صعوبة في انها ستواجه وضعا دوليا وعربيا اكثر تعقيدا من السابق فيما لو اصرت على الاحتفاظ باراضي الجنوب اللبناني ، هذا الوضع سيدفع مجمل القوى الدولية والعربية الى اتخاذ مواقف سياسية وعملية في غير صالح الدولة الاسرائيلية · فالاتحاد السوفياتي مثلا لن يقف مكتوف الايدي تجاه امتناع اسرائيل عن تنفيذ قرار مجلس الامن ٤٢٥ ولا بد ان يتصاعد دعمه للنضال الوطني الفلسطيني واللبناني لدحر

الاحتلال ، بينما لن تتمكن الولايات المتحدة من الدفاع العلني عـــن التعنت الاسرائيلي في وقت تزداد فيه نسبة القوى الشعبية والسياسية داخل اميركا والمتبرمة من الموقف الاسرائيلي من ما يسمونه (بأزمة الشرق الاوسط) · والدول العربية ، على تباين مواقفها واوضاعها وتركيباتها الداخلية ، ستجد نفسهـا مدفوعة اكثر فاكثر نحو دعم النضال من اجل التحرير او على الاقل نحو تجميد التامر ضده فيما لو اصرت اسرائيل على عدم الانسحاب ·

وعلى الصعيد العسكري ، يبدو واضحا ان قدرة المقاومة الشعبية المسلحـة على انهاك القوات المحتلة في الجنوب تفوق هذه القدرة في اي وقت سابق نتيجة اسباب متعددة لا مجال للاسهاب فيها الان ، ويقف على رأسها تنامي القدرة العسكرية للمقاتلين ، وطبيعة ارض الجنوب المؤاتية لحرب العصابات ، وجهل القوات المحتلة بهذه الارض ومداخلها ومخارجها وشعابها ·

وعلى الصعيد الديمغرافي يشعر العقل الصهيوني ان استيعاب مئات الالوف من السكان العرب الجدد ، المتميزين بقدرة عالية على الانجاب ، يضيف بدون شك الى حدة المسألة الديموغرافية التي يواجهها اساسا مع عرب فلسطيـن انفسهم والذين يتكاثرون على النحو الذي يهدد الطابع الصهيوني لدولة العدو نفسه ·

وفي وجه هذه الصعوبات ، التي تقف امام القرار الاسرائيلي بالبقاء ، تبرز ايضا صعوبات كثيرة امام اي قرار تتخذه الحكومة الاسرائيلية بالانسحاب ·

فالتخلي عن اراضي الجنوب اللبناني ، وقد كانت دائما ضمن المشاريـــع التوسعية الصهيونية ، وضمن الاحتياجات الاقتصادية والمالية للكيان الصهيوني، يشكل نكسة « عقائدية » و « سياسية » كبرى للعقـــل الصهيوني وللمنهج الصهيوني ، وللشعار الصهيوني الثابت « بأن اسرائيل لا تتخلى عن شبر واحد من الارض دفعت ثمنه من دم ابنائها » · ويتضاعف حجم هـــذه النكســـة واثرها على التجمع المتطرف الحاكم الذي يعتبر ان من ابرز مميزاته هـــو « عقائديته » الشديدة التي تتحول مغه الى (استراتيجية) والى (تكتيك) في الوقت ذاته · وبالتالي فان الانسحاب سيحدث هزة ضخمة في صفوف هذا الجسم السياسي القائم على التطرف والعدوان والتوسع الامر الذي سيضرب « المجتمع » الاسرائيلي في الصميم لانه سيظهر هشاشة وعجز الرد الذي وصل اليه هذا « المجتمع » في محاولة لالغاء نتائج حرب تشرين داخل الكيـــان الصهيوني · فالازمة التي يواجهها المتطرفون في المجتمعات الفاشية والعنصرية هي في جوهرها ازمة المجتمعات ذاتها التي اختارت الفاشية او العنصرية طريقا لحل اشكالاتها ·

كذلك فان القرار الاسرائيلي بالانسحاب سيؤكد الانطباع السائد حاليا داخل

الكيان الصهيوني بأن عملية ١٤ اذار العسكرية لم تحقق اهدافها (اجتثاث العمل الفدائي الفلسطيني) وفي اقامة (شـريط امني واســـع يحمي المستوطنات والمستعمرات الحدودية من قصف المدافع الفلسطينية) ٠

ويتضح عمق المأزق الاسرائيلي في النتائج الايجابية الباهرة التي حققتها الثورة الفلسطينية من الحرب التي اريد لها ان تكون نهاية لهذه الثورة واجهازا كاملا عليها ٠ فلقد عادت الثورة الفلسطينية من خلال حربها الظافرة مع العدو ، لتشكل ، مع الحركة الوطنية اللبنانية ، من جديد مركز الاستقطاب الجماهيري العربي الواسع ، ولتعيد صياغة علاقاتها مع الانظمة العربية من موقع اكثر قوة وثقة بالنفس ، ولتجدد في المواطن العربي الروح التي اطلقتها حرب تشرين ، وهي روح الثقة والقدرة على مجابهة العدو ٠ كذلك تمكنت هذه الثورة من ان تنتزع اعترافا دوليا جديرا بها كطرف من اطراف الصراع في المنطقة اثـر حملة عالمية ضخمة قادتها الامبريالية الاميركية بالاضافة الى اسرائيل وبعض الحكام العرب (لا سيما السادات بعد مبادرته الشهيرة) هدفها سحق منظمة التحرير وشطبها من المعادلات الدولية والسياسية ٠

واذا كنا لا ننكر في هذا المجال اهمية وخطورة المخاوف التي تثار مع كل مرحلة تحقق فيها الثورة انتصارا كبيرا في ان يستخدم هذا الانتصار من اجل ادخال الثورة والقضية في لعبة التسوية المفرطـــة بالحقوق التاريخية لشعب فلسطين ، فاننا نعتقد ايضا ان القوى الوطنية والثورية داخل الساحة الفلسطينية والعربية قادرة اذا تمتعت بالقدر المطلوب من الحكمة والصلابة ، ومن المبدئية الثابتة ، والمرونة المضبوطة ، انتضطلع بمسؤولية مجابهة المرحلة الجديدة على نحو يمكنها من اضافة هذا النصر الى رصيد جديد لنضالها ، ومن اسقاط كل المخططات والمخاوف التي تحاك لتحويل هذا النصر الى شرك جديد على غرار ما تم لبعض الانظمة اثر حرب تشرين المجيدة ٠

ومن جهة ثالثة يمثل ارتباك الوضع الداخلي ، الاقتصادي والاجتماعي ، في الكيان الصهيوني وتفاقم ازماته (الاضرابات المختلفة ، تظاهرات السلام) مظهرا جديدا من مظاهر المأزق الاسرائيلي الذي لا ندعي ان حرب الجنوب كانت سببا مباشرا له ، لكننا نستطيع القول بأن حرب الجنوب ، التي اريد لها على غرار الحروب السابقة مع العرب ، ان تسهم في تأجيل هذه التناقضات والتخفيف من حدتها ، قد لعبت على العكس من ذلك دورا هاما في التعجيل بها وتعميق حدتها ٠ ففي هذه الحرب احتلت اسرائيل ارضا لكنها لم تستطع ان تحقق نصرا ٠ وصلت الى مياه الليطاني (وهو حلم صهيوني قديم) لكنها لم تثر داخل شعبها اية فرحة او بهجة على نحو ما كانت تثيره الحروب السابقة ٠ تمكنت من ابعاد الفدائيين عن حدودها عشرات الكيلومترات لكنها لم تمنع

شبح عملية (كمال عدوان) من ان يستنفر جيشها وشعبها طيلة يوم كامل بعد تلك الحرب ٠

ولم يعد خافيا على احد ان الحرب التي شنتها القوات الصهيونية على القوات المشتركة الفلسطينية ـ اللبنانية وما نجم عنها من احتلال لاراض عربية جديدة قد اجهزت بالفعل على « مبادرة السادات » وادخلتها في مأزق جديد بعد المأزق الذي وضعت نفسها فيه منذ ان سلمت العدو الصهيوني (كل الاوراق) قبل ستة اشهر ٠ وعلى الرغم من التعنت الاسرائيلي في التعاطي مع (مبادرة السادات) ، فان اسرائيل كانت تحاول قدر استطاعتها ان تحقق دون اي تنازلات من جانبها اكبر قدر من المكاسب سواء على صعيد تمزيق الصف العربي او عزل مصر عن العرب ، او النجاح في اطلاق حملة مصرية شرسة على الفلسطينيين شعبا وثورة ومنظمة تحرير ٠ لكن حرب الجنوب اربكت هذا الاتجاه بأسره ٠ واظهرت كم كانت تنطوي عليه (مبادرة السادات) من جهل وسذاجة بالاضافة الى ما تحويه من تفريط استسلامي وتخاذل قومي ووطني ٠

ان المأزق الجديد المضاف الى ازمة (السادات) المتفاقمة بعد زيارته لاسرائيل، هو في النهاية مأزق للسياسة الاسرائيلية نفسها التي اصبحت اعجز من ان تضرب اعداءها ، وان تحمي « اصدقاءها » على حد سواء ٠

واذا كانت الحكومة الاسرائيلية اليوم تحاول الخروج من (مأزقها) هذا بالجوء الى لعبة الانسحاب (الشكلي) او (التجميلي) بقصد تعطيل تفاعلات اصرارها على الاحتلال على كل صعيد، ولتسليح حلفائهـــا المحليين باوراق للضغط على المقاومة والحركة الوطنية اللبنانية ، فان التمسك الوطني بشعـار (الانسحاب الكامل دون قيد او شرط) وتحويله الى مطلب قومي شامل لكفيل بجعل التكتيك الاسرائيلي الجديد فاشلا ، ورده الى نحر اصحابه من خلال اثارة التناقضات والبلبلة في صفوفهم بدلا من تمكينهم من نقلها الى صفوفنا ٠

ومن هنا فان اسرائيل تحاول مجددا ان تصدر (مأزقها) المتفاقم بعد احتلال الجنوب الى حلفائها الانعزاليين في داخل لبنان ، مضيفة الى كل ما يجابهونـــه من مأزق وصعوبات مأزقا جديدا يصعب عليهم التعامل معه ٠٠٠

فحين هيأت (الجبهة اللبنانية) نفسها ، ومعها اطراف في السلطة وخارجها، للاستفادة الفورية والمباشرة من الاحتلال الاسرائيلي للجنوب لتحقيق تغيير في موازين القوى لصالحها ضد الفلسطينيين، والوطنيين اللبنانيين ، ومن ثم ضد الوجود الرسمي العربي ممثلا بقوات الردع العربية ، وجدت نفسها في مواجهة وضع داخلي وعربي ودولي اشد صعوبة واكثر تعقيدا ٠

فعلى الصعيد اللبناني ، وبعد ان قطعت هذه (الجبهة اللبنانية) شوطا كبيرا

فياتصالاتها مع اطراف اسلامية تقليدية (سنية وشيعية) من اجل وضعها كطرف محاور في صيغة من (الوفاق) المفروض من جهة واحدة ، وجـــدت نفسها بعد الاحتلال عاجزة عن اكمال مشروعها هذا بسبب اضطرار العديد من هذه الزعامات والاطراف الى اتخاذ مواقف اقل انسياقا مع التهليل الانعزالي للاحتلال الاسرائيلي بسبب الظروف والاوضاع والارتباطات المحلية والعربية التي لم تزل تحكم تركيبة هذه الاطراف والزعامات ٠

ومما زاد الامر تعقيدا في هذا الاتجـــاه الايحاء الاسرائيلي باستمرارية الاحتلال ، والمجازر البشعة التي ارتكبها سعد حداد ضد الجنوبيين العزل في الخيام وبنت جبيل وغيرها ، بالاضافة الى ممارساته الاخرى التي يغلب عليها طابع النزق والحقد ، ومجزرة عدلون التي ارتكبها الكوماندوس الاسرائيلي بحق عائلة جنوبية بأكملها ، والنهب والنسف الواسع النطاق للعديد من القرى الجنوبية وقد قام بهما الجيش الاسرائيلي الغـــازي (خروجـــا عـــلى تقاليده الانضباطية حسب تصريح مردخاي غور رئيس الاركان السابق) بالاضافة الى التحركات الشعبية والوطنية التي اتسمت بطابع المرونة الفائقة والتي رفعت شعار « اوسع لقاء لمقاومة الاحتلال » (المؤتمر الشعبي الجنوبي ، بيان المجلس السياسي المركزي للحركة الوطنية ، لقاء الحركة الوطنية والجبهة القومية ، المؤتمر الوطني في البقاع الخ ٠٠٠) مما فوت الفرصة امام مشروع الوفـــاق الانعزالي المفروض من جهة واحدة ، واعادة (الجبهة اللبنانية) الى مأزق العزلة الكاملة على الصعيد اللبناني ٠

كذلك فقد ظهر ان التكتيك الانعزالي في «الاستفادة من الاحتلال الاسرائيلي» لم يكن موضع اتفاق داخل اطراف (الجبهة اللبنانية) نفسها ، فخرج اكثر من صوت ، وبنبرات مختلفة ، ولاسباب وارتباطات وعوامل متباينة ، يعلن تميزه عن المنطق الذي يوحد بين القضية الانعزالية مع الاحتلال الصهيوني ٠

واذا اضفنا الى هذه العوامل ، العامل النفسي الذي لم تأخذ به (الجبهـــة اللبنانية) بالجدية الكافية ، وهو كيف فهمت الجماهير الواقعة تحت تأثير هذه الجبهة حرب الجنوب ونتائجها ، نستطيع ان نكمل صورة المأزق العنيف الذي تواجهه هذه الجبهة اليوم ٠

ففي حين ربطت (الجبهة اللبنانية) ربطا ميكانيكيا بين «الانتصار الجغرافي» لاسرائيل من خلال احتلالها لمئات من الكيلومترات المربعة ، وبين التغيير في موازين القوى لصالحها ٠ لاحظ المواطن في المناطق الواقعة تحت السيطرة الانعزالية جانبا اخر في هذه الحرب ، وهو جانب انهيار اسطورة التفـــوق الاسرائيلي الساحقة على الفلسطينيين والعرب ٠ تلك الاسطورة التي طالما غذى الانعزاليون جماهيرهم بوهمها ، وعلقوا امالها عليهم ، واعتبروها (القول

الفصل) في المعركة ضد الفلسطينيين : « حين ننجح في ادخال اسرائيل المعركة يكون امر الفلسطينيين قد انتهى » ٠٠٠ فمقابل هذه التعبئة اليومية القديمة وجد المواطن المتأثر بالدعاية الانعزالية نفسه امـــام حقيقة جديدة : « اذا فشلت اسرائيل ، بحرب اشتركت فيها كل اسلحتها ، في القضاء على الفلسطينيين ، فمن اين للجبهة اللبنانية القدرة على تصفيتهم » وانهار امامه في لحظات الى جانب وهم التفوق الاسرائيلي الكاسح وهم اخر هو « وهم انتصار المشروع الانعزالي بطرد اخر فلسطيني من لبنان » ٠

لقد انعكس هذا الجانب بشكل واضح في تراجع معنويات الانعزاليين رغـم التقدم في الاحتلال الاسرائيلي ٠ وانعكس هذا التراجع بأوضح اشكاله في الجو النفسي الذي واجه به اهالي (عين الرمانة ـ التحويطة ـ بدارو) اشتباكات العاشر من نيسان الماضي الامر الذي جعل بشير الجميل يهاجم « المتخاذلين في صفوفنا » ويطالبهم « بالهجرة الى كندا واستراليا اذا كانوا غير مستعدين للصمود والتضحية »٠

وعلى الصعيد العربي ، كان الاعلان عن التحالف الصهيوني ـ الانعزالي ، رغم ان احدا من الانظمة العربية لم يكن يجهله ، مصدر احراج كبير لهـذه الانظمة ، على تباينها وتفاوت نظرتها الى الاوضاع في لبنان ، وسقطت مع هذا الاعلان الذي كانت حرب الجنوب اسطع دليل عليه ، كل حجج وذرائع (الجبهة اللبنانية) التي تقدمها متباكية شاكية في القصور العربية عن (خوفها على الموارنة وعن حاجتها الى ضمانات ، وعن تضايقها من التجاوزات ، وعـن الخطر « الشيوعي » و « اليساري » الخ ٠٠٠) بل سقطت ايضا مع هـــذا الاعلان كل تلك التبريرات التي كانت تقدمها الابواق الرسمية العربية للمواقف المتخذة من حكوماتها على هذه الساحة ٠ وهكذا كان لا بد من ان تنعكس حرب الجنوب مأزقا حادا للعلاقات التي تربط الجبهة الانعزالية ببعض الانظمة العربية فعادت تهاجم كل العرب بالكلمة والرصاصة والقذيفة على حد سواء ٠ ورغم كل المظاهر المعاكسة فان علينا ان نعترف ان القوة الحقيقية (للجبهة اللبنانية) كانت « عربية » بل كانت في قدرتها البارعة على ان تظهر قضيتها موحدة مع العديد من القوى والطبقات والمصالح في المنطقة في حين ان جوهر قضيتها كان العداء الكامل لكل ما هو عربي ٠

لقد جاءت (حرب الجنوب) لتكشف هذا الاحتيال الانعزالي البارع ، وربما لتكشف ايضا الاحتيال الرسمي العربي في « تصديق » هذا الاحتيال الانعزالي، ولتعيد الامور الى نصابها ٠

وامام هذه الحقائق الجديدة التي اطلقتها الحرب ظهر ان (الانعزالية) في لبنان قد تحولت من (حركة تعبر عن مخاوف مشروعة لاقلية تبحث عن ضمانات

تؤمن لها تعايشا حقيقيا في محيط عربي واسع) الى خنجر مسموم تحمله الحركة الصهيونية وتوجههالى صدر كل عربي ٠

وتحولت الانعزالية من حركة تتباهى بشعار « قوة لبنان في ضعفه » الى مشروع سياسي فاشل يستحيل مع (القوة) التي تمنحها له اسرائيل الى (ضعف) متزايد محليا وعربيا ودوليا ٠

ولم يكن صعبا ان نلاحظ كيف ان اقانيم الفكر الانعزالي البارزة (سيادة ، حرية ، امن ، الخ) بدأت تتلاشى امام الاحتلال الذي يمزق كل سيادة ، وينتهك كل حرية ، ولا يعيش الا على التفجير المستمر للامن اللبناني والعربي ٠

ان التأكيد على ان المؤامرة تواجه مازقا شديدا وحادا ٠ لا يعني ان المؤامرة قد شارفت على السقوط ٠ ذلك ان المؤامرة تستمد قدرتها على الاستمرار من كل ثغرة او نقص او ضعف ينتاب الجسم الوطني الذي يتصدى لها ٠

ان تفاقم الازمة الموضوعية للاعداء لا يقود وحده الى انتصارنا ما لم نوفر الظروف الذاتية القادرة على ان تهزم هؤلاء الاعداء ، من خلال تعميق الصلة بالجماهير ، وتصحيح الرؤية الثورية باستمرار ٠ باقامة العلاقات الوطنية والشعبية على قاعدتين هامتين : العلاقات الديمقراطية في داخل المنظمات والحركات ، والعلاقة الاستقلالية بينها وبين الانظمة ٠

يصدر قريبا عن مركز الابحاث كتاب

اليمين الصهيوني
نشأة وعقيدة وسياسة

تأليف
صبري جريس

اطلب نسختك بالبريد من : قسم التوزيع في مركز الابحاث ـ ص٠ب ١٦٩١ ـ بيروت٠
سعر النسخة ٥ ليرات لبنانية (ما عدا اجور البريد)

محمد المجذوب

تساؤلات قانونية يطرحها القرار ٤٢٥

يعتبر الاجتياح الاسرائيلي لجنوب لبنان ، من زاوية القانون الدولي العام ، عملا انتقاميا لانه جاء كرد ، معد سلفا ، على العملية الناجحة التي نفذها الفدائيون في قلب الارض المحتلة ٠

والاعمال الانتقامية التي تقوم بها دولة (أو كيان سياسي) ضد دولة اخرى هي تصرفات قديمة ومعروفة في ميدان العلاقات الدولية ٠ وقد اهتم بها الفقه الدولي في القرن الماضي ووضع فيها عدة دراسات عميقة ٠ وقبل قيام عصبة الامم جرت محاولات لتنظيم استخدام التدابير الانتقامية في بعض الحالات المعينة ٠ واشهر هذه الحالات ثلاث :

١ ـ **نظرية دراغو** التي ترفض استعمال التدابير الانتقامية ضد دولة تعجز عن تسديد ديونها التعاقدية ٠

٢ ـ **اتفاقية بورتر** التي تحظر اللجوء الى القوة المسلحة لاسترداد الديون التعاقدية التي تطالب بها احدى الحكومات كديون متوجبة لرعاياها ٠

٣ ـ **معاهدات براين** التي تقضي بوجوب عرض كل خلاف ينشأ بين الاطراف المتعاقدة ، ولا يسوى دبلوماسيا ، على لجنة تحقيق دائمة ٠ ويحظر على هذه الاطراف اللجوء الى القوة قبل انتهاء التحقيق ٠ ويكون اللجوء الى هذه الطريقة الزاميا متى طالب به احد الاطراف ٠

وحاولت العصبة ان تعالج مسألة الاعمال الانتقامية فنصت في ميثاقها (المواد ١٠ الى ١٦) على تحريم اللجوء الى قوة السلاح قبل استنفاد وسائل الحل السلمي . وفي العام ١٩٢٣ ، وبسبب ازدياد الاعمال الانتقامية ، وضعت نظاما قانونيا للتدابير الانتقامية في وقت السلم أخضع ممارسة هذه التدابير لبعض القواعد العامة ، مثل : الاخطار المسبق ، والتوازن بين العلاج والضرر ، وحصر آثار العمل الانتقامي بالدولة المسؤولة ، ومراعاة المبادىء الاخلاقية والانسانية ، والتوقف عن الانتقام فور عرض ترضية معقولة .

وفي عهد العصبة أبرمت عدة اتفاقيات تتعلق بحظر استعمال القوة ، اشهرها: **ميثاق بريان ـ كلوج** ، المبرم في باريس ، في العام ١٩٢٨ ، والمكون من ثلاث مواد فقط تحرم اللجوء الى الحرب لتسوية المنازعات الدولية . **ثم اتفاقية جنيف للعام ١٩٢٩** ، التي تنص على حظر استعمال التدابير الانتقامية ضد اسرى الحرب .

وعندما اندلعت الحرب العالمية الثانية ازداد اقتناع الشعوب والدول بان استعمال القوة في المجتمع الدولي لم يعد يتلاءم مع القانون الوضعي ، ومع الاوضاع والعلاقات الدولية التي تمخضت عنها الحرب . وتجاوب ميثاق الامم المتحدة مع هذا الاتجاه فلم يكتف بتحريم الحرب واستخدام القوة ، بل ذهب الى أبعد من ذلك فحرم مجرد التهديد باستخدامها . وعلى الرغم من وضوح نصوص الميثاق فان الجدل حول امكان اللجوء الى التدابير الانتقامية ما لبث ان عاد الى الظهور ، فانقسم الفقهاء الى فريقين : الاول يعتبر ان التفسير المنطقي والصحيح لروح الميثاق يقضي باعتبار التدابير الانتقامية اعمالا تتنافى مع النظام الدولي الجديد . والثاني يعتبر ان ليس في الميثاق ما يجعل من استخدام هذه التدابير عملا غير مقبول ، غير ان رأي الفريق الاول هو الذي ساد وانتشر . وقد تأثر به مجلس الامن الدولي ، منذ العام ١٩٥٦ ، فكرسه في معظم قراراته .

ومجلس الامن هو الجهاز التنفيذي في منظمة الامم المتحدة . ويعهد اعضاء المنظمة اليه ـ كما تنص المادة ٢٤ من الميثاق ـ بالتبعات الرئيسية في امر حفظ السلام والامن الدوليين . ومن صلاحياته ، في حالات تهديد السلام ، او الاخلال به ، او وقوع عمل من اعمال العدوان ، ان يقدم التوصيات اللازمة او يتخذ التدابير المناسبة لحفظ السلام والامن الدوليين او اعادتهما الى نصابهما . وهذه الصلاحيات تخول المجلس سلطة تقديرية واسعة تجعل منه صاحب الاختصاص المطلق في تحديد ما يعد تهديدا للسلام او اخلالا به ، وفي تحديد معنى العدوان وتعيين المعتدي .

وقد اتيح لمجلس الامن ان يهتم بالقضية الفلسطينية منذ العام ١٩٤٨ ، اي

منذ انفجار الوضع في فلسطين · في العام المذكور وحده ، اضطر المجلس الى اصدار ١٦ قرارا لمعالجة الحالة المتردية هناك · وبعد هذا العام اصبحت القضية الفلسطينية ، وما تفرع عنها من مشكلات ومنازعات واعتداءات وتجاوزات ، الشغل الشاغل للمجلس ·

ومعظم قراراته الخاصة بهذه القضية تتناول اعمال العنف والانتقام التي تقوم بها سلطات العدو ضد الدول العربية ، بحجة الدفاع المشروع عن النفس وحماية أمن المواطنين ·

وحتى صدور القرار الاخير ، الرقم ٤٢٥ ، ولا سيما في السنوات الاخيرة ، فان موقف مجلس الامن من الاعمال الانتقامية التي دأبت اسرائيل على اقترافها قد تميز بالوضوح · ولو ألقينا نظرة خاطفة على القرارات التي صدرت عنه ، في السنوات العشر الاخيرة ، لوجدنا ان غالبيتها تدين اسرائيل بالذات ، وتندد بحملاتها وهجماتها العسكرية ، وتعتبرها اعمالا مخالفة للقانون الدولي العام ومنافية لمقاصد الامم المتحدة ومبادئها ·

وعندما اقدمت اسرائيل على عملية الغزو لجنوب لبنان ، ودعي مجلس الامن الى الاجتماع العاجل لاتخاذ موقف من هذا الخرق الفاضح لكل القوانين والمبادىء والقرارات الدولية ، اعتقد الجميع ان المجلس سيلتزم بالاجتهاد الذي سار عليه فيصدر قرارا شديد اللهجة يدين به اسرائيل ، او يشجب به ، على الاقل ، غزوها او اعمالها الوحشية · الا ان المجلس قد خيب الآمال عندما أصدر ، في ١٩ آذار (مارس) ، قرارا ضعيفا يعرب عن « قلقه البالغ لتدهور الوضع في الشرق الاوسط » ، ويتضمن البنود الاربعة التالية :

١ ـ الدعوة الى احترام سلامة اراضي لبنان وسيادته واستقلاله ·

٢ ـ دعوة اسرائيل الى ان توقف فورا عمليتها العسكرية ضد سلامة الاراضي اللبنانية ، وان تسحب دون ابطاء قواتها من كل الاراضي اللبنانية ·

٣ ـ انشاء قوة مؤقتة تابعة للامم المتحدة لجنوب لبنان ، تعمل تحت سلطة المجلس ، وتكون مهمتها : تأكيد انسحاب القوات الاسرائيلية ، واقرار السلام والامن الدوليين ، ومساعدة الحكومة اللبنانية على تأمين اعادة سلطتها الفعلية الى جنوب لبنان ·

٤ ـ الطلب الى الامين العام تقديم تقرير الى المجلس ، خلال ٢٤ ساعة ،حول تنفيذ هذا القرار ·

والقراءة المتأنية لهذا القرار ، مع محاولة التعرف الى الخلفيات والاغراض الكامنة وراء تعابيره وفقراته ، تثير عدة تساؤلات يمكننا استعراض اهمها :

اولا ـ ما هو الدافع او السبب الذي حدا بمجلس الامن الى الاسراع في اتخاذ القرار ؟

لقد اعتاد المجلس ، في مثل هذه الحالات ، على اظهار التـــردد والتلكـــؤ والمماطلة · فهو لا يجتمع بسهولة · وان اضطر الى الاجتماع عمد الى اطالة فترة المناقشة · وان شعر ان اتجاه الغالبية لن يكون لمصلحة اسرائيل واعوانها، لجأ الى المماطلة التي تنتهي احيانا بتأجيل المناقشة ، او بنفض اليد من المسألة المطروحة ، او باحالتها على الجمعية العامة ·

والامثلة كثيرة · فعند حدوث العدوان الثلاثي ، في العام ١٩٥٦ ، تلكـــأ المجلس وماطل وشعر بالارتياح عندما سارعت بريطانيا وفرنسا الى استعمـــال حق النقض · وتولت الجمعية العامة انذاك الامر واصدرت ، بالاعتماد عـــلى قرار الاتحاد من اجل السلام ، القرارات المتعلقة بالانسحاب وارسال قـــوات الطوارىء الدولية ·

وفي حرب العام ١٩٦٧ ، لجأ الى اسلوب المماطلة لتوفير الوقت الكافـــي لاسرائيل كي تحتل اكبر رقعة من الاراضي العربية وتفرض شروطهـــا قبـــل الانسحاب · ولهذا عرقل كل محاولة لاتخاذ قرار بادانتها او بدعوتها الـــى الانسحاب الكامل · وحينما جلت الجمعية العامة محله وفشلت في التوصـــل الى حل ، استعاد المسألة من جديد واصدر قراره الشهير ، صاحب الرقم ٢٤٢ ، بعد ان حققت اسرائيل مطلبها في الانسحاب المشروط ، وبعد ان كاد يمضـــي نصف عام على اندلاع الحرب ·

وفي حرب العام ١٩٧٣ ، لم يتحرك ويصدر قراره بايقاف اطـــلاق النـــار والدعوة الى تنفيذ القرار ٢٤٢ ، الا بعد ان تلقت القوات الاسرائيلية المساعدات العاجلة الضخمة من الولايات المتحدة وانجزت عملية الاختراق المعروفة بثغـرة الدفرسوار ·

اما هذه المرة ، اي بعد الغزو الاسرائيلي للجنوب ، فقد التأم شمله بسرعـة واصدر قراره بعد جلستين قصيرتين · وهذه السرعة لا يمكن ان تفســـر الا برغبة المجلس في انقاذ اسرائيل من المأزق الذي وقعت فيه · فقد خيل الـــى زعمائها ان غزو الجنوب نزهة تنتهي خلال ساعات ، فاذا بالمقاومة الباسلـــة التي ابدتها القوات الوطنية والفلسطينية المشتركة تقلب المعادلات والحسابات · وخشيت اسرائيل ان تستمر المجابهة فتتوحد كلمة العرب ويتحول الجنوب الـــى مركز انطلاق لحرب التحرير الشعبية ضد الكيان الصهيوني · وخشيت الولايات المتحدة كذلك ان تلهب الاعمال البطولية في الجنوب حماسة الجماهير العربيـــة فتتطور الامور في المنطقة وتتعرض الانظمة العربية اللاهثـــة وراء الحلـــول الاستسلامية لضغوط شعبية · ولهذا استنجدت اسرائيل بالولايات المتحـــدة ،

واستعانت الولايات المتحدة باتباعها في مجلس الامن ، فحثته على الاجتماع فاجتمع بسرعة فائقة ، وطالبته بقرار يخدم مصالحها فأصدر القرار بلمح البصر ٠

ثانيا ـ لماذا لم يتضمن القرار ادانة لاسرائيل او تنديدا بغزوها ؟

كل القرارات الصادرة عن مجلس الامن والمتعلقة بالهجمات الاسرائيلية على لبنان تشتمل تقريبا على فقرات واضحة بادانة اسرائيل ، او التنديد باعمالها الانتقامية ، او الاستنكار لتصرفاتها العدوانية ، او الاسف لما اصاب الابرياء من اضرار ٠ وعلى سبيل المثال نذكر :

١ ـ قرار ٣١ـ١٢ـ١٩٦٨ ، الصادر بمناسبة الغارة على مطار بيروت ٠ ففي بنده الاول « يدين اسرائيل لعملها العسكري المدبر الذي خرقت به التزاماتها المنصوص عليها في الميثاق الاممي ، والقرارات المتعلقة بوقف اطلاق النار » ٠

٢ ـ وقرار ٢٦ـ٨ـ١٩٦٩ ، الصادر بمناسبة الهجوم الجوي على بعض القرى في جنوب لبنان ٠ ففي بنده الاول « يشجب الهجوم الجوي المدبر ٠٠٠ » ٠

٣ ـ وقرار ٢٦ـ٦ـ١٩٧٢ ، الصادر بمناسبة الهجوم على الجنوب واحتجاز بعض الرهائن من العسكريين ورجال الامن اللبنانيين والسوريين ٠ ففي بنده الثاني « يدين الهجمات المتكررة التي تقوم بها القوات الاسرائيلية ضد الاراضي اللبنانية والشعب اللبناني ٠٠٠ » ٠

٤ ـ وقرار ٢٤ـ٤ـ١٩٧٤ ، الصادر بمناسبة الهجوم على الجنوب واحتجاز بعض الرهائن كذلك ٠ ففي بنده الاول « يدين انتهاك اسرائيل لسلامة الاراضي اللبنانية وسيادة لبنان ٠٠٠ » ٠

ولكن القرار ٤٢٥ ، الذي صدر بعد اضخم عملية غزو تعرض لها جنوب لبنان ، جاء خاليا من اي تنديد ، او ادانة ، او استنكار ، او مجرد اسف لما حدث ٠ وهذا يعني :

١ ـ ان مجلس الامن قد تنكر لماضيه ، وتنصل من اجتهاداته السابقة ، واستخف بالتالي بكل المبادىء والاحكام والقرارات الدولية التي تعهد باحترامها والدفاع عنها ٠

٢ ـ ان المجلس ، باصداره القرار على هذا الشكل ، قد أوجد سابقة خطرة ستترتب عليها نتائج سيئة ٠ فهو ، مثلا ، لن يتمكن بعد اليوم من ادانة اي عمل عدواني شبيه بالغزو الاسرائيلي ٠ وهذا الموقف قد يغري بعض الدول العنصرية التوسعية بارتكاب المزيد من الاعتداءات ٠

٣ ـ ان المجلس ، بقراره ، قد حصن اسرائيل ضد الادانات · ومن المنتظر ان تستمر اسرائيل في المستقبل في ارتكاب الاعتداءات وشن الغزوات دون التعرض لاي لوم او تنديد · وان حاول المجلس يوما العودة الى اسلوب التنديد ، فستذكره بالقرار ٤٢٥ وتحتمي خلفه ·

٤ ـ ان المجلس ، بهذا القرار ، قد أدان نفسه وأعلن افلاسه كجهاز اوجدته الامم المتحدة للسهر على السلام والامن الدوليين وقمع كل عدوان يقع على اي عضو من اعضائها ·

٥ ـ ان المجلس ، بهذا التصرف ، قد نفر الدول الصغيرة من اللجوء اليه في الملمات والازمات · وقد يدفعها ذلك الى الابتعاد عن الامم المتحدة والبحث عن وسائل اخرى لحماية نفسها وحقوقها وسيادتها ضد الاطماع والاعتداءات الخارجية ·

ثالثا ـ هل يلزم القرار اسرائيل بالانسحاب ؟

لكل كلمة او لفظة في القانون معنى محدد · واستبدال كلمة بكلمة احيانا ، ولو كانت مرادفة لها من الناحية اللغوية ، قد يؤدي الى تغيير مضمونها · والقرار ٤٢٥ ، كالقرار ٢٤٢ ، قد صيغ بطريقة ماهرة بارعة تسمح للمستفيدين منه بتحميل تعابيره اكثر من تأويل ، وبتفسير كلماته بشكل يخدم مصالحهم ·

انه لا يأمر اسرائيل بالانسحاب فورا ، وانما يدعوها الى ايقاف عمليتها العسكرية فورا · انه يدعوها الى سحب قواتها دون ابطاء · وبامكان اسرائيل ان تفسر تعبير « دون ابطاء » حسب هواها ومصالحها · ولهذا فانها ، بعد مضي شهر على الغزو ، قد تباطأت وتلكأت في الانسحاب متذرعة بمختلف الحجج · ومما لا شك فيه أن مجلس الامن قد تعمد عدم ذكر الانسحاب الفوري ، وعدم تحديد موعد او تاريخ للانسحاب ، بقصد توفير الظروف الملائمة لاسرائيل كي تتمكن من اللجوء الى المناورة والمساومة وفرض الشروط قبل الموافقة على الانسحاب ·

والقرار الذي نحلله ، هل هو فعلا قرار ، ام انه مجرد توصية غير ملزمة ؟ ان المنظمات الدولية تتمتع بصلاحية اصدار القرارات والتوصيات في المسائل التي تدخل في نطاق اختصاصها · ولكن القاموس الاصطلاحي للتنظيم الدولي ما زال يفتقر الى الكلمات والالفاظ الدقيقة الواضحة التي تعبر عن مظاهر الصلاحيات التي تمارسها المنظمات · وقد ادى ذلك الى ظهور حالات كثيرة من اللبس والغموض ، ومنها حالة الخلط بين القرار والتوصية واستعمالها بشكل يوحي بترادف الكلمتين · والواقع ان هناك فرقا واضحا بينهما يجدر بنا

التنبه اليه · ان للكلمتين معنيين مختلفين ، فالتوصية هي مجرد نصيحة او رغبة او دعوة يمكن ان تقبل او ترفض · وقد تكون التوصية موجهة الى دولة عضو بالذات في المنظمة ، او الى جميع الاعضاء ·

والدول غير ملزمة بالامتثال للتوصيات التي تصدرها المنظمات الدولية ، لان التوصية لا تتضمن ، قانونا ، قوة الالزام ، ولا يترتب على مخالفتها اية مسؤولية قانونية ، اما القرار فهو أمر يتضمن قوة الالزام ولا يختلف ، من حيث القوة ، عن اي قانون صادر عن السلطة المختصة في داخل دولة من الدول ·

وعلى الرغم من وضوح الفارق بين القرار والتوصية ، فان المواثيق والاتفاقيات الدولية تستعمل هذه اللفظة او تلك دون تدقيق او تمييز · ومن الامثلة على ذلك المواد المتعلقة بمجلس الامن · فالتدابير التي يتخذها هذا المجلس بناء على احكام الفصل السادس الخاص بتسوية المنازعات سلميا هي توصيات غير ملزمة ، في حين ان التدابير التي يتخذها بناء على احكام الفصل السابع الخاص بحالات تهديد السلام وارتكاب العدوان هي قرارات تتضمن قوة الالزام · ومع ذلك فالميثاق لا يستعمل كلمة « توصية » في الحالة الاولى ، وكلمة « قرار » في الحالة الثانية ، وانما يكتفي باستعمال كلمة « قرار » في الحالتين · ومن جهة ثانية نرى الميثاق يستعمل كلمة « توصية » لقبول اعضاء جدد في المنظمة ، ولوقف عضو او طرده ، ولاختيار الامين العام ، مع ان التوصية هنا تعتبر قرارا حقيقيا بامكان الخمسة الكبار فيمجلس الامن استخدام حق النقض ازاءه ·

فالقرار هو ، اذن ، مجرد توصية موجهة الى اسرائيل تنصحها بالانسحاب دون ابطاء · وتدفق القوات الدولية على لبنان لا يعني ان اسرائيل اصبحت ملزمة بالانسحاب · ولو تصورنا ان اسرائيل اصرت (وهذا ما ستفعله) على عدم الانسحاب من كل الاراضي اللبنانية المحتلة ، فسيضطر لبنان ، او اية دولة صديقة ، الى التقدم بطلب جديد الى مجلس الامن للتدخل في الامر · وسيضطر المجلس من جديد الى عقد اجتماع جديد لاتخاذ قرار آخر · واذا اكتفى القرار الجديد بتأكيد ما ورد في القرار القديم ، فلن يطرأ اي تبديل على الوضع الراهن· ولنتذكر ان القرار ٣٣٨ ، الصادر في ٢٢ـ١٠ـ١٩٧٣ ، الذي دعا الاطراف المتنازعة الى البدء فورا ، بعد وقف اطلاق النار ، بتطبيق القرار ٢٤٢ ، لم يتمكن من تغيير الاوضاع والمواقف ولم ينجح في اقناع كل الاطراف بمباشرة تطبيق القرار المذكور · وقد تصدر ، بعد القرار ٣٣٨ ، عشرات القرارات المشابهة ، ولكنها لن تحرز اي تقدم في هذا المجال · والسبب هو ان هذه القرارات ستبقى مجرد توصيات غير ملزمة ·

واسرائيل ، حتى تلزم بالانسحاب ، يجب ان يتضمن القرار الداعي الى الانسحاب بعض العقوبات التي نص عليها الفصل السابع من ميثاق الامم المتحدة · وهذا يتطلب اصدار قرار جديد من مجلس الامن يهدد اسرائيل بانزال العقوبات بها ان لم تنسحب خلال فترة معينة ·

غير ان المجلس ، بوضعه الراهن ، عاجز كل العجز عن مجرد التفكير في معاقبة اسرائيل · ان وجود الولايات المتحدة ، كدولة دائمة تتمتع بحق النقض في المجلس ، كفيل بحماية اسرائيل من اية عقوبة ، وكفيل بعدم اقدام المجلس على اتخاذ قرار جديد يحدد موعد الانسحاب ونوع العقوبة عند الرفض ·

لقد امتدح الكثيرون القرار ٤٢٥ · وبالغ البعض ـ كما فعل مندوب لبنان الدائم لدى الامم المتحدة ـ حتى اعتبره سيفا « مسلطا فوق رؤوس الاسرائيليين اذا لم ينسحبوا » · ولكننا لا ندري اذا ما كان هذا السيف من نوع السيوف التي سلطها القرار ٢٤٢ من قبل فوق اعناق الاسرائيليين الذين ما زالوا يصرون على عدم الانسحاب من الاراضي العربية المحتلة في العام ١٩٦٧ ·

رابعا ـ ما هي المهمة الحقيقية للقوات الدولية ؟

يحدد البند الثالث من القرار مهمة القوات الدولية بثلاث وظائف : تأكيد الانسحاب ، واقرار السلام والامن الدوليين ، ومساعدة الحكومة اللبنانية على استعادة سلطتها في الجنوب ·

والوظيفة الاولى ، اي **تأكيد انسحاب القوات الاسرائيلية** ، ليست عسيرة · فهي تعني مراقبة الانسحاب والتأكد من حصوله دون ان يكون للقوات الدولية اي دور معين في ارغام اسرائيل على القيام به ، او في وضع الترتيبات اللازمة لاتمامه ·

ولكن الوظيفة الثانية ، اي **اقرار السلام والامن الدوليين** ، تنطوي على امور خطيرة ، لان لمفهوم السلام والامن ، في القانون الدولي العام وفي ميثاق الامم المتحدة ، مدلولا خاصا · فالفقرة الاولى من المادة الاولى تنص على ان المقصد الاول للامم المتحدة هو حفظ السلام والامن الدوليين ، وعلى ان المنظمة تتخذ ، تحقيقا لهذه الغاية ، التدابير الجماعية الفعالة لمنع الاسباب التي تهدد السلام، ولازالتها ، ولقمع كل عمل عدواني وكل اخلال بالسلام · والمنظمة تتذرع بالوسائل السلمية ، وفقا لمبادىء العدل والقانون الدولي ، لحل او تسوية المنازعات الدولية التي قد تؤدي الى الاخلال بالسلام ·

واذا كان الميثاق الاممي قد ربط بين المحافظة على السلام والمحافظة على الامن ، فلايمانه بان القضيتين امران متلازمان · فالسلام العالمي يعني انتفاء

الحروب ، او منعها على الاقل ، والامن الدولي يعني تهيئة الاسباب والسبل لمنع الاضطرابات والمنازعات الدولية وتمكين الدول من العيش براحة واطمئنان · فالسلام يفقد معناه اذا تعرض الامن للخطر ، والامن الحقيقي لا يتوافر الا اذا ساد السلام · وبذلك يصبح كل منهما ضروريا للاخر وتصبح المحافظة عليهما من أهم مقاصد الامم المتحدة ·

والامن الدولي يختلف عن الامن الوطني · وكثيرا ما كان حفظ الامن الوطني لازما وواجبا لحفظ السلام والامن الدوليين ، فالثورات والحروب الاهلية والاضطرابات الداخلية قد تشكل احيانا خطرا على السلام العالمي · ولكن هل يعتبر حفظ الامن الداخلي او الوطني من مقاصد الامم المتحدة ؟ من المتفق عليه انه ليس من مقاصدها منع الثورات الداخلية او المحافظة على الاستقرار في داخل الدول الاعضاء ، الا انه يحق للامم المتحدة ان تتدخل اذا تطورت الامور واصبحت الاضطرابات الداخلية تشكل خطرا على السلام والامن الدوليين ·

والامم المتحدة تستخدم ، كما ورد في المادة الاولى من الميثاق ، الوسائل السلمية لحل المنازعات الدولية وتسويتها ، وفقا لمبادىء العدل والقانون الدولي· وورود العبارة على هذا النحو يثير اشكالا سببه ان تحقيق العدل لا يكون دائما متفقا مع احكام القانون · بل ان العدالة قد تتعارض احيانا مع القانون · فكيف نتصرف عندئذ ، وعلى اي نهج نسير ؟ وتحليل بسيط للمادتين ٣٧ و ٣٨ من الميثاق (تسوية المنازعات سلميا عن طريق مجلس الامن) يكفي لاقناعنا بان التوصيات التي تصدر عن هذا المجلس ، عملا بهاتين المادتين ، يمكن ان تتضمن (ما دامت تحقق العدالة في تقديره) ما يخالف احكام القانون الدولي العام · فقد يعرض على المجلس نزاع يتعلق باقليم ما فيرى ان يوصي احد المتنازعين بالتنازل عن جزء منه (على الرغم من ان حق المتنازل يؤيده القانون) ما دام هذا التنازل ، في تقدير المجلس ، يحقق العدالة ويحفظ السلام والامن الدوليين · ويزداد الامر تعقيدا عندما نعلم ان الميثاق لا يحتوي على تعريف للعدالة ، وان هذا التعريف من اصعب الامور التي تعترض سبيل الفقهاء · ولهذا استنتج البعض ان الغموض الذي يكتنف معنى العدالة في الميثاق قد يؤدي الى اضعاف احترام الالتزامات التي يرسمها القانون الدولي العام بحجة تحقيق مبادىء العدالة · والبرهان أن الفقرة الثالثة من المادة الثانية التي تتحدث عن فض المنازعات الدولية بالوسائل السلمية تهتم بعدم تعريض العدل الدولي ، لا القانون الدولي ، للخطر ·

ومما تقدم نستنتج ان للسلام والامن الدوليين اهمية بالغة في الامم المتحدة، وان النص عليهما في القرار ٤٢٥ يهدف الى تحقيق اغراض معينة ، اهمها توسيع صلاحيات القوات الدولية · فهذه القوات يمكنها الارتكاز الى هذا التعبير

للتدخل في الشؤون الداخلية للبنان ، ولقمع كل عمل ترى فيه خطرا على السلام والامن الدوليين ، وبما ان القرار الذي جعل من مهام القوات الدولية اقرار السلام والامن الدوليين لم يحدد نطاقا جغرافيا لذلك ، فبامكان القوات الدولية ان تعمل في الجنوب وفي كل انحاء لبنان من اجل الحفاظ على السلام والامن الدوليين !

وعندما نصل الى الوظيفة الثالثة للقوات الدولية نجد ان القرار كلفها **مساعدة الحكومة اللبنانية على استعادة سلطتها في الجنوب** . ولكن كيف تساعد الحكومة ؟ هل تفعل ذلك باعتبارها جزءا من القوات اللبنانية تتلقى الاوامر من السلطة اللبنانية ؟ وهل القيام بهذه الوظيفة يحتم عليها استخدام القوة ضد كل شخص لا يخضع للسلطة ؟ وهل سيكون من صميم عملها ملاحقة المسلحين في الجنوب ؟ وكيف سيكون بامكانها التمييز بين افراد المقاومة الوطنية والفلسطينية وبين المسلحين المنتمين الى الفئات الانعزالية ؟ وهل الغرض من مساعدة السلطة تطهير الجنوب من كل مظاهر التسلح ؟ وفي هذه الحال ، ما مصير الاتفاقات المعقودة مع المقاومة الفلسطينية ؟ وهل تعني المساعدة تحويل الجنوب كله الى منطقة عازلة او الى حزام امان لحماية اسرائيل ؟ واذا طلبت الحكومة اللبنانية منها مساعدتها على تثبيت سلطتها في المناطق القريبة من الجنوب ، بحجة انتقال « المخربين » او « المتمردين » اليها ، او بحجة تعاون هؤلاء في المناطق المختلفة ، فهل ستلبي القوات الدولية النداء معتبرة ذلك جزءا من مهمة « اقرار السلام والامن الدوليين » ؟

ان جميع هذه التساؤلات ، وغيرها ، تؤكد لنا ان القرار ٤٢٥ قد منح القوات الدولية صلاحيات واسعة وزودها بنصوص قابلة لتفسيرات مطاطة . والشيء الثابت هو ان هذه القوات ليست فيالق لحفظ السلام على الحدود او قرب الحدود ، وانما هي قوات ردع موجهة في الاساس الى الجنوب ، ولكن بامكانها التسلح بمبدأ اقرار السلام والامن الدوليين والانتقال الى كل انحاء البلاد . والبرهان على انها قوات رادعة : نوعية الاسلحة الثقيلة التي سمح لها باستعمالها ، والامكنة الاستراتيجية المهمة التي اخذت تتمركز فيها .

سمير كرم

"السيناريو الكوري" لتطويق الثورة الفلسطينية

نظرة سريعة على خريطة الثورة العالمية تكشف حقيقة مذهلة :

بعد الطفرات الهامة التي حدثت خلال النصف الاول من السبعينات بالنسبة للثورات الوطنية المسلحة : بعد انتصار فيتنام وكمبوديا ولاوس في آسيا ، وبعد انتصار انغولا وموزمبيق وغينيا/بيساو وجزر الرأس الاخضر في افريقيا ، لم تعد الامبريالية العالمية تواجه ثورة مسلحة طويلة النفس عميقة الجذور في اي بقعة من العالم الا في فلسطين ٠

ونحن في هذا لا ننسى ابدا ان هناك ثورة وطنية مسلحة في روديسيا هي أيضا ثورة طويلة النفس عميقة الجذور ٠٠ ولكن هناك مسألة الموقع ٠ موقع روديسيا في وسط جنوب القارة الافريقية كمجرد مخمية تابعة لجنوب افريقيا ، وحيث لا سواحل ولا موانىء بحرية ولا مضايق ولا ممرات مائية ، وحيث لا قرب من منابع الطاقة او منابع الثروة الطبيعية ٠٠٠ يكون الاهتمام الامبريالي اقل ٠

خارج هذا الاستثناء ، وربما استثناءات قليلة اخرى ، لا تبدو في الافق الا مشكلات سطحية تثير مرض الحساسية الجلدية لدى الامبريالية الغربية،لا اكثر ٠ فالحركات الثورية في اميركا اللاتينية اصيبت بنكسة خطيرة منذ مصرع جيفارا في بوليفيا (١٩٦٨) ، وبصفة اخص منذ اغتيال الليندي وحكومته في تشيلي (١٩٧٣) ٠ وفي اوروبا الغربية قد تسمع طلقات الرصاص بين حين وآخر في هذه العاصمة او تلك ٠٠ يختطف دبلوماسي هنا ورجل اعمال هناك ـ روما ، مدريد ، فرانكفورت ٠ ولكن لا ثورة مسلحة بالمعنى الوطني ولا حتى بالمعنى

الاجتماعي · وهذه كلها امور تتكفل بها النظم الاوروبية الغربية ولديها ما يكفيها واكثر من اجهزة القمع الداخلي · وليس هناك ما يزعج الامبريالية كنظام عالمي من وراء هذا كله اكثر من انه طفح جلدي سطحي ·

وحدها الثورة الفلسطينية المسلحة على خريطة الثورة العالمية تبرز واضحة عميقة طويلة النفس في معركة متصلة حامية لا يبدو لها انكسار ·· وحدها تبدو مصدر التحدي الرئيسي ـ ان لم نقل الاوحد ـ في وجه الامبريالية العالمية ، وفي وجه التوازنات العالمية التي يريد ايجادها من جديد تحت حجج الانفراج الدولي في الظاهر، وتحت وطأة دروس الهند الصينية في الواقع ·

وفي وصف الثورة الفلسطينية المسلحة يقف موقع فلسطين الاستراتيجي كفلسطين ·· وموقع فلسطين الاستراتيجي كوطن عربي · اعني موقع فلسطين الوطني وموقعها القومي · فلا فلسطين تمثل نفسها فحسب ، ولا الوطن العربي قادر على ان يمثل نفسه في التحدي الذي تواجهه الامبريالية به الا عبر الثورة الفلسطينية المسلحة اولا ·· وحتى الآن اولا واخيرا ايضا ·

والموقع الفلسطيني يعني شرق البحر الابيض المتوسط والموانىء والمنطقة « الفاصلة » بين آسيا وافريقيا ، بين مشرق ومغرب الوطن العربي ، ومرمى الهدف من قناة السويس وخلجان البحر الاحمر الشمالية ومضايقه ، وطرق الوصول الى منابع الطاقة عند الخليج العربي ·

وبخلاف الموقع فان الثورة الفلسطينية المسلحة تعني بالنسبة للامبريالية استمرارية هذا الاسلوب في التحدي بعد ان سكت هنا وهناك ، مع اختلاف النتائج (وحتى في الحالات التي سكتت فيها مدافع الثورة المسلحة في الهند الصينية بارتفاع اعلام انتصارها ، حلت محلها مدافع الخلافات التي ظلت كامنة تحت السطح بين رفاق السلاح الفيتناميين والكمبوديين !) · والاستمرارية ليست زمنية فحسب · ان الامبريالية ـ وخاصة الامبريالية الاميركية ـ التي تريد ان تعيد كل ثقلها ونفوذها الاستراتيجي والاقتصادي الى الشرق الاوسط تصطدم بحقيقة الاستمرازية الجغرافية والسياسية للثورة الفلسطينية · تصطدم بها في الوجود الفلسطيني الثوري المنتشر في الوطن العربي · تصطدم بها في برامج القوى والاحزاب القومية والتقدمية في الاقطار العربية ، تصطدم بها حتى في الاتصالات الدبلوماسية والمفاوضات « السلمية » مع نظم عربية لا تعتمد اسلوب الكفاح المسلح ولا تعتبر سندا له ، بل حتى تلك التي ابدت « الكفر » بالقضية الفلسطينية وتعبها من استمرار الوقوف الى جانبها !

ربما طالت هذه المقدمة ·· ولكنها كانت ضرورية لتأكيد حقيقة من المؤكد ان الامبريالية الاميركية تراها بوضوح وان كنا نحن العرب لا نراها ، او على الاقل لا نراها بالقدر نفسه من الوضوح ، ولا نقيمها تقييمها الموضوعي ، ومن الضروري

ان تتضح حقيقة التركيز شبه الكامل من جانب الامبريالية الاميركية على الثورة الفلسطينية لان الثورة الفلسطينية اصبحت على خريطة الثورة العالمية وحدها التي لا تزال ترفع البندقية في وجهها ، في اخطر مواقع مصالحها واهتماماتها الاستراتيجية والاقتصادية والسياسية ·

واذا لم نستطع ان ندرك هذا الواقع بتفصيلاته بوضوح ستغيب عن ادراكنا حقيقة ان الامبريالية الاميركية تواجه الثورة الفلسطينية ـ بابعادها الوطنية والقومية والعالمية ـ مسلحة بكل دروس خبرات الماضي بما فيه من انتصارات وهزائم ، ابتداء من كوريا في اوائل الخمسينات الى فيتنام في منتصف السبعينات · وهي تواجهها مدركة بان الثورة الفلسطينية تعني بالنسبة للشرق الاوسط اكثر من مجرد ما كانت تعنيه « نظرية الدومينو » في الشرق الاقصى · كما ان الشرق الاوسط الان يعني بالنسبة للامبريالية اكثر مما كان يعنيها الشرق الاقصى في الحرب الكورية وفي الحرب الفيتنامية · بمعنى انه في هذه المواجهة لا تتكشف فقط خبرات الصواب والخطأ لطرفيها ، بل تتكشف حسابات الاحتمالات والنتائج ، وتتكشف كل القوى المكونة لقدرات طرف ضد الطرف الاخر ، القوى الاستراتيجية والسياسية والدبلوماسية والاعلامية ·

ربما لا يعرف كثيرون ـ او لايذكر كثيرون ـ ان فلسطين كانت اول موقع ارادت الولايات المتحدة ان تمارس فيه التدخل العسكري المباشر بعد نهاية الحرب العالمية الثانية ·

ففي نيسان (ابريل) ١٩٤٨ ثار نزاع حاد بين الرئيس الاميركي هاري ترومان والكونغرس حول سلطة رئيس الولايات المتحدة وما اذا كانت تخوله ارسال قوات اميركية الى فلسطين دون موافقة مسبقة من الكونغرس · وكان مما اعلنه تروما آنذاك في وجه من عارضوه من اعضاء الكونغرس انه يعتبر منصب الرئيس بمثابة تفويض مؤقت ولكنه مقدس وانه مصمم على ان يسلمه الى من يخلفه دون ان يصيبه اي عطب ينشأ عن أبسط نقصان في السلطة او المكانة ، وقد وقف وزير الخارجية الاميركية آنذاك ـ دين اتشيسون ـ موقف التأييد الى جانب ترومان في نزاعه حول حدود سلطة الرئيس الاميركي في ارسال قوات الى فلسطين · بل لقي ترومان آنذاك تأييد واحد من اكثر رجال الكونغرس معارضة لتوسيع سلطات رئيس الجمهورية على حساب سلطات الكونغرس ، وهو السناتور (الجمهوري) آرثر فاندنبرغ ·

ولم يقدر لمشروع ترومان الخاص بارسال قوات اميركية مسلحة الى فلسطين ان ينفذ ، على الرغم من انه اراد ان يغطيه بستار وضع مثل هذه القوة تحت قيادة تتولاها الامم المتحدة · ويرجع عدم تنفيذ المشروع الى اعتبارات تتعلق بسير التطورات القتالية في فلسطين لصالح الطرف الاسرائيلي من ناحية ،

وباعتبارات تنازع السلطات بين السلطة التنفيذية الاميركية والسلطة التشريعية، وهو نتازع قدر له ان يستمر طوال الاعوام الثلاثين الماضية دون ان يمنع ايا من رؤساء الولايات المتحدة المتعاقبين من الزج بالقوات الاميركيـــة في حـــروب عديدة ٠

لم ينفذ ترومان مشروعه بالنسبة لفلسطين ٠ ولكن الفكرة كانت قد اختمرت في عقول صانعي القرار ومخططي السياسة الخارجية الاميركية الذين يبقـــون هم هم مع تعاقب الرؤساء جمهوريين وديمقراطيين ٠٠ لهذا لم تلبث الفكرة نفسها ان سيطرت من جديد على اجواء الجدال « الاكاديمي » بين البيت الابيـــض والكونغرس ، وكان ترومان نفسه لا يزال في الرئاسة ، وذلك في أعقاب اندلاع الرصاصات الاولى في الحرب الكورية يوم ٢٤ حزيران (يونيو) ١٩٥٠ ٠ وقدر للفكرة ان تأخذ كل ابعادها العملية في التنفيذ ٠ حيث حاربت القوات الاميركية ضد الشعب الكوري طوال ثلاثة اعوام تحت اعلام الامم المتحدة بالتصور نفسه الذي من أجله كانت فكرة ترومان عند ارسال قوات اميركية الى فلسطين قبـــل ذلك بعامين اثنين ٠ وقتها اعلن ترومان ووزير خارجيته اتشيسون ان « كوريـــا الشمالية » كانت البادئة بالهجوم على كوريا الجنوبية (في نفس يوم انـــدلاع القتال ودون انتظار لاي تحقيق او تأكيد) وان هذا « العدوان » يشكل تحديـــا للبنية العالمية التي نشأت بنهاية الحرب العالمية الثانية ٠ وفي اليوم التالـــي مباشرة تمكنت الولايات المتحدة من استصدار قرار من مجلس الامن (وكـــان الاتحاد السوفياتي يقاطع اجتماعاته احتجاجا على تمثيل « تايوان » بدلا مـــن الصين الشعبية في عضويته) ٠ ندد مجلس الامن بـ « عدوان » كوريا الشمالية ووصفه بانه « خرق للسلام » ، ودعا الى « انسحاب القوات الغازية » ٠ وفي مساء اليوم نفسه (٢٥ حزيران ١٩٥٠) اجتمع ترومان بكبار مساعديه فـــي الشؤون الخارجية والدفاع ليبلغهم قراره بارسال قوات جوية وبحرية لتأييـــد كوريا الجنوبية ٠ ولم يلتق ترومان بزعماء الكونغرس لابلاغهم قراره هذا الا في ٢٧ حزيران ، وحصل على تأييدهم ، ثم اعلنه على الشعب الاميركي مبررا اياه بقرار مجلس الامن ٠ ولم يكن القرار ليشتمل على اية فقرة تدعو لارسال قوات الى كوريا ، ولكن في اعقاب اعلان ترومان قراره ــ وليس قبله ــ اجتمع مجلس الامن ليلا ليتخذ قرارا ثانيا داعيا الى اتخاذ « اجراءات عسكرية عاجلة ٠٠٠ لصد الهجوم المسلح » ٠ وعندما وجه النقد الى ترومان لاتخاذه قرار التدخـــل العسكري الاميركي قبل قرار مجلس الامن ، كان تريغفي لي الامين العام للامم المتحدة آنذاك اول من انبرى للدفاع عن الرئيس الاميركي على اساس انه لم يكن هناك وقت يمكن اهداره ، وان الاتصالات الدبلوماسية برهنت على ان قـــرار ارسال قوات سوف « يمر » (١) ٠

وبينما كانت المجادلات القانونية مستمرة بين البيت الابيض والكونغرس حول

الاساس القانوني لقرار ارسال قوات جوية وبحرية لمساندة كوريا الجنوبية ، اصدر ترومان قرارا تصعيديا آخر بارسال قوات ارضية الى منطقة القتال (في ٣٠ حزيران) دون اي رجوع الى الكونغرس ٠

وبطبيعة الحال فليس يعنينا اليوم بعد مرور ٢٥ عاما على نهاية الحرب الكورية شيء من الخلافات الدستورية والقانونية داخل اجهزة السلطة الاميركية، ولا السهولة والسرعة التي كانت الولايات المتحدة تستطيع بها تسخير الامم المتحدة ومجلس الامن لاصدار قرارات يصوغها صانع السياسة الخارجية الاميركية ٠ كما لا يعنينا تتبع تطورات الحرب الكورية التي اصبحت جزءا من الماضي وفصلا قديما في تاريخ حروب التدخل الاميركي ٠

فما الذي يعنينا ـ والحديث هو عن المواجهة بين الثورة الفلسطينية المسلحة والامبريالية الاميركية ـ من قصة الدور الاميركي المغطى باعلام الامم المتحدة في كوريا عام ١٩٥٠ ؟

الذي يعنينا هو بالتحديد حديث الجنوب اللبناني وقوة الطوارىء الدولية ، وحديث « التدويل » الذي لم يعد مجرد حديث وانما اصبح خطة تأخذ طريقها حثيثا الى التنفيذ السريع بقوة دفع اميركية ـ غربية ٠ وفي تجربة التدخل الاميركي في كوريا تحت علم الامم المتحدة الازرق ـ وهو لا يزال يرفرف حتى الآن على القواعد العسكرية الاميركية في كوريا الجنوبية ، ويشاهد على مرمى البصر من المنطقة المجردة من السلاح بين « شطري » كوريا بعد ٢٨ عاما على دخول القوات الاميركية تلك الحرب ـ نقول ان في هذه التجربة اشياء كثيرة مشتركة تبعث على التأمل ٠ وكأن الامبريالية الاميركية تريد مواجهة الثورة الفلسطينية المسلحة بمخطط يجمع سمات النجاح في مخططاتها السابقة ، ويتجنب سمات الخطأ في تلك التجارب ٠

ظواهر متكررة

والغريب ان هناك اوجه تماثل كثيرة ـ الى حد مثير للدهشة ـ بين مكونات ازمة الحرب الكورية كما كانت في العام ١٩٥٠ ، وازمة الشرق الاوسط بوضعها الراهن ، اذا نظر اليها من زوايا عديدة مختلفة ٠

● هناك الامم المتحدة ٠ التي يراد لها في الازمة الحالية ـ في موقعها المتفجر الوحيد ـ حيث يوجد الكفاح المسلح الفلسطيني ـ ان تلعب دورها الذي لعبته قبل ذلك في كوريا ، تقرض اعلامها لدولة او عدة دول لتغطية اهداف طرف دولي ضد الطرف الثوري وعلى حساب قضية وطنية معينة ٠

● وهناك الوطن العربي في شموله الذي ينتظر منه في مثل الظروف العربية

الراهنة ان يمارس الدور الذي مارسته الصين الى جانب القضية الوطنية الكورية والذي مارسه الاتحاد السوفياتي ايضا ، مع اختلاف طبيعة الدورين وتماثل اتجاهيهما في ذلك الوقت · وهنا نجد اننا امام تماثل بين الظرفين الكوري والعربي بالاختلاف وليس بالاتفاق · فالتماثل في الظروف موجود ، ولكن هناك اختلافا في التوجهات والممارسات · فلم تبد دلائل على « تطوع عربي كبير » الى جانب الثورة الفلسطينيه ، على غرار التطوع الصيني الى جانب كوريا الديمقراطية ، ولم يبد « تسليح عربي » لقوى الثورة الفلسطينية عسكريا وماديا على غرار التسليح السوفياتي لقوى الثورة الكورية الاشتراكية والمتطوعين في صفوفها ·

● هناك ايضا الولايات المتحدة ، ودورها واحد ــ مع اختلافات تفصيلية تفرضها اختلافات ومتغيرات الظروف الدولية لاواخر السبعينات عن اوائل الخمسينات ــ في كلا الظرفين : الكوري والعربي · ولعل الشيء الاساسي المشترك هو أن اهتمام الولايات المتحدة بالشرق الاوسط في العام ١٩٧٨ هو بحجم اهتمامها بالشرق الاقصى في العام ١٩٥٠ · واذا كانت الولايات المتحدة هي الخالقة الحقيقية لما يسمى « جمهورية كوريا الجنوبية » (٢) ، فانها ايضا هي الخالقة الحقيقية لما يسمى « دولة اسرائيل » · وكما كانت كوريا اول اختبار للولايات المتحدة ــ بعد نهاية الحرب العالمية الثانية التي اعتبرتها تدشينا لزعامتها للعالم الغربي ــ انها ستقف بكل قوتها ضد « الشيوعية » · فان فلسطين هي اختبار فاصل لقدرة الولايات المتحدة في عصر ما بعد هزيمتها في الهند الصينية على ان تفرض حلولا وان ترتب اوضاعا تتفق مع مصالحها الاقتصادية والاستراتيجية من حيث الاهداف ، وان يكن ذلك باساليب ووسائل تتكيف مع المتغيرات المعاصرة التي يبدو بعضها ايجابيا (وعلى رأسها الانقسام السوفياتي ــ الصيني الذي لم يكن قائما في الظروف الكورية عام ١٩٥٠) ، ويبدو بعضها سلبيا (وعلى رأسه عجز الولايات المتحدة عن التدخل العسكري المباشر خارج اراضيها بعد محنة هزيمتها في فيتنام) ·

● هناك الوضع اللبناني المحلي الراهن الذي يبدو قابلا لدور شبيه بدور نظام كوريا الجنوبية في اوائل الخمسينات ، حيث القوى القابلة لخطة «التدويل» (بغطاء من الامم المتحدة) تنظر الى الوجود الفلسطيني المسلح من خلال الاعتبارات نفسها التي كان ينظر بها نظام « سيول » الى كوريا الديمقراطية ·

● وهناك علاقة « المشكلة الجزء » بـ « المشكلة الكل » · في الظرف الكوري في الخمسينات كانت المشكلة الجزء هي الجلاء الاجنبي عن كوريا وتوحيدها ، بينما كانت المشكلة الكل هي مشكلة الوضع العام في الشرق الاقصى والهيمنة الاميركية في اليابان وكوريا وتايوان وعدم الاعتراف بالصين الشعبية · وفي الظرف العربي في السبعينات فان المشكلة الجزء هي مشكلة

الصراع الفلسطيني ـ الاسرائيلي ، والمشكلة الكل هي مشكلة الصراع العربي ـ الصهيوني ٠

● هناك الاطراف ـ الادوات التي تؤدي ادوارا لتحقيق فوائد ذاتية (اقتصادية. وسياسية اساسا) من وراء مساعدة ، وتأييد وضع تفرضه الولايات المتحدة بنفوذها في المنطقة ٠ **النظام الياباني في ظرف كوريا ـ ١٩٥٠ ، والنظام الفرنسي في ظرف الشرق الاوسط ـ ١٩٧٨ ٠ فاليابان قدمت قواعدها وتسهيلاتها العسكرية والاقتصادية للقوات الاميركية في حرب كوريا وحققت مكاسب اقتصادية كبيرة استطاعت بها ان تعود الى مجالها الحيوي القديم عملاقا اقتصاديا غازيا لجنوب شرق اسيا بالسلع والتكنولوجيا (٣) ٠ وفرنسا اليوم ، التي يتنامى التفسير السياسي بينها وبين الاستراتيجية العالمية الاميركية ، بما يتفق مع الطموح الفرنسي لدور كبير في التجارة العالمية وخاصة تجارة السلاح، وبصفة اخص في منطقة الشرق الاوسط ، تجد فرصتها للقيام بدور يكون لها فيه حضور مادي واضح في صورة قوات « دولية » ، حيث يصعب وجودها في صورة قوات « فرنسية » لاعتبارات « عربية ـ فرنسية » (اتفاقات النفط وصفقات السلاح بين باريس وعواصم عربية هامة) ، ولاعتبارات « عالمية » (توازنات الكتلتين الشرقية والغربية)** ٠ لعله من المفيد هنا ان نتذكر ان الولايات المتحدة كانت تقوم بدور مساعد في حرب فرنسا في الهند الصينية في بداية الخمسينات، بينما كانت فرنسا تقوم بدور مساعد في حرب اميركا في كوريا في الوقت ذاته ٠

● هناك الظروف الدولية ٠ حيث كان الظرف الكوري منذ ٢٨ عاما بمثابة بداية لاضفاء الطابع العسكري على « الحرب الباردة » بين الكتلتين الشرقية والغربية عن طريق « الحروب المحدودة » ، بينما الظرف الشرق اوسطي الراهن يشكل اخطر عقبة في وجه الانفراج الدولي ، ويشكل المنطقة الساخنة الوحيدة الباقية المشحونة باحتمالات الصدام الكتلي الفعلي ٠ كما ان الظرف الحالي في منطقة الشرق الاوسط يترافق زمنيا مع جو تسوده ملامح اقرب الى فترة الحرب الباردة منه الى مرحلة « الانفراج الدولي » ٠ وذلك بسبب تعدد مناطق الصراع في السنوات الاخيرة : انغولا ـ زائير ـ القرن الأفريقي ـ قنبلة « النيوترون » والشرق الاوسط بطبيعة الحال ٠

وأوجه التماثل كثيرة اذا دققنا النظر اكثر في التفاصيل واذا عدنا الى وثائق فترة الحرب الكورية والمناورات التي سبقتها وادت اليها ، والى مجريات الاحداث التي جعلتها تتراوح بين هزيمة ساحقة لاميركا فانتصار كاد يكتمل لها ، ثم اندحار آخر ٠٠٠ وفي النهاية توازن اعاد الاوضاع الى ما كانت عليه قبل وقوع تلك الحرب (١) ٠ ولكنه ضمن للولايات المتحدة وجودا عسكريا ـ تحت اعلام الامم المتحدة ـ لا يزال مستمرا حتى اليوم متمثلا في ٤١ الف جندي (٢) ،

ونفوذا سياسيا يتمثل في نظام موال الى حد العمالة ، ومصالح اقتصادية تتمثل في استثمارات تفوق الثلاثة مليارات دولار سنويا ٠

فكيف نتصور انكار تطبيق « السيناريو الكوري » معدلا في الشرق الاوسط ضد الثورة الفلسطينية ؟

السيناريو الكوري ٠٠ كيف ؟

لقد تصرفت الولايات المتحدة في الازمة الكورية على اساس انها تريد ان توقف « زحفا شيوعيا على آسيا يبدأ من كوريا الشمالية ٠ وهي اليوم تنظر الى الثورة الفلسطينية باعتبار انها « خطر عام زاحف » على الوطن العربي (الذي يعني عمليا الشرق الاوسط) ، لا تتوقف تأثيراته عند حدود اسرائيل ، انما تمتد الى العمق العربي حاملة معها رياح التغيير التي من شأنها ان تعصف بمصالح وتشكيلات يهم الولايات المتحدة اقتصاديا واستراتيجيا الابقاء عليها ٠

كما تصرفت الولايات المتحدة في الازمة الكورية هادفة الى جر الصين ـ القوة الاكبر في آسيا بجميع المقاييس منذ ذلك الوقت ـ الى معركة بعيدا عن معركتها الاساسية ، وهي معركة تحرير باقي اراضي الصين (جزيرة « تايوان ») وهي الامتداد الطبيعي لكل المعارك التي كانت قد حققت تحرير كل البر الصيني واعلان جمهورية الصين الشعبية في ١٩ تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٤٩ ، اي قبل اشهر من اندلاع الحرب الكورية في حزيران (يونيو) ١٩٥٠ ٠ فعندما نشبت الحرب الكورية كان القسم الاكبر من جيش التحرير الشعبي الصيني يحتشد في المناطق المواجهة لجزيرة « تايوان » بعيدا للغاية عن حدود الصين الشمالية المشتركة مع كوريا الشمالية ٠ وتحاول الولايات المتحدة اليوم بصورة معدلة من هذا التدخل تحت اعلام الامم المتحدة ايجاد وضع يعرقل معركة التحرير العربية ويوقفها ، بان يضعها في وجهقوة دولية تتصاعد قدرتها العسكرية عدديا مع الوقت وتتمركز في اكثر مناطق المعركة حساسية بحكم الظروف الاستراتيجية للثورة المسلحة الفلسطينية ٠

من ناحية اخرى فان الولايات المتحدة خاضت معركة كوريا مباشرة بقواتها ـ تحت غطاء الشرعية الدولية ـ بناء على تقرير (ثبت خطأه فيما بعد) بانه لا الاتحاد السوفياتي ولا الصين الشعبية مستعد للتدخل عسكريا في الحرب الكورية ٠ كل ما في الامر انه دار خلاف حاد بين البيت الابيض (ترومان) وبين الجنرال دوغلاس ماك آرثر قائد القوات الاميركية في الشرق الاقصى (وقائد قوات « الامم المتحدة » في تلك الحرب) حول مدى عدم الاستعداد للتدخل من جانب الصين خاصة ٠ فقد اعتقد ترومان ان تجاوز نهر « يالو » (آمنون) الفاصل بين كوريا الشمالية ومنشوريا الصينية هو حد عدم

الاستعداد الصيني للتدخل ، بينما ذهب قائد قواته ماك آرثر الى انه لا حـــدود لعدم الاستعداد هذا · (٤)

والولايات المتحدة تخوض الان معركة الشرق الاوسط ضد الثورة الفلسطينية ـ ولكن بطريقة غير مباشرة ، وتحت غطاء الشرعية الدولية هذه المرة ايضـا ـ بناء على تقرير (ثبت صحته حتى الان) بان الاقطار العربية لن تتدخل · وكـل ما في الامر انه يدور خلاف داخل الولايات المتحدة او بينها وبين المؤسســة العسكرية والاسرائيلية حول تجاوز نهر « الليطاني » ، وما اذا كان هذا النهـر يشكل حدود عدم الاستعداد العربي ·

« العجوز الرهيب » ·· وبيغن

ولعل من المثير للدهشة ان نلاحظ مدى التشابه بين الموقف الراهن في العلاقات الاميركية ـ الاسرائيلية حيث يبدو مناحيم بيغن في صورة الحليف المتعنت الـذي يثير غضب حليفه بمغالاته في التشدد · والموقف الماضي في كوريا حيث كـان « العجوز الرهيب » (كما كان الاميركيون يسمون حليفهم رئيس نظام سيـول سينغمان ري) يزايد على الموقف الاميركي بعناد وتشنج ، فيمـا كانت قـوات كوريا الجنوبية وحدها قد عجزت عن الصمود ساعات في وجه قوات كوريـا الشمالية ، وتكبدت الولايات المتحدة وحليفاتها خسائر بشرية ومادية رهيبـة لكي تستطيع ابقاء نظامه · وقد راح ري فيما يشبه مشاهد المسرحيات الهزلية يهدد بسحب قواته من القتال ، واضطر ترومان لان يرسل اليه مذكرة فـي ٢ حزيران (يونيو) ١٩٥٢ تشير الى حساسية الموقف وتعقيداته وتحذره مـن انه « اذا لم يساعد على حل الازمة فان بلاده ستواجه موقفا خطيرا » · وواصل ري تصرفاته ضد حليفته اميركا ، وكان منها منع مكتب اذاعة « صوت اميركا » من العمل في « سيول » · ولكن جو العلاقات عاد الى صفائه الطبيعي قرب وقت الانتخابات التي اعيد فيها انتخاب سينغمان ري للرئاسة · وان كان « العجـوز الرهيب » قد ظل على مغارضته الشديدة ضد مفاوضات الهدنة من اساسهـا · وقد أرسل في البداية مراقبا يمثله الى هذه المفاوضات ، ولكنه ما لبث ان اعلن ان هذه المفاوضات تسير في طريق الفشل المحتوم ، وان الوسائل السياسيـة عاجزة عن حل النزاع · ووصل الامر الى حد ان سفير كوريا الجنوبيـة في واشنطن اخطر الرئيس ايزنهاور ـ في ٢٤ ابريل (نيسان) ١٩٥٣ ـ قبـل ثلاثة ايام من استئناف مفاوضات الهدنة في « باغو نجوم » ـ بأن ري قرر سحب جيشه من قيادة القوات المتحالفة اذا ما تم توقيع هدنة تسمح ببقـاء المتطوعين الصينيين على الارض الكورية · مما دفع ايزنهاور (الذي كان قـد خلف ترومان في الرئاسة الاميركية) الى ايفاد الجنرال ماك كلارك اليه لاقناعه

بان طلبه هذا لن يخرج المتطوعين الصينيين الذين تعذر اخراجهم بقوة السلاح بعد معارك دامت حوالي سنتين ونصف · ولم تسفر محاولة كلارك عن شيء ، وبقي ري على تشدده ! وبعث ايزنهاور الى ري برسالة في ٦ حزيران ١٩٥٣ يطالبه فيها « لا كصديق رسمي فحسب بل كصديق شخصي ايضا » بالقبول بشروط الهدنة عند توقيعها طالما ان بلاده ستحافظ على حدود ما قبل بدء العمليات ، وتعهد له بان تتابع الولايات المتحدة المسعى السلمي لتوحيد كوريا وعقد معاهدة دفاع مشترك كالمعاهدات الموقعة بين الولايات المتحدة والفليبين واستراليا ، فضلا عن الوعد باستمرار المساعدات الاقتصادية الاميركية لكوريا الجنوبية ···

ورفض سينغمان ري كل هذا واعلن انه سيحارب وحده اذا ما تخلت عنه الولايات المتحدة والدول المتحالفة · ووقعت اتفاقية تبادل الاسرى في ٨ حزيران ١٩٥٣ بغياب مندوبه ، واعلن ري انه سيحارب الاتفاقية (الامر الذي ردت عليه القوات الكورية ـ الصينية بعد ٥ ايام فقط بهجوم عنيف دمر الفرقتين الخامسة والثامنة من جيش كوريا الجنوبية) · ومع ذلك فان ايزنهاور دعا سينغمان ري الى البيت الابيض ، ورد هذا بالرفض ، كما رفض استقبال وزير الخارجية الاميركي جون فوستر دالاس في سيول · ورد الجنرال كلارك بان ابلغ ري بان الولايات المتحدة ستحجم عن مساعدته اذا ما خرق الهدنة ··· وبدأ ري رحلة التراجع ودخل في محادثات مع مبعوث ايزنهاور حيث قبل الهدنة مع وعد أميركي بعقد ميثاق امن مشترك مع كوريا الجنوبية ، ومعونة اقتصادية اميركية لكوريا الجنوبية كانت قيمة قسطها الاول ٢٠٠ مليون دولار ، ومساعدته على زيادة جيشه الى ٢٠ فرقة ·

ولم تكن ضغوط الولايات المتحدة هي التي ساعدت على رضوخ « العجوز الرهيب » ري ، انما عجلتها بها اساسا هجمات القوات الكورية ـ الصينية ، الاولى التي اشرنا اليها والتي وقعت في ١٣ حزيران ، والثانية في ١٣ تموز (يوليو) واسفرت عن خسارة لقوات كوريا الجنوبية بلغت ٧٨ الف رجل · وفي ٢٧ تموز وقعت اتفاقية الهدنة في باغونجوم » ·

مشهد طويل من مسرحية « العجوز الرهيب » سينغمان ري يعيد الى الاذهان في كثير من تفصيلاته مواقف « العجوز الرهيب » مناحيم بيغن ، مع فوارق اساسية هامة ينبغي ان تؤخذ في الاعتبار لكي نفهم لماذا تريد اميركا ان تكرر فصل القوات الدولية من سيناريو كوريا في سيناريو جديد بالشرق الاوسط ·

(١) الفارق بين مقدرة كوريا الجنوبية العسكرية في مواجهة الشمال (المدعوم اشتراكيا) وبين مقدرة اسرائيل العسكرية في مواجهة الثورة الفلسطينية (غير المدعومة عربيا ، من الناحية العملية والواقعية) ·

(٢) الفارق بين اشتعال جبهة القتال حول « العجوز الرهيب » الكوري بفعالية من جانب جيش كوريا الشمالية وجيش المتطوعين الصينيين واسلحة الاتحاد السوفياتي ، وانطفاء جبهة القتال حول « العجوز الرهيب » الاسرائيلي ، فيما عدا الاشتعال الدائم على جبهة الثورة الفلسطينية المسلحة ٠

(٣) الفارق بين محصلة ايجابيات وسلبيات الوضع الدولي في اوائل الخمسينات ، ومحصلة ايجابيات وسلبيات الوضع الدولي في اواخر الخمسينات : وهي معادلة معقدة تدخل فيها عوامل وعناصر فاعله كثيرة ابتداء من موازين القوى الاستراتيجية ، ومدى التماسك الداخلي في كل من المحتلتين عسكريا وسياسيا ، وخضوع كل كتلة لمركز قيادي واحد (واشنطن في الغرب وموسكو في الشرق) في اوائل الخمسينات ، وتعدد مراكز القيادة والتوجيه في السبعينات ، وموازين القوى المختلفة داخل الامم المتحدة (سواء في مجلس الامن او الجمعية العامة) ٠

(٤) الفارق بين وجود جماعات ضغط صغيرة هامشية في الولايات المتحدة مستعدة للوقوف وقفة صليبية في صف نظام سينغمان ري في كوريا الجنوبية ١٩٥٠ ، ووجود جماعات ضغط صهيونية ضخمة في الولايات المتحدة ، وفي جميع انحاء العالم في الواقع ، تقف وقفة صليبية باستمرار في صف اسرائيل في ظل « الحمائم » او في ظل « الصقور » على السواء ٠

عودة سياسة الاحتواء

لقد كانت التجربة الكورية بالنسبة للسياسة الاميركية بمثابة بداية التنفيذ العملي لسياسة الاحتواء Containment ضد الصين في شرق اسيا كله ، باعتبار انها ــ في ذلك الوقت ــ بؤرة « الخطر الاحمر » التي يمكن ان ترسل موجات تأثيراتها في باقي انحاء اسيا ٠ وكانت واشنطن تعتبر ان توحيد كوريا تحت حكم شيوعي ــ وهو ما كانت تتوقعه حتى بدون حرب نظرا لضعف نظام ري في الجنوب ــ يشكل تهديدا للوجود الاميركي في اليابان وفي « تايوان » والفيليبين ، وتهديدا ايضا للوجود الفرنسي في الهند الصينية الذي كان يخوض معركته الاخيرة في مواجهة « الوحدويين » الفيتناميين ٠ وكان اعتقاد واشنطن ان الصين هي ذراع الثورة الشيوعية الطويلة في اسيا ، وان كانت موسكو هي الجهاز العصبي لها ٠ (٥)

فماذا كانت مكونات سياسة « الاحتواء » الاميركية التي بدأت بالحرب على وحدة كوريا ؟

كان الحفاظ على حالة « الامر الواقع » هو اساس هذه السياسة وهدفها

الرئيسي ، وما كان هذا يعني الا محاصرة الثورة حيث هي ، ومنعها من التقدم من كوريا الشمالية الى الجنوبية ، من الصين الى تايوان ، من جنوب الصين الى الهند الصينية ، من الملايو الى الفيلبين ٠٠٠ اما الوسائل التي اعتمدتها سياسة ـ او استراتيجية ـ « الاحتواء » فكانت استخدام القوة المسلحة استخداما فعليا ، وهو ما جرى في كوريا ، واحاطة الصين بمجموعة من القواعد العسكرية والاحلاف العسكرية في الوقت نفسه ٠ وفي زمن الحرب الكورية كان لدى الولايات المتحدة من الجرأة السياسية ، ما يمكنها ليس فقط من التدخل العسكري تحت غطاء الامم المتحدة ، بل اقحام نصوص ميثاق الامم المتحدة في معاهدات الاحلاف العسكرية التي كونتها في ذلك الوقت ٠ وعلى سبيل المثال فان معاهدة حلف جنوب شرقي اسيا (السيتو) تنص على استخدام القوة العسكرية لحماية مبادىء واهداف ميثاق الامم المتحدة ، والتدخل وفقا لنصوص هذا الميثاق !

وهكذا انتشرت حول الصين (والاتحاد السوفياتي بطبيعة الحال) سلسلة من القواعد العسكرية في اليابان وكوريا الجنوبية وتايوان والفيلبين وتايلاند وغوام ٠ وكانت هذه القواعد في حد ذاتها ركيزة لقيام الاحلاف العسكرية التي ضمت النظم الموالية للولايات المتحدة في الشرق الاقصى ٠

ثم كان سلاح الحصار الاقتصادي اخر اسلحة استراتيجية « الاحتواء » ، واندرجت تحت عملية المقاطعة الدبلوماسية التي حرمت الصين الشعبية من دخول الامم المتحدة طوال الاعوام من ١٩٤٩ الى ١٩٧٢ ٠

ولعل من افضل العبارات تلخيصا لمعنى استراتيجية الاحتواء الاميركية في ذلك الوقت تلك التي قالها المفكر اليميني الفرنسي ريمون ارون ـ المعروف بتأييده الشديد لزعامة الولايات المتحدة للعالم الغربي ـ وهي انها « **تعني رفض الولايات المتحدة قبول اي خسارة ، ايا كانت ، اقليمية او ايديولوجية ، فلم يكن لاي دولة ـ مهما كانت صغيرة ـ ان تغير ولاءها او ان تتبنى لغة الماركسية ٠ وكانت نتيجة ذلك ان الدبلوماسيين في واشنطن اصبحوا ينحون نحو تولي مسؤوليات في كل مكان وفي جميع الازمنة ، حتى حيث لا وجود لمصالح اميركية محددة** » ٠ (٦)

الا نلمح عددا من سمات وملامح استراتيجية « الاحتواء » الاميركية من جديد في الشرق الاوسط ، مهما كانت منطوية على سمات وملامح متغيرة عما كانت عليه هذه الاستراتيجية في الشرق الاقصى قبل ٢٥ عاما ؟

الواقع انه منذ وقف اطلاق النار الذي اتى بنهاية حرب تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٧٣ ، والولايات المتحدة تبذل كل المحاولات لتطبيق استراتيجية « احتواء » سياسية واقتصادية وعسكرية للوطن العربي ٠ واذا كانت قد بدأت سياسة « الاحتواء » في الشرق الاقصى بحرب كوريا والقواعد العسكرية

والاحلاف ٠ ٠فانها بدأت سياسة « الاحتواء » في الشـــرق الاوســـط بتحويل الحرب ـ العربية الاسرائيلية الرابعة في العام ١٩٧٣ الى حرب تنتهي الـــى «نتيجه نفسها التي انتهت اليها الحرب الكورية ٠ عودة الاوضاع ـ تقريبا ـ الى ما كانت عليه قبل بدئها ٠ وان كان هذا الامر يبدو اعقد في حالة الشرق الاوسط نتيجة وجود اكثر من جبهة قتال واحد ، واكثر من خط اشتباك بيـن المتحاربين ، بينما لم يكن في الحرب الكورية غير خط واحد فاصل هو خط العرض ٣٨ درجه الذي يرسم الحدود بين شمال وجنوب كوريا ٠

منذ ذلك الوقت والولايات المتحدة « تحتوي » الوطن العربي ، وتقدم نفسهـا دبلوماسيا في دور « الوسيط » ودور « الحكم » ، ولكنها عمليـــا تحرج في الاتفاقات التي تتوصل اليها وساطتها بقواعد وتسهيلات عسكرية تعطي لهـــا موطىء قدم من الناحية الاستراتيجية في منطقة كانت قد خرجت منها عسكريـا تماما ٠ فقد أوكلت الاتفاقية الثانية للفصل بين القوات المصرية والاسرائيليـــة في سيناء الى الولايات المتحدة مهمة انتشار نظام الانذار الاستراتيجي المبكـــر (محطات مراقبة الكترونية) في المنطقة العازلة بين القوات ٠ ولم يفت الولايات المتحدة في هذا ان تعهد للامم المتحدة بدور نظري حيث نص ملحق الاتفاق عـلى ان « يكون للاشخاص المصرح لهم بدخول المنطقة العازلة حق المرور العابر الـى ومن نظام الانذار المبكر ، وسوف يحدد الاسلوب الذي يتم به ذلك بواسطـــة مجموعة العمل العسكرية وقوة الطوارىء التابعة للامم المتحدة » ٠ كما حرص الاتفاق نفسه على ان يماثل بين الافراد الاميركيين الذين يقومون بتشغيـــل محطات الانذار المبكر وبين رجال القوة الدولية ، حيث نص على ان « يتمتـــع افراد الولايات المتحدة المدنيون بالحصانة من الاختصاص المحلي الجنائي والمدني والضرائبي والجمركي ، كما قد يتمتعون بأية مزايا وحصانات محددة منصوص عليها في اتفاقية الطوارىء الدولية التابعة للامم المتحدة ٠٠٠ » ٠

والواقع ان محطات الانذار المبكر الاميركية في سيناء تغطي الوطن العربـــي كله ، بل وتغطي منطقة البحر الابيض المتوسط والبحر الاحمر ، الامر الـــذي يصور مدى التغلغل الذي تمثله من جانب الولايات المتحدة ٠ واليوم ، مع تنامي دور الولايات المتحدة في البحث عن تسوية في الشرق الاوسط وتعاظم نفوذهـا في كافة المجالات في معظم اكبر البلدان العربية ، يتردد الحديث عن امكـــان السماح بقاعدة عسكرية اميركية في سيناء ، وقاعدة عسكرية (بحرية) اميركية اخرى في حيفا ، في اطار اقتراح عقد اتفاق امن بين الولايات المتحدة واسرائيل كمخرج من أزمة تشدد الاخيرة فيما يتعلق بمطالبها الامنية ، حتى بعد « مبادرة السادات » ٠

اما « قواعد » استراتيجية الاحتواء الاميركية في الشرق الاوسط الان فانهـا ذات طابع سياسي اكثر منه عسكري ، وعدد من النظم العربية يدخل دائـــرة

الاحتواء الاميركي في ١٩٧٨ على نحو لم يكن له مثيل منذ دخول الولايات المتحدة الشرق الاوسط بديلا عن تقلص الدور البريطاني · بل يمكن القول ان الولايات المتحدة في مركز نفوذ اقوى بكثير من مركزها عندما اتخذت خطوة ارسال قواتها (١٤ الف جندي) الى لبنان في العام ١٩٥٨ · خاصة وانها كسبت الى صفها النظام في اكبر بلد عربي ـ مصر ـ الامر الذي لم يتحقق لها في اي وقت منذ دخولها مسرح المنطقة ·

وكما كانت سياسة « الاحتواء » في الشرق الاقصى في الخمسينات تعني قبل كل شيء المحافظة على حالة « الامر الواقع » باعتبارها اكثر الاحوال ملاءمة ـ وفي الوقت نفسه اقصاها امكانا من الناحية العملية ـ لصالح الولايات المتحدة (٧) ، فان « الاحتواء » الاميركي في الشرق الاوسط يهدف الى الشيء نفسه : الامر الواقع ، بتركيبه الاستراتيجي والاقتصادي والسياسي وحتى الاجتماعي · الامر الواقع الحديث جدا ، الذي لا يتجاوز عمره السنوات الخمس الماضية منذ نهاية حرب تشرين ١٩٧٣ هو هدف الولايات المتحدة · وهي تعتبر الثورة الفلسطينية والتيار الذي تمثله التحدي الوحيد الباقي في وجه تثبيت هذا الامر الواقع عند حدوده الراهنة · وهي تعمل لتطويق الثورة الفلسطينية في حدود ضيقة داخل الوطن العربي وشغلها داخله ، في الوقت الذي تطوق فيه الوطن العربي نفسه ـ وبالتالي حركة التحرر الوطني والقومي العربية ـ بنفوذها الاستراتيجي (الامني) وسيطرتها الاقتصادية وهيمنتها حتى على الاجهزة الثقافية والاعلامية · ويقوم بالدور المباشر في هذا التطويق عدد من النظم العربية الرئيسية الموالية للولايات المتحدة او المرتبطة بمصالح مباشرة معها ، او الملتقية معها في مخاوف « ايديولوجية » واحدة · فضلا عن النظم التي تؤثر ـ حفاظا على بقائها ـ الاحجام عن التصارع مع الامبريالية الاميركية بصور الصراع المباشرة المكلفة ·

اول حرب بعد المبادرة

اما دور القوة المسلحة في سياسة الاحتواء الاميركية في الشرق الاوسط فهو ـ كما كان دائما ـ من نصيب اسرائيل · ولعل من وقف ـ مصدقا نفسه ـ امام الكنيست الاسرائيلي في ٢١ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٧٧ ليقول : « **بشروا ابناءكم ان ما مضى هو اخر الحروب ونهاية الالام ، وان ما هو قادم هو البداية الجديدة ، للحياة الجديدة ·· حياة الحب والخير والسلام** » ·· لا بد قد عرف بعد اقل من خمسة اشهر من « زيارته التاريخية » ان في برنامج اسرائيل للعرب حروبا اخرى ، وان جنوب لبنان في اذار (مارس) ١٩٧٨ كان اضافة مناحم بيغن الى توسعات اسرائيل السابقة التي لم يكن قد ساهم فيها

بنصيب لانه لم يصل الى الحكم قبلا :

واذا كانت حرب اسرائيل ـ الاولى بعد زيارة السادات « التاريخية » للقدس ـ قد تعثرت في الجنوب اللبناني في مواجهة الثورة الفلسطينية المسلحة ، فلم تحقق هدف تصفية المقاومة الفلسطينية وتدمير قواعدها نهائيا ، الا انها كانت السبيل الى « كسر الجمود » بما يسمح بتحريك الجانب الاكثر ملاءمة للظروف الدولية الراهنة من « السيناريو الكوري » للتطبيق ضد الثورة الفلسطينية · وهو الجانب الذي يتمثل في ادخال « الشرعية الدولية » ـ قوات الامم المتحدة ـ طرفا في استراتيجية الاحتواء ·

هذه المرة تدخل الشرعية الدولية بمقتضى النصوص الداعية الى انسحاب اسرائيل ، بينما هي في الواقع المادي تدخل لتحل محل القوات الاسرائيلية ، والهدف وضع الثورة الفلسطينية في وضع القوة المناوئة للشرعية الدولية اذا ما ابدت اي اتجاه نحو الدفاع عن حقها في العمل المسلح ضد اسرائيل ، سواء بقيت القوات في بعض مناطق الجنوب او خرجت تماما منه · ويشير الميل المتزايد الى تكبير حجم القوات الدولية وتكثيف دور فرنسا (ذات العلاقة الخاصة بلبنان) الى تهيئة هذه القوات لمواجهة مع الثورة الفلسطينية قد لا تقتصر حدودها على الجنوب ·

لقد كان التدخل العسكري الاميركي في كوريا ـ تحت غطاء الامم المتحدة ـ في العام ١٩٥٠ راجعا في الاساس الى الضعف العسكري لنظام كوريا الجنوبية (٨) · والتدخل الجديد تحت غطاء الامم المتحدة في جنوبي لبنان في العام ١٩٧٨ يرجع في الاساس الى الضعف السياسي لموقف اسرائيل ، الذي يتمثل في اخفاقها ـ رغم تفوقها العسكري في تصفية الثورة الفلسطينية · بينما تتولى الولايات المتحدة عملية الالتفاف السياسي والدبلوماسي ـ اقليميا ودوليا ـ على الثورة الفلسطينية ، بالتعامل بشأن القضية الفلسطينية مع النظم العربية المستعدة للتسوية الاميركية · وبرفض منظمة التحرير الفلسطينية التي لا تعني فقط كيانا سياسيا معبرا عن ارادة الشعب الفلسطيني ، بل تعني بالدرجة الاولى هيئة اركان الثورة الفلسطينية المسلحة · وكل حديث اميركي عن « ترتيب ما لوطن او كيان فلسطيني ـ ويفضل ان يكون بالمشاركة مع الاردن » هو حديث لا علاقة له اساسا بمنظمة التحرير ولا بالثورة الفلسطينية واهدافها الوطنية واساليبها النضالية · انما هو حديث لا يلغي موقف الرفض الاميركي ـ السياسي والايديولوجي ـ للقضية الفلسطينية كما تطرحها وتمثلها وتناضل من اجلها منظمة التحرير الفلسطينية · وهذا الرفض منصوص عليه في احد ملاحق اتفاقية فصل القوات الثانية في سيناء في اول ايلول (سبتمبر) ١٩٧٥ · اذ تنص الوثيقة السرية الثانية (بين اربع وثائق سرية صدرت كملاحق للاتفاقية واذاعتها وكالة « اسوشيتدبرس » الاميركية في ٤ تشرين الاول ١٩٧٥)

على انه « **ستواصل الولايات المتحدة الاميركية التقيد بسياستها الحالية حيال منظمة التحرير الفلسطينية ، اي انها لن تعترف بمنظمة التحرير الفلسطينية او تتفاوض معها ما دامت منظمة التحرير الفلسطينية لا تعترف بحق اسرائيل في الوجود ولا تقبل قراري مجلس الامن ٢٤٢ و ٣٣٨ · وستجري حكومة الولايات المتحدة مشاورات كاملة ، وتسعى الى توفيق موقفها واستراتيجيتها حول هذا الموضوع ، في مؤتمر جنيف للسلام ، مع حكومة اسرائيل** » ·

ماذا يبقى من « السيناريو الكوري » المعدل لينفذ في جنوبي لبنان ضد الثورة الفلسطينية ؟ وهل اذا نفذت كل خطوات السيناريو يعني وضعا تتحكم فيه الولايات المتحدة بكل العوامل ، وتقيس بدقة كل الخطوات ، وتحسن تقدير وحساب الاحتمالات ، لتضمن حجم النتائج ونوعيتها ؟

ربما كان الرد المباشر على هذه التساؤلات ان السيناريو الاميركي الذي نفذ اصلا في كوريا منذ ٢٥ عاما ـ وفي ذروة نفوذ الولايات المتحدة العسكري والسياسي في المنطقة وهيمنتها داخل الامم المتحدة لم يحقق نجاحا لسياسة الاحتواء · بل الاحرى ان هذا السيناريو كان مسؤولا عن توريط اميركا في حرب لم تنل فيها مقابلا عما تكبدته وتكبده حلفاؤها باسم « قوات الامم المتحدة» من القتلى (٥١٥ر١١٨) والجرحى (٥٨١ر٢٦٤) والاسرى (٩٨٧ر٩٢) ، ثم توريطها في حرب اخرى اطول وافدح تكلفة في الهند الصينية ، انتهت بهزيمة عسكرية وسياسية فادحة وهدمت اسوار استراتيجية « الاحتواء » الاميركية بصعود ثلاثة انظمة ثورية في الهند الصينية خلال عام واحد (١٩٧٥) (٩) ·

لقد وضعت الولايات المتحدة آلتها الحربية على النحو المعروف وراء « الامر الواقع » في فيتنام طوال ١٣ عاما بهدف ان تسند هذا الامر وتبقي عليه بأي ثمن ، ولم تستطع ان تبقي شيئا منه ، مهما كان ضئيلا · فهل تستطيع اليوم ان تضع « الشرعية الدولية » ـ استعارة من سيناريو كوريا ـ الى جانب الة اسرائيل الحربية ـ استعارة من سيناريو فيتنام ـ في خدمة سياسة الاحتواء لابقاء الامر الواقع في الشرق الاوسط عن طريق تطويق الثورة الفلسطينية في جنوب لبنان ؟

لا توجد اجابات بسيطة للاسئلة المعقدة · ولكن التجربة النضالية للشعب الفلسطيني ، واخرها تصدي ثورته المسلحة لالة الحرب الاسرائيلية في الجنوب اللبناني ، تؤكد ان الامر الواقع غير قابل لان يفرض جموده على الفلسطينيين · اما الجمود الراهن في الاوضاع العربية فانه بدوره لا يمكن ان يكون امرا واقعا ابديا · ولا شك ان موقف الثورة الفلسطينية اليوم مهم للامة العربية

كلها ، التي تدرك من تحت السطح الجليدي المتجمد ان المشكلة ليست فلسطين واسرائيل فحسب ، انما هي العرب والامبريالية جميعا · انما الامر كله مرهون بقدرة الثورة الفلسطينية على كسر طوق السيناريو الكوري · وهي قادرة ·

الحواشي :

١ ـ المقدم الهيثم الايوبي : تاريخ حرب التحرير الوطنية الكورية (١٩٥٠ـ١٩٥٣) بيروت ١٩٧٣ ·

2 - **American Security Policy in Asia** Adelphi Papers . No. 132. I.I. S.S. London, 1977.

3 - Northedge 8 Donelan , **International Disputes, The Political Aspects.** London 1971 .

4 - Donelan 8 Grieve.**International Disputes, Case Histories 1945 - 1970** London. 1973.

5 - Kennith J . TWitchett (ed) , **The Evolving United Nations A Prospect For Peace,** London, 1971.

6 - Raymond Aron, **The Imperial Republic,** London 1975.

7 - Arter Schlesinger , **The Imperial Presidency** , London 1974.

8 - Frank Gibney, The Ripple Effect in Korea, **Foreign Affairs** , Washington Octobre 1977 .

9 - J. Alexander Kim, Soviet **Policy** in North korea , **World Politics** , April 1970 .

حنـــة شاهـين

الاحتلال الاسرائيلي لجنوب لبنان: الدوافع والأهداف

لم يكن اقدام اسرائيل على احتلال منطقة جنوب لبنان ، خلال الهجـــوم الذي شنته ضد القوات المشتركة للمقاومة الفلسطينية والحركة الوطنية اللبنانية المرابطة في تلك المنطقة ، في منتصف شهر آذار (مارس) الماضي ، مفاجئا ، نظرا لاطماعها التوسعية القديمة واهدافها الاستراتيجية في تلك المنطقة • وهذه المطامع والاهداف الاسرائيلية عديدة ، بعضها قديم يتمثل في السعـــي الـى الاستيلاء على جنوب لبنان وضم اراضيه الخصبة الى اسرائيـــل ، او على الاقل السيطرة على جزء منها ، وعلى مياه الليطاني ، والآخر جديد ، يتمثل في محاولة القضاء على القوات المشتركة او ابعادها عن الجنوب ، ثم الضغط علـى لبنان وجعله بلدا « صديقا » ، تربطه بأسرائيل علاقات « طيبة » ، على غـــرار تلك القائمة بينها وبين بعض القرى التي يسيطر عليها الانعزاليون في الجنوب•

واذا كان الوضع السياسي الدولي عائقا امام اسرائيل لتنفيـــذ سياستهـا التوسعية في هذه المنطقة ، فأن مطامعها واهدافها الاستراتيجية من ناحيـــة ، والعملية الفدائية على طريق حيفا ــ تل ابيب ، في اوائل آذار (مارس) الماضي، التي استغلت كمبرر من ناحية اخرى ، قد دفعتها في النهاية الى المغامرة فـــي تحقيق ما كانت تصبو اليه منذ وقت غير قصير ، مستغلة الانقسام في الوضـــع اللبناني والعربي • أما « خطط التوغل في جنوب لبنان فليست جديدة ••• وهي محفوظة في الملفات منذ سنين ••• وتشير هذه الخطط الى اندفاع سريع ومباشر حتى الليطاني بدون مراحل وسطى ، كما حدث في هذه العملية » (١) •

كذلك يبدو ان القيادة الاسرائيلية الحالية سعت ، من وراء احتلال جنوب لبنان ، الى التأثير في الوضع السياسي القائم بالنسبة لازمة الشرق الاوسط لصالحها · فقد تم غزو الجنوب في فترة وصلت فيها ازمة المفاوضات السياسية، بين اسرائيل ومصر والولايات المتحدة ، حول التسوية السياسية في المنطقة الى قمتها تقريبا · وقد ادت هذه المفاوضات الى كشف تصلب اسرائيل واصرارها على مواصلة سياستها القديمة تجاه الاراضي المحتلة والقضية الفلسطينية · كما شعرت اسرائيل ان الموقف الاميركي لم يعد تماما لصالحها، كما كان في السابق، او كما ترغب هي ان يكون · لذلك يعتقد ان « بيغن اراد استغلال مشكلة الجنوب، من أجل تغيير الموقف الاميركي عشية زيارته الى الولايات المتحدة ، خاصة بالنسبة لمشروع السلام الذي طرحه مع مصر » (٢) · فاذا تبنت اميركا موقفه من قضية الحزام الامني في جنوب لبنان ، فلماذا لا تتبناه ايضا بالنسبة للمناطق المحتلة الاخرى منذ سنة ١٩٦٧ ، التي ترغب اسرائيل في السيطرة على اجزاء كبيرة منها بحجة المحافظة على امنها ؟

كلذك يبدو ان اسرائيل سعت ، بواسطة تلك العملية ، الى استعراض قوة الجيش الاسرائيلي والقدرة على استخدامه خلال مجرى المفاوضات السياسية مع العرب « من اجل تحقيق ثمار سياسية حقيقية ، [باعتبار ذلك] ورقة المساومة الاهم التي تمتلكها في المجال السياسي · فعلى كفتي الميزان الحقيقيتين للسياسة الاميركية في منطقة الشرق الاوسط ، هناك قوتان اساسيتان : على الكفة الاولى ـ قوة النفط العربي ، خصوصا السعودي · وعلى الكفة الثانية ـ قوة جيش اسرائيل والاستعداد لاستخدامها » (٣) · وطالما ان العرب قادرون على استخدام نفطهم في التأثير على موقف اميركا ، فأن اسرائيل قادرة ايضا على استخدام جيشها للغرض نفسه ·

ويبدو ايضا ان عملية احتلال جزء من جنوب لبنان ، بقدر ما تعبر عن سياسة اسرائيل التوسعية ورغبتها في مواصلة تصديها للفلسطينيين عسكريا وسياسيا، فانها ليست بمعزل أيضا عن علاقات اسرائيل مع الاميركيين ، ونظرتها ومفاهيمها القديمة والدائمة تجاه العالم العربي وازمة الشرق الاوسط ·

ان تحليلا لعملية احتلال الجنوب قد يعكس ما وصلت اليه اسرائيل من نجاح وفشل في تحقيق اهدافها هذه ، ثم الدروس التي تعلمتها من « هذه الحرب الغريبة » ، كما وصفها وزير دفاعها عيزر فايتسمان (٤) ·

سياسة « الخط الاحمر »

ان التفكير باحتلال منطقة جنوب لبنان ، وخلق « حزام امن » لاسرائيل في هذه المنطقة ، ليس جديدا اطلاقا ، كما ذكرنا · الا ان الحكومات الاسرائيلية

السابقة قد « جمدت » هذا الموضوع ، لاعتبارات عديدة مكتفية باتباع سياسة العمليات الانتقامية ضد الفدائيين بين فترة واخرى • ومع انتهاء الحرب الاهلية في لبنان ، ودخول قوات الردع العربية الى البلد ، تبدلت المعطيات التي تتحكم بسياسة اسرائيل في تلك المنطقة ، اذ بالاضافة الى انزعاجها من الوجود الفدائي فيها أصبح تخوفها من تقدم الجيش السوري حتى الحدود عاملا رئيسيا في موقفها من مستقبل هذه المنطقة • وبدأت اسرائيل ايضا ، منذ ذلك الوقت ، باقامة « علاقات طيبة » مع القرى المسيحية ، التي يسيطر عليها الانعزاليون في جنوب لبنان ، للافادة منها في قتال الفدائيين ومنعهم من الوصول الى الحدود • ويمكن تلخيص سياسة اسرائيل تجاه جنوب لبنان ، حتى عملية الغزو الاخيرة ، على النحو التالي : اولا ، القيام « باعمال تطهير » ، من حين الى آخر ، ضد الفدائيين في المنطقة ، في اطار سياسة « محاربة الارهاب » « التقليدية » التي يتبعها الجيش الاسرائيلي منذ ما قبل حرب ١٩٧٣ • ثانيا ، اتباع سياسة « الخط الاحمر » بالنسبة للوجود السوري في لبنان ، التي تمثلت في عدم الرد او التدخل ، طالما ان القوات السورية لم تعبر الليطاني باتجاه الحدود الاسرائيلية • ثالثا ، الاستمرار في تقديم المساعدات العسكرية للميليشيات الانعزالية المتعاونة مع اسرائيل ، بهدف القتال ضد الفلسطينيين ومنعهم من الوصول الى الحدود • وقد قدمت هذه المساعدات بشكل سري في عهد الحكومة السابقة ، الا ان رئيس الحكومة الحالي مناحيم بيغن كشف عن ذلك علنا خلال زيارته لاحدى القرى المسيحية في الجنوب • « لقد تركز النقاش الذي دار في عهد الحكومة السابقة حول السؤال : هل يجب اقامة حزام امني في جنوب لبنان ــ وربما حتى الليطاني • [ولكن] حقيقة اكتفاء الجيش الاسرائيلي بعمليات مسلحة [ضد الفدائيين] بين الحين والآخر ، تدل على عدم الرغبة في اقامة حزام كهذا • لقد وصلت القيادة السياسية والعسكرية في اسرائيل آنذاك الى استنتاج مفاده ان عملية الدخول الى لبنان يمكن ان تتم في الحالات التالية فقط : اولا ، اذا حاول الجيش السوري الاقتراب من الحدود الاسرائيلية • ثانيا ، اذا كان بالامكان اعادة جنوب لبنان الى سيطرة الانعزاليين الكاملة ، الذين ترتكز قوتهم الاساسية في شمال [البلد] » (٥) •

ومع صعود ليكود الى الحكم ، اثر فوزه في الانتخابات العامة التي جرت في أيار (مايو) من العام الماضي ، بدا ان القيادة الاسرائيلية الجديدة مستمرة ، مؤقتا ، في اتباع هذه السياسة ، مع فارق بسيط ، وهو ان المساعدات العسكرية للمسيحيين الانعزاليين اصبحت تقدم علنا ، بالاضافة الى مشاركة كثيفة للقوات الاسرائيلية ، الى جانب الميليشيات الانعزالية ، في قصف مواقع الفدائيين والحركة الوطنية اللبنانية •

استمر هذا الوضع حتى وقوع عملية تل ابيب في النصف الاول من شهر اذار

(مارس) الماضي · وقد سببت تلك العملية ، التي أدت الى وقوع عدد كبير من القتلى الاسرائيليين خلالها ، هزة عنيفة على الصعيد الرسمي والشعبي ، واعتبرها الاسرائيليون ضربة لمكانة اسرائيل وسياستها الامنية في مجال محاربة الفدائيين ، مما اثر بشكل واضح على معنوياتهم · وزاد من حدة تلك الهزة ان العملية وقعت في قلب اسرائيل ، الذي اعتبره الاسرائيليون في الماضي الاكثر امنا امام هجمات الفدائيين · وقد علق احد زعماء حزب العمل المعارض ، الوزير السابق يغئال الون ، على العملية متسائلا : « ··· كيف نجحت وحدة كبيرة من الفدائيين في الوصول الى شواطىء البلد عن طريق البحر ، بأسلوب كان معروفا لدينا سابقا ، والعمل طيلة ساعة كاملة ، دون ان يزعجها احد تقريبا، على الشريان الرئيسي للمواصلات في اسرائيل ، وفي اكبر منطقة مزدحمة سكانيا » (٦) · وطالب الون بان يكون الرد على هذه العملية ساحقا ومتنوعا ورادعا قدر الامكان ·

ورغم تطويق ذيول العملية وردود الفعل العنيفة ، التي نجمت عنها ، ضد المسؤولين عن الامن والشرطة ، بواسطة تشكيل لجان تحقيق رسمية لتحديد المسؤولية في هذا الشأن ، ازدادت حدة المطالبة بعمل انتقامي ضد الفدائيين من ساعة الى اخرى · « وقد شعر مناحيم بيغن ومساعدوه بالضيق السائد بين الجمهور ، بعد فرض منع التجول في منطقة تل ابيب ، ونجاح [الفدائيين] في التوغل الى مركز البلد » (٧) · واستغلت حكومة بيغن هذه الفرصة كمبرر لتنفيذ خطتها المعدة سلفا في الجنوب · وقد اعلن بيغن نفسه امام لجنة الخارجية والامن في الكنيست ، ان احتلال جنوب لبنان كان سيتم حتى بدون وقوع العملية الفدائية في تل ابيب (٨) ·

حرب شرسة ضد الفلسطينيين

تعتبر حرب الجنوب التي شنتها اسرائيل ضد القوات الفلسطينية في جنوب لبنان ، من اكبر المعارك في تاريخ الصراع الاسرائيلي ـ الفلسطيني ، التي استخدمت فيها القوات المعادية احدث انواع الاسلحة التي حصلت عليها اسرائيل بعد حرب ١٩٧٣ ، من طائرات حربية ودبابات حديثة وقذائف متطورة · كذلك شارك في الهجوم الاسرائيلي اكثر من خمسة وعشرون الف جندي ، من المشاة وسلاح المدرعات والطيران والبحرية · ولوحظ منذ بداية المعارك الفرق الشاسع بين نوعية الاسلحة المتطورة التي يستخدمها العدو ، وبين اسلحة الفدائيين · كذلك لوحظت الثغرة الواسعة بين عدد القوات المهاجمة وعدد القوات المشتركة المتواجدة في المنطقة ·

ويمكن تقسيم معركة الجنوب الى مرحلتين · ففي المرحلة الاولى اعلنت القيادة

الاسرائيلية انها تنوي السيطرة على قطاع يتراوح عرضه بين ٧ ـ ١٠ كم داخل الاراضي اللبنانية ، على امتداد ١٠٠ كم على طول الحدود الشمالية لفلسطين ٠ « وقد تميزت هذه المرحلة بدمج [عسكري] بين قوات الاسناد المدفعية [البرية] وسلاح الطيران والمدفعية البحرية ٠ كذلك تحركت مع هذه القوات ، قوات المدرعات ٠ وكان الهدف من النيران الكثيفة التي [اطلقت] من الجو والارض والبحر ، قبل دخول المشاة ٠٠٠ هو ٠٠٠ تليين مواقع الفدائيين ، لكي يسهل السيطرة عليها ٠٠٠ [واصابتهم] من بعيد ، بهدف الوصول الى حد ادنى من الاصابات بين القوات [الاسرائيلية] المهاجمة » ٠ وفي الوقت نفسه « دار القتال في القرى المحصنة جيدا ـ مثل مارون الراس ، الطيبة ، بنت جبيل ـ من بيت الى بيت ، بينما كانت تطلق النيران المضادة للدبابات باتجاه [القوات الاسرائيلية] » (٩) ٠

اما المرحلة الثانية من المعارك ، فكانت عبارة عن تقدم القوات الاسرائيلية نحو الليطاني ، بعد تراجع العدو عن خططه الاولى ، الامر الذي فسره المراقبون على انه ناتج عن ضعف في التخطيط العسكري الاسرائيلي ، وعدم ترابط بين الاهداف العسكرية والسياسية ٠ الا ان رئيس الاركان الاسرائيلي غور ، دافع عن هذا التغيير بقوله : « ان اسرائيل اضطرت للتقدم من الخط الرئيسي ، اي ١٠ كم داخل لبنان ، الى حدود الليطاني بسبب موقف اميركا السريع والمتسرع ، بطلبها قرارا من مجلس الامن [بشأن الانسحاب الاسرائيلي] ، ثم توزيع قوات الامم المتحدة في المنطقة » ٠

« لقد املت اسرائيل ، باستيلائها على قطاع بعرض ١٠ كم ، بأن تبدأ بعد ذلك المفاوضات بشأن الوصول الى اتفاق مع الحكومات العربية المعنية مباشرة ، سوريا ولبنان ٠ الا ان الولايات المتحدة نشطت قبل استكمال هذا التحرك ، ولذلك قررت حكومة اسرائيل والجيش الاسرائيلي مرحلة ثانية من التقدم ، اندفعنا بموجبها الى حدود الليطاني ـ بهدف توزيع قوات الامم المتحدة ، في حال دخولها ، على مواقع مفيدة للغاية بالنسبة لاسرائيل ٠

« وقد صادف ايضا بأن اتخذ القرار بالتقدم نحو الليطاني ـ وهي حركة شجعها انعدام تجاوب سوريا في التدخل في هذه المنطقة ـ في الوقت الذي قام به مختار قرية تبنين ، وبعض القرى الاخرى برفع الاعلام البيضاء ٠٠٠ ولكن قرار التقدم نحو الليطاني اتخذ ، على اي حال ، نتيجة للتطورات في الامم المتحدة ، وليس لان مختار تبنين املى سياسة على اسرائيل ، كما تعتقد بعض الدوائر [الاسرائيلية المعارضة] » (١٠) ٠

الا ان التعليقات التي نشرت بعد انتهاء المعارك ، شككت في صحة هذا التفسير الذي اعلنه رئيس الاركان ٠ « فالمقربون من وزير الدفاع يقولون انه في الاوامر العملياتية التي اعطيت قبل المعركة ، لم يجر الحديث ابدا عن حزام امن بعرض ١٠ كم ، وانما حددت مواقع رئيسية كان يجب ان يسيطر عليها الجيش

الاسرائيلي (مثل رأس البياضة ، بنت جبيل ، الطيبة والخيام) ، تبعد نحو ٤ ـ ٨ كم عن الحدود · ولكن هذا القطاع يذكرنا بأحد البنود في اتفاق شتورة، الذي حدد انسحاب [الفدائيين] الى عمق ١٠ كم عن الحدود الاسرائيلية · وقد كان الاميركيون راضين عن هذا الاتفاق ، الا ان اسرائيل اعربت عن عدم موافقتها عليه ، وربما ارادت [الان] ، من وراء اعلانها عن رغبتها في السيطرة على قطاع كهذا ، ارضاء الاميركيين · وخلافا لذلك لم يكن لهذا الخط ـ اي ١٠ كم ـ اية اهمية عسكرية ، باستثناء انه كان سيؤدي الى توحيد الجيوب المسيحية ··· وبعبارة أخرى ، ان من حدد قطاعا بعرض ١٠ كم لم يحدد خطا عسكريا ، بل كان بأستطاعته الافتراض ان [الفدائيين] لن يسكتوا عن الضربة وسيردوا بواسطة قصف المستوطنات · اي حتى لو لم يتخذ قرار في مجلس الامن ـ فانه لا ينبغي الافتراض ان التقدم الى ١٠ كم كان سينهي العملية ، بل ربما كان سيبدأها فقط · فقد كان لزاما على جيش اسرائيل بالرد حسب تطورات الوضع بعد ذلك » (١١) ·

الفدائيون يتصدون للهجوم الاسرائيلي ، رغم كثافته

تميزت معركة الجنوب بكثافة النيران التي وجهتها القوات الاسرائيلية ، « من الجو والبر البحر » ، مما اثار الكثير من الانتقادات داخل اسرائيل ، نظرا لما نجم عن ذلك من تدمير ونزوح في القرى الجنوبية ، ولعدم فائدة هذه النيران في التسبب « بمقتل اكبر عدد من الفدائيين » · وقد رد رئيس الاركان الاسرائيلي على هذه الانتقادات بقوله : « ان شعب اسرائيل قد دفع كثيرا لكي يزود جيشه بأحدث الاسلحة ووسائل النقل الامينة · وان تمتلك القوة ولا تستعملها ، اي ان تكون جوليات في ميزان القوى وتتصرف فقط كداوود ، يدل على غباء كبير · لقد جمعنا افضل ما في الطرفين · وبالرغم من اننا استعملنا ترسانتنا على اكبر مدى ، فكل هجوم كان يتم بعد تخطيط دقيق ومن خلال [ما يسميه غور] عبقرية تكتيكية » (١٢) ·

وحسب قول رئيس الاركان الاسرائيلي ايضا ، فأن « مئة جندي اسرائيلي آخر كانوا سيقتلون في الهجوم ، لو لم يلجأ الجيش الى استخدام المدفعية والدبابات وسلاح الطيران بشكل كثيف » (١٣) · لقد كان الجيش « على استعداد للتنازل عن المعارك وجها لوجه ، والاعتماد اكثر على قوة النيران الكثيفة ··· انه لا يعتبر مقتل مئة [فدائي] فوزا له ، اذا سقط من جانبه عشرة [جنود] او خمسة ··· وقد علل قائد المنطقة الشمالية ، افيغدور بن ـ غال ، الذي تولى قيادة الهجوم ايضا ، هذا الاسلوب بقوله : لقد عملنا بموجب المذهب الاساسي للجيش الاسرائيلي ، الذي يتمثل في حشد اكبر عدد من القوات من اجل الانتهاء

باقل عدد ممكن من الخسائر · وقد تحقق ذلك بواسطة التقدم ببطء وبصـــورة مامونة » (١٤) ·

واذا كانت كثافة النيران التي استخدمت « بدون تفكير او رحمة » قد اثارت العديد من التساؤلات في اسرائيل ، فأن التقارير الكاذبة حول سير المعـــارك ونتائجها ، التي كانت تنشرها وسائل الاعلام الاسرائيلية ـ كعادتها في مثـــل هذه الحالات في السابق ـ نقلا عن الاوساط العسكرية ، قد احدثت ردود فعـل معاكسة ايضا فيما بعد · فقد تبارت تلك الاجهزة في وصف « هرب » الفدائيين امام القوات الاسرائيلية ، وسهولة السيطرة على الاهداف ، ثم وقوع عشرات الاسرى من المقاتلين الفلسطينيين واللبنانيين في يد القوات الاسرائيلية ـ وكان العملية كلها ليست سوى مناورة بسيطة يقوم بها الجيش الاسرائيلي في جنوب لبنان · الا ان رئيس الاركان الاسرائيلي نفسه كذب هذه التقارير فيما بعـــد بقوله : « على عكس التقارير التي نشرت حتى الآن ، لم يهرب الفدائيون مـن مواقعهم في جنوب لبنان قبل هجوم الجيش الاســـرائيلي ، لكنهـم تحفروا ونصبوا الكمائن ولغموا الطرق » (١٥) · وزعم غـور بـأن عدد الفدائيين الذين قتلوا في العملية يتراوح بين ٢٥٠ ـ ٤٠٠ قتيل ، « وهو رقم عال للغاية ، ويزيد اكثر من ١٠ مرات على عدد الفدائيين الذين قتلوا في اية عملية حتى الان ·· والسبب في مقتل هذا العدد الكبير ـ على حد زعم غور ـ من الفدائيين هو قرارهم البقاء والقتال · وللدلالة على حقيقة عدم هروبهم ، فقد قتل ٤٧ فدائيا في مارون الرأس في قتال وجها لوجه » (١٦) ·

كذلك كذب الناطق العسكري الاسرائيلي ما اشيع عن وجود عشرات الاسرى من الفدائيين في اسرائيل ، بقوله : « ان عدد [الفدائيين] الذين استسلمـــوا لقواتنا اثناء الهجوم الاسرائيلي بلغ ١٢ شخصا فقط ، بينهم مصري واحـــد وباكستاني وايراني · وخلال العملية اعتقلت قواتنا عشرات الاشخاص المشتبـه بهم على انهم ينتمون الى حركة « فتح » ومنظمات فلسطينية اخرى · وبعـــد التحقيق معهم اتضح ان ١٢ شخصا فقط من بينهم كانـــوا ينتمون الى هـــذه المنظمات ، وبعضهم جرحى ولا يزالون في المستشفيات · وبين هؤلاء صبي يبلـغ الرابعة عشرة من العمر ، اعتقل وهو مسلح، وكذلك اربعة من اللبنانيين» (١٧)·

اسرائيل لم تحقق اهدافها كاملة

حددت اسرائيل اهدافها من وراء عملية احتلال جنوب لبنـــان عـلى النحو التالي : «**اولا** : السيطرة على حزام امن ضيق حتى تحقيق اتفاق سياسي مقبول من جانب اسرائيل ، على حدودهـا الشماليـــة ، يؤدي الى تحديـــد نشاط [الفدائيين] · **ثانيا** : القضاء على عدد كبير من [الفدائييـــن] وتدميـــر

قواعدهم ، بحيث يؤدي هذا الامر الى خفض نشاطهم ، واشغالهم في اعادة تنظيم انفسهم لزمن طويل · **ثالثا :** محاولة تقويض الوضع الراهن في جنوب لبنان بحيث يكون بداية مجرى ··· لاعادة النظر في الموقف من [الفدائيين] والسوريين المتواجدين في لبنان كله » (١٨) ·

وكان رئيس حكومة اسرائيل مناحيم بيغن قد أعلن « ان جيش اسرائيل سيبقى بالتأكيد في جنوب لبنان حتى الوصول الى اتفاق » (١٩) · وشاركه في ذلك وزير الدفاع وايزمان ورئيس الاركان غور ، في مؤتمرهما الصحفي المشترك ، بينما كان القتال لا يزال مشتعلا ، بقولهما : « ان اسرائيل مستعدة للانسحاب من جنوب لبنان بشرط ان يتم تحقيق اتفاق يضمن عدم تواجد [الفدائيين] في الجنوب كله · ان اسرائيل لن تترك فراغا في المنطقة · والشرط الآخر لدينا هو استخدام ميناء صور للاغراض المدنية فقط ، والكف عن استخدامه لنقل الاسلحة [للفدائيين] · اما الشرط الآخر الذي تصر عليه اسرائيل فهو الحفاظ على العلاقة بينها وبين المسيحيين في جنوب لبنان » (٢٠) ·

الا ان اسرائيل ادركت ، خلال المعارك وبعدها ، وعلى لسان مسؤوليها السياسيين والعسكريين ، عدم صحة تقييمها للوضع العام قبل بدء الهجوم ، وبالتالي فشلها في تحقيق اي من اهدافها بصورة كاملة · والامثلة على ذلك واضحة ·

اولا : فشل الهجوم في القضاء على « اكبر عدد ممكن » من الفدائيين ، حيث ظهر ان خسائر اسرائيل خلال المعارك ، تفوق نسبيا خسائر الفلسطينيين ، اذا ما اخذنا في الاعتبار عدد القوات المهاجمة · « ان كل اصابة عندنا تعتبر ثمنا باهظا ، اذا اخذنا بالاعتبار ان الجيش الاسرائيلي قاتل في هذه المعركة ضد عدد قليل من [الفدائيين] ، غير متفوقين من ناحية معداتهم القتالية ، بالمقارنة مع اسلحة الجيش الاسرائيلي » (٢١) · وقد برر رئيس الاركان ، غور ، هذا الفشل بقوله : « انه لمن الحماقة التفكير بان عملية واحدة يمكن ان تقضي على الارهاب وتحيده ، بل مسلسل من العمليات · هناك اكثر من عشرين الف فدائي في لبنان ، ولم يفكر احد ، او حتى يحلم ، بقتلهم جميعا » (٢٢) · ولكن اذا كان هذا الادعاء صحيحا ، فلماذا استخدمت اسرائيل كل هذه القوة ؟ ان الرد على هذا السؤال واضح من خلال تصريحات المسؤولين الاسرائيليين قبل العملية وبعدها · فغشية الهجوم تحدث اولئك علنا عن رغبتهم في القضاء جسديا على آلاف الفدائيين في الجنوب ، وقد ارادوا تحقيق ذلك بواسطة كثافة نيران القصف ، محاولين تجنب المواجهة وجها لوجه · ولكنهم غيروا لهجتهم بعد ان اتضحت نتائج المعارك ·

ثانيا : لقد طالبت اسرائيل بالوصول الى اتفاق مع السلطة اللبنانية ، بشأن الجنوب ، يمنع التواجد الفدائي فيه ويجعل منه جسرا « للعلاقات الطيبة » مع اسرائيل · ان السؤال الذي يطرحه معظم الاسرائيليين الان هو هل فكرت الحكومة الاسرائيلية في كيفية تحقيق اتفاق كهذا ، في ظل الازمة الراهنة في لبنان · هناك من يقول ان اسرائيل مدركة لهذا الوضع ، وهي تعتبر طلباتها بعيدة المنال ، ولكنها سعت بواسطة طرحها الى « تشجيع انشاء الجيش اللبناني ، لكي يأخذ على عاتقه مهمة الامن في منطقة الحدود · واذا لم تستطع حكومة لبنان الاسراع في اعادة تنظيم هذا الجيش ، تكون ملزمة على التسليم بتقوية الميليشيات [الانعزالية] في قرى الجنوب ، من اجل انشاء حاجز «مسيحي» بين اسرائيل والتجمع السكاني المسلم في المنطقة · ويمكن لهذا الحاجز ان يرتكز على قوة ردع الجيش الاسرائيلي » (٢٣) · وتدرك اسرائيل الآن ان الجهة الوحيدة التي تستطيع ابرام اتفاق معها هي الميليشيات المسيحية في الجنوب · الا ان مصداقية هذه القوات قد تقوضت لدى القيادة الاسرائيلية ، على الصعيدين العسكري والاخلاقي ، نظرا لعدم فعاليتها اثناء الهجوم الاسرائيلي وارتكابها جرائم كثيرة ، في القرى الاسلامية المحتلة في الجنوب · « ان وحدات الكتائب في جنوب لبنان لم تظهر كقوة مقاتلة اثناء المعارك الاخيرة ــ ولكنها برهنت على قوتها في المذبحة التي نفذتها في بلدة الخيام (وفي مارون الرأس وبنت جبيل) حيث اقدم رجال الكتائب على ذبح اربعين مسلما ، بينهم نساء واطفال » (٢٤) ·

واذا كانت اسرائيل مدركة لهذا الوضع ، فماذا كانت تبتغي من وراء مطالبتها بأتفاق مع الحكومة اللبنانية يضع حدا للنشاط الفدائي في الجنوب ؟ ان التفسير الوحيد لذلك هو التسلح بهذه المطالبة من اجل تحقيق غايات اخرى ، تراها اسرائيل مهمة في الوقت الحاضر · فاستمرار احتلال منطقة الجنوب ، او على الاقل التواجد عسكريا فيه ، يؤدي الى زيادة حدة الازمة اللبنانية ، خاصة وان لاسرائيل « حلفاء » في لبنان ، لا يميزون بين الاحتلال الاسرائيلي وبين الوجود الفلسطيني · وبذلك تحقق اسرائيل هدفها الاكيد ، وهو ابقاء نار الفتنة مشتعلة على ارض لبنان ، للضغط على الفلسطينيين عسكريا وسياسيا ، وبالتالي الضغط على سوريا وزيادة تورطها في المشاكل اللبنانية بهدف اضعاف قوتها على الجبهة الشرقية · ولا تخفي اسرائيل هنا تآمرها على القوات السورية والفلسطينية معا في لبنان ، فهي تتحدث علنا عن رغبتها في « التفاهم » مع سوريا حول استثمار وجودها (اي سوريا) في لبنان من اجل السيطرة على المقاومة الفلسطينية ومنع نشاطها · ورغم المساعدات التي قدمتها سوريا للفدائيين ، او سهلت وصولها اليهم ، اثناء الغزو الاسرائيلي لمنطقة الجنوب ، فأن اسرائيل ترغب في تجاهل ذلك ، وتسعى الى دق اسفين بين سوريا والفلسطينيين ، بما يخدم مصالحها · ولذلك يتساءل ، مثلا ، رئيس الاركان غور عما اذا كان السوريون « سيوافقون على منع الارهاب · وان تم ذلك فما هو الثمن الذي يطلبونه ؟··· لقد ادعى

السوريون ، خلال السنتين الماضيتين ، بانه ما لم يسمح لهم بتحريك قواتهم جنوبا نحو صور وحاصبيا والنبطية ، فلا ينبغي ان نتوقع منهم القيام بعملية ضبط الارهابيين » (٢٥) · واستطرد غور قائلا « بأن على اسرائيل ان تقرر الان اذا ما كانت ستسمح لهم بذلك ، واي حجم من القوات السورية ينبغي ان يسمح له بالاقتراب من الحدود الاسرائيلية ··· ان لدى السوريين اسبابا وجيهة للموافقة على ضبط م·ت·ف· ، وهي ان جيشهم موزع الان بين لبنان وسوريا · وقد انتشر في لبنان نفسه انتشارا واسعا ، مما جعلهم حساسين للغاية تجاه اية عملية هجوم ضدهم · لذلك سيكونون حذرين للغاية بالسماح لـ م·ت·ف· بحرية العمل ضد اسرائيل ، وهو عمل قد يؤدي الى انتقام ضد سوريا وهي غير قادرة على الدفاع عن نفسها · وانطلاقا من هذه الخلفية يبدو ان السوريين سيكونون معنيين بمنع النشاط الارهابي » (٢٦) ·

ويبدو ان التفكير في هذا الاتجاه كان احد العناصر الاساسية في التخطيط لعملية غزو جنوب لبنان ، « فاذا اخذنا اقوال مخططي « معركة الليطاني » في الحكومة وفي قيادة الاركان العامة ، نجد ان الافتراض لدى هؤلاء تمثل في ان هذه المعركة ستدفع السوريين نحو الوصول الى تسوية مع اسرائيل بشأن [الفدائيين] في جنوب لبنان ··· فكما ان حرب الاستنزاف في غور الاردن دفعت الحكومة الاردنية الى مشاركتنا في القضاء على [الفدائيين] ، وكما ان السوريين هم شركاء صامتين لمنع اعمال التخريب من هضبة الجولان ، فان التوقع هو انتكون سوريا شريكا صامتا حول هذه القضية في جنوب لبنان ايضا · وواضح ان اسرائيل كانت ملزمة باعطاء ثمن معين لدمشق ··· وكما يتضح ، كان الافتراض السائد ، قبل بدء المعركة ، ان تقدم جيش اسرائيل الى عمق ١٠ كلم في جنوب لبنان ، سيدفع السوريين الى تفضيل اتفاق كهذا على تأزيم المعارك ··· وقد قررت اسرائيل منذ البداية عدم اثارة السوريين والتقدم فورا الى الليطاني، لانها رغبت في اشراكهم باتفاق كهذا في جنوبي لبنان »(٢٧)·

الدور الاميركي وقرار مجلس الامن

ان التخطيط الاسرائيلي هذا لم يأخذ في الحسبان ، كما يبدو ، الموقف الاميركي والدولي ، وما قد ينجم عنه · وربما كانت اسرائيل على اقتناع بان الولايات المتحدة لن تشوش عليها في تحقيق اهدافها في الجنوب اللبناني ، خصوصا « وانه لم يعد هناك ادنى شك في ان الاميركيين كانوا على اطلاع على سر العملية قبل بدئها · ولن نخطىء اذا قلنا انهم كانوا يعرفون بصورة عامة النقاط الرئيسية التي ستسيطر عليها اسرائيل في القطاع المجاور لحدودها · ورغم انهم اعربوا عن قلقهم ازاء التطورات السلبية التي قد تؤثر على مجرى

مفاوضات السلام اثر العملية ... يبدو ... انهم لم يعربوا عن معارضة صريحة . ولو ارادوا ، لاثقلوا جدا على العملية او ربما منعوها بصورة مطلقة ... لقد كان هناك نوع من الموافقة [الاميركية] الصامتة على العملية التي نفذها الجيش الاسرائيلي » (٢٨) .

الا انه اتضح في النهاية ـ حسب قول الاسرائيليين ـ ان الموقف الاميركي كان متناقضا تماما مع مخططات اسرائيل واهدافها من وراء احتلال الجنوب . فقد ادرك بيغن ، وهو يستعد لرحلته الاخيرة الى واشنطن « الصاعب التي ستواجهه اثناء المحادثات مع الادارة الاميركية حول ازمة المنطقة . وكان امله ان يستطيع طرح موضوع الجنوب كبند رئيسي في جدول المحادثات ، بهدف تخفيف الضغوط حول المواضيع الاخرى المدرجة » . وقد حمل بيغن معه ، فعلا ، الى واشنطن « مشروعا اسرائيليا بشأن قضية الجنوب ، تم اعداده بعد استشارات اجراها مع هيئات سياسية وعسكرية مختلفة . ويتألف هذا المشروع من اقتراحين بديلين : وضع قوات نظامية من الجيش اللبناني [في الجنوب] ، او تعزيز الميليشيات المسيحية بقيادة الضابطين سامي شدياق وسعد حداد ، وتسليمهما شؤون الامن ، حتى اعادة تنظيم الجيش اللبناني » . وهدف المشروع وضع اميركا امام الامر الواقع ، بحيث لن يبقى امامها الا الاختيار بين الحلول التي خططت لها اسرائيل ، قبل بدء عملية الاجتياح . الا ان الادارة الاميركية لم تنتظر حتى وصول بيغن الى واشنطن ، فسارعت الى تقديم مشروع قرار الى مجلس الامن يدعو الى وقف القتال في جنوب لبنان، وارسال قوات دولية الى هذه المنطقة ، ثم دعوة القوات الاسرائيلية الى الانسحاب كليا من القطاع الذي احتلته ـ وهذا ما نص عليه القرار ٤٢٥ الصادر عن مجلس الامن بتاريخ ١٩ـ٣ـ١٩٧٨ .

كذلك رفضت الادارة الاميركية ، طرح موضوع الجنوب على جدول المباحثات مع بيغن ، باعتباره قضية منتهية بعد صدور قرار مجلس الامن . ويبدو ان الولايات المتحدة « كانت تنتظر هذه الفرصة منذ زمن : ادخال قوات الطوارىء الدولية الى جنوب لبنان ، والتخلص من وجود الاسرائيليين [والفدائيين] في هذه المنطقة ، وبعد ذلك ، ادخال قوات الحكومة اللبنانية » (٣٠) اليه ، الامر الذي يبرهنه الاهتمام الاميركي المتزايد ، في الاونة الاخيرة ، باعادة بناء الجيش اللبناني .

ما الذي دفع الولايات المتحدة الى مثل هذا الموقف ؟ هناك الكثير من الاراء التي طرحت داخل اسرائيل في هذا الصدد . واهمها ، **اولا** : ان الولايات المتحدة ادركت عدم واقعية الطلب الاسرائيلي بشأن اتفاق مع الحكومة اللبنانية « اذ حتى لو تحقق اتفاق كهذا ، فلن تكون له اية قيمة عملية في الوضع القائم في لبنان » (٣١) . وبذلك فان الاحتلال الاسرائيلي لمنطقة الجنوب سيستمر ، وستضاف بالتالي معضلة جديدة الى مجرى المفاوضات بين اسرائيل والدول

العربية حول ازمة المنطقة · **ثانيا** : عدم رغبة الولايات المتحدة بالظهور كأنها تؤيد اسرائيل في عمليتها · **ثالثا :** خطر انجرار سوريا الى المعركة ، مما سيعرض اتفاقات فصل القوات في الجولان للخطر · **رابعا :** ضغط من جانب دول عربية موالية للغرب على الولايات المتحدة ، لدفع اسرائيل الى الانسحاب · **خامسا :** الخوف الاميركي من تقوية مركز الاتحاد السوفييتي في المنطقة ، نتيجة احتلال جنوب لبنان (٣٢) ·

ويهدف المشروع الاميركي الى تحقيق امرين رئيسيين : « اعطاء حكومة اسرائيل مبررا محترما لاخراج قواتها من منطقة الجنوب ، ثم ايجاد ضمان لعدم وقوع اية عمليات انتقامية على مدى واسع ضد القوات [الانعزلية] في جنوب لبنان ، بعدم الانسحاب الاسرائيلي » (٣٣) ·

التخوف الاسرائيلي من قوات الطوارىء الدولية

راحت اسرائيل ، بعد وصول القوات الدولية الى منطقة الجنوب ، اثر « التشويش الاميركي » على مخططاتها ، تغير لهجتها الاولى ، وتعرب عن تخوفها من عدم جدوى هذه القوات في منع النشاط الفدائي من هذه المنطقة ، رغم « انطباعاتها » بأن قوات الطوارىء الدولية جادة في مهمتها في منع عودة الفدائيين الى الجنوب ، ورغم اعلان فايتسمان ان اسرائيل « ستؤمن لقوات الطوارىء ظروفا جيدة في المنطقة ، ولن يكون اي تواجد للمخربين ، وستسيطر قوات الطوارىء على جسور الليطاني » (٣٤) · الا ان فايتسمان اوضح ايضا ان « اسرائيل ستدرس الوضع في المنطقة بعد مرور فترة من الوقت · واذا لم تنفذ قوات الطوارىء الدولية مهمتها ، فسيعود الجيش الاسرائيلي لتنفيذ مهامه»، ولكنه لم يفصح عن طبيعة هذه « المهام » ، وهل تعني ان الجيش الاسرائيلي سيعود الى العمليات الانتقامية « وعمليات التطهير » ، ام سيقدم مرة اخرى على احتلال جنوب لبنان ·

وعلى اي حال ، فأن معظم الاسرائيليين يعتبرون دخول قوات الطوارىء الى الجنوب بمثابة فشل عسكري لحرب الجنوب ، « اذ ربما لن تستطيع قوات الامم المتحدة منع عمليات « التخريب » من المنطقة اللبنانية ، ولا منع اعداد المنطقة للمتطلبات العسكرية السورية ، في الوقت الذي سيؤثر فيه وجود هذه القوات على العمليات الاسرائيلية وقدرة ردع الجيش الاسرائيلي » (٣٥) · ثم ان نجاح قوات الطوارىء الدولية في مهمتها يتطلب شروطا معينة منها « التعليمات التي ستتلقاها هذه القوات من مجلس الامن بواسطة قادتها ، ثم استعداد الحكومات التي تنتمي اليها هذه القوات لتحمل المخاطرة · وواضح ان قوات الطوارىء غير

معدة للقتال ، ولكنها تستطيع بالتأكيد منع تسلل قوات مسلحة الى جنوبي لبنان » (٣٦) ٠

اما الشروط الاخرى التي يجب ان تتوفر لنجاح قوات الطوارىء الدولية في مهمتها ، فهي ـ باعتراف رئيس الاركان الاسرائيلي نفسه ـ موافقة م٠ت٠ف٠ على وقف اطلاق النار في الجنوب ٠ « ان احدى النتائج من عملية الجيش الاسرائيلي في جنوب لبنان ـ حسب قول غور ـ هي جعل م٠ت٠ف فريقا عمليا في اية اتفاقية في تلك المنطقة ٠٠٠ وكل من يدعي عكس ذلك يخدع نفسه » (٣٧) ٠

ان عدم موافقة منظمة التحرير على وقف اطلاق النار في الجنوب يعني الكثير بالنسبة لاسرائيل ٠ فالمنظمة « تملك اسلحة اكثر تطورا من اسلحة قوات الطوارىء ٠٠٠ [والفدائيون] الموجودون شمالي الليطاني يستطيعون في المستقبل ايضا قصف المستوطنات الاسرائيلية ، بواسطة صواريخ الكاتيوشا التي بحوزتهم ، والتي يبلغ مداها ٢٢ كلم ، والمدافع من عيار ١٣٠ ملم من انتاج روسي ، والتي يبلغ مداها ٣٠ كم ٠ وهنا ينبغي التساؤل : ماذا سيحدث اذا بدأ [الفدائيون] قصف المستوطنات الاسرائيلية من فوق رؤوس قوات الطوارىء الدولية ؟ ان افراد هذه القوات هم اصحاب نظرة قانونية [متزمتة] ، ولذلك ينبغي الافتراض انهم لن يلقوا المسؤولية على م٠ت٠ف٠ طالما انه ليس بحوزتهم ادلة كافية ٠ ومقابل ذلك ، فأن كل عملية انتقامية من جانب وحدات نظامية ستكون اسهل للبرهان والتنديد » (٣٨) ٠

وعلى اي حال ، يبدو ان اسرائيل مدركة جيدا ، من خلال تصريحاتها ، ان وجود قوات الطوارىء الدولية في منطقة الجنوب لن يرحها ، كما هو الحال مع وجود هذه القوات في هضبة الجولان وسيناء ٠ ويبدو انها كانت تفضل عدم تواجد هذه القوات في هذه المنطقة ، لانها ستؤثر على حرية نشاطها ضد الفلسطينيين ، بعد كل عملية فدائية داخل فلسطين المحتلة ٠

ردود الفعل الاسرائيلية : العملية لم تسبب ضررا كبيرا للفدائيين

اثارت عملية اجتياح جنوب لبنان ردود فعل مختلفة داخل اسرائيل ٠ ويلاحظ ان ردود الفعل هذه كانت في معظمها مؤيدة في بداية العملية ، الا انها بدأت تتبدل مع انتهائها ، نظرا لعدم قناعة الاسرائيليين بان العملية حققت اهدافها فعلا ، سواء العسكرية منها او السياسية ٠ فعلى صعيد الاهداف العسكرية ادرك الاسرائيليون عدم جدوى العملية في القضاء على قوة الفدائيين والحد من نشاطهم ، اذ انهم يستطيعون «في المستقبل ايضا القدوم عن طريق البحر او تفجير براد ملغوم في القدس ٠ وهناك خطر قيامهم بقصفنا من بعيد ، بدون اية مضايقة٠ اما اذا كانت هذه العملية قد نفذت من اجل الانتقام ـ فقد دفعنا ثمنا باهظا

مقابله · لقد جاءت من اجل ضمان نهاية الاجرام ، او على الاقل كبح جماح [الفدائيين] ، وثمة شك كبير اذا كانت قد حققت هدفها هذا · على العكس ، هناك من يقول ان البقاء في جنوب لبنان لن يقلل بل يزيد من عدد الضحايا ، ولن يخفض بل سيزيد عمليات « فتح » ، لانه سيحول م·ت·ف· من منظمة وضعت في الظل الى منظمة تلقى تأييدا في العالم العربي » (٣٩) ·

كما كشفت العملية عجز اسرائيل وفشل سياستها في القضاء عسكريا على حركة المقاومة · « فمن اعتقد ، انه يمكن بواسطة عملية من هذا النوع ، مهما كان حجمها ، القضاء نهائيا على وجود [الفدائيين] ، فأنه ادرك الآن انه حتى بعد وصول جيش اسرائيل الى ضفة الليطاني ، ينجح [الفدائيون] في اعادة تنظيم انفسهم ، وبدء اطلاق النار من جديد · ان شعار قتل « اكبر عدد ممكن من الفدائيين » الذي طرح في مناسبات مختلفة ، لا يشهد على فهم ظاهرة م·ت·ف· [والفدائيين] الذين يعملون من قبلها · وحسب هذا الاسلوب ، يمكن التقدم حتى بيروت ، الا ان المشكلة لن تحل · وحتى عندما قتل بضعة مئات من [الفدائيين] فأن هذا الامر لم يؤثر على عمل المنظمة ، التي تستطيع تجنيد طاقات جديدة من بين جماهير اللاجئين الفلسطينيين » (٤٠) ·

ويلاحظ ايضا ان هنالك شبه اجماع داخل اسرائيل حول فشل العملية الاخيرة، في تحقيق هدفها الرئيسي ، اي « كسر ظهر م·ت·ف· بواسطة تدمير قوتها القتالية ومقاتليها ومعداتها ومراكزها ، ثم انقاذ مستوطنات الجليل من القصف البري · علينا الا نسأل فقط اذا كان هذا الهدف قد تحقق ، وانما هل هذه هي الطريقة المفيدة لتحقيقه · والجواب على هذين التساؤلين سلبي » (٤١) ·

اذن ، ما هي الوسيلة المفيدة ، في نظر الاسرائيليين ، لمكافحة نشاط الفدائيين ؟ لقد طرح اكثر من رأي في هذا الصدد ، لعل اهمها هو الحل السياسي · « ان الحقيقة هي انه لا يمكن منع اعمال الارهاب من جانب حركة سرية ، او عمليات حرب العصابات ، بطرق عسكرية فقط · ان الحل ، اذا كان هناك حل ، هو سياسي ، ويعتمد على ايجاد وضع تدرك معه المنظمات [الفدائية] انه ليس هناك احتمالا لتحقيق اهدافها بالقوة ، الا ان هناك امكانية لتحقيق جزء منها بالطرق السلمية ··· ولكن قد ··· لا توجد طريقة كهذه في المشكلة الفلسطينية · لدينا عوائق خاصة بنا تمنعنا من اقتراح حل سياسي · ولديهم هم ايضا موانع خاصة بهم تمنعهم من قبول حل كهذا · ربما «حكم علينا» بالاستمرار في هذه الحرب الى الابد · ولكن امرا واحدا ··· يبدو اكيدا ، وهو ان الحديث حول « تحقيق اتفاق » في جنوب لبنان ، كوسيلة منع اعمال [الفدائيين] في المستقبل ــ هو حديث غير مسؤول ، يخلق توقعات ليس لها اساس ، ستؤدي في المستقبل الى خيبات امل غير ضرورية » (٤٢) ·

م٠ت٠ف هي المستفيدة من العملية

يسود الانطباع لدى بعض الدوائر الاسرائيلية بأن منظمة التحرير الفلسطينية التي خططت لعملية تل ابيب ، هي المستفيدة الاساسية من وراء عملية غزو جنوب لبنان ٠ فاذا كان الهدف الاساسي لـ م٠ت٠ف٠ هو نسف المفاوضات السياسية الدائرة حاليا بين اسرائيل ومصر ، « فان العملية على طريق حيفا ـ تل ابيب قد حققت هدفها حسب كل المفاهيم : فقد قضت على اربعين ضحية ، ولغمت طريق المفاوضات المشوشة على اي حال ، وجرت اسرائيل ايضا الى عملية عسكرية كبيرة جدا ، وكتلت صفوف العرب ٠ وقد ابرزت القضية الفلسطينية مرة اخرى في الوعي الدولي كمشكلة ملحة تتطلب حلا سريعا ، لا يمكن تجاهلها في أية مفاوضات » (٤٣) ٠

اما على الصعيد العسكري ، فأن المنظمة هي الرابحة ايضا في نظر الاسرائيليين ، لانها استطاعت فتح جبهة واسعة معهم هي الطرف الاساسي فيها، مما ادى الى اعتراف اسرائيل نفسها ـ على لسان رئيس الاركان غور ، كما ذكرنا سابقا ـ بـ م٠ت٠ف٠ كطرف في الحرب وفي الهدنة ، وبالتالي ظهور م٠ت٠ف٠ في نظر العالم كطرف سياسي وعسكري لا يمكن تجاهله (٤٤) ٠

بالاضافة الى هذين المكسبين ، يتضح ان م٠ت٠ف حققت مكاسب مهمة على الصعيد الفلسطيني ايضا ٠ « فقد ادى الهجوم على لبنان الى خلق تضامن بين الفلسطينيين في جميع اماكن تواجدهم ، سواء في الاردن او في الضفة الغربية وغزة وفي لبنان ، وزاد من تكتلهم وتأييدهم لمنظمة التحرير الفلسطينية ، وغضبهم على الدول العربية ، التي لم تقدم مساعدة للفدائيين » (٤٥) ٠ وتمثل الانتفاضة التي قام بها سكان المناطق المحتلة في الضفة الغربية وقطاع غزة خلال الشهر الماضي ، اثر الهجوم على الجنوب ، صورة حية لهذا التضامن الذي اشارت اليه وسائل الاعلام الاسرائيلية نفسها ٠

اسرائيل تخشى تحول الجنوب الى فيتنام اخرى

بعد هذا العرض لمجرى الاحداث في جنوب لبنان منذ بدء الهجوم الاسرائيلي، يبقى السؤال مطروحا : ما هي الحلول البديلة ، التي تراها اسرائيل ملائمة للتعامل مع هذه القضية ٠

يتمثل الحل الاول ، الذي تطرحه بعض الدوائر الاسرائيلية ، في بقاء القوات الاسرائيلية في جنوب لبنان ، رغم الضغوط الدولية « والقيام بمساومة طويلة ـ وربما تكون مثيرة للاعصاب ايضا بسبب الضغط الاميركي والدولي للانسحاب

من الجنوب ـ للتوصل الى اتفاقات قوية ، ونافذة المفعول طوال فترة المفاوضات مع مصر ، بحيث تقوي قدرة المساومة الاسرائيلية في هذه المفاوضات » (٤٦) ٠

الا ان هذا الرأي ، يصطدم بمعارضة قوية وشبه شاملة ، ناجمة عن الخوف من التورط الاسرائيلي في حرب استنزاف ، غير مضمونة النتائج ، مع الفدائيين الفلسطينيين ، وبالتالي تكبد خسائر بشرية ومادية باهظة لا تستطيع اسرائيل تحملها ٠ وبعبارة اخرى ، يخشى بعض الاسرائيليين من تحول جنوب لبنان الى فيتنام اخرى ، لا تجد اسرائيل منها مخرجا ٠ « فكما حدث في فيتنام ، هكذا في لبنان ايضا ٠ فالعملية تثير ردود فعل سلبية في اوساط الرأي العام في العالم ٠ وفي المقابل اسئلة عسكرية ٠٠٠ ليس هناك اي تأكيد بان العملية كانت نجاحا عسكريا ٠ ان الهدف المعلن (ابادة [الفدائيين]) لم يتحقق ولكننا كسبنا منطقة لم يكن لنا اهتمام بها (وبالنسبة للنجاح العسكري في فيتنام ، فقد انتهت الخلافات في الرأي حول النتيجة بان الولايات المتحدة خسرت الحرب) ٠ » (٤٧) ٠

بالاضافة الى ذلك فان الرأي العام الاسرائيلي الداخلي « غير مضمون » ايضا بسبب قرب جنوب لبنان من المناطق الاسرائيلية ، التي يحتمل ان تتعرض للقصف ، ثم بسبب الاعباء التي قد تسببها حرب من هذا النوع ٠ « ان لبنان ليس بلدا بعيدا في آسيا ، كما كانت فيتنام بالنسبة للولايات المتحدة ٠ فلوس انجلوس لم تتعرض لاي صاروخ كاتيوشا ، اطلق عليها من هانوي ٠ كذلك فأن ثوار الفيتكونغ لم يخطفوا اي باص على طريق شاطىء كاليفورنيا » (٤٨) ٠ ثم ان حربا من هذا النوع ، ضد قوات مدربة على حرب العصابات ، ستؤدي الى « رأي عام غاضب ، وعبء امني اضافي ، ثم تقوية مشاعر العداء في العالم [تجاه اسرائيل] ، وانقسام الرأي العام في الداخل ٠ فالاصداء التي نسمعها من جنود اشتركوا في المعركة في الشمال غير مشجعة ، وتذكرنا بتذمر الجنود الاميركيين الذين عادوا من جنوب شرق آسيا ٠ اما النتائج فستكون اخطر بالنسبة لنا : فالولايات المتحدة بقيت الدولة الكبرى الاولى رغم مشاعر العداء في العالم تجاهها ، والثمن الباهظ بالدم وبالمال الذي دفعته ، واستطاعت تحمل كل المصائب التي انزلتها بها تلك الحرب ٠ وكان الثمن تنازل الرئيس الاميركي عن فترة ولاية اخرى ٠٠ ولكن ثمة شك كبير فيما اذا كنا نحن قادرين على الخلاص بثمن كهذا ٠ ان اسرائيل لن تستطيع مواجهة النقد الدولي والداخلي ، ولسنا متأكدين اذا كانت استقالة رئيس الحكومة كافية لمنع كارثة كهذه ٠ كذلك لسنا متأكدين اذا كانت اسرائيل قادرة على دفع الثمن الذي ستضطر الى دفعه ، حتى نتخلص من رئيس الحكومة الحالي » (٤٩) ٠

اما الحل الثاني ، البديل الذي تقترحه دوائر اسرائيلية اخرى فهو الانسحاب من الجنوب ٠ وهذا ، على ما يبدو ، هو الرأي السائد الان لدى معظم الاوساط

الاسرائيلية واسباب ذلك متعددة ، واهمها فشل العملية في القضاء على نشاط الفدائيين في المستقبل ، بحيث يتوقع استمرار النشاط الفدائي وقصف المستعمرات الاسرائيلية ، ثم احتمال تورط اسرائيل في حرب استنزاف ضد الفلسطينيين ، كما ذكرنا سابقا ٠

وعلى اي حال ، فان المسؤولين الاسرائيليين يعلنون ان الانسحاب الاسرائيلي سيتم حال استكمال تمركز قوات الطوارىء الدولية في المنطقة ، واخذ مواقعها كاملة ٠ الا ان نشاط اسرائيل في الجنوب يدل على رغبة الاسرائيليين في الاحتفاظ بمواقع معينة في تلك المنطقة ، رغم قرار مجلس الامن ٠

خاتمة

يستدل من خلال العرض لاحداث معركة الجنوب ، ان اسرائيل ماضية في تنفيذ سياستها التوسعية في الاراضي العربية ، رغم المفاوضات الدائرة بشأن الوصول الى تسوية في المنطقة ٠ كذلك ، يلاحظ ان توقيت العملية لم يكن لصالح اسرائيل ، اذ انها كانت تفضل مواصلة عملية المفاوضات مع مصر ، في ظروف مريحة تمكنها في النهاية من تحقيق سلام منفرد معها ، ثم التفرغ للجبهة الشرقية بعد ذلك ٠ وقد اعلن وزير الدفاع الاسرائيلي ، الذي يعتبر من اشد المتحمسين لتحقيق السلام المنفرد مع مصر ، بان « مسألة الجنوب تعتبر ثانوية الآن ، بالمقارنة مع السلام مع مصر ٠ ولدي اساس للاعتقاد بان مسألة لبنان لن تكون عاملا في قطع الخيط مع مصر » (٥٠) ٠ وهذا ما تم بالفعل ، حيث قام فايتسمان بزيارة القاهرة حتى بعد احتلال جنوب لبنان ٠

اما المسألة الثانية التي يمكن ملاحظتها من خلال عملية اجتياح الجنوب ، فهي النظرة الجديدة في اسرائيل تجاه منظمة التحرير الفلسطينية ، التي تنم على الشعور بازدياد خطورة المنظمة تجاهها ـ وان كان الوضع غير ذلك ، فلماذا استخدمت اسرائيل كل تلك القوة ضد الفدائيين في الجنوب ؟ امن اجل تجنب الخسائر البشرية بين جنودها فقط ؟ ام من اجل مسألة اخطر ، وهي محاولة تصفية المنظمة عسكريا ، بعدما عجز عن ذلك حلفاؤها في لبنان ، خلال السنوات الاخيرة ؟ ويبدو ان ما يدعو اسرائيل الى ذلك هو يقينها بانها ستصل في النهاية الى مرحلة لا يعود معها التصدي السياسي للفلسطينيين كافيا من جانبها ، امام ضغوط دولية وعربية ، تؤيد حق تقرير المصير للفلسطينيين ٠ ولذلك يبدو انها لجأت الى هذه المعركة ، على امل التخلص عسكريا من المنظمة ، ليسهل عليها فيما بعد تصفيتها سياسيا ٠

ان معارك الجنوب ، رغم ما اثارته من ردود فعل مختلفة داخل اسرائيل وخارجها ، تمثل مرحلة جديدة من حدة الصراع الاسرائيلي ـ الفلسطيني وربما

تكون الاولى في معارك اخرى اشد شراسة ، خصوصا بعد ان اعلنت حكومة بيغن انها لن تعترف بأية حقوق مشروعة للشعب الفلسطيني ، ولا تنوي ابدا الانسحاب من الاراضي الفلسطينية المحتلة سنة ١٩٦٧ ٠

الحواشي :

(١) اليكس فيشمان ـ عل همشمار ، ٢٤ـ٣ـ٧٨ ٠
(٢) مارك جيفن ، المصدر نفسه ٠
(٣) حجاي ايشد ـ دافار، ٢٠ـ٣ـ٧٨ ٠
(٤) في مقابلة معه في معاريف ، ٢٤ـ٣ـ٧٨ ٠
(٥) اوري دان ـ معاريف، ٢٢ـ٣ـ٧٨٠
(٦) يديعوت احرونوت ، ١٣ـ٣ـ٧٨ ٠
(٧) اوري دان ـ معاريف، ٢٢ـ٣ـ٧٨٠
(٨) كما نقلتها « النهار » (بيروت) ، ١٣ـ٤ـ١٩٧٨ ٠
(٩) انظر الملاحظة (١) اعلاه ٠
(١٠) في مقابلة مع جيروزليم بوست ، ٣١ـ٣ـ٧٨ ٠
(١١) زئيف شيف ـ هآرتس ، ٣١ـ٣ـ٧٨ ٠
(١٢) انظر الملاحظة (١٠) اعلاه ٠
(١٣) المصدر نفسه ٠
(١٤) نقلا عن زئيف شيف ـ هآرتس ، ٣١ـ٣ـ٧٨ ٠
(١٥) انظر الملاحظة (١٠) اعلاه ٠
(١٦) المصدر نفسه ٠
(١٧) هآرتس ، ٤ـ٤ـ٧٨ ٠
(١٨) انظر الملاحظة (١) اعلاه ٠
(١٩) يديعوت احرونوت ، ١٦ـ٣ـ٧٨ ٠
(٢٠) دافار ، ٢١ـ٣ـ٧٨ ٠
(٢١) يونه شمشي ـ دافار ، ١٨ـ٣ـ٧٨
(٢٢) انظر الملاحظة (١٠) اعلاه ٠
(٢٣) شموئيل سيجف ـ معاريف ، ١٦ـ٣ـ٧٨ ٠
(٢٤) اوري دان ـ معاريف، ٢٢ـ٣ـ٧٨٠
(٢٥) انظر الملاحظة (١٠) اعلاه ٠
(٢٦) المصدر نفسه ٠
(٢٧) زئيف شيف ـ المصدر السابق ٠
(٢٨) المصدر نفسه ٠
(٢٩) شموئيل سيجف ـ معاريف ، ٢٠ـ٣ـ٧٨ ٠
(٣٠) زئيف شيف ـ المصدر السابق ٠
(٣١) افتتاحية دافار ، ٢٠ـ٣ـ٧٨ ٠
(٣٢) شموئيل سيجف ـ المصدر السابق
(٣٣) افتتاحية دافار، المصدر السابق٠
(٣٤) مقابلة مع فيتسمان ـ معاريف ، ٢٤ـ٣ـ٧٨ ٠
(٣٥) بروفيسور يحزكيئيل درور ـ يديعوت احرونوت ، ٣٠ـ٣ـ٧٨ ٠
(٣٦) زئيف شيف ـ هآرتس،٢٨ـ٣ـ٧٨٠
(٣٧) انظر الملاحظة (١٠) اعلاه ٠
(٣٨) اريئيل غيناي ـ يديعوت احرونوت، ٢١ـ٣ـ٧٨ ٠
(٣٩) اهرون جيفع ـ دافار،٢٠ـ٣ـ٧٨٠
(٤٠) مارك جيفن ـ عل همشمار ، ٢٤ـ٣ـ٧٨ ٠
(٤١) اريه ايرد ـ دافار ، ٢١ـ٣ـ٧٨٠
(٤٢) دافيد شوحام ـ يديعوت احرونوت، ٢٣ـ٣ـ٧٨ ٠
(٤٣) اهرون ميجد ـ دافار ، ٧ـ٤ـ٧٨ ٠
(٤٤) اوري افنيري ـ هاعولام هازيه ، ٥ـ٤ـ٧٨ ٠
(٤٥) داني روبينشتاين ـ دافار ، ٢٤ـ٣ـ٧٨ ٠
(٤٦) حجاي اشد ـ دافار، ٢٠ـ٣ـ٧٨ ٠
(٤٧) تدي برويس ـ دافار ،٢٨ـ٣ـ٧٨٠
(٤٨) المصدر نفسه ٠
(٤٩) المصدر نفسه ٠
(٥٠) من مقابلة معه في معاريف ، ٢٤ـ٣ـ٧٨ ٠

هـــاني منـــدس

مشـــروعات التوطـــين

بعد النتائج التي اسفرت عنها زيارة السادات للكيان الصهيوني ، ووضوح طبيعة التسوية الامبريالية وما تستهدفه من تصفية للقضية الوطنية الفلسطينية، دعا بيغن الى حل مشكلة الفلسطينيين من خلال توطينهم في البلاد العربية التي يقيمون فيهـــا ٠

وسرعان ما تلقفت القوى الرجعية المعادية للنضال التحرري الوطني وللكفاح المسلح الفلسطيني هذه الدعوة و « بادرت » الى طرح موضوع التوطين بطريقة يراد بها التعبئة الحاقدة ضد ما اسمته « الوجود الفلسطيني في لبنان » وهـــي تستهدف بذلك استكمال مؤامرة تصفية الثورة الفلسطينية واذكاء روح العداء الشوفيني ضد الشعب العربي الفلسطيني ٠

علما ان للشعب الفلسطيني موقفه التاريخي المعروف ضد كافة مشاريـــــع واشكال التوطين ، منـــذ اخـــذت تطرحهـــا الامـــم المتحـــدة والولايـــات المتحدة الامريكية ابتداء من عام ١٩٤٩ وحتى ١٩٥٩ ٠ فقد كانت هذه المشاريع تستهدف تصفية الهوية الوطنية والحقوق التاريخية الثابتة للشعب الفلسطينـــي واضفاء طابع الشرعية على الوجود الصهيوني الاستيطاني الاستعماري علـــى ارض فلسطين العربية ٠ ولم يكتف الشعب الفلسطيني برفض هذه المشاريـــع المشبوهة ومقاومتها بضراوة ، بل انه شهر السلاح لاسترجاع حقوقه وارضـــه السليبة بالقوة ، وذلك كأرقى تجسيد لرفضه نتائج المشروع الصهيوني ؛ ومنها مسألة التوطين ٠

والملاحظ ان مثل هذه المشاريع والدعوات التي تبادر الى طرحها القـــوى

المعادية ، انما يجري « بعثها » من رميم كلما اخذت تمر قضايا النضال التحرري العربي والنضال الفلسطيني في مأزق ، حيث تدرك الامبريالية والصهيونية والرجعية ان الجو السياسي ملائم لتمرير مشروعاتهم التصفوية للقضية الفلسطينية بما تمثله من ثقل مركزي في النضال المعادي للامبريالية في المنطقة العربية ٠

ولقد تلقى الفاشيون واجهزتهم الاعلامية الضوء الاخضر من بيغن الداعي الى توطين الفلسطينيين في البلاد العربية ، لكي يشنوا حملة من التحريض والتشكيك بالشعب الفلسطيني وثورته المسلحة تحت ستار حجة انهم يرفضون توطين الفلسطينيين او ما يسمونه « الوجود الفلسطيني » ، ويطالبون بتوزيع الفلسطينيين في لبنان على البلاد العربية الاخرى ٠

بينما هم، في الواقع، يكرسون نتائج المشروع الصهيوني الاستيطاني الامبريالي في فلسطين الذي ادى الى اقتلاع قسم كبير من الفلسطينيين من ارضهم واضطرارهم للجوء الى البلاد العربية المجاورة ٠ وليس من مصلحتهم الطبقية، وهم ، المتحالفون سياسيا وعسكريا ، مع الدولة الصهيونية ، ان يدعموا الشعب الفلسطيني وهو يقاتل عمليا العدو الصهيوني الامبريالي ، ويناضل بصلابة لا تلين من اجل العودة الى ارضه وليس الاستيطان في البلاد العربية المجاورة ٠

والواقع ان المشروع الصهيوني في فلسطين بما يمثله من دور امبريالي عدواني على صعيد المنطقة لم يكتف بتهجير الفلسطينيين وحدهم ، بل ان قسما واسعا من ابناء الشعوب العربية المحيطة بفلسطين سواء في سوريا ومصر وجنوبي لبنان قد تعرضت الى التشريد داخل اوطانها وعددهم لا يقل عن عدد ابناء الشعب الفلسطيني ، سيما اذا تذكرنا ماذا حل بمدن قناة السويس اثر حرب ١٩٦٧ حيث بلغ عدد المهجرين ما يزيد عن المليون ٠

ان الصهيونية لم تأخذ فلسطين لكي تقيم فيها بدلا عن الشعب الفلسطيني فحسب، بل لكي تحولها ، ايضا ، الى قاعدة عسكرية عدوانية تعمل على خدمة مخططات الامبريالية في المنطقة العربية ٠ فاسرائيل تلعب دور العصا الغليظة ضد تحرر وتقدم شعوب المنطقة العربية ، لا سيما المحيطة بفلسطين ٠ وستظل تلعب هذا الدور ما لم تنهض القوى الثورية المعبرة عن مصالح الطبقات الشعبية من أجل شل دورها وسحقها ٠

ان الفاشيين والرجعيين الذين يتبجحون ، اليوم ، برفض توطين الفلسطينيين، بينما هم يحاربون الثورة الفلسطينية بكل ضراوة ، انما هم الذين يريدون تحقيق فكرة التوطين بعد ان ينزعوا من الشعب الفلسطيني سلاحه المشهر في وجه اسرائيل ونتائج عدوانها المستمر وما اسفر عنه من تهجير الفلسطينيين وسواهم من ابناء الشعوب العربية الاخرى ٠ علما ان هذه القوى والانظمة

الرجعية لا تريد معاملة الفلسطينيين كمواطنين عرب لهم حقوقهم ، بل تعمل على تسليط القوانين الاستثنائية من اجل التضييق على حريتهم في التحرك والعمل والنضال السياسي · وذلك باسم الحرص على حقوق الفلسطينيين والمحافظة على جنسيتهم الاصلية ! ويعود هذا الموقف الى اسباب سياسية واقتصادية متعددة منها تخوف الانظمة الرجعية من الاثار السياسية الناجمة عن منح الجنسية للفلسطينيين على تركيبها السياسي الهش ، والى عدم رغبتها في منافسة الفلسطينيين لفئات وشرائح طبقية معينة من سكان البلد الاصلي على الوظائف والمقدرات الاقتصادية ·

ان الشعب الفلسطيني رفض دوما كل مشاريع التوطين المشبوهة حتى قبل ان يشهر السلاح كأرقى تعبير عن رفضه لمحو هويته الوطنية وحقوقه التاريخية الثابتة في ارضه ، وبالتالي لأية فكرة او مشروع توطين ·

ان الهدف المباشر للاعداء هو نزع سلاح الشعب الفلسطيني وتصفية قضيته التي تعني من جملة ما تعني قمع الفلسطينيين « المخربين » (لمخططات العدو الصهيوني الامبريالي) والسعي لتوطينهم وتطويق تحركاتهم السياسية الوطنية ·

ولكي نتبين اكثر الغرض السياسي المعادي من طرح دعوات وافكار ومشاريع التوطين التي لا تعني ، في الجوهر ، سوى السعي لشل الفعالية النضالية للشعب الفلسطيني ، فما علينا سوى ان نتفحص حقيقتها تاريخيا وماذا ادت اليه من نتائج عملية ، وهل حقا كانت تريد الامبريالية تطوير البلاد العربية المجاورة اقتصاديا لكي تكون قادرة على « استيعاب » الفلسطينيين ، وهم الذين لايعانون ، مثلا ، ظروفا اقتصادية اسوأ مما يعانيه ابناء الشعب العربي في مصر او في غيرها من البلدان العربية الاخرى ؟ وهل حقا تريد الامبريالية تطوير البلاد العربية المجاورة اقتصاديا من اجل تحقيق اهداف التوطين ؟ الا يتناقض هذا « التطوير » مع اهداف السيطرة الامبريالية نفسها ، ومع الدور المناط بالكيان الصهيوني نفسه الذي يعمل على اعاقة التقدم الاقتصادي ـ الاجتماعي في المنطقة العربية والابقاء على تخلفها وتمكين الامبريالية الامريكية خاصة من نهب ثروات المنطقة والسيطرة عليها استراتيجيا ؟ الا تقوم اسرائيل بتهديد وضرب اية قوة سياسية تحاول التخلص من قبضة السيطرة الامبريالية بكل ما تعنيه من استقلال سياسي واقتصادي وتقدم ؟ وهل الاعتبارات « الانسانية» هي التي تتحكم فعلا في موقف الامبريالية عامة والامبريالية الامريكية خاصة من قضية « اللاجئين » الفلسطينيين ؟ بينما هي نفسها القوى التي كان لها مصلحة في اقتلاعه من أرضه وزرع الكيان الصهيوني لكي يمارس دوره « الحضاري » في « تعمير » المنطقة ·· و « انارتها » بقنابل النابالم ؟!

ان الخوف دائما مما يمثله الشعب العربي الفلسطيني من طاقة كفاحية عالية

عمدتها سنوات طويلة من النضال الشاق المرير ضد الاستعمار والصهيونية والرجعية ، هو الهاجس الاساسي الذي يكمن وراء الاعتبارات « الانسانية » (التي تجلت على حقيقتها في طرد الشعب الفلسطيني من ارضه !) والرغبة في المساعدة « الاقتصادية » التي لا تسمن ولا تغني عن جوع ٠

ان تعمير المنطقة العربية وتطويرها اقتصاديا يتناقض مع الهدف الاساسي من اقامة الكيان الصهيوني على ارض فلسطين ٠ وسوف نوضح طبيعةمشاريع « التنمية » التي طرحتها القوى الامبريالية اما من خلال مبعوثيها وممثليها او وكالة الغوث الدولية التي تمولها ، اساسا ، هذه القوى والدول الامبريالية نفسها لاعتبارات لا تتعلق ابدا بالدوافع « الانسانية » الحقيقية ، بل بهدف تصفية القضية وتمويه دورها وتطويق ومحاصرة النضال الوطني الجذري الفلسطيني والعربي ٠

كما سنوضح موقف الشعب الفلسطيني من هذه المشروعات على اختلاف اشكالها ، وتقدير الوكالة الدولية نفسها لاسباب فشل مثل هذه المشروعات الاجهاضية ، وحيث تبرز الوكالة السبب الحاسم باعتباره تمسك الفلسطينيين بأرضهم ورفضهم أية تصفية لقضيتهم وشخصيتهم الوطنية ٠

فحوى الاعتبارات « الانسانية » الامريكية

عبر جورج ماك غي مساعد وزير الخارجية الامريكي في شهادته « امام لجنة مجلس النواب للشؤون الخارجية في ١٦ شباط ١٩٥٠ عن قلقه بشأن العلاقة بين وجود اللاجئين الفلسطينيين ومستقبل المصالح الامريكية في الشرق الاوسط ، ودعا الولايات المتحدة لدعم وكالة الغوث ماليا ، بقوله : « دعوني أتكلم بصراحة حول هذه المسألة ، ان خسارة هذه المنطقة سياسيا لصالح الاتحاد السوفياتي ستكون كارثة كبرى ، تعادل خسارتها في زمن الحرب ٠ وبالتأكيد فان المركز السياسي الاستراتيجي للاتحاد السوفياتي سيقوى بما لا يقاس اذا حقق اهدافه في الشرق الادنى ، وستطول الحرب الباردة كثيرا ٠٠ وعلى اساس هذه الخلفية فان اهتمامنا باللاجئين الفلسطينيين ، المبني جزئيا على اعتبارات انسانية ، له مبرر اضافي ، فما دامت مشكلة اللاجئين غير محلولة ٠٠٠ فان تحقيق التسوية السياسية في فلسطين سيتأخر ٠٠٠ (و) سيستمر اللاجئون في لعب دور بؤرة طبيعية للاستغلال من قبل العناصر الشيوعية والمخربة التي لا نستطيع نحن او لا تستطيع حكومات الشرق الادنى تجاهلها ٠٠٠ ان وجود ثلاثة ارباع مليون من البشر العاطلين عن العمل والمعدمين ـ وهو رقم يفوق عدد الجيوش النظامية لدول الشرق الادنى مجتمعة ـ والذين يزداد سخطهم مع مرور الزمن ، **هم أعظم خطر قائم يهدد امن المنطقة** » (١) ٠

ان وضع الفلسطينيين ، «الذين يزداد سخطهم » ، لا يهدد « امن » اسرائيل او دولة عربية معينة ، بل « امن» المنطقة العربية كلها ٠

وقد تصرفت وكالة الامم المتحدة لغوث اللاجئين وتشغيلهم بغية نفض يد الامم المتحدة (التي كان يسيطر عليها في ذلك الوقت الدول المرتبطة بتلك الدول الامبريالية) ، من الوجه السياسي للمسألة الفلسطينية والتركيز على الوجه « الاقتصادي » و « الانساني » من الناحية العملية ٠ رغم ان قرارات الامم المتحدة بشأن اللاجئين الفلسطينيين تثبت لهم حقهم في العودة الى وطنهم ٠ فالفقرة ١١ من قرار الجمعية العامة للامم المتحدة رقم ١٩٤ الدورة الثالثة المتخذ في كانون الاول ديسمبر ١٩٤٨ ما زالت حتى الان حبرا على ورق ، وهي تنص على ما يلي :

« ان الجمعية العامة ٠٠ **تقرر** ان يسمح للاجئين الراغبين في العودة الى ديارهم والعيش بسلام مع جيرانهم ، ان يفعلوا ذلك في اقرب وقت مكن ، وان يدفع تعويض عن اموال الذين يختارون عدم العودة الى ديارهم ، وعن الخسائر والاضرار التي تلحق بها والتي تقتضي مبادىء القانون الدولي او العدالة قيام الحكومات او السلطات المسؤولة بتعويضها ٠

وتوعز الى لجنة التوفيق ان تسهل عودة اللاجئين الى وطنهم ، وتوطينهم وتأهيلهم اقتصاديا واجتماعيا ، وتعويضهم ، وان تقيم الصلات الوثيقة مع مدير مؤسسة الامم المتحدة لاغاثة اللاجئين الفلسطينيين وبواسطته ، مع هيئات الامم المتحدة ووكالاتها المختصة » ٠

فمن الناحية العملية ، نتيجة للظروف التي احاطت بنكبة الشعب الفلسطيني لم يبق هناك من وسيلة امام الامم المتحدة ومن يقف وراءها في تلك الآونة ، سوى التأكيد اللفظي على حق الفلسطينيين في العودة ، بينما السلوك العملي هو **التركيز** على الغاء الهوية الوطنية للشعب الفلسطيني للحفاظ على « الامن والسلام » واجراء تسوية « للنزاع » ٠٠ والسعي « لتوطينهم » وتأهيلهم اقتصاديا واجتماعيا و « تعويضهم » ٠

مشاريع التوطين تاريخيا

« ان مرور الوقت دون ظهور حل سياسي للقضية العامة ولمشكلة اللاجئين من شأنه عودة هؤلاء الى وطنهم او استيعابهم اقتصاديا حيث هم ، حمل الاوساط السياسية الدولية على اجراء تحول اساسي في موقفها استدعى (اولا) السعي لتقديم فرص للعمل للاجئين و (ثانيا) السعي لدمجهم كليا في الاقتصاديات المضيفة ، و (ثالثا) بعد فشل المسعيين الاولين السعي لتحسين

ظروف معيشتهم دون التوكيد على مبدأ الادماج الكلي » (٢) ٠

على غرار التسلسل المذكور تبدل التوكيد في سياسة هيئة الامم المتحدة تجاه الفلسطينيين اللاجئين ٠ فكانت الاغاثة المباشرة هدف المحاولة الاولى التي قام بها الكونت برنادوت واسماها « مشروع الاغاثة للكارثة » ، وكذلك كانت الاغاثة المباشرة هدف كافة المؤسسات الاخرى التي باشرت عملها في عام ١٩٤٨ على اثر النكبة ، كلجنة الصليب الاحمر الدولية ، وعصبة جمعيات الصليب الاحمر ، وجمعية الاصدقاء الامريكية ، ومنظمة الصحة العالمية ، وصندوق الطوارىء الدولي للاطفال ، كذلك كانت هدف اول وكالة جاءت في ديسمبر ١٩٤٨ تعمل من قبل هيئة الامم المتحدة وتوحدت فيها جهود الهيئات التي مر ذكرها (عدا الاولى التي انحلت) وقد استمرت حتى اول مايو ١٩٥٠ تحت اسم « وكالة الامم المتحدة لاغاثة اللاجئين الفلسطينيين » ، وما لبث ان تم اضافة « وتشغيلهم » بعد تشكيل بعثة « كلاب » وتركيزها على توفير فرص العمل للفلسطينيين ٠

فلم يطل الوقت ٠٠ « نتيجة لتعقد القضية الفلسطينية على الصعيد السياسي وتعذر حلها اذ تحول الرأي صوب وجوب النظر الى مشكلة اللاجئين على اساس المدى البعيد واحتمال اضطرار هؤلاء الى البقاء ، حيث هم ، زمنا طويلا غير محدد ، مما استدعى التفكير بضرورة دراسة امكانية البلاد المضيفة اقتصاديا لتحمل وطأة استيعاب الالاف العديدة من القادرين على العمل ــ او على الاقل تزويدهم بمجالات النشاط وفرص العمل لجني المداخيل والاستغناء عن الاغاثة المباشرة ٠ وعلى هذا شكلت هيئة الامم المتحدة « لجنة الاستقصاء الاقتصادي للشرق الاوسط » المعروفة باسم لجنة « كلاب » نسبة الى رئيسها غوردون كلاب ٠ وقد جاءت هذه ودرست احوال المنطقة (على التحديد : مصر ولبنان وسوريا والاردن واسرائيل) ووضعت تقريرا في اواخر عام ١٩٤٩ اوصت فيه ــ فيما اوصت ــ بوجوب تحويل التوكيد من الاغاثة المباشرة الى توفير فرص العمل للاجئين القادرين على اساس تناقص الاغاثة كلما تزايدت فرص العمل » (٣) ٠

والجدير بالملاحظة ان اعداد اللاجئين المسجلين لدى الوكالة على مدار السنوات الاولى كانت تتناقص باستمرار انطلاقا من وضع المقياس الاقتصادي اساسا لاستمرار الاغاثة ، وبالتالي تسجيلهم كفلسطينيين وذلك بهدف التقليل من حجم المشكلة الفلسطينية والعمل والايحاء بان اعداد « اللاجئين » فيتناقص مستمر ٠ وقد وضعت الوكالة ، فيما بعد ، ما يعرف « بسلم الدخل » من اجل العمل على شطب الفلسطينيين القادرين عن الاستغناء عن خدماتها التي لا تغني عن جوع او عوز ٠ فالاعاشة المتواضعة ومجموع الخدمات التي يتناولها الفرد الفلسطيني في السنة لا تتجاوز معدل اثنين وعشرين دولارا ، اي ما يقارب

من دولارين في الشهر الواحد !

وسوف نوضح حقيقة ارتباط توفر فرص العمل للفلسطينيين اللاجئين القادرين بتناقص الاغاثة وتناقص اعدادهم على سجلات الوكالة · ومن هنا سبب عدم دقة ارقام الوكالة عن الفلسطينيين حيث جرت عمليات شطب مستمرة على قسم لا يستهان به من الفلسطينيين القادرين على العمل ·

والجدول التالي (٤) يوضح كيفية تناقص اعداد اللاجئين الفلسطينيين المسجلين لدى الوكالة بدل تزايدهم خلال خمس سنوات ·

البلد	السنة	السنة	السنة	السنة	السنة
	١٩٥٠	١٩٥١	١٩٥٢	١٩٥٣	١٩٥٤
لبنان	١٢٧٫٦٠٠	١٠٦٫٨٩٦	١٠٤٫٩٠١	١٠٢٫٠٩٥	١٠١٫٦٣٦
سوريا	٨٢٫١٩٤	٨٢٫٨٦١	٨٤٫٢٢٤	٨٥٫٤٧٣	٨٦٫١٩١
الاردن	٥٠٦٫٢٠٠	٤٦٥٫٧٤١	٤٦٩٫٥٧٦	٤٧٥٫٦٢٠	٤٨٦٫٦٣١
غزة	١٩٨٫٢٢٧	١٩٩٫٧٨٩	٢٠٤٫٣٥٦	٢٠٨٫٥٦٠	٢١٢٫٦٠٠
اسرائيل	٤٥٫٨٠٠	٢٤٫٣٨٠	١٩٫٦١٦	—	—
المجموع	٩٦٠٫٠٢١	٨٩٧٫٦٦٧	٨٨١٫٦٧٣	٨٧١٫٧٤٨	٨٨٧٫٠٥٨

فاعداد الفلسطينيين المسجلين ، كما نلاحظ من هذا الجدول في تناقص مستمر ·

وهكذا لم تعمل الامم المتحدة على تطبيق قراراتها الاساسية السياسية وحق الفلسطينيين في العودة الى وطنهم · فلجنة التوفيق المؤلفة من ممثلين عن امريكا وفرنسا وتركيا ، شرعت بالقيام بمساع ديبلوماسية لدى الدول العربية واسرائيل ، وفق قرار ١١ كانون الاول ١٩٤٨ السالف الذكر ، في سبيل تسوية « المسائل المعلقة » من قضية فلسطين ، وفي طليعتها قضايا الحدود والقدس واللاجئين الفلسطينيين ·

ففي المذكرة التي بعثتها الحكومة الاسرائيلية في اواخر عام ١٩٤٩ الى لجنة التوفيق التي كانت تسعى لاقناع حكومة اسرائيل بالاعلان عن استعدادها لقبول عودة ١٠٠٫٠٠٠ ألف لاجيء فلسطيني من مجموع ٩٠٠٫٠٠٠ الف الى وطنهم مقابل الحصول على صلح مع العرب ، عبرت الحكومة الاسرائيلية عن رفضها القاطع لعودة حتى مثل هذا العدد الضئيل ! واقترحت فيما بعد

ما اسمته « بجمع شمل العائـــلات » حيث قبلت عـــودة بضعـــة الاف مـــن الفلسطينيين ، على هذا الاساس ، لعدد من السنوات ، ثم توقفت عن ذلك ٠

وقد جاء في مذكرة الحكومة الاسرائيلية الى لجنة التوفيق : « هل مـــــن المعقول اعادة خلق ذلك المجتمع الثنائي الذي ابتليت به الساحة الفلسطينيـــة طويلا وادى في النهاية الى حرب مكشوفة ؟ ففي احسن الاحوال سينشأ وضع معقد وغير مستقر حيث يشترك في دولة واحدة شعبان او اكثر يختلفان فـــي العنصر والدين واللغة والثقافة ٠ ان معظم الاوضاع الشبيهة بهذا الوضـــع قد حلت عن طريق الهجرة ، طوعا او قسرا ، وبموافقة دولية او بدونها ٠٠٠ ان المعالجة العقلانية الوحيدة هي دمج اللاجئين في تلك البلدان العربية التـــي تتسع لهم وحيث لا مجال لنشوء مشاكل ازدواجية العنصر والثقافة » !

مشروع بعثة كلاب للتحقيق الاقتصادي

انشأت لجنة التوفيق ، بعد حوالي ستة أشهر من تشكيلها « بعثة التحقيـق الاقتصادي » المعروفة بلجنة كلاب في ٢٣ آب ١٩٤٩ ٠ وقد صيغت المهمات التي كلفت هذه اللجنة بطريقة تتيح لها البحث عن حلول لتوطين الفلسطينيين في نفس الوقت الذي تعترف فيه لفظيا بحقهم في العودة ٠ وبعد ان « نجحت » لجنـــة التوفيق في حمل الدول العربية واسرائيل على القبـــول « باساس مشترك » لتسوية القضية اللفسطينية في بروتوكول لوزان في ١٢ آذار ١٩٤٩ وبعـــد ادخال اسرائيل في عضوية الامم المتحدة في ١١ ايار ١٩٤٩ ، حددت لجنـــة التوفيق الفلسطينية مهمة بعثة التحقيق الاقتصادي وصلاحياتها ، (بناء على الصلاحيات المعطاة لها في المادة ١٢ من قرار هيئة الامم المتحدة في ١١ كانون اول (ديسمبر) ١٩٤٨) ، في القرار الذي اتخذته بدورها بتاريخ ١ أيلـــول ١٩٤٩ ، والذي جاء فيه :

« ان لجنة التوفيق الفلسطينية ،

رغبة منها في تنفيذ الفقرتين ١٠ و ١١ من قرار الجمعية العامة رقم (٣) ١٩٤ بتاريخ ١١ كانون اول ١٩٤٨ ، وفي الحصول على المعلومات اللازمة لتصبـح اساسا للتوصيات التي قد تقدمها للجمعية العامة او للدول الاعضاء وللوكالات المتخصصة والهيئات المعنية بالامر في سبيل اتخاذ اجراءات جديدة ، وبعـــد الاستماع الى تصريحات ممثلي اسرائيل والدول العربية بشأن عودة اللاجئين وتوطينهم والتعويض عليهـــم ٠

(١) وبناء على الصلاحيات المعطاة لها بموجب الفقرة ١٢ من القرار المشار اليه ، تؤسس برعايتها ، بعثة تحقيق اقتصادية للتحقيق في الاوضاع الاقتصادية

في البلدان التي تأثرت « بالنزاع » (!) الذي دارت رحاه في الاونة الاخيرة ، ولتقديم توصيات للجنة تمكنها من وضع برنامج مترابط شامل يرمي الى مـــا يلـــي :

١ ــ تمكين الحكومات المعنية بالامر من القيام بالاجراءات وبرامج التنميـــة اللازمة للتغلب على الازمة الاقتصادية التي خلقها النزاع ٠

ب ــ تيسير عودة اللاجئين وتوطينهم واستردادهم مكانتهم الاقتصاديـــة والاجتماعية ودفع التعويضات لهم ٠٠ وذلك في سبيل ادماجهم في حياة المنطقة الاقتصادية على اساس الاعتماد على النفس في اقصر وقت ممكن ٠

ج ــ اقامة الاوضاع الاقتصادية التي من شأنها ارساء قواعد الســـــلام والاستقرار في المنطقـــة ٠

(٢) تأمر بعثة التحقيق الاقتصادي بأن تضمن توصياتها خطة عملية لتنفيذ البرامج الموصى بها ، وتقديرا تقريبيا لنفقات هذه البرامج ، وتوصيات بأساليب تغطية هذه النفقات » (٥) ٠

وقد جاء في البند (٣) « و ــ دراسة موضوع التعويض على اللاجئين عـن املاك اولئك الذين لا يعودون الى ديارهم (!) وعن الخسائر والاضرار اللاحقة بالممتلكات ، بالاشارة بصورة خاصة الى الصلة القائمة بين مشاريع الاسكان المقترحة وهذه التعويضات » (٦) ٠

وبدورها قامت بعثة التحقيق الاقتصادية (المعروفة بلجنة كلاب) ، برفـــع تقرير اولي في ٦ تشرين الثاني ١٩٤٩ وتقرير نهائـــي في ٢٨ كانـــون اول ١٩٤٩ ٠ وقد جاء في مقدمة التقرير الاولي ، الذي يتجاهل الطابع السياســي للمشكلة الفلسطينية ويركز على الطابع الاقتصادي الناجم عن تهجير واقتلاع الفلسطينيين ما يلي : « اقرارا منها بأن شقاء اللاجئين هو في آن واحد أحـــد اعراض عدم الاستقرار الاقتصادي وسبب من اسبابه (!) ، فان البعثة توصي في هذه التقرير الاولي بأن يصار الى اتخاذ اجراءات من شأنها وضع برنامـــج للاشغال العامة المفيدة والتي تعمل على توفير فرص العمل للاجئين القادريـــن على العمل ، وذلك كخطوة اولى نحو استرداد مكانتهم ، وبأن يصار في الوقت عينه الى الاستمرار في تقديم الغوث طوال السنة القادمة للاجئين المعوزين ٠

وان الغرض من هذه التوصيات هو تلطيف (!) حدة الازمة بواسطة العمـل البناء ، وتنقيص مدى مشكلة الفلسطينيين وضبطها (!) ضمن حدود تستطيـع فيها حكومات الشرق الادنى ان تتحمل ما تبقى من مسؤوليات تجاههم ٠٠ ان العقدة القائمة في العلاقات بين اسرائيل والبلدان العربية « تمنع الوصول الى حل سريع لقضية اللاجئين عن طريق العودة او الاسكان على نطاق واسع » ٠

(و) من الممكن ايجاد عمل للاجئين القادرين على الشغل والراغبين فيه ٠ فهناك فرص عديدة للعمل في تحسين الاراضي واستصلاحها ، وفي زيادة المياه المتوافرة للري ، وتحسين الطرقات وتوسيع شبكاتها ، وتحسين وسائل العناية الصحية والمساكن » (٧) ٠

وقد تقدمت لجنة كلاب بثلاث توصيات في تقريرها الاولي هي :

« ١ ـ يجب الاستمرار في برنامج الاغاثة الطارىء ـ الذي تقوم بنفقاته الدول الاعضاء في الامم المتحدة عن طريق تبرعاتها حتى اول نيسان ١٩٥٠ ٠٠ ويجب ان يظل ما تقدمه الامم المتحدة للاجىء الواحد بموجب هذا البرنامج ـ وهو حد ادنى ـ على ما هو عليه ٠ الا ان عدد اللاجئين المستفيدين من الاغاثة يجب ان يتناقص تدرجا ، بحيث لا يتلقى المعونة ، بعد اول كانون الثاني ١٩٥٠ سوى ٦٥٢ الفا بدلا من ٩٤٠ الفا ، كما هو الحال الان (!) ويجب ان يستمر التخفيض في عدد اللاجئين الذين يتلقون المعونة ، بالنسبة الى زيادة عدد اللاجئين وفق برنامج الاشغال العامة المقترح ٠

٢ ـ يجب دمج برنامج الاستمرار في المعونة المتفائلة ، وبرنامج الاشغال العامة الرامي الى تنمية القدرة الانتاجية في المنطقة ، في عملية واحدة ، تشترك فيها حكومات البلدان التي يقيم فيها اللاجئون ٠٠

٣ ـ يجب انشاء هيئة جديدة تتولى تنظيم هذه العملية المشتركة ـ عملية الاغاثة والتشغيل ـ ابتداء من اول نيسان ١٩٥٠ » (٨) ٠

اما التقرير النهائي للجنة كلاب الصادر في ٢٨ كانون الاول ١٩٤٩ فقد جاء في مقدمته :

« ان التقرير الحاضر ، وعنوانه « طريقة لتنمية الشرق الاوسط اقتصاديا » هو تقريرنا النهائي ، وهو لا يعالج مباشرة قضية اللاجئين الفلسطينيين (!) بيد أن العقبات التي تعترض التنمية الاقتصادية في الشرق الاوسط تشبه الى حد بعيد العقبات التي تعترض استرداد اللاجئين العرب مكانتهم وحياتهم الطبيعية ٠

فاللاجئون العرب ، في غالبيتهم ، عمال زراعيون ، يختلفون في خبرتهم ومهارتهم ، ويشتركون في انهم الان دون ارض ودون عمل ٠ والذين منهم غير زراعيين ، كانوا في الاحوال العادية يرتزقون من خدمة حاجات الزراعيين منهم ، فباتوا هم ، ايضا ، دون موارد رزق ٠ وينطبق هذا القول ، ايضا ، على الكثيرين من ابناء البلاد العربية التي هرب اليها اللاجئون ٠

اذن ، فحل مشكلة الفقر والبطالة بين اللاجئين لا يتجزأ عن حل مشكلة البطالة والجوع بين فئات واسعة من ابناء الشرق الاوسط ٠٠ ان التقدم الاقتصادي في البلدان التي تعتمد احداها على الاخرى اعتمادا متبادلا يتطلب السلام بين هذه

البلدان المتجاورة ٠٠ » (٩).

ولكننا نتساءل بدورنا عن دور الاستعمار في بقاء البلدان العربية في حالة من التخلف ،وفي اسباب فرضه لدولة اسرائيل في المنطقة ككابح ومهدد لايةقوى سياسية تسعى الى التخلص من دائرة التبعية للامبريالية ، وبالتالي التخلف ، وشق طريق الاستقلال السايسي والاقتصادي والتنمية الحقيقية ٠ الا يتناقض وجود اسرائيل مع تطور وتنمية المنطقة العربية المحيطة بها ، لما تمثله من دور عدواني عسكري يعمل على خدمة المخطط الامبريالي وابقاء هيمنته الاقتصادية والسياسية والحفاظ على الطبقات الرجعية التي تخدم مصالحه ؟

صحيح انه لا يمكن لبلدان متخلفة اقتصاديا واجتماعية ان تستوعب طاقة عمل سكانها انفسهم ، فكيف في حال تدفق اعداد جديدة نحو هذه البلدان وقد جرى اقتلاعهم بالقوة من أرضهم ؟

ان استيعاب اي فئات مهاجرة جديدة يتطلب على الصعيد الاقتصادي مستوى اعلى من التطور ٠ فسكان البلاد العربية انفسهم ، بفعل السيطرة الامبريالية وما تفرزه من تخلف وهيمنة طبقات طفيلية او برجوازية محلية مترابطة المصالح مع السوق الامبريالي العالمي ، يضطرون الى «الهجرة» سواء داخل بلدهم نفسه أو نحو البلدان العربية النفطية والدول المغربية والافريقية بحثا عن فرص العمل٠ فما يماثل عدد سكان لبنان الحالي منتشرون في بقاع مختلفة من العالم ، وكذلك الحال بالنسبة لقسم واسع من الشعوب العربية الاخرى ٠

لذا ، فان التنمية الحقيقية للبلدان العربية لا يمكن ان تتم على ايدي القوى الامبريالية مهما اتخذت من اشكال ، فما المقصود اذن « بتوفير فرص العمل» و « التنمية » ؟

ان نوع المشاريع التي طرحتها هيئة الامم المتحدة او المبعوثون الامريكيون، لا تتعدى كونها مشاريع شق الطرقات وبناء المساكن والعمل الزراعي في وقت يهاجر فيه ابناء الريف نحو المدن ، بينما **التنمية الحقيقية تتطلب وجود صناعة قوية وزراعة متطورة مرتبطة بالصناعة** ، ولكن ذلك يتناقض مع المصالح الامبريالية نفسها والهدف من وراء اقامة الكيان الصهيوني نفسه لما يمثله على هذا الصعيد من استنزاف وضغط وتهديد للقوى التي تحاول الخروج عندائرة السيطرة الامبريالية ، وقد نجحت اسرائيل في لعب هذا الدور ، حتى الآن ، بفعل نوع القوى الطبقية البرجوازية التي واجهتها والاخذة الان في الافول ٠

ونظرة سريعة على طبيعة المشاريع الاقتصادية التي جرى طرحها يوضح اي نوع من التنمية المطلوب دعمه ٠ وهو اطلاق حركة تشغيل لا تخدم عملية تطور القوى المنتجة بصورة فاعلة ٠

والواقع ان بعثة التحقيق الاقتصادي (لجنة كلاب) « لم يكن يهمها حل مشاكل الشرق الاوسط بمقدار ما كان يهمها نفض يد الامم المتحدة من هذه المشكلة في اقرب وقت واسدال الستار على مأساة الفلسطينيين باعتبارها حدثا من الماضي، ولهذا لم يقدر لبرنامج التشغيل الذي اوصت به واشرفت عليه وكالة الاغاثة ان ينجح ، وبدأت وكالة الاغاثة ، بعد اكتشافها فشل مشاريع التشغيل ، في البحث عن مشاريع بديلة للتوطين الدائم · وقد توصلت الوكالة الى مشروعين اساسيين ، بنت عليهما آمالا كبيرة وهما مشروع وادي الاردن ، ومشروع سيناء » (١٠) ·

فنتيجة لتوصيات لجنة كلاب التي عنها انبثقت وكالة الامم المتحدة لاغاثة وتشغيل اللاجئين ، رؤي منذ شهر مايو ١٩٥٠ ان يصار الى تبني سياسة « **عمل غوثي** » للفترة المنتهية باخر يونيو ١٩٥٢ **تتضمن تنفيذ مشاريع عمرانية** عامة في البلدان المضيفة كشق الطرق والتحريج وبناء الآبار وحفر أقنية الري وتشييد ابنية للمدارس يعمل فيها اللاجئون ويجنون منها دخلا يؤدي الى تحسن احوالهم المادية ورفع معنوياتهم ·· فتفيد البلدان المضيفة من المنشآت والخدمات المنبثقة عن المشاريع وتنتعش اسواقها نتيجة صرفيات الوكالة وانفاق اللاجئين من دخلهم الجديد · كذلك رؤي ان يتضمن برنامج « العمل الغوثي » تنفيذ مشاريع صغيرة تقوم بها جماعات صغيرة من اللاجئين ذوي الحرف كالنجارة والخياطة والحدادة وصنع الاحذية والحصائر · غير ان هذه المشاريع ـ كبراها وصغراها ـ لم تأت بالفائدة المرجوة · فقد قاوم اللاجئون الكبرى منها ورفضوا الاشتراك بتنفيذها ·· وعلى كل حال لم يفد من المشاريع سوى نسبة ضئيلة جدا من القادرين على العمل بلغت في الذروة سبعة بالمائة لفترة شهر او اقل · واعترضت سبيل المشاريع ، بالاضافة الى صفاتها الداخلية ، عقبات ادارية بيروقراطية في علاقات الوكالة في البلدان المضيفة التي كان عليها ان توافق على تصاميم المشاريع وتساهم بخمسة واربعين بالمائة من كلفة المعدات والمواد اللازمة نقدا او عينا مساهمة قدر مجموعها بستة ملايين دولار للفترة الواقعة بين مايو ١٩٥٠ ويونيو ١٩٥١ · ومن الناحية الاخرى ظهر أن المشاريع الصغرى كانت تكلف الوكالة في المعدل خمسة اضعاف ما تكلفها الاغاثة المباشرة للشخص الواحد · وثبت ان معظم هذه المشاريع عاجز عن الاستقلال اقتصاديا والاستغناء عن اعانة الوكالة ·· » (١١)

ثم اعتمدت الوكالة سياسة جديدة ، سياسة **منح قروض صغيرة للمساعدة على « اندماج » اللاجئين** باقتصاديات البلاد المجاورة ، وقد تضمنت هذه السياسة توكيدا واضحا على اهمية التدريب المهني ، وقد خصص لهذا البرنامج صندوق خاص بمبلغ ثلاثة ملايين دولار تنتهي في آخر يونيو ١٩٥٢ ·

وقد ثبت ، أيضا ، محدودية وفشل هذا البرنامج ، فتقدمت وكالة الاغاثة

والتشغيل بمقترحات جديدة اقرتها هيئة الامم المتحدة في يناير ١٩٥٢ باتخاذ قرار باعتماد ٢٥٠ مليون دولار لثلاث سنوات اعتبارا من يوليو ١٩٥٢ لينفق منها خمسون مليونا على مستلزمات الاغاثة المباشرة والباقي على مشاريع انمائية في الزراعة والصناعة والخدمات والتدريب المهني وتشييد المساكن ، بحيث يتناقص مستوى الانفاق على الاغاثة كلما ارتفع مستوى الانفاق الانمائي· وقد قامت الوكالة بدراسات اقتصادية وتقنية تمهيدا لتنفيذ مثل هذه المشاريع التي سنأتي على ذكر ابرزها : « وقد افترض في اعتماد سياسة « الانماء » هذه امران : اولا ضرورة وامكان نقل قسم من اللاجئين من الاماكن التي يكتظون بها فوق مكنتها الاستيعابية كغزة ولبنان والاردن الغربي الى اماكن في مقدورها توفير المجالات الاقتصادية الرحبة كسوريا والعراق ، وثانيا تنسيق برامج الوكالة مع أية برامج انمائية كبرى او كلية تقوم بها البلدان المنوي تطبيق برامج الوكالة فيها » (١٢) ·

مشروع وادي الاردن

في عام ١٩٤٩ ابدت الحكومة الاردنية اهتماما للاستفادة من مياه نهر الاردن لري وادي الاردن · فكلفت شركة انجليزية لدراسة المشروع (مشروع اليرموك) · وقد اهتمت وكالة الغوث بالدراسات وقررت مشاركة الحكومة في السعي لتمويل وانجاز هذا المشروع · « وكان شرط الوكالة للمساهمة في هذا المشروع هو اعطاء الاراضي المستصلحة للاجئين الذين يحملون بطاقات الاعاشة ، حتى تتمكن الوكالة من تخفيض عدد اللاجئين · وكان عدد اللاجئين الذين يعيشون في الغور عام ١٩٥٤ ٩٣ر٠٥٧ شخصا ويعادلون نسبة ٦٤٪ من مجموع سكان الغور و ٢٠٪ من مجموع اللاجئين في الاردن ، ومن هؤلاء كان ٣٣ر٧٦٧ يعيشون في الغور الشرقي و ٥٩ر٢٩٠ في الغور الغربي · وكان هذا المشروع يسمح بري واستصلاح ٤٦١٠٠٠ دونم ·· ويستطيع اعالة ١١٥ر٠٠٠ شخص بينهم ٧٩ر٠٠٠ لاجيء يضافون الى ٣٦ر٠٠٠ شخص من سكان الغور· ومما يجدر ذكره ان ثمار هذا المشروع لا يمكن قطفها كاملة الا بعد مضي عشر سنوات على الانتهاء من المشروع · غير ان التطورات السياسية التي حدثت خلال سنوات بداية الخمسينات ، ومعارضة اسرائيل لهذا المشروع على اعتبار انه يعرقل مخططاتها في الاستفادة من النهر ، دفعت بالولايات المتحدة ، التي كانت تعمل حتى الآن من وراء وكالة الغوث ، الى ان تتدخل مباشرة وتعرض مشروعا جديدا سمي بمشروع جونستون · وكان هذا المشروع يستهدف وضع خطة موحدة (بين العرب واسرائيل) لاستغلال مياه الاردن · ولكن المشروع جوبه بمعارضة قوية على المستوى الشعبي الرسمي · » (١٣)

مشروع سيناء

عاش الفلسطينيون اللاجئون في غزة اوضاعا رهيبة من البؤس والاكتظاظ السكاني الهائل ، ومن انعدام شبه كامل للموارد · وكانت الوكالة تجري عمليات البحث عن المياه في شبه جزيرة سيناء لتوطين قسم آخر من الفلسطينيين ·وقد وافقت الحكومة المصرية عام ١٩٥١ على قبول ٥ر٠٠٠ لاجيء في سيناء · « وفي الثلاثين من حزيران ١٩٥٣ وقعت الحكومة المصرية اتفاقا مع وكالة الغوث يقتضي الوكالة بموجبه ان تخصص من صندوق اعادة التأهيل ٣٠ مليون دولار · وفي ١٤ تشرين الاول ١٩٥٣ توصلت الوكالة مع الحكومة المصرية الى اتفاق محدد تقدم مصر بموجبه ٢٣٠ر٠٠٠ فدان من الاراضي الصحراوية للوكالة ، لاجراء اختبارات ٠٠٠ وكان من المقدر ان تعيل هذه المساحة ١٠ر٠٠٠ ـ ١٢ر٠٠٠ عائلة من عائلات اللاجئين اي ما مجموعه ٥٠ر٠٠٠ ـ ٧٠ر٠٠٠ شخص من قطاع غزة · غير ان هذا المشروع كغيره من مشاريع التوطين جوبه بمقاومة حادة وعنيفة من قبل الفلسطينيين في قطاع غزة ، ولم تعد الحكومة المصرية تعيره اهتماما بعد العدوان الثلاثي على مصر عام ١٩٥٦ · » (١٤)

وقد خرجت جماهير غزة عام ١٩٥٥ في تظاهرات هائجة تعلن رفضها للمشروع ، وفي هذه التظاهرات احرقت مخازن الوكالة ومكاتبها ·

مشروعات التوطين في سوريا

اتفقت وكالة الغوث مع الحكومة السورية في ١٣ تشرين اول ١٩٥٢ على تخصيص مبلغ ٣٠ مليون دولار للقيام بمشروعات تستهدف « اعادة تأهيل » الفلسطينيين في سوريا · ومن هذا المبلغ خصص ٢٤ مليون دولار للمشاريع الزراعية ! ولكن هذه المشاريع بقيت في حيز مرحلة التجارب ، فالارض التي وضعتها الحكومة السورية تحت تصرف الوكالة لاجراء التجارب عليها كانت ارضا ذات ملوحة عالية ولم يكن بالامكان استخراج مياه جوفيه بمقادير كافية· والمنطقتان التي وضعتهما الحكومة السورية تحت تصرف الوكالة هما سهل رمضان ومساحته ١٦٠ر٠٠٠ دونم ، وقطعة ارض صغيرة اخرى تبلغ مساحتها ١٧٠٠ دونم ·

البرامج الصغيرة الاخرى

اضافة الى هذه المشاريع التصفوية الكبيرة وبالترافق معها ، قامت الوكالة بمجموعة من البرامج والمشاريع الصغيرة التي تميزت بطابعها الفردي والقصير

الاجل · وقد بلغ مجموع هذه البرامج ١٠١ برنامجا في الاردن وسوريا ولبنان ومصر وغزة والعراق · وقد جرى انفاق مبلغ حوالي ٦ ملايين دولار حتى ٣٠-٦-١٩٥٥ ·

وأهم هذه المشاريع التي سبق ان ذكرنا بعضها بايجاز :

أ - « تقديم المساعدات المالية للراغبين في الهجرة الى البلدان الاجنبية وخاصة أميركا الشمالية والجنوبية · وقد استطعنا احصاء ٥٤٠٣ افراد قامت الوكالة بتقديم تكاليف السفر لهم خلال سنوات ٥٢/٥١ - ٦٢/٦١ ، حين اوقفت الوكالة تقديم هذا البرنامج · وكانت الولايات المتحدة قد اصدرت قانونا عام ١٩٥٣ يقضي بمنح ٢٠٠٠ تأشيرة هجرة سنويا للاجئين ·

ب - عقدت الوكالة مع الحكومة الليبية اتفاقا بتاريخ ٢٣ تشرين الثاني ١٩٥٢ ، يقضي بأن تسمح الحكومة الليبية لعدد من اللاجئين بالهجرة الى ليبيا على اساس ان يعتمدوا على انفسهم ، وفي الوقت المناسب تمنحهم « الحقوق والامتيازات » التي يتمتع بها المواطنون الليبيون · وكان العدد الذي اتفق عليه عليه هو ١٢٠٠ عائلة ، وعدد افرادها ٦٠٠٠ فرد ·

ج - انشأت الوكالة مكتبا للتوظيف للقيام بالاتصال بالشركات والحكومات لمعرفة احتياجاتهم الى الموظفين والمستخدمين ، بحيث يتم عبر هذا المكتب توظيف الفلسطينيين المؤهلين والراغبين منهم في العمل · وقد عمل هذا المكتب على توظيف اعداد كبيرة من الفلسطينيين وخاصة في بلدان النفط ·

د - قامت الوكالة بمنح عدد من ذوي الحرف والمهن قروضا صغيرة ··

ج - افتتحت الوكالة في عام ١٩٥٣ مركزين للتدريب المهني في كل من الاردن وغزة لتأهيل الشباب للعمل في المجالات المتاحة وخاصة في بلدان النفط » (١٥) ·

بيان دالاس في التمهيد لمشروع جونستون

في ربيع ١٩٥٣ قام دالاس وزير الخارجية الامريكية بجولة في بلدان الشرق الاوسط ، وقد قدم دالاس ، في ١ حزيران من نفس العام ، تقريرا عن جولته تطرق فيه الى قضية اللاجئين الفلسطينيين · ومما جاء فيه :

« وعلى مقربة من اسرائيل يتجمع العدد الاكبر من اللاجئين العرب ، وعددهم نيف و ٨٠٠ ألف ، وهم الذين هربوا من فلسطين عندما استولى عليها الاسرائيليون ··· ان بعض هؤلاء اللاجئين يمكن اسكانهم في المنطقة التي تحتلها اسرائيل حاليا (!) لكن غالبيتهم تستطيع بصورة اجدى ان تدمج في حياة البلدان العربية المجاورة · بيد ان هذا يعتمد على مشاريع الري التي

يمكن بواسطتها استثمار اراض جديدة · ففي طول المنطقة وعرضها ، نجد ان الحاجة الكبرى هي الى الماء · وتتوافر اموال الامم المتحدة ، واموال اخرى ايضا ، لمساعدة اللاجئين ··· هذه الاموال يمكن انفاق القسم الاكبر منها في سبيل استثمار الانهر التي تمر في البلدان العربية واسرائيل استثمارا منسقا » ! (١٦)

ويلاحظ د· فايز صايغ ان هذه السياسة الامريكية ترتكز على القواعد التالية:

١ ـ التخلي عن فكرة العودة ، الا للقليلين من اللاجئين ·

٢ ـ ادماج السواد الاعظم من الفلسطينيين ، وحصر قضيتهم في النطاق الاقتصادي وربطها « بالتنمية » الاقتصادية الزراعية في المنطقة العربية ·

٣ ـ اقتراح مشاريع ري مشتركة تقوم بها البلدان العربية واسرائيل معا ·· بواسطة معونات مالية من الخارج · وقد مهد تقرير دالاس هذا لمشروع جونستون ·

مشروع جونستون ١٩٥٣ ـ ١٩٥٥

ويستهدف هذا المشروع ، كما هو مبين ،معالجة ،او بمعنى ادق ،تصفية قضية اللاجئين ، وقضية فلسطين برمتها ، عن طريق تعاون الدول العربية واسرائيل في استثمار مياه نهر الاردن استثمارا مشتركا ·

وقد بدأ اريك جونستون مبعوث ايزنهاور زياراته للمنطقة في تشرين اول ١٩٥٣ ، ثم عاد الى زيارتها ثلاث مرات اخرى ، كانت اخرها في خريف ١٩٥٥·

ويتضح الاستمرار في السياسة الامريكية ، في ان قواعد مشروع جونستون كانت قد ارسيت في عهد ترومان · ففي عام ١٩٥٢ عهدت وكالة الاغاثة الى ادارة وادي تنسي الامريكية التي يشرف عليها جوردون كلاب ، بوضع خطط لاستثمار مياه نهر الاردن استثمارا مشتركا موحدا · وعهدت هذه بدورها الى شركة شارل مين لوضع المخطط الهندسي فأنهته في ٣١ اب ١٩٥٣ ، وتم بعد ذلك ايفاد اريك جونستون الى المنطقة في تشرين الاول للقيام بالمفاوضات والوساطات اللازمة بين الدول العربية واسرائيل « للقبول بفكرة التعاون على استثمار مياه نهر الاردن » ·

وقد جاء في مقدمة الدراسة الهندسية التي كتبها جوردون كلاب نفسه ··· ما يلي :

« ان هذا التقرير يصف العناصر التي يتألف منها تنظيم فعال لادارة المياه التي تتوافر في نهر الاردن · ولا يعير هذا التقرير اي اهتمام للاعتبارات السياسية ،

كما انه لا يحاول قط ان يكيف مقترحاته وفقا للحدود السياسية الراهنة » (١٧) ٠

وقد اطلق على هذا المشروع « مشروع الانمـاء الموحد لموارد مياه نهـر الاردن » ٠

« ونورد فيما يلي خلاصة عن مشروع « جونستون » ٠٠٠ :

(أ) ينفذ المشروع على خمس مراحل ، تستغرق كل مرحلة منها سنتين او ثلاثا ، وتقدر تكاليف المشروع بنحو مائة وثلاثين مليون دولار ، ينفق منها نحو ثلاثين في المئة على توليد الطاقة الكهربائية وبناء محطاتها ٠

(ب) انشاء خزان على بعد نحو عشرين كيلو مترا من ملتقى نهر الحاصباني بنهر الاردن في منطقة واقعة شرق قرية (ابل السقي) اللبنانية ، وفي هـــذا الخزان تجمع مياه النهر في فصل الشتاء وتقدر بنحو مائة وثلاثين مليون متر مكعب في العام ، وتوزع في الشهور التي تمس الحاجة فيها الى المياه للري ٠ وبواسطة هذا الخزان يصبح في الاستطاعة التحكم نسبيا في مياه القسم العلوي من نهر الاردن التي تصب في بحيرة الحولة ٠ وتشق قناة تتفرع من هذا الخزان الى قرب مستعمرة « تل حي » (في فلسطين المحتلة) تنشأ عليها محطة لتوليد القوة الكهربائية ثم تجري منها المياه الى القناة الاساسية التي ستزود منطقـة جبال الجليل بالمياه ٠

(ج) انشاء سد على ملتقى مياه نهر « دان » بالقناة الاساسية في الجليـل لتحويل مياه نهر دان وتل قاضي الى تلك القناة ٠

(د) انشاء سد اخر بالقرب من قرية عين الحمراء (في فلسطين المحتلة) لتحويل مياه نهر بانياس الى القناة الاساسية لري منطقة جبال الجليل ٠

(هـ) انشاء قناة اساسية طولها مائة وعشرون كيلو مترا تتحول اليهـا مياه نهر بانياس ونهر دان ومنابع تل القاضي ومياه القسم الذي يقع تحت السد في نهر الحاصباني ٠ وتسير المياه في هذه القناة جنوبا حتى تصل الى غرب مدينة طبرية ٠ وتتفرع عن هذه القناة الاساسية أقنية فرعية طولها نحو مائـة وعشرة كيلو مترات لري جبال الجليل ومرج ابن عامر ٠

(و) تجفيف المستنقعات الواقعة شمالي بحيرة الحولة واستغلالها بعد ذلك في زراعة الحبوب ، وانشاء قنوات محلية في تلك المنطقة ، وتوسيع مخرج المياه من بحيرة الحولة ٠

(ز) زيادة مترين في ارتفاع السد القائم على نهر الاردن عند خروجه مـن بحيرة طبرية لزيادة تخزين المياه ٠٠

(ح) انشاء قناتين من سد بحيرة طبرية ، الاولى لري جميع اراضي الغور

الغربي من بحيرة طبرية الى البحر الميت ٠ ويبلغ طولها نحو مائة كيلو متر (عدا الاقنية التي تتفرع عنها) ٠ أما القناة الاخرى فالغرض منها نقل المياه من بحيرة طبرية الى الغور الشرقي في اوقات الجفاف ٠

(ط) انشاء قناة تبدأ من سد نهر اليرموك قرب قرية العدسية (في الاردن) تستخدم مياهه في توليد الكهرباء بواسطة محطة تقام قرب القرية المذكورة وتحول منها مياه النهر الى بحيرة طبرية ٠

(ك) انشاء سد ومحطة كهربائية لمياه اليرموك قرب محطة (المقارن) في الاردن لتنمية المياه في خزان بحيرة طبرية » (١٨) ٠

وقد شكلت الحكومات العربية التالية : المصرية والسورية واللبنانية والاردنية لجنة فنية من الخبراء العرب لدراسة هذا المشروع وابداء رأيهم فيه ٠

وفيما يلي اعتراضات لجنة الخبراء العرب على المشروع :

« اولا : رفضت لجنة الخبراء العرب مبدأ تخزين مياه نهر اليرموك في بحيرة طبرية لان اكثر هذه البحيرة تحت اشراف السلطة اليهودية ، بينما تنبع هذه المياه من اراض عربية ٠٠

ثانيا : فيما يتعلق بانشاء سد (المقارن) على نهر اليرموك يقترح مشروع جونستون جعل هذا السد بارتفاع ٥٨ مترا لحجز ٧٣ مليون متر مكعب من الماء وتصريف بقية المياه الى بحيرة طبرية ، على ان يكون في الامكان زيادة تعلية السد الى ٩٥ مترا في المستقبل لحجز ١٩٥ مليون متر مكعب اذا دعت الحاجة الى تخزين كمية اكبر من المياه لري الاراضي ٠ ويبدو ان الغاية من ذلك ان لا يتكلف مشروع جونستون الانفاق على تعلية السد وزيادة التخزين وان تقوم بالنفقات الحكومتان السورية والاردنية كل منهما من ميزانيتها الخاصة ٠ ولذلك اعترضت لجنة الخبراء العرب على هذا الاقتراح وطالبت بانشاء السد على نهر اليرموك بارتفاع ١٥٠ مترا في الحال لحجز ٤٠٠ مليون متر مكعب من الماء للاستفادة منها في ري الاراضي وفي توليد الكهرباء ٠

ثالثا : يقترح مشروع جونستون ان تكون محطة توليد القوة الكهربائية في العدسية (الاردن) بقوة ٢٣ الف كيلووات ـ على ان تزداد قوتها الى ٢٨ الف كيلووات اذا زاد ارتفاع السد ، ولكنه يرجيء امر انشاء هذه المحطة بحجة ان الاردن في غير حاجة اليها الان ٠ ويبدو ان سبب الارجاء هو توفير تكاليف انشائها وتحميل التكاليف على عاتق الحكومة الاردنية اذا ما رغبت في انشائها في المستقبل ٠٠

رابعا : اعترضت لجنة الخبراء العرب على اقتراح مشروع جونستون انشاء

محطة توليد الطاقة الكهربائية من مياه نهر الحاصباني في مستعمرة (تل حي) اليهودية وحرمانه لبنان من الاستفادة منها ، وطالبت بانشاء هذه المحطة في الاراضي اللبنانية ، واعطاء اليهود ما يزيد عن حاجة لبنان من الكهرباء ٠

خامسا : بموجب مشروع جونستون لا تستطيع سورية ان تروي اكثر من ثلاثين الف دونم من الاراضي الزراعية من مياه نهر اليرموك ، كما ان المشروع يحرمها من اي استفادة من مياه بانياس ودان وتل القاضي في ري اي مساحة من الارض ، على حين قررت لجنة الخبراء العرب ان سورية تستطيع ان تروي ما مساحته ٦٨ الف دونم من مياه نهر اليرموك و٢٠ الف دونم من مياه نهر بانياس و ٢٢ الف دونم في البطيحة من مياه نهر الاردن ٠

سادسا : بينما يحرم مشروع جونستون الاراضي اللبنانية من أية سقاية من مياه نهر الحاصباني بعد انشاء سد عليه ونقل مياهه الى المنطقة اليهودية ، تقرر لجنة الخبراء العرب ان في الاستطاعة ري ثلاثين الف دونم من الاراضي اللبنانية من مياه هذا النهر » (١٩) ٠

وقد ارتفعت اصوات الاحتجاج العربية الشعبية والرسمية تطالب برفض مشروع جونستون ، وكان « الفلسطينيون اول من رفع صوته باستنكارها واخر قرار لهم برفض مشروعات جونستون هو القرار الذي اتخذه مؤتمر اللاجئين المنعقد في القدس في ٢٠ يوليو ١٩٥٥ » (٢٠) ٠

الموقف الفلسطيني من مشروع جونستون

وفي ما يلي نص القرار الذي اتخذه بالاجماع مؤتمر اللاجئين الفلسطينيين الذي انعقد في القدس يوم ٢٠ يوليو سنة ١٩٥٥ :

« يرفض اللاجئون كل مشروع او تفكير يرمي الى تصفية قضية اللاجئين وحل قضية فلسطين حلا لا يحقق المطالب الوطنية ، كما يرفضون مشاريع الاسكان ومشروع جونستون الذي يؤدي في النهاية الى عقد صلح مع اسرائيل او التعاون معها » (٢١) ٠

وقد اصدرت اللجنة التنفيذية لمؤتمر اللاجئين في قطاع غزة بدورها مذكرة ارسلتها الى رؤساء الحكومات العربية ، مما جاء في هذه المذكرة : « ان دولة اسرائيل ما هي الا بذرة الاستعمار الانجلو ـ أمريكي في البلاد العربية ولن يكون نضال العرب نضالا صحيحا منبعثا عن الاماني القومية للامة العربية الا اذا حاربنا الاصل والفرع والذين امدوا اسرائيل بالحياة ولا يزالون يمدونها ٠ وان في معاونة الاستعمار او مهادنته تدعيما لاسرائيل وتثبيتا لاركانها وتقوية لبنائها وها هو الاستعمار يأتي بمشروع جونستون الذي اعد لتوطين عرب

فلسطين في البلاد العربية ولاعطاء اسرائيل كميات كبيرة من المياه العربية لاستصلاح الارض المغتصبة لكي تتسع ليهود اخرين يجلبون اليها من مختلف بقاع العالم فاذا ما وافقت الدول العربيّة على مشروع جونستون وامثاله الذي يرفضه عرب فلسطين انما تكون :

١ ـ قد باعدت بين عرب فلسطين وعودتهم الى بلادهم بتوطينهم في البلاد العربية ٠

٢ ـ قد قضت على قرارات هيئة الامم المتحدة بخصوص فلسطين ٠

٣ ـ قد قوت اسرائيل بجلب امدادات جديدة من الرجال تكون مادة هذه الدولة لتلتهم بلدا بعد اخر من البلاد العربية حتى يتحقق الحلم وتصبح اسرائيل من الفرات الى النيل ، فالموافقة على مشروع جونستون واشباهه من مشاريع الاستعمار لا تقضي به الدول العربية على فلسطين بالاندثار من الوجود فحسب بل تقضي به كل دولة من هذه الدول بالاعدام على شعبها بالذات » ٠٠(٢٢)

وقد اصدر كل من حركة القوميين العرب وحزب البعث العربي الاشتراكي في فلسطين والاردن،والهيئة العربية العليا لفلسطين عدة بيانات ومذكرات ترفض هذا المشروع وتوضح رأيها فيه ٠

بيان دالاس الثاني والتمهيد لمشروع ايزنهاور

وفي ٢٦ اب ١٩٥٥ القى دالاس خطابا خطيرا حدد فيه سياسة اميركا تجاه القضية الفلسطينية من دون لبس او ابهام ٠ فقضية فلسطين في نظره هي قضية اللاجئين ، التي ينبغي حلها عن طريق التوطين ، وهي قضية الخوف المتبادل والحدود ٠ وبصدد قضية اللاجئين قال دالاس : « لانهاء مأساة التسعمائة الف لاجيء ، لا بد لهؤلاء المشردين من ان يستعيدوا حياتهم الكريمة عن طريق التوطين ـ وعن طريق العودة الى الحد الممكن ٠

ولهذا الغرض يجب استصلاح اراض جديدة يستطيع اللاجئون ان يقيموا فيها بيوتا دائمة لانفسهم ، وان يعيلوا انفسهم عن طريق عملهم هم ٠ ولحسن الحظ، فهناك مشاريع عملية للتنمية المائية يمكن تحقيق هذا الغرض بواسطتها ٠ ولكن هذا يتطلب المال ٠ وعلى اسرائيل ان تقدم تعويضات للاجئين ٠ الا ان اسرائيل قد تكون عاجزة عن تقديم التعويضات الكافية دون مساعدة من الخارج ٠ فاذا كانت الحالة هكذا ، فقد يصار الى اعطاء قرض مالي لاسرائيل لتمكينها من دفع التعويضات المتوجبة عليها ، الامر الذي بدوره يمكن الكثيرين من اللاجئين من ايجاد حياة افضل لانفسهم ٠

وان الرئيس ايزنهاور على استعداد لان يوصي باسهام الولايات المتحدة اسهاما بالغا في مثل هذا القرض لهذا الغرض · كما انه على استعداد ايضا لان يوصي باسهام الولايات المتحدة في تحقيق مشاريع التنمية المالية ومشاريع الري التي من شأنها ان تيسر ، مداورة او مباشرة ، توطين اللاجئين ·

وواضح ان هذه المشاريع لا تقتصر فائدتها على توطين اللاجئين ، بل انها تساعد شعوب المنطقة كلها في التمتع بحياة افضل · فضلا عن ان حل قضية اللاجئين من شأنه ان يزيل اسباب القتال على الحدود » (٢٣) ·

مشروعا ايزنهاور : كانون الثاني ١٩٥٧ وآب ١٩٥٨

تقدمت اميركا ، (على اثر تأزم الوضع السياسي في المنطقة بعد العدوان الثلاثي على مصر عام ١٩٥٦) في مطلع العام ١٩٥٧ ـ ٥ كانون الثاني ـ بمشروع ايزنهاور المعروف الذي ربط بين مقاومة الشيوعية وبين « التنمية » الاقتصادية · فكما ارتبط مشروع جونستون ، بصورة غير مباشرة ، بحلف بغداد الاستعماري بصورة غير مباشرة ، فان مشروع ايزنهاور يطرح المسألة بصورة اكثر مباشرة ووضوحا ·

وبعد فشل المشروع الذي طرحه ايزنهاور عام ١٩٥٧ ، وبعد حوادث النصف الاول من عام ١٩٥٨ (الحرب الاهلية في لبنان التي نشبت من اجل مناهضة مشروع ايزنهاور ، وحدة مصر وسوريا ، وانقلاب بغداد الوطني) اعاد ايزنهاور طرح مشروع آخر تقدم به الى الدورة الاستثنائية الخاصة التي عقدتها الجمعية العامة بشأن الشرق الاوسط · وقد دعا ايزنهاور مشروعه « مخططا لسلام الشرق الادنى » ،وضمنه ستة مقترحات · ولم يشر ايزنهاور في خطابه الى قضية فلسطين ، او قضية اللاجئين ، بل شدد على ضرورة انشاء « مؤسسة تنمية عربية على اساس اقليمي » وذكر انه « بمساعدة الامم المتحدة تتاح الان فرصة فريدة لبلدان الشرق الاوسط لتجعل مصالح امنها ومصالحها السياسية والاقتصادية تتقدم بحرية » · وقد علق همرشولد على مشروع ايزنهاور قائلا « ان التقدم في انجاز المقترحات ، قد يخلق قاعدة لمعالجة مشكلة خطيرة من مشاكل المنطقة هي مشكلة اللاجئين الفلسطينيين » (٢٤) ·

مشروع همرشولد

في الخامس عشر من حزيران ١٩٥٩ ، أصدرت الامانة العامة للامم المتحدة وثيقة رسمية تحمل رقم أ ـ ٤١٢١ ، موجهة الى الجمعية العامة في دور انعقادها العادي الرابع عشر · وكان عنوان الوثيقة التي تقدم بها همرشولد : « مقترحات

بشأن استمرار الامم المتحدة في مساعدة اللاجئين الفلسطينيين » ٠

ويعتبر « تقرير همرشولد ٠٠ ليس تنفيذا لتعهده للجمعية العامة بأن يضع دراسة عن قضية اللاجئين ، بمقدار ما هو امتداد وتتمة للمشروع الذي قدمه الرئيس الامريكي ايزنهاور في ١٣ اب ١٩٥٨ اثناء الدورة الاستثنائية الخاصة التي عقدتها الجمعية في الصيف الماضي على اثر الحوادث في لبنان والاردن والعراق ٠٠٠ وقد انبثق ذانك البيانان (بيانا ايزنهاور وهمرشولد) عن رغبة في معالجة ازمات الشرق الاوسط السياسية (وهي غير مرتبطة ارتباطا مباشرا بالقضية الفلسطينية) ، بالاساليب والوسائل الاقتصادية » (٢٥) ٠

يقسم تقرير همرشولد منطقة الشرق الاوسط الى ثلاثة اقسام : (١) اسرائيل ، والبلدان العربية التي تنتج كميات وافرة من البترول (٢) والبلدان العربية التي لا تنتج البترول بكميات وافرة (٣) والبلدان التي ينعدم لديها ، « ويخلص التقرير الى القول بان اسرائيل تستطيع ان تحصل من الخارج ، بأساليبها الخاصة ، على الاموال اللازمة لنموها الاقتصادي ، نموا يأخذ بعين الاعتبار سكانها الحاليين والمهاجرين المتوقع ان يتدفقوا عليها ٠ واما البلدان العربية التي تنتج كميات وافرة من البترول ، فيذهب همرشولد الى أنها تستطيع ان تحصل من عائدات البترول على جميع ما تحتاج اليه من مال لتوفير نموها الاقتصادي ، بل انها قادرة على تمويل البلدان الاخرى في المنطقة ايضا من وفر عائدات البترول » ٠٠ (٢٦)

اما البلدان العربية التي لا تنتج مقادير وافرة من البترول مثل الجمهورية العربية المتحدة في ذلك الحين (مصر وسوريا حاليا)او تنعدم لديها، ومثل لبنان والاردن ، والتي تفتقر تنميتها الاقصادية الى الاموال من خارجها ، فهي عينها البلدان التي تقيم فيها الكثرة الساحقة من اللاجئين ٠ والواضح ان « واضع التقرير يربط ربطا وثيقا بين الحديثعن تنمية تلك البلدان العربية الثلاثة بالذات ، وانفاق الاموال الطائلة لهذا الغرض ، وبين الحديث عن ادماج اللاجئين في اقتصادياتها » (٢٧) ٠

ويرى د٠ فايز صايغ ان همرشولد « لا يتطلع في تقريره الى اندماج اللاجئين في الاراضي المحتلة من وطنها ، وانه بالتالي لا يخطط لعودتهم الى ديارهم » ٠ (٢٨) كما ان تقرير همرشولد يتجاهل تجاهلا كليا حق اللاجيء بالتعويض ٠ اضافة الى ذلك يخلط همرشولد في تقريره بين حق العودة والتوطين او يساوي بينهما في الاهمية !

ففي الفقرة الثانية من تقريره يقول :

« بعد النظر الدقيق في مسألة اللاجئين الفلسطينيين من جميع وجوهها ، اني اوصي باستمرار وكالة الأغاثة ريثما يتم ما قالت عنه الجمعية العامة من

« اعادة ادماج اللاجئين في حياة الشرق الادنى الاقتصادية ، اما بالعودة او بالتوطين ٠٠٠ طبقا لاختيار اللاجئين انفسهم » (٢٩) ٠

ويرى د٠ فايز صايغ ان « مشروع همرشولد لا يقل خطرا ، وخطورة عن قرار التقسيم ، والهدنة ، وادخال اسرائيل في عضوية الامم المتحدة ، وسواها من المراحل الحاسمة التي مرت بها قضية فلسطين منذ ان بدأت الامم المتحدة تعنى بها في عام ١٩٤٧ » ٠

وقد علق الرئيس الدكتور عبد الله اليافي في جريدته « السياسة » في عددها الصادر في ٢٣ حزيران ١٩٥٩ على مشروع همرشولد بقوله : « فلا هي الرحمة باللاجئين العرب ولا الشفقة على عيالهم واطفالهم ولا الرغبة بوضع حد لشقائهم وبؤسهم هي التي حركت بعض الدول الغربية الكبرى عندما فكرت بمشروع الاستيطان ٠ كلا ان الذي دفع هذه الدول الى المطالبة باستيطان اللاجئين في البلدان العربية هي رغبتها في تصفية القضية الفلسطينية تصفية نهائية باسدال ستار النسيان على جميع مقررات الامم المتحدة ـ وما اكثر هذه المقررات التي اوصت وطالبت بعودة هؤلاء اللاجئين العرب الى ديارهم » (٣٠)٠

الموقف الفلسطيني من مشروع همرشولد

عقد في بيروت بتاريخ ٢٦ حزيران ١٩٥٩ مؤتمر عربي فلسطيني حضره مندوبون وممثلون عن جميع مخيمات الفلسطينيين ومختلف اماكن اقامتهم في الاراضي اللبنانية ، وجميع هيئاتهم ومنظماتهم ، بما في ذلك الهيئة العربية العليا لفلسطين واللجنة العليا للاجئين الفلسطينيين في لبنان ، والشباب العربي الفلسطيني ، والمكتب العربي الفلسطيني والكشاف العربي الفلسطيني وسواها في دار الهيئة العربية ببيروت للتداول في تقرير داغ همرشولد وقد اتخذ المؤتمر بالاجماع المقررات التالية :

١ ـ « يقرر الفلسطينيون في لبنان التمسك بحقهم الطبيعي في العودة الى وطنهم وبلادهم ويؤكدون ان الحل الوحيد هو القضاء على اسرائيل واسترداد فلسطين وعودة أهلها اليها ٠

٢ ـ يعلن الفلسطينيون رفضهم لمشروع همرشولد الخاص بدمجهم في اقتصاديات الشرق الاوسط ولكل مشروع يحول دون حقهم الطبيعي في وطنهم ٠

٣ ـ يعتبر الفلسطينيون قبول تقرير همرشولد وكافة المشاريع المشابهة له والمنطوية على الاسكان والتوطين والتعويضات هو خيانة وطنية لفلسطين والقومية العربية ويحذرون من قبولها ٠

٤ ـ ويهيب عرب فلسطين بالحكومات العربية جميعها لبذل الجهود والمساعي

اللازمة لاحباط توصيات ومقترحات السكرتير العام للامم المتحدة ٠

٥ ـ يرحب عرب فلسطين بقرار اللجنة السياسية التابعة للجامعة العربية لعقد اجتماع عربي على مستوى عال لبحث قضية فلسطين ويحثون الحكومات العربية على الاسراع في تنفيذ هذا القرار ، ويهيبون بالدول التي لم تبد رأيها بهذا الصدد حتى الان ان تبادر بالموافقة على هذا الاجتماع ٠

٦ ـ نظرا لتفاقم الاخطار على قضية فلسطين ، خاصة بعد صدور تقرير همرشولد الذي يرمي الى تذويب عرب فلسطين،والتعفية على اثارهم ، يؤيدعرب فلسطين الجهود المبذولة لاحياء الكيان ، ويطلبون من الدول العربية الاسراع في تنفيذ هذا القرار على شكل يمكن الفلسطينيين من المساهمة الجدية العملية لانقاذ بلادهم ٠

٧ـ تشكيل لجنة خاصة للقيام بالدراسات العلمية والفنية لتقرير همرشولد ورفعها الى المؤتمر ٠

٨ ـ لمناسبة وصول السكرتير العام للامم المتحدة الى الشرق الاوسط يعلن الفلسطينيون يوم الاربعاء ١ تموز سنة ١٩٥٩ يوم اضراب عام ومقاطعة خدمات وكالة الاغاثة والصيام عن الطعام اعرابا عن استنكارهم لتقريره وتمسكهم بحقوقهم القومية ٠

٩ ـ عقد مؤتمر عام للفلسطينيين في لبنان يوم الاحد ١٢ تموز سنة ١٩٥٩ لمواصلة البحث في تقرير همرشولد وشؤون القضية الفلسطينية ودراسة ما يجب ان يتخذ من اجراءات لضمان احباط تقرير همرشولد وتوفير الاسباب والوسائل الضرورية لتمكين عرب فلسطين من الكفاح والنضال في سبيل وطنهم ٠

١٠ ـ ابلاغ هذه المقررات الى ممثلي الدول العربية في لبنان لرفعها الى حكوماتهم وللمراجع الدولية المختصة » ٠٠ (٣١)

وفي ١٢ تموز ١٩٥٩ انعقد المؤتمر العربي الفلسطيني في بيروت وكان مؤلفا من مندوبين عن جميع الهيئات والمنظمات واللجان الفلسطينية في لبنان دون استثناء ، وهي التالية :

١ ـ الهيئة العربية العليا لفلسطين ٠

٢ ـ الاتحاد النسائي العربي الفلسطيني ٠

٣ ـ اللجنة العليا للاجئين الفلسطينيين في لبنان ٠

٤ ـ الشباب العربي الفلسطيني ٠

٥ ـ المكتب العربي الفلسطيني ٠

٦ ـ اللجنة العامة للاجئين الفلسطينيين في لبنان ٠

٧ ـ الكشاف العربي الفلسطيني ٠

٨ ـ رابطة الطلبة النازحيـن ٠

٩ ـ لجنة الملاكين ٠

وقد كرر المؤتمر من جديد ٠٠ رفض عرب فلسطين لتوصيات المستر همرشولد بشأن دمج الفلسطينيين في الحياة الاقتصادية للشرق الاوسط ، ويؤكد رفضهم القاطع لجميع مشاريع التوطين والاسكان والتهجير والامتصاص ، وغيرها مـن المشاريع والبرامج المماثلة التي انما ترمي الى تصفية قضية فلسطين والتعفية على اثار شعب فلسطين العربي » ٠ (٣٢)

وقد كانت الولايات المتحدة الامريكية والقوى الامبريالية الاخرى هي التـي تقف وراء مثل هذه المشاريع التي رفضها الشعب الفلسطيني محافظا على هويته الوطنية ومقاتلا في سبيل تحرير وطنه والعودة اليه ٠ وقد اتبعت الولايات المتحدة الامريكية سياسة استراتيجية ثابتة تستهدف : ضمان أمن اسرائيل وحمايتها وتقويتها عسكريا وسياسيا ، والسعي الى تمكينها من اداء دورها بفعالية كأداة امبريالية ، والسعي الى تصفية القضيـة الوطنية للشعب الفلسطينـي بمختلف السبل ، ونجاح هذه السياسة او فشلها ليس مرهونا بما تريده الامبريالية ، بل بقدرة الشعب الفلسطيني وطلائعه المناضلة جنبا الى جنب مع الشعوب العربية وقواها الثورية التقدمية في التصدي لمثل هذه السياسة وافشالها وتوجيـه الضربات الموجعة للكيان الصهيونـي وحلفائه الرجعيين علـى طريق تحريـر فلسطين ٠

التركيز على التعليم

« ان فشل مشاريع التوطين الزراعي على نطاق واسع ، والنتائج المحدودة التي حصلت عليها الوكالة من المشاريع الفردية الاخرى ، دفعها الى اعـادة النظر في كل خططها ٠ ان رفض الفلسطينيين لكافة مشاريع الاسكان والتوطين خارج وطنهم كان حاسما في افشال هذه المشاريع ٠ وهذا الرفض لم تخـف حدته عبر السنين وقد عبر عنه الفلسطينيون بأكثر الاشكال حدة في قـطاع غزة والاردن في عامي ١٩٥٥ و ١٩٥٦ ، أما في الاعوام التي تلت ذلك ٠٠ فقد اخذ الفلسطينيون يعدون انفسهم للانتقال من مرحلة الرفض السلبي للمشاريع المشبوهة الى مرحلة النضال المباشر الذي يستهدف قلع جذور المشكلة وليس مجابهة اعراضها فقط ٠ في هذه المرحلة شرعت الوكالة في ايلاء مسألة التعليم والتدريب المهني اهتماما متزايدا وصل الى حد تخصيص حوالي نصف ميزانيتها

لمشروعات التعليم والتدريب ، ويعود هذا التركيز على التعليم ٠٠ الى ما يلي :

١ ــ ان التعليم ، في ظل معطيات واقع المنطقة ، هو الوسيلة الوحيدة للوصول الى حالة من الاعتماد على النفس بالنسبة لقطاع واسع من الفلسطينيين ٠

٢ ــ (٠٠٠٠) ٠

٣ ــ ان التحويلات المالية التي يرسلها عشرات الالاف من الشباب الفلسطيني الى أهلهم في الاردن (الضفة الغربية) وقطاع غزة ، تساعد في تخفيف حدة الشقاء الذي يعاني منه الفلسطينيون ، وتعمل على تجميد الاوضاع القائمة ٠

٤ ــ ان برامج التعليم هي أقل البرامج اثارة للاعتراض من قبل الفلسطينيين بغض النظر عن الاهداف التي تتوخاها الوكالة منها ٠ وتظهر الاحصاءات ان اقبال الفلسطينيين على التعليم لا يعادله اقبال اي مجتمع من مجتمعات المنطقة » ٠ (٣٤)

لقد كان موقف الشعب الفلسطيني من كافة المحاولات والمشروعات الرامية الى طمس قضيته الوطنية موقفا تاريخيا باسلا ، وقد عبر عن نفسه ، طوال السنوات الماضية ، في أرقى اشكال الكفاح (الكفاح المسلح) باعتباره التجسيد الحي لرفض مشاريع ودعوات التوطين والاصرار على التحرير والعودة ،**وكل من يقف ، اليوم ، في وجه الكفاح الوطني المشروع للشعب الفلسطيني انما يقف في خندق القوى الامبريالية والصهيونية الرجعية حتى لو تسترت هذه الدعوات بحجه رفض التوطين ٠٠ بينما هي تذكي شعور العداء للشعب الفلسطيني وتقف حجر عثرة امام تطور نضاله ، ان لم تكن تسعى وتعمل على تصفية هذا النضال الذي تخشاه الامبريالية والصهيونية والرجعية ٠**

وليس ابلغ من دلالة التقارير السنوية التي يصدرها « المفوض العام لوكالة الامم المتحدة لاغاثة اللاجئين الفلسطينيين في الشرق الادنى وتشغيلهم »، هذه التقارير التي تؤكد دوما على تمسك الفلسطينيين بأرضهم واصرارهم على العودة اليها ورفض كافة المشاريع التي تمس حقوقهم الطبيعية المشروعة ٠ وعلى سبيل المثال ، لا الحصر ، نقرأ في احد هذه التقارير السنوية ما يلي : « كانت الخيبة مصير المحاولات التي بذلتها الوكالة في سنواتها الاولى لرعاية مشاريع التشغيل الرامية الى توطين اللاجئين ، وكان الفشل من الوجهة العملية مصير المحاولات الاكبر الماضية التي بذلتها الجهات الاخرى للوصول الى حل للمشكلة الفلسطينية بطريق التفاوض ، وهناك دواع قوية للاعتقاد بأن فشل هذه المحاولات يرجع الى كونها غير مقبولة في نظر اهالي المنطقة (اللاجئين منهم وغير اللاجئين) وفي نظر الحكومات التي تمثلهم ٠ وان المفوض العام يرى ، بعد تدقيق النظر ، ان مشاعر الشعب العربي ما زالت اليوم بنفس العمق الذي كانت عليه في اي وقت اخر في الماضي ، وان الوكالة ينبغي بالتالي الا تحاول مرة اخرى ، الاضطلاع

بمشاريع التشغيل الرامية الى توطين اللاجئين ، على الاقل طالما لم يحدث ثمة تقدم محسوس نحو تنفيذ الفقرة ١١ من قرار الجمعية العامة ١٩٤ (الدورة ٣) ٠ وينبغي ان لا يخلص المرء من ذلك الى ان سكان المنطقة لا يريدون الانماء الاقتصادي ، بل هم على العكس ، يريدونه ، ويريدونه بمعدل اسرع ، ولكن لا يريدونه مرتبطا بتوطين اللاجئين ٠

ولا شك في انه قد يحدث في المستقبل ، على غرار الماضي ، ان يتم استيعاب عدد ما من اللاجئين وابنائهم ـ اقتصاديا واجتماعيا ـ في البلدان العربية رغم العقبات الموصوفة انفا ، وحتى لو ظل الطريق الى حل المشكلة الفلسطينية مسدودا كما هو الان ٠ الا ان المفوض العام يرى ان من الخطأ ان يفترض المرء ان هذا الاستيعاب في حد ذاته سيؤدي الى التخلص من القضايا الاساسية الكبرى الكامنة وراء المشكلة الفلسطينية ٠ ان عمق مشاعر شعوب الشرق الاوسط ازاء هذه القضايا والمأزق المترتب على ذلك هما في الحقيقة العاملان اللذان لا يزالان الى اليوم يقوضان دعائم السلم والاستتباب في الشرق الاوسط وفي العالم اكثر كثيرا مما يقوضها بحد ذاته واقع بقاء مليون فلسطيني لاجئين معتمدين على المساعدة » ٠ (٣٥)

لقد فشلت كافة مشاريع التوطين « والاندماج » (الاسم « الملطف » لطمس الحقوق الوطنية التاريخية الثابتة للشعب الفلسطيني في ارضه) « والتنمية » ، هذه المشاريع التي ارتبط عدد منها جهارا بسياسة الاحلاف الامبريالية ٠

وستفشل كافة المحاولات اللاحقة ، ايضا ، على ارض المقاومة الشعبية الوطنية الفلسطينية والعربية ٠

والواقع ان كل المشاريع التي طرحت لا تمت ، كما رأينا ، الى « التنمية » الاقتصادية الحقيقية بصلة ، فلم تعودنا القوى الامبريالية الاهتمام بتطور البلاد التي تستغلها ، بل يهمها ان تظل متخلفة ضعيفة عاجزة اقتصاديا وسياسيا وعسكريا ، وقد رأينا كيف حاولت الامبريالية الامريكية ان تربط بعض القروض الهزيلة التي كانت ستعطيها لعبد الناصر وسواه بمشاريع الاحلاف الاستعمارية، ولكن حين بدأت مصر تسعى الى تحقيق بعض التنمية والتقدم والاستقلال اخذت اسرائيل والقوى الامبريالية تمارس عدوانها وحصارها الاقتصادي والسياسي٠ ان المشكلة الفلسطينية ، في جوهرها ، ليست مشكلة لاجئين مشردين يحتاجون الى الرعاية « والتخفيف » من بؤسهم وشقائهم ، فهناك ملايين عديدة في العالم من المهجرين والمشردين ٠ ثم ان الحالة الاقتصادية ـ الاجتماعية للشعب الفلسطيني ليست اكثر بؤسا وسوءا من حالة الشعب العربي في بلدان عديدة يمثله الشعب الفلسطيني كطاقة ثورية تمرست بالكفاح الوطني

البطولي في مواجهة الاستعمار والصهيونية والرجعية هي التي تقض مضاجع الامبرياليين والانظمة والقوى المرتبطة بهم ٠

وقد كان الشعب العربي الفلسطيني ، بحكم الظروف التي واجهها ، سباقا الى شق الطريق الحقيقي ، طريق الكفاح الشعبي المسلح في وجه اعداء التقدم والتنمية الحقيقية والسلام الحقيقي ٠

والكيان الصهيوني الاستيطاني العدواني لم يستهدف فقط الشعب الفلسطيني، بل انه يمارس دوره كأداة امبريالية لابقاء التخلف والسيطرة الامبريالية على مقدرات المنطقة ضد كافة شعوب المنطقة العربية المجاورة لفلسطين ٠ فأبناء قرى جنوبي لبنان ومدن القناة المصرية والقرى والمدن السورية لم تسلم من العدوان الصهيوني المباشر ٠ فالشعوب العربية الاخرى لها مصلحة مباشرة في مقاومة العدوان الصهيوني الامبريالي والدور الذي يمارسه في المنطقة كعائق وكابح للتقدم والتطور ٠ فاسرائيل لم توجد لكي تستولي فقط على ارض فلسطين وتعيش بعد ذلك « بسلام » مع جيرانها ، بل لكي تحول ارض فلسطين الى قاعدة عسكرية عدوانية ضد كل شعوب المنطقة وقواها الوطنية والثورية ٠ ان اسرائيل هي الدركي الذي يحافظ على تخلف المنطقة العربية ، لابقائها تحت الهيمنة الامبريالية ولا يبطل هذا الدور سوى الكفاح الشعبي المسلح الذي يشارك فيه الفلسطينيون الشعوب العربية الاخرى ٠

والبداية الحقيقية للتنمية الاقتصادية انما تكون بتوفير شروطها السياسية ، شروط انتصار القوى السياسية المعبرة عن الطبقات التي لها مصلحة فعلية في تطوير قوى الانتاج وانجاز الاستقلال الجذري ـ الاقتصادي والسياسي ٠

ان من يطرح دوما مشاريع التوطين بهدف التشكيك والتضييق على النضال الوطني الفلسطيني والسعي لضربه وتصفية القضية الوطنية للشعب الفلسطيني، انما يستوردها من مطابخ صانعيها ، القوى الامبريالية والصهيونية والرجعية المرتبطة بهما ٠ ان المقصود دائما من هذا الطرح شيء آخر ٠ فكلما نسمع هذه النغمة علينا ان نعرف العازف الحقيقي ٠ ان الذي يرفض مشاريع التوطين قولا وفعلا ، انما عليه ان يدعم الكفاح المسلح الوطني الفلسطيني كأرقى تجسيد لهذا الرفض ، لا العمل على لجم هذا الكفاح والتضييق عليه وتشويه الصورة النضالية للشعب الفلسطيني والسعي المحموم للاجهاز على مقاومته الباسلة الرافضة لكل نتائج واسباب المشروع الامبريالي الصهيوني على ارض فلسطين ٠

ان المطلوب هو توطين المواطنين العرب في أرضهم ٠٠ باقامة النظم السياسية القادرة على مناهضة الامبريالية وما تمثله من تخلف وتبعية اقتصادية وسياسية وتطوير قوى الانتاج وصنع التنمية الحقيقية وتوفير فرص العمل المنتجة لكافة

المواطنين الذين لا يجد الكثيرون منهم مندوحة عن الهجرة للبحث عن العمل ولقمة العيش ٠

وقضية تحرير فلسطين من الصهيونية لا تنفصل عن طريق التنمية الاقتصادية الحقيقية ، بل هذا هو صلب الموضوع ٠ فالقوى التي تقاتل الامبريالية والصهيونية والرجعية هي وحدها التي تسعى وتستهدف تطوير وتقدم المنطقة ٠ فالتحرر السياسي الجذري شرط التحرر الاقتصادي ـ الاجتماعي ٠

المراجع

(١) قورة ، نزيه : تعليم الفلسطينيين ، الواقع والمشكلات ، مركز الابحاث ، بيروت ١٩٧٥ ، ص ١٩ و ٢٠ ٠ نقلا عن كتاب بوهرج ، ادوارد : « الامم المتحدة واللاجئون الفلسطينيون » ص ٣٧ ٠

(٢) صايغ ، يوسف : قضية اللاجئين الفلسطينيين بين المثالية والواقعية ، مجلة ابحاث ، تصدرها الجامعة الامريكية في بيروت ، السنة ٦ ـ الجزء ٣ ، أيلول ١٩٥٣ ، ص ٣٥١ ٠

(٣) المرجع السابق ، ص ٣٥٢ ٠

(٤) راجع تقارير الوكالة السنوية من عام ١٩٥٠ ـ ١٩٥٤ ٠

(٥) د٠ صايغ ، فايز : مشروع همرشولد وقضية اللاجئين ، دار الفجر الجديد ، بيروت ١٩٥٩ ، ص ١٣٠ ، ١٣١ ٠

(٦) المصدر السابق ، ص ١٣٣ ٠

(٧) المصدر السابق ، ص ١٣٤ ، ١٣٥ ، ١٣٦ ، ١٣٧ ٠

(٨) المصدر السابق ، ص ١٤٠ ، ١٤١ ٠

(٩) المصدر السابق ، ص ١٤٢ ، ١٤٤ ٠

(١٠) قورة ، نزيه ، مصدر سابق ، ص ٣٢ ٠

(١١) صايغ ، يوسف : مجلة ابحاث ، مصدر سابق ص ٣٥٦ ، ٣٥٧ ٠

(١٢) صايغ ، يوسف ، مصدر سابق ، ص ٣٦٠ ٠

(١٣) قورة ، نزيه ، مصدر سابق ، ص ٣٣ ، ٣٤ ٠

(١٤) المصدر السابق ص ٣٤ ، ٣٥ ٠

(١٥) المصدر السابق ، ص ٣٥ ، ٣٦ ٠

(١٦) د٠ صايغ ، فايز ، مشروع همرشولد ، مصدر سابق ، ص ١٥٣ ، ١٥٤ ٠

(١٧) المصدر السابق ، ص ١٥٦ ٠

(١٨) المطامع اليهودية في السيطرة على المياه العربية ، او مشروع جونستون ، اصدار الهيئة العربية العليا لفلسطين ، القاهرة ، دار الكتاب العربي بمصر ، ١٩٥٥ ، ص ٩ ، ١٠ ٠

(١٩) المصدر السابق ، ص ١١ ، ١٢ ، ١٣ ٠

(٢٠) المصدر السابق ، ص ٣٤ ٠

(٢١) المصدر السابق ، ص ٥٠ ٠

(٢٢) المصدر السابق ص ٥١ ، ٥٢ ٠

(٢٣) د٠ صايغ ، فايز ، مصدر سابق ، ص ١٥٨ ٠

(٢٤) المصدر السابق ، ص ١٥٩ ، ١٦٠ ٠

(٢٥) المصدر السابق ، ص ٣٢ ٠

(٢٦) المصدر السابق ، ص ٤١ ، ٤٢ ٠

(٢٧) المصدر السابق ، ص ٤٣ ٠

(٢٨) المصدر السابق ، ص ٤٧ ٠

(٢٩) المصدر السابق ، ص ٦٣ ، ٦٤ ٠

(٣٠) المصدر السابق ، ص ٨٣ ، ٨٤ ٠

(٣١) المصدر السابق ، ص ٨٩ ، ٩٠ ، ٩١ ، ٩٢ ٠

(٣٢) المصدر السابق ، ص ٩٥ ٠

(٣٣) قورة ، نزيه ، مصدر سابق ، ص ٣٧ ، ٣٨ ٠

(٣٤) التقرير السنوي للمفوض العام لوكالة الامم المتحدة لاغاثة اللاجئين الفلسطينيين في الشرق الادنى وتشغيلهم ، ١ تموز (يوليو) ١٩٦١ ـ ٣٠ حزيران (يونيو) ١٩٦٢ الامم المتحدة ، نيويورك ١٩٦٣ ٠ ص ٥ ، ٦ ٠

نـزيـه قـوزه

ملاحظات حول العمل العربي في الزراعة الاسرائيلية

للارض الفلسطينية ثلاث خصائص ، تتحدد ، استنادا على التشديد على أحدها ، الطريقة التي ينظر بها الى القضية الفلسطينية ، وتتحدد بالتالي مجموعة السياسات التي تصاغ لمعالجة هذه القضية ٠

الخاصية الاولى تتعلق بالاهمية الاستراتيجية العسكرية لهذه الارض ، واهمية السيطرة عليها ٠ وتتعلق الخاصية الثانية بالقيمة العقارية التجارية لارض تقع على مفترق الطرق التجارية العالمية ، وتبعث في نفوس كثيرة احلاما حول قيام مركز مالي تجاري عالمي ، الامر الذي يجري التعبير عنه ميتافيزيقيا بتعبير « مركز روحي » ٠ اما الخاصية الثالثة فتتعلق بالارض الفلسطينية بصفتها وسيلة انتاج يعتاش منها فلاحوها ويبنون عليها بيوتهم وقراهم ويشكلون فيها مجتمعهم وينسجون علاقاتهم الاجتماعية ٠

« ان قضية فلسطين من اصعب القضايا واعقدها » ، هذه العبارة تكاد تكون افتتاحية كل الخطب والمقالات المتعلقة بالقضية الفلسطينية ٠ وهي كذلك اذا قسنا الصعوبة والتعقيد بعدد الحركات والاحزاب وانظمة الحكم التي تعاقبت منذ البداية الرسمية لارتباط اسم فلسطين بكلمة قضية او كلمة « مشكلة » او كلمة « مسألة » ، واذا قسنا الصعوبة والتعقيد بحجم الجهود والحروب الحقيقية والمزورة ، وبحجم الكتابات التي استهدفت تبيان الحقيقة او طمسها ٠ غير ان الصعوبة والتعقيد يبدآن في التراجع ، على المستويين النظري والعملي، لافساح المجال للبساطة النظرية والعملية عندما نبدأ في طرح الاسئلة الحقيقية ونعمل على ايجاد اجوبة حقيقية لهذه الاسئلة ٠

من بين هذه الاسئلة سؤال يتعلق بحقيقة طرفي الصراع ، وبالتالي حـــول جوهر الصراع على فلسطين : هل هو صراع بين فلاحين يهود او يهود يريدون ان يكونوا فلاحين ، وبين فلاحين عرب ؟ هل هو صراع بين تجار وسماسرة يهود يريدون مركزا ماليا تجاريا لهم وبين تجار وسماسرة عرب يريدون نفس قطعة الارض لاقامة مركز مالي تجاري لهم عليها ؟ ام هو صراع بين قوى كبرى ترى في فلسطين « اثمن قطعة عقار استراتيجية في العالم » حسب تعبير الجنـــرال ايزنهاور ، الذي اصبح فيما بعد رئيسا للولايات المتحدة الاميركية ، وبين قـوى تعد نفسها لتصبح قوة كبرى ، وتحتاج الى فلسطين كشرط لازم لتحقيق هدفهـا الاستراتيجي ؟

حتى يكون الصراع حقيقيا ، وحتى يكون حله بالتالي ممكنا بواسطة حـذف احد طرفي الصراع ، لا بد ان يكون الصراع قائما بين طرفين يبغيـــــان الوصول الى نفس الهدف بحيث يكون انتصار احدهما هزيمة للطرف الاخـر · فالصراع بين الاستراتيجيين الاميركيين والاستراتيجيين العرب ، ان وجـدوا ، هو صراع حقيقي ، ينهزم فيه احد الاطراف او ينتصر · والصراع بيـــــن التجار والسماسرة العرب وبين التجار والسماسرة اليهود هو صراع حقيقي ، يتحدد مساره ونهايته بتمسك كلا طرفي الصراع بهدفه النهائي وبقدرته عـــلى حشد القوى بصورة عقلانية وعلى زجها في الصراع · والصراع بين الفلاحيـن الفلسطينيين وبين الفلاحين اليهود صراع حقيقي يتحدد مساره ونهايته بمدى اصرار كل طرف على التمسك بهدفه وبحجم القوى التي يحشدها كل طرف مـن موارده الخاصة ·

اما الصراع الذي يكون احد اطرافه الفلاحين الفلسطينيـين ، بامكانـــات وقدرات لا تزيد كثيرا عن امكاناتهم البشرية والمادية الذاتية ، ويكون الطـــرف الاخر هو الفلاحين اليهود بامكانات وقدرات وزارة الدفاع الاميركية ، فهـــو صراع وهمي زائف غير قابل للقيام اصلا ·

في دراستنا هذه سنحاول ان نتفحص مدى مساهمة عامل الارض بصفتهـــا وسيلة انتاج في الصراع الدائر حول فلسطين ، مستعينين بمعطيات الواقـــع المادي · تبلغ المساحة الكلية لارض فلسطين الانتدابية نحو ٢٦ الف كيلومتـــر مربع اي ما يعادل نحو ٢٦ مليون دونم · وقد استولت اسرائيل في عام ١٩٤٨ على مساحة تقدر بنحو ٢٠ مليون دونم · وفي عام ١٩٥٩/١٩٦٠ بلغت المساحة المزروعة من هذه الارض ٤٫٠٧ مليون دونم · ورغم انفاق مليارات عديدة مـن الدولارات ،ورغم الادعاءات الخرافية حول تعمير الصحراء وتجفيف المستنقعات، فان المساحة المزروعة عام ١٩٧٤/١٩٧٥ لم تزد عن ٤٫٣٥ مليون دونم بينهـــا ٨٩٥ الف دونم يمتلكها الفلاحون العرب ، مقابل ٣٫٤٥٥ تمتلكها الهيئـــــات اليهودية المختلفة · (١)

اما عدد العاملين في الزراعة بين اليهود ، حسب ما تورده الاحصـــاءات الرسمية ، فقد بلغ ٥٦ الف شخص ، وذلك من مجموع قوة العمل المدنية البالغ ٤ر٩٨٤ الف شخص ، اي ما نسبته ٧ر٥ بالمئة · (٢)

ومن الممكن ان يطرح في هذا السياق اعتراض يقول بان هذه النسبة لا تختلف كثيرا عن مثيلاتها في الدول الصناعية المتقدمة ، وذلك بسبب الاستعمال الواسع للالات الزراعية التي تجعل من الممكن تشغيل القطاع الزراعي بحد ادنى مـــن الطاقة البشرية · ان الرد على هذا الاعتراض ينطلق من تلك الدرجة من القداسة التي منحت للعمل في الزراعة والتي وصلت الى حد جعله دينا على يد المفكـر الصهيوني غوردون · فقد جرى تصوير العمل في الزراعة على انه عملية تطهير روحي ، واعطي الاستيطان الزراعي واقامة المستوطنات صفات الطلائعيـــة والريادة ، واصبح المشروع الصهيوني في ذهن الرأي العام كمـــا لو كـــان مستوطنة زراعية كبيرة · ومن ناحية اخرى فان الارقام التي توردها الاحصاءات الرسمية لا تعكس الحقيقة من ناحيتين : فهي تبالغ كثيرا في عدد اليهود الذين يعملون حقيقة في العمل الزراعي ، وتخفي العدد الحقيقي للعمال العرب الذين يعملون في الاراضي التي تسيطر عليها الهيئات اليهودية المختلفة · ويظهـــر الحجم الحقيقي لمساهمة العمال العرب في الزراعة الاسرائيلية من رسالة بعثت بها امرأة من المستوطنة التعاونية كفار فيتكين الى موشي ديان في عام ١٩٧٢ ، حين كان وزيرا للدفاع ، تتحدث فيها عن التحولات التي طرأت على مستوطنتها منذ حرب عام ١٩٦٧ ، والتي تتلخص في تحول اعضاء المستوطنة الى مقاولين ومتعهدين لمختلف الاعمال الزراعية ، والاعتماد الكامل على العمال العـــرب القادمين من الاراضي المحتلة · واشتكت في هذه الرسالة من تدفق العمـــال العرب على المستوطنة في مواسم قطاف الحمضيات ومواسم قطاف المزروعـات في البيوت الزجاجية · وقالت في رسالتها : « يبدو ان كل رجل قادر على العمل قد تحول الى متعهد · وقد تزايد عدد البيوت الزجاجية التي تعتمد اعتمـــادا كليا على العمل العربي ··· لقد اصبح نمط حياتنا هو نمط حياة الافندية ··· ومن الواضح انه مع كل سنة تمر تصبح المشكلة اكثر حدة · والمتعهدون الذي يجمعون الثروات اليوم ، سوف يتحولون غدا الى جماعة ضغط تمنع ادخـال اي تغيير على الوضع » · (٣)

من الواضح ان السيدة عضو المستوطنة التعاونيـــة (الموشاف) ليست مسرورة تماما من الارباح التي يجنيها المستوطنون الصهيونيـــون مـــن وراء استخدام عمال المناطق المحتلة · والتخوفات التي تبديها تجاه الاعتماد الكامـل على العرب ، تتناقض مع القوانين الاقتصادية التي تفترض في الانسان الـــذي يدير مشروعا اقتصاديا ان يسعى الى جني اقصى حد ممكن من الربح عن طريق دفع اقل تكاليف ممكنة ، وطلب اعلى سعر ممكن لمنتوجه · وحتى نكون فكـرة

عن جدوى استخدام العمل العربي بدلا عن العمال اليهود في الكيان الصهيوني، وخاصة في الفترة التي اعقبت مباشرة احتلال الضفة الغربية وقطاع غـــزة ، ووقوع احتياطي العمل العربي الضخم ، المحروم من وسائل الانتاج الخاصـــة به ، تحت السيطرة الصهيونيه ، نورد ما ذكرته صحيفة هآرتس في عام ١٩٦٩ عن هذا الموضوع : « اعتاد العمال اليهود على تلقي ٨٥ ليرة اسرائيلية مقابل جني طن واحد من الشمندر السكري ، بينما يتلقى عمال المناطق المحتلة مـــا بين ٢٢ ــ ٢٤ ليرة اسرائيلية مقابل جني ٣ر٥ طن من الشمندر السكري » ٠(٤)

في هذه الحالة يكون من الطبيعي ان يلجأ الانسان الذي تسيره قوانيـــن الاقتصاد وحوافز الربح ، ولا يحسب حسابات استراتيجيه وعسكرية ، الـــى استخدام اكبر عدد ممكن من عمال المناطق المحتلة واقل عدد ممكن من العمال اليهود ٠ وهكذا نشأ وضع في السنوات الاولى للاحتلال وصفته صحيفـــة يديعوت احرونوت على النحو التالي : « نحو نصف العمال الزراعيين في منطقة عسقلان [المجاورة لقطاع غزة] وعمال صناعة الاغذية في نفس المنطقة هم عمال من قطاع غزة ٠ وفي بعض بيارات الحمضيات الواقعة في المنطقة تبلغ نسبـــة عمال قطاع غزة نحو ٧٠٪ » ٠ (٥) وفي عام ١٩٧٦ ذكر المعلق الاقتصـــادي لجريدة جيروزاليم بوست موشيه اتر بان العمال العرب يشكلون نحـــو نصف العمال غير المهرة العاملين في الصناعة وجميع العاملين بأجر في الزراعـــة ٠ وذلك بالاضافة الى سيطرتهم على عدد من الخدمات التي تتطلب عملا شاقا مثـل الكراجات والفنادق ٠ ونبه موشيه اتر الى المخاطر السياسية المترتبة على تقلص دور العمال اليهود في قطاعات الانتاج وتزايد دور العمال العرب ٠ (٦)

واذا استثنينا الاحصاءات الرسمية ، التي تبذل كل جهد ممكـــن لاخفـاء الحقائق ، فاننا نجد اعترافات الصحفيين الاسرائيليـــن ، واستنتاجاتهـــم الايديولوجية والسياسية والاجتماعية والصهيونية ، على الشكل التالي : « اننا نرى حيثما توجهنا ان هناك فروع عمل كاملة او جزءا كبيرا منها ، لم تعـــد موجودة بين يدي عمال يهود » ٠ (٧) هذا في صحيفة ناطقة باسم حزب المبـام الاشتراكي الصهيوني ٠ ان هذا الوضع ، من وجهة نظر الصحيفة الاشتراكية يلغي الادعاءات الاشتراكية ، ولا يبقي سوى الجانب الصهيوني من « عقيدة » الحزب ٠ فبدون عمال يشتغلون في الزراعة والصناعة والبناء ، لا تعود هنـاك مبررات لوجود حزب عمالي ، ولا تعود هناك فروق بين الحزب الاشتراكـــي العلماني والحزب القومي المتدين ٠ وبالتالي لا يعود هناك اساس لتمسك الاحزاب العمالية بالحكم ٠

اما صحيفة دافار الناطقة بلسان الهستدروت (اتحاد العمال) فتشير الـى الاضرار الاقتصادية الناتجة عن الاستخدام الواسع للعمال العرب ، وما يرافق هذا الاستخدام من تقلص في عدد اليهود العاملين في قطاعات الانتاج : « نتيجة

لدمج السكان العرب في المناطق المحتلة في اقتصاد إسرائيل ، غمرت دولة اسرائيل بستين الى ثمانين الف عامل عربي (وربما اكثر) يعملون لدينا في الاعمال الشاقة والقذرة ، وتحولنا ليس فقط الى شعب محتل ، بل ايضا الى شعب اصبحت في عينيه بعض قطاعات الانتاج غير مقبولة وممجوجة ، يهرب اليهود من العمل فيها مثل البناء والزراعة والتنظيف واعمال الفنادق والصحة العامة وما شابه ذلك · وقد اصبح العمل في هذه الامور ، في اعيننا، بمثابة شيء يقلل من قيمة اليهودي الذي يعمل فيها ، ولهذا فانه يبذل كل ما في وسعه للهرب منها ، وينجح في ذلك فعلا · وهو يتجه الى مهن قليلة المردود وهامشية ، وتزيد من البطالة غير المنظورة · وبهذه الصورة يسوء اقتصادنا وتزداد امراضه باضطراد » · (٨)

الاحصاءات الرسمية الاسرائيلية تفيد ان عدد السكان اليهود في فلسطين يبلغ نحو ثلاثة ملايين نسمة ، وان نحو مليون منهم يشكلون « قوة العمل المدنية » · ويعترف المحللون الاقتصاديون الاسرائيليون ان الصفات الانتاجية لقوة العمل « المدنية » هذه ، تمر في حالة امحاء دائم ومتزايد · وهذا الوضع يعني ان مهمة اعالة « قوة العمل » هذه ، يجب ان تقع على عاتق قوى اخرى ·

ومن غير الممكن ان تقوم قوة العمل العربية في فلسطين المحتلة التي تبلغ نحو ٤٠٠ر٠٠٠ شخص ، ان تنتج من السلع والخدمات ما يكفي لتجديد قوة عملها ، وفائضا اقتصاديا يكفي لاعالة « قوة العمل اليهودية » البالغة نحو مليون شخص ، وتوفير مستوى من العيش يليق بطبقة حاكمة ، وخاصة ان هذه « الطبقة الحاكمة » تمتلك ميزة اضافية ، تضاف الى ميزات الطبقات الحاكمة ، وهي ميزة الانتماء الى « شعب مختار » · ان هذا الامر غير ممكن حتى لو توفرت للصهيونية شروط تكفل لها الاستعباد الكامل للشعب الفلسطيني ·

ان الفائض الاقتصادي اللازم لاعالة التجمع البشري الذي حشدته الصهيونية في فلسطين لا يأتي اساسا من استغلال العمال العرب · فالولايات المتحدة الاميركية هي التي يجب ان تتولى توفير فائض اقتصادي ، عن طريق تدفيق نحو ٤ مليارات دولار سنويا على الكيان الصهيوني ، والى امد غير محدود · وبما ان الاستعمار هو عملية اقتصادية بالاساس ، فالمنطق يقتضي ان تتوقع الولايات المتحدة الاميركية مردودا مجزيا على المليارات الاربعة التي تنفقها سنويا على المشروع الصهيوني ، الذي يفترض فيه ان يقوم بوظيفة ما ·

ان اقامة « دولة يهودية » في فلسطين كما هي انجلترا انجليزية ، حسب تعبير حاييم وايزمن ، يتطلب توفر شرطين رئيسيين : الاول هو وجود بنية اجتماعية متماسكة ترتكز على قاعدة بشرية يعمل القسم الاعظم منها في قطاعات الانتاج الاساسية (زراعة ، صناعة ، بناء) ، والثاني هو انتشار

السكان جغرافيا بحيث يغطون المناطق الصالحة للعيش في البلاد · ان الشرط الثاني يتطلب اشتغال قسم هام من السكان بالزراعة · فالمكان الطبيعي للتجارة والخدمات والصناعة هو المدن · اما التجارة والخدمات والصناعات التي تقام في المناطق النائية والمستوطنات الصغيرة ، فان الدافع وراء اقامتها يكون ، في معظم الحالات ، دافعا غير اقتصادي ·

ان التطور الموضوعي الذي جرى في قطاع الزراعة الاسرائيلية يثير قلقا شديدا لدى القيادة الصهيونية التي لا تقيم حساباتها على اسس اقتصادية · فتمسك هذه القيادة بمبدأ العمل العبري ليس نابعا عن اسباب عقائدية مجردة، بمقدار ما هو نابع عن حسابات عملية · فالاعتبارات العسكرية والاستراتيجية هي التي كانت تقف وراء اقامة المستوطنات على اطراف البلاد · وذلك من اجل تحديد حدود الدولة من ناحية ، ومن ناحية اخرى من اجل تشكيل حزام امني ثابت يقوم ذاتيا بتجديد قوته البشرية · غير ان الاعتبارات العسكريه والاستراتيجية لم يكن بالامكان تجسيدها على أرض الواقع الا من خلال الاستيطان الزراعي ، ومن خلال دفع اكبر عدد ممكن من المهاجرين اليهود للاقامة في المستوطنات الحدودية والاشتغال بالزراعة · وكان مفهوما لدى القيادة الصهيونية ان تشغيل العمال العرب يعني بالنتيجة وجود أقلية من اليهود في هذه المناطق تتشكل من الملاك والمشرفين والعاملين في مجالات الامن ، مقابل قاعدة بشرية عريضة من العرب · وهذا وضع يتناقض مع الاهداف العسكرية للقيادة الصهيونية ·

لقد بدأ التطور المقلق للقيادة الصهيونية باستخدام العمال العرب بدل العمال اليهود بسبب فروق الانتاجية والاجور · وفي مرحلة لاحقة اخذ العمال العرب يقومون بالاعمال التي كان يجب ان يقوم بها عضو المستوطنة الذي اصبح رب عمل صغير · غير ان التطور الاخطر حدث عندما بدأت المستوطنات بتأجير الاراضي لمزارعين عرب · فقد رأى القادة الصهيونيون في هذا التطور الغاء كاملا لمبررات اقامة اليهودي في المستوطنة · ذلك انه اذا اقتصر دوره على قبض اجرة الارض ، فانه يستطيع الاقامة في اي مكان اخر ـ غالبا في المدينة ـ ويأتي مرة في العام لقبض الاجرة ·

في عام ١٩٧١ كتبت هآرتس تقول : « بدأت تتكون ظاهرة تشير الى ان العرب يعودون بشكل غير مباشر الى ارضهم » · (٩) وفي عام ١٩٧٢ نشرت نفس الصحيفة تقريرا عن مقابلة بين اعضاء حركة المستوطنات التعاونية (الموشافيم) وبين رئيسة الحكومة ، غولدا مئير ، ورد فيه : « اعترف اعضاء حركة المستوطنات التعاونية امام رئيسة الحكومة بانهم وصلوا الى وضع لا يستطيعون فيه تحقيق الانتاج دون عمل عربي مأجور · وينطوي هذا على تأثير بعيد المدى في القرية اليهودية » · (١٠) اما في عام ١٩٧٥ فقد كان وزير الزراعة الاسرائيلية يتحدث عن تكون الطبقات : « هناك عشرات المستوطنات في البلاد

تقوم بتأجير الاراضي القومية ، التي سلمت لهم من اجل العمل فيها ، للعرب ٠ وقد قررنا وضع حد لهذه الظاهرة الخطيرة ، ظاهرة نشوء طبقة الافندية وطبقة مستأجري الاراضي في المستوطنات الزراعية في البلاد ٠٠٠ وقال ان هنـــاك كيبوتسا في وادي يزراعيل ، قد قامت بتأجير مئات من الدونمات الى جيرانها العرب مقابل ٥٠٪ من المحصول ٠٠٠ وكشف ممثل اخر من ادارة الاسكان بأن الدراسة التي جرت في المنطقة الشمالية بينت بان ٤٠ الف دونم قد تم تأجيرها للعرب من اجل زراعة البطيخ » ٠

ان هذه المعطيات هي التي تكمن وراء الحملة الاسرائيلية التي تجري تحت عنوان « تهويد الجليل » ٠ اذ رغم مرور نحو ٣٠ سنة على اقامة اسرائيل ، لا يزال الجليل ــ شمال فلسطين ــ يشكو من نقص السكان اليهود فيه ، مقابل التزايد الطبيعي للسكان العرب في تلك المنطقة ٠ فحيث يتقلص الاساس الانتاجي لاية مجموعة سكانية ، تكون النتيجة الحتمية هي تناقص الاعداد المطلقة للسكان٠ وتتجسد هذه العملية في نوعين من الهجرة : هجرة داخلية من اطراف البلاد الى وسطها ، وهجرة خارجية من البلاد الى الخارج ٠

وانعدام الاساس الانتاجي يكمن في المعارضة التي ابدتها الاحزاب « العمالية » التي كانت حاكمـة لعمليـات الاستيطان المـزورة التـي كانت تقـوم بهـا حركة « غـوش امونيم » التي تعمـل تحت شعارات دينية قومية متطرفة ٠ فقد أحس « العمـاليـون » ان ضـرر هـذه العمليـات الاستيطـانيـة يزيـد عـن نفعهـا مـن الناحيتيـن السيـاسيـة والاستراتيجيـة ٠ وقد كتبت صحيفة عل همشمار تعليقا على احدى مسيرات « غوش امونيم » قالت فيه : « ومرة اخرى نقول : هناك يهود يهربون من فروع الانتاج ويتركزون في المدن وفي الخدمات ٠ اما الاعمال الضرورية في الزراعة والبناء والمصانع فهي تنتقل تدريجيا الى ايدي العرب ٠ وبهذه الصورة نجد ان الطابع اليهودي لدولة اسرائيل في حدود ما قبل الرابع من حزيران اصبحت في خطر ٠ وفـي نفس الوقت نجد هؤلاء يطالبون بالتوسع الاقليمي الذي ستكون نهايته مهزلـة فظيعة » ٠ (١٢) ان عدم اشتغال المستوطنين بفروع الانتاج يعني أن اقامـة المستوطنات لن تنطوي سوى على مصادرة اراضي العرب واقامة مساكن تظل فارغة ، واقامة منشآت انتاجية يعمل فيها العرب ٠ وهذا الوضع لا يخدم كيانا يفترض فيه ان يكون جاهزا للحرب معبأ لها ، قادرا على توفير احتياجاتـه الضرورية ذاتيا ٠

ان العمل العربي غير مضمون في حالة الحرب التي تدوم زمنا طويلا نسبيا ٠ ولا يقتصر الامر على زمن الحرب ٠ فالعمل العربي اصبح ضروريا ، ليس لانه رخيص بل لانه لا بديل له ٠ وعندما ينشأ وضع تزيد فيه الاحتياجات الاسرائيلية للعمال ، عن ما هو متوفر في المناطق المحتلة ، اي عندما يزيد الطلب عن العرض ،

فان العمل العربي ، سوف لا يصبح عالي التكاليف فقط ، وانما سيمتلك القدرة على خوض الصراعات من أجل مطالبه الاقتصادية اولا ، ومن ثم من اجل مطالبه الوطنية · ان هناك من الدلائل ما يشير الى ان هذه المرحلة قد بدأت ·

منذ عام ١٩٧٤ بدأ المسؤولون الاسرائيليون يتحدثون عن نقص احتياطي العمل بعد تمشيط الضفة الغربية وقطاع غزة بحثا عن العمال · فقد صرح موشيه مندلبوم ، المدير العام لوزارة التجارة والصناعة في عام ١٩٧٤ ، قائلا : « اننا نفتقر الى وجود احتياطي عمل · ونحن نحتاج الى ٩٠ الف عامل اضافي للمصانع خلال السنوات الاربع القادمة · ان هجرة صافية تبلغ ٤٥ الف شخص في السنة، تضاف الى الزيادة السكانية الطبيعية ، لن تكفي لسداد الحاجة · (١٣)

لقد مرت السنوات الاربع · وكانت الهجرة الصافية (القادمون ـ المغادرون) أقل من صفر · الامر الذي يعني ان هناك مصدرا وحيدا لسد هذه الحاجة . وهو المناطق المحتلة وعرب فلسطين المحتلة منذ عام ١٩٤٨ ، او لسد جزء من الحاجة · وفي حالة عدم كفاية احتياطي العمل المتوفر داخليا ، واستمرار تقلص الهجرة ، فان احدى النتائج ستكون وقف النمو الاقتصادي بل وتراجع الانتاج في عدد من الفروع ، ووقف الاستثمار ·

لقد ألقت الحرب التي جرت في جنوبي لبنان في شهر اذار ١٩٧٨ ، ضوءا على الحقيقة التي تحاول الصهيونية اخفاءها ، وهي حقيقة العقم والطفيلية اللتين تميزان المشروع الصهيوني · فقد كتبت صحيفة جيروزاليم بوست في اليوم الثالث للحرب : « ان الكثيرين من عرب الضفة الغربية الذين يعملون في اسرائيل لم يظهروا امس · وعادت بعض الباصات التي ارسلت لجمعهم من مناطق سكناهم فارغة » (١٤) ولكن نفس الصحيفة عادت واوردت تفصيلات اخرى عن نتائج امتناع عمال المناطق المحتلة عن الذهاب للعمل في مواقع العمل الاسرائيلية : « لم تجمع القمامة في بعض المدن لعدة ايام ، وعجزت المخابز عن تلبية الطلبيات ، وتوقفت خطوط الانتاج بسبب غياب العمال ··· كل هذه ، بالاضافة الى اختناقات اخرى نتجت عن غياب عمال المناطق المحتلة ··· وقد احتاج الامر لاكثر من اسبوع لاعادتهم الى اعمالهم · وعندما سئل باروخ حكلائي ، رئيس هيئة التشغيل في وزارة العمل والشؤون الاجتماعية عما يمكن عمله لتجنب مثل هذه الاختناقات في المستقبل اجاب انه في الوقت الحالي لا تستطيع الوزارة عمل شيء لان الاسرائيليين ··· لا يريدون هذه الوظائف ··· اما بشأن العمل الموسمي ، مثل قطاف الحمضيات فان الوزارة ستحاول تشغيل طلاب المدارس الثانوية وطلاب الجامعات والنساء ، لكي تتجنب **الاعتماد الكامل** على عمال المناطق المحتلة » ·(١٥)

اذن ، ليس من أجل ان يكون اليهود مزارعين في ارض الاباء والاجداد جيء

بهم الى فلسطين · وليس من أجل ان يكونوا عمالا في المصانع التي تقيمها الولايات المتحدة على الارض المقدسة ، جيء بهم الى فلسطين · اما اعمال المصارف والتجارة وصقل الماس ، فليست فلسطين هي افضل مكان للقيام بهذه النشاطات ·

الجهات التي تتولى تدفيق اربعة مليارات من الدولارات سنويا على المشروع الصهيوني لا تنتظر ان تتلقى مردودا على ما تدفعه في المستقبل البعيد · هذه النفقات هي مصروفات جارية ، ومردودها يتم قبضه سنويا ·

ارض فلسطين ليست هي المكان الامثل لاستثمار المليارات في زراعتها ·

الحواشي :

1 - Sttistical Abstract of Israel , 1975 , Central Bureau of Statistics , Jerusalem , P 358 .

2 - Ibid. P. 289 .

٣ ـ يديعوت احرونوت ، ٦ـ١٠ـ١٩٧٢، دبورا نمير « نحن نعيش حياة الافندية »·

٤ ـ هآرتس ٤ـ٨ـ١٩٦٩ ·

٥ ـ يديعوت احرونوت ٢٠ـ١ـ١٩٧٠ ·

٦ ـ جيروزاليم بوست ، الملحق الاسبوعي ٢٠ـ٧ـ١٩٧٦ : موشية اثر « اسرائيل الصهيونية » ·

٧ ـ عل همشمار ١٤ـ٤ـ١٩٧٦ ·

٨ ـ دافار ·

٩ ـ هآرتس ٥ـ١١ـ١٩٧١ ·

١٠ ـ هارتس ٤ـ٦ـ١٩٧٢ ·

١١ ـ يديعوت احرونوت ٢٧ـ١١ـ١٩٧٥ ·

١٢ ـ عل همشمار ٢٢ـ٤ـ١٩٧٦ ·

١٣ ـ جيروزاليم بوست ٢٢ـ٧ـ١٩٧٤ ·

١٤ ـ جيروزاليم بوست ١٧ـ٣ـ١٩٧٨ ·

١٥ ـ جيروزاليم بوست ٢٨ـ٣ـ١٩٧٨ ·

زاهي الاقرع

العلاقات الاسرائيلية ـ الفرنسية ١٩٥٦ـ١٩٦٧

تعتبر العلاقات الاسرائيلية ـ الفرنسية حدثا فريدا في تاريخ العلاقات الدولية · فمنذ خلق الكيان الصهيوني عام ١٩٤٨ ، بدأ ذلك الكيان بالاستفادة من سلسلة فريدة من المساعدات العسكرية والعلمية من فرنسا · وكان التعاون والدعم الكاملين هما الميزة الرئيسية للعلاقات الثنائية القائمة بين الطرفين ·

وقد شملت اوجه التعاون كل الميادين تقريبا ، بما في ذلك الاستخبارات · حيث قامت المخابرات الاسرائيلية بتقديم كل العون اللازم لدوائر الامن الفرنسية حول الثورة الجزائرية ومصادر تمويلها وتسليحها · وعلى الصعيد العسكري بدأت فرنسا بتزويده اسرائيل بمختلف الاسلحة المتطورة اثر صفقة الاسلحة الشهيرة بين مصر وتشيكوسلوفاكيا في خريف عام ١٩٥٥ · ومنذ ذلك التاريخ بدأت فرنسا تنظر الى اسرائيل على انها المفتاح الاستراتيجي لمنطقة الشرق الاوسط ·

وتطورت العلاقات اكثر فأكثر في مطلع عام ١٩٥٦ وذلك لسببين رئيسيين :

١ ـ وصول الحزب الاشتراكي الفرنسي الى سدة الحكم ·

٢ ـ ازمة السويس ·

سنحاول في هذا البحث متابعة تطورات العلاقات الاسرائيلية الفرنسية بدءا من العدوان الثلاثي على مصر عام ١٩٥٦ وصولا الى تدهور هذه العلاقات اثر حرب حزيران ١٩٦٧ ·

التعاون الاسرائيلي ـ الفرنسي في حرب ١٩٥٦

في اذار ١٩٥٦ قام كريستيان بينو ، وزير خارجية فرنسا ، بزيارة للقاهرة في محاولة لاقناع الرئيس جمال عبد الناصر ايقاف الدعم الذي كان يقدمه للثورة

الجزائرية · الا ان بينو غادر مصر وهو مقتنع انه لم يكن هناك من سبيل لتصفية الثورة الجزائرية الا بضرب الرئيس عبد الناصر · (١) وفي ذلك الوقت بدا يتردد شعار في فرنسا يقول : « النصر في الجزائر يمر عبر القاهرة » ·

وفي تموز ١٩٥٦ اعلن الرئيس عبد الناصر تأميم قناة السويس · وجاء ذلك بمثابة صفعة للمصالح البريطانية ـ الفرنسية فقد كان البريطانيون والفرنسيون يملكون معظم اسهم شركة قناة السويس · وقد استغل الاسرائيليون هذه القضية لتحريض الفرنسيين ضد عبد الناصر الى جانب استغلالهم لناحية اخرى وهي تزايد النفوذ السوفييتي في مصر الامر الذي اعتبره الفرنسيون بمثابة تهديد مباشر لاوروبا وتهديد بقطع امداداتها النفطية القادمة من منطقة الشرق الاوسط ·

على ضوء ذلك اقتنع الفرنسيون بضرورة شن عدوان على مصر بمساعدة الاسرائيليين والبريطانيين · وكان اعتماد الفرنسيين بشكل اساسي على الاسرائيليين · فرسموا الخطط العسكرية المشتركة لتنفيذ العدوان منفردين في حال تخلف البريطانيين · كانت اسرائيل ترمي الى تحقيق الاهداف التالية :

١ ـ تحطيم القدرات العسكرية المصرية قبل فوات الاوان ·

٢ ـ تشويه صورة الرئيس عبد الناصر ·

٣ ـ اجبار المصريين على فتح قناة السويس ومضائق تيران في وجه الملاحة الاسرائيلية ·

٤ ـ اعادة فتح مسالة تسوية الصراع العربي ـ الاسرائيلي · (٢)

« وقد بدأ موظفو وزارة الدفاع الفرنسية برسم الخطط المشتركة مع الاسرائيليين بشكل مستقل عن البريطانيين ، وذلك يوم ٢٩ تموز ١٩٥٦ » · (٣) وفي اب ١٩٥٦ كثفت الاتصالات حيث اصبحت كل دائرة من دوائر وزارة الدفاع الاسرائيلية على اتصال مباشر بنظيرتها في وزارة الدفاع الفرنسية · وقام سلاح الطيران وسلاح المدفعية في البلدين بتبادل الضباط وخضع الطيارون الاسرائيليون لتدريبات مكثفة في فرنسا ·

وفي ٢٠ ايلول ١٩٥٦ ابلغ بن غوريون اللجنة المركزية لحزب ماباي الاسرائيلي ان اسرائيل ستظفر « بحليف حقيقي ، قريبا · وكان يعني بذلك فرنسا · « وفي نفس الوقت تقريبا كان الرسميون الاسرائيليون والفرنسيون يعقدون سلسلة من الاجتماعات في باريس وفي اسرائيل لدراسة مختلف اوجه الدعم الجوي والبحري الذي ستقدمه فرنسا لاسرائيل » · (٤) وقد تم ارسال شحنات الاسلحة الفرنسية الى اسرائيل على عجل في الفترة ما بين ٢٢ ـ ٢٧ تشرين الاول ١٩٥٦ وذلك تمهيدا لشن العدوان · واعطي بعض هذه الاسلحة لاسرائيل لاستعمالها خلال فترة الحرب وقدم قسم من السلاح كهبة ، اما القسم الاخر فبيع لاسرائيل باسعار لا تذكر · وارسل عدد من خبراء الامن الفرنسيين للاشراف على الترتيبات الامنية · وابحرت المدمرات الفرنسية « سركوف » و « كرسان » و « بوفيه » الى شواطىء اسرائيل للمساهمة في الدفاع عن الساحل الاسرائيلي · (٥)

وقد شنت اسرائيل عدوانها يوم ٢٩ تشرين الاول ١٩٥٦ · وقامت الطائرات الفرنسية المتمركزة في قبرص بتموين القوات المتقدمة وشاركت طائرات فرنسية اخرى تمركزت في اسرائيل بالقيام باعمال الدورية والاشتباك مع الطائرات المصرية · ثم تبعها مشاركة

القوات الفرنسية بالعدوان بشكل مباشر عندما قامت بالاشتراك مع القوات البريطانية بالهبوط في بورسعيد وبورفؤاد ٠

وقد « حظيت حملة السويس على تأييد شامل من مختلف الاحزاب الفرنسية ، ولم يعترض عليها سوى كتلة اليسار المتطرف » ٠ (٦) ويمكننا القول انها حظيت على بعض التأييد الشعبي ٠ وبالنسبة للديغوليين فقد ابدوا تأييدا متحفظا تجاه اسرائيل الا انهم فضلوا الابقاء على وفاق الشرق والغرب ٠ (٧)

وفي اواخر شهر شباط ١٩٥٧ اعلنت فرنسا صراحة عن نيتها المشاركة في اي مجهود دولي لتأمين حرية الملاحة الاسرائيلية في خليج العقبة ٠ « وقد جاء ذلك بمثابة تعهد معنوي من جانب فرنسا بالموقوف الى جانب اسرائيل والدفاع عنها » ٠ (٨)

اما في الامم المتحدة فقد لعب وزير الخارجية الفرنسية كريستيان بينو دورا مميزا في الدفاع عن الموقف الاسرائيلي خاصة دوره المعارض لمشروع القرار الافرو ـ اسيوي (الذي قدم في ٩ كانون الثاني ١٩٥٧) والذي يدعو لانسحاب اسرائيل الفوري وغير المشروط من الاراضي المحتلة ٠ وقد كان بينو نفسه هو الذي وضع مشروعا مشتركا مع الولايات المتحدة والذي انسحبت اسرائيل بموجبه من قطاع غزة ومن مدخل خليج العقبة ٠ (٩)

ويمكننا تلخيص الموقف الفرنسي في تلك المرحلة بانه « على الرغم من عدم وجود اي تحالف عسكري فرنسي ـ اسرائيلي ، الا ان فرنسا وعدت بانها ستتعاون مع الولايات المتحدة الاميركية بشكل كامل فيما يتعلق بمشكلة غزة وتيران وذلك في محاولة لتدويل تلك المناطق ٠ وفي حال تجدد العمليات الحربية المصرية ضد اسرائيل فان فرنسا ستقدم كل العون اللازم لاسرائيل للدفاع عن حدودها » ٠ (١٠)

فترة ما بعد حرب السويس :

يمكن اعتبار الفترة الممتدة ما بين حرب ١٩٥٦ وسقوط الجمهورية الفرنسية الرابعة عام ١٩٥٨ بانها كانت العصر الذهبي للعلاقات الثنائية بين فرنسا واسرائيل ٠ « فكما افادت دوائر وزارة الدفاع الفرنسية ، كان التعاون بين وزارتي الدفاع الفرنسية والاسرائيلية هو الاكثر تميزا بين مختلف اوجه التعاون » ٠ (١١) حيث ان طبيعة النظام القائم في عهد الجمهورية الرابعة قد افسح المجال امام السياسيين الفرنسيين النافذين في وزارة الدفاع لتدعيم موقف اسرائيل ، وذلك على ضوء نظرتهم لاحتياجات منطقة الشرق الاوسط ٠٠ ويمكن اعتبار حرب السويس بانها مهدت الطريق لكي تتحول العلاقات الفرنسية ـ الاسرائيلية التي كانت قائمة على التعاون بصورة سرية وغير رسمية الى تعاون علني كامل يصل الى درجة التحالف العسكري ٠ « وبالطبع لا يمكننا الجزم بان العلاقات وصلت الى مرحلة تحالف رسمي على صعيد الدولتين ٠ الا ان العلاقات تطورت بحيث اصبحت قائمة على روابط ثابتة ودائمة وليس مجرد تحالفات ظرفية لتحقيق هدف محدد » ٠ (١٢)

بعد حرب السويس اخذت معظم فروع القوات المسلحة الفرنسية تنظر الى اسرائيل على انها المفتاح الاستراتيجي لمنطقة الشرق الاوسط ٠ واصبح المخططون العسكريون يتعاملون مع اسرائيل على انها حارسة خطوط النفط التي تزود فرنسا بـ ٥٣٪ من

استهلاكها النفطي · واخذ سلاح الطيران بدراسة امكانية استخدام اسرائيل كحلقة وصل بين فرنسا وقواعدها العسكرية في جيبوتي على ساحل البحر الاحمر · « وازاء هذا الدور الذي انيط باسرائيل ان تلعبه فقد اضحت بمثابة القاعدة الوحيدة التي تستطيع بسط النفوذ الفرنسي خصوصا والغربي عموما على منطقة الشرق الاوسط · فاسرائيل هي القاعدة الاصلب والاكثر وثوقا للغرب في هذه المنطقة » · (١٣)

تطورت العلاقات في كافة الميادين دبلوماسيا ، سياسيا ، واقتصاديا · فاصبحت فرنسا هي المزود الرئيسي لاسرائيل بالاسلحة · وتم انشاء لجان التضامن والصداقة · واصبح الاسرائيليون ينظرون الى فرنسا على انها حليفتهم الوحيدة · وقد وصلت الامور الى حد ان الحكومة الفرنسية كانت تقول للاسرائيليين : « طالما يوجد خبز لفرنسا، هناك خبز لاسرائيل » · وعلى الرغم من النقص الذي كانت تعاني منه فرنسا في احتياطي العملة الصعبة الا « ان الفرنسيين كانوا على استعداد لتقاسم اختياطيهم مع الاسرائيليين » · لم يكن على الاسرائيليين سوى ان يعلنوا طلباتهم وكان الفرنسيون مستعدين لتزويدهم بكل شيء · وكان هناك تعاونا في مجال الابحاث الذرية ، فقد افادت بعض الروايات ان الاسرائيليين شاركوا في التجارب الذرية الفرنسية الاولى · وعلى صعيد الجيوش كان التنسيق تاما فاقيمت المناورات المشتركة للقوات وللاساطيل في البحر المتوسط وضاقت الاكاديميات العسكرية الفرنسية بالضباط الاسرائيليين الذين اوفدوا للتدريب وخاصة اكاديميات سلاح الجو ·

والجزائر كانت واحدة من اهم حقول الجهود المشتركة في اواخر ايام الجمهورية الرابعة · فقد شعر الضباط الفرنسيون انه بمقدورهم تعلم وسائل جديدة للحرب النفسية من الاسرائيليين · وأمل الفرنسيون الاستفادة من نموذج « الكيبوتز » الاسرائيلي في برامجهم في الجزائر الا ان هذه الامال لم تجد طريقها للتطبيق بتاتا · اما الاسرائيليون فقد نظروا الى الحرب الجزائرية كوسيلة للاستفادة والتعلم وخاصة في مجالات استخدام الفرنسيين لطائرات الهليكوبتر في مطاردة الفدائيين الجزائريين · (١٤)

عهد الرئيس ديغول :

على ضوء هزيمة الحزب الاشتراكي الفرنسي في منتصف عام ١٩٥٧ ، بدأ التحالف السياسي الفرنسي ـ الاسرائيلي بالتراجع · فأخذ النشاط الداعم لاسرائيل يقتصر على بعض المجموعات مثل لجنة التضامن الاسرائيلية ـ الفرنسية التي أسست في تشرين الثاني ١٩٥٦ · كان انصار اسرائيل في فرنسا يرون ان وجود اسرائيل هو السبب الوحيد الحائل دون التحاق المتطوعين السوريين بالثورة الجزائرية · ومن هنا جاء اقتراحهم بانشاء حلف ثلاثي يجمع فرنسا واسرائيل والجالية اليهودية في العالم وذلك لاستغلال « النفوذ اليهودي » لتقوية ركائز السياسة الفرنسية في الجزائر ·

هكذا كان الوضع قبل مجيء ديغول · فماذا كان موقف ديغول لدى تسلمه للحكم في فرنسا · كان اول ما قام به ديغول هو البدء بتخفيف حدة « التورط » الفرنسي مع اسرائيل الذي كان سائدا في فترة السويس وما تبعها · « فتطور السياسات الداخلية والخارجية للجمهورية الخامسة وطبيعة النظام الذي شرع الجنرال ديغول ببنائه ، عملا على تبديل فحوى العلاقات الفرنسية ـ الاسرائيلية وساهما في اضعاف العلاقات الخاصة القائمة بين البلدين » · (١٥)

ونتيجة للتعديل الدستوري الذي فصل بين الحكومة والبرلمان بحيث لم يعد بمقدور عضو البرلمان ان يشارك في الحكومة ، انتقل العديد من المناصب الحكومية الحساسة الى ايدي تقنيين وبيروقراطيين لا يتعاطون السياسة ، والذين لم يربطهم اي رابط تضامني مع اسرائيل · وكانت الميزة الرئيسية للقابعين على سدة الحكم في الجمهورية الرابعة هي الدعم اللامحدود لاسرائيل · أما في عهد الجمهورية الخامسة فقد تبدلت سياسة اتخاذ القرارات واصبحت اكثر مركزية على عكس اسلوب الجمهورية الرابعة حيث كان باستطاعة مراتب عديدة اتخاذ القرارات ، وهو الامر الذي استفادت اسرائيل منه كثيرا ·

وجاءت مصالحة فرنسا مع مصر في اواخر ١٩٥٩ واعادة العلاقات بينهما بمثابة المفتاح الذي مهد الطريق امام عودة فرنسا بقوة الى العالم العربي · فبدأ « اللوبي » الاسرائيلي في فرنسا بالتداعي وكان واضحا ان جهود شمعون بيريز ، المدير العام لوزارة الدفاع الاسرائيلية ، وغيره من المسؤولين الاسرائيليين من اجل تحسين الاوضاع قد ذهبت سدى · ويذكر ان شمعون بيريز هو احد ابرز مهندسي العلاقات الفرنسية ـ الاسرائيلية · (١٦)

وبالرغم من كل تلك النواحي السلبية الا ان العلاقات الثنائية على صعيد وزارتي الدفاع ظلت محافظة على نفس المستوى من المتانة · فاستمر تدفق الطائرات والاسلحة ، واستمر التعاون الوثيق بين القوات المسلحة في البلدين في جميع المجالات ، بما في ذلك الابحاث الذرية · ومغزى ذلك ان وزارة الدفاع الفرنسية لم تواجه ما واجهته الوزارات الاخرى من تغييرات ، فظل القرار بايدي الاشخاص اياهم الذين دعموا اسرائيل في السابق · (١٧) ونقطة اخرى هامة ان ديغول هو اول زعيم فرنسي يقيم علاقات مع اسرائيل على اسس سياسية واضحة وليس لمجرد خدمة معينة مثل دعم السياسة الفرنسية في الجزائر · (١٨)

العلاقات الثنائية في اوائل الستينات :

في اوائل الستينات بدأ الجنرال ديغول بانتهاج سياسة جديدة مؤداها التقرب من دول العالم الثالث ، وعلى الاخص سوريا ومصر ، الا ان هذه السياسة لم تؤثر على العلاقات الطيبة التي كانت تربط فرنسا باسرائيل · فاستمر تدفق الاسلحة الفرنسية على اسرائيل · (١٩) لكن الامور ما لبثت ان بدأت بالتحول · فمن ناحية سويت القضية الجزائرية بحصول الجزائر على استقلالها · ومن ناحية اخرى بدأت تسمع اصوات في فرنسا تطالب بالكف عن تقديم العون لاسرائيل على اعتبار « ان ذلك الدعم هو ضرب من الجنون » · فالشركات النفطية الفرنسية اخذت بالضغط على الحكومة لتبديل موقفها لما لهذا الموقف من اخطار مباشرة على مصالح تلك الشركات في العالم العربي · واخذ بعض المسؤولين الفرنسيين يشبهون اسرائيل بالالزاس واللورين · فأطلقوا عليها اسم « الالزاس واللورين العربية » · (٢٠)

وانعكس ذلك الوضع على العلاقات الاقتصادية ، فقررت شركة « رينو » للسيارات الغاء اتفاقية تجارية كانت موقعة مع اسرائيل للانتاج المشترك · وحذت حذوها شركة « دوفين » التي كانت قد وقعت اتفاقا مشابها في عام ١٩٥٥ · وقررت شركة الخطوط الجوية الفرنسية الغاء اتفاق للتعاون كانت قد وقعته مع شركة « العال » الاسرائيلية ·

وعلى الجانب الاسرائيلي طرأت بعض التغيرات التي ساهمت في تدهور العلاقات

الاسرائيلية ـ الفرنسية · ففي عام ١٩٦٣ اصبح ليفي اشكول رئيسا للوزراء في اسرائيل بدلا من بن غوريون · وفي عام ١٩٦٥ استقال شمعون بيريز من منصبه كمدير عام لوزارة الدفاع الاسرائيلية · ومن المعروف ان بن غوريون وبيريز هما اللذان ارسيا قواعد العلاقات المتينة بين اسرائيل وفرنسا في عهد الجمهورية الرابعة · (٢١)

في اواسط الستينات ظهر جليا ان الرسميين الفرنسيين بدأوا يظهرون نوعا من التعاطف مع القضية العربية · فبدأت الظواهر السلبية تسود جو العلاقات الثنائية بين فرنسا واسرائيل · وبدأت فرنسا بارساء قواعد متينة للتعاون الاقتصادي مع العالم العربي مستغلة قطع العلاقات الدبلوماسية بين الدول العربية والمانيا الغربية وذلك في العام ١٩٦٥ · (٢٢) ويمكننا تلخيص السياسة الخارجية الفرنسية في تلك المرحلة كما يلي : ـ

١ ـ كان الاتجاه العام للسياسة الفرنسية يميل نحو التقرب من العالم الثالث ·

٢ ـ بدأت فرنسا بانتهاج سياسة « اوروبية » مبتعدة اكثر فاكثر عن سياسة حلف « الناتو » ·

٣ ـ بدأت فرنسا مفاوضات مع بعض الدول العربية لتزويدها بالاسلحة · وهذا ما اثار مخاوف الاسرائيليين ·

وفي عام ١٩٦٦ استمر ديغول بانتهاج سياسته « المضادة للناتو » وبدأ بتعزيز علاقاته بالكتلة الشرقية وبدول العالم الثالث · ويمكننا استنتاج التأثيرات السيئة لهذه التحولات على الاسرائيليين من لجوء هؤلاء الى الولايات المتحدة الاميركية لتزويدهم بالطائرات والاعتدة الحربية · طلبهم هذا لم يكن مجرد صدفة بل هو نابع من تخوف الاسرائيليين من النتائج البعيدة المدى المترتبة على ضوء التقارب العربي الفرنسي المستمر · وبالنسبة للعلاقات الاقتصادية فان مجموع الصادرات الاسرائيلية لفرنسا بلغت في تلك الفترة ١ـ١٠ من قيمة الواردات · اما الصادرات الاسرائيلية الرئيسية لفرنسا فكانت اساسا الخمور والزيتون والفاكهة · (٢٣)

حول حرب حزيران ١٩٦٧ :

كان المحرك الاساسي للسياسة الديغولية عام ١٩٦٧ هو رغبة الجنرال ديغول بفصل السياسة الفرنسية عن السياسة الاميركية وخاصة في جنوب شرق اسيا · وبالنسبة للشرق الاوسط فقد كان ديغول يعتقد ان السوفييت قد بسطوا هيمنتهم على تلك المنطقة كرد فعل مباشر للتورط الاميركي في فيتنام · ومن ناحية ثانية اراد الجنرال ديغول ان يضاعف النفوذ الفرنسي في منطقة الشرق الاوسط وان يعمل على تأمين استمرار تدفق النفط العربي على فرنسا بشكل مستقل عن اية قوة غربية اخرى · يضاف الى هذا ان ديغول كان يأمل مشاركة فرنسا في اية تسوية لازمة المنطقة تنجزها الدول الكبرى وكان احد همومه في المنطقة هو منع انجرار الدول العربية « التقدمية » اكثر فاكثر نحو التطرف وهو الامر الذي قد ينتج عن ضعف النفوذ الغربي في المنطقة · (٢٤)

ولدى تسارع الاحداث التي مهدت لحرب حزيران ١٩٦٧ ، ظل الجنرال ديغول صامتا · وقد اعتقد بعض المراقبين في حينه ان صمت ديغول منبعه رغبته بالمحافظة على حياده على أمل دعوته في النهاية للتوسط لحل النزاع · (٢٥) وفي ٢٤ ايار ١٩٦٧ وصل وزير

الخارجية الاسرائيلي ابا ايبان الى باريس للحصول على دعم فرنسي للموقف الاسرائيلي · الا ان ديغول افاده ان فرنسا لا توافق على قيام اسرائيل بمهاجمة مصر « فهو لا يقبل بتدمير دولة اسرائيل ، الا انه يدين الدولة التي ستطلق الطلقة الاولى » · وبهذا فان فرنسا لم تعد ملتزمة بتعهداتها لاسرائيل التي قدمتها عام ١٩٥٧ حول تأمين حرية الملاحة في خليج العقبة · (٢٦)

يوم ٣ حزيران ١٩٦٧ قررت فرنسا حظر ارسال الاسلحة لكل دول الشرق الاوسط بما في ذلك ٥٠ طائرة ميراج ٥ كانت اسرائيل قد دفعت ثمنها قبل قرار الحظر · وفي ١٥ حزيران ١٩٦٧ اصدرت الحكومة الفرنسية بيانا اعادت فيه التأكيد على حياد الموقف الفرنسي ورفضها الاعتراف بأية مكاسب اقليمية ناتجة عن حرب ٥ حزيران ١٩٦٧ ـ وتقصد بذلك اسرائيل بالطبع ـ وان فرنسا تعتقد ان الطريقة الوحيدة لحل أزمة الشرق الاوسط هي المفاوضات السلمية · (٢٧)

وفي ٢١ حزيران ١٩٦٧ اعلن الجنرال ديغول ادانته لاسرائيل لانها كانت البادئة بالعدوان · ويبدو ان الضغوط التي مارسها الصهاينة على ديغول في فرنسا والنصر العسكري الاسرائيلي في حرب حزيران ، والصورة المضخمة للمأزق الاسرائيلي التي عرضها ابا ايبان امامه ، كل هذه العوامل دفعت ديغول للتصلب اكثر فاكثر تجاه الاسرائيليين الى درجة ادانة « العدوان الاسرائيلي » و « التوسع الاسرائيلي » لا بل ومهاجمة اليهود انفسهم واصفا اياهم « بالمغرور وحب التسلط » وذلك في مؤتمر صحافي عقده في باريس يوم ٢٧ تشرين الثاني ١٩٦٧ · (٢٨)

وقد عاد ديغول عن قرار الحظر بشكل جزئي اذ وافق على ارسال بعض قطع الغيار لاسرائيل بعد الحرب · الا انه فرض حظرا شاملا على ارسال الاسلحة وقطع الغيار لاسرائيل اثر العدوان الاسرائيلي الشهير على مطار بيروت الدولي عام ١٩٦٨ · وهذا الحظر لا يزال ساري المفعول حتى يومنا هذا ·

الحواشي :

(1) هويدي ، امين · **حروب عبد الناصر**، دار الطليعة ، بيروت ، ١٩٧٧ ، ص ٥٩ ·

(2) Lenczowski, George. **The Middle East In World Affairs,** Ithaca, 3rd. ed. 1962, P. 431.

(3) Crosbie, Sylvia. **A Tacit Alliance : France and Israel from Suez to the Six Day War,** Princeton, New Jersey, 1974, P. 68.

(4) **Ibid,** P. 71.

(5) **Ibid,** P. 77.

(6) **Ibid,** P. 87.

(7) **Ibid.**

(8) **Ibid.** P. 92.

(9) Encyclopedia of Zionism and Israel, Vol. 1, **Israeli — French Relations,** P. 353.

(10) Crosbie, **op. cit.,** P. 94.

(11) Bar - Zohar, Michael. **Bridge Over the Mediterranean - - French - Israeli Relations 1947 - 1963 ,** (in Hebrew) Tel-Aviv, 1965, P. 73.

(12) Crosbie, **op. cit.,** P. 51.

(13) **Ibid,** P. 86.

(14) Bar-Zohar, **op. cit.,** P. 114.

(15) Crosbie, **op. cit.,** P. 123.

(16) Bar-Zohar, **op. cit.,** P. 216.

(17) Crosbie, **op. cit.**, P. 140.

(18) Bar-Zohar, **op. cit.**, P. 218.

(19) Encyclopedia of Zionism and Israel,**op. cit.**, P. 354.

(20) Bar-Zohar, **op. cit.**, P. 216.

(21) Crosbie, **op. cit.**, P. 170.

(22) **الكتاب السنوي للقضية الفلسطينية لعام ١٩٦٥** ، العلاقات الفرنسية ـ الاسرائيلية ، مؤسسة الدراسات الفلسطينية ، بيروت ، ص ٤٨٣ ٠

(23) Bar-Zohar, **op. cit.**, P. 253.

(24) Crosbie, **op. cit.**, PP. 193 - 194.

(25) **Ibid.**, P. 190.

(26) Encyclopedia of Zionism and Israel, **op. cit.**, P. 355.

(27) **الكتاب السنوي للقضية الفلسطينية لعام ١٩٦٧** ، العلاقات الفرنسية ـ الاسرائيلية ، مؤسسة الدراسات الفلسطينية ، بيروت ، ص ٨١٦ ٠

(28) Crosbie, **op. cit.**, P. 192.

يصدر قريبا عن

مركز الابحاث في منظمة التحرير الفلسطينية

التركيب الاقتصادي والاجتماعي لشرق الاردن

"مقدّمات التطوّر المشوّه ١٩٢١ - ١٩٥٠"

تاليف

هاني حوراني

احمد صدقي الدجاني

نظرة تحليلية في تاريخ فلسطين "٣"

فلسطين تحت حكم الرومان

ظهر الرومان في سورية عام ٦٤ ق٠م٠ وكانت حالة من الفوضى اورثها اياها الحكم السلوقي الضعيف في عهده المتأخر ، وقضى القائد الروماني « بومبي » على المملكة السلوقية وحول سورية الى ولاية تابعة للامبراطورية الرومانية ٠ وحين زحف الى جنوب البلاد كان الصراع محتدما في اليهودية بفلسطين بين ابني اسكندر هيركانوس واريسطوبولس ـ بعد موته ـ وقد فتح هيركانوس وانصاره بوابات القدس للرومان ، ولكن بومبي احتاج ثلاثة شهور من الحصار ليقضي على مقاومة اريسطوبولس وانصاره ٠

دخل بومبي القدس عام ٦٣ ق٠م٠ واكمل فتح فلسطين ، واجرى تعديلات ادارية فيها باعتبارها الجزء الجنوبي من ولاية سورية ٠ فسمح لملوك العرب من الانباط الاستمرار في الحكم مع دفع الجزية ٠ وابقى اليهودية دولة خاضعة ضمن اطار الولاية بعد ان اخرج منها المدن ذات الدساتير اليونانية التي سبق ضمها اليها ٠ ومنحت هذه المدن حرية داخلية في ظل حكام الولايات ، وشكلت عشرة منها تجمعا عرف باسم (ديكابوليس) انضمت اليه مدن اخرى فيما بعد ، ومنحت غزة ومستعمرات اخرى في سورية الحكم الذاتي وجعلت تحت حكام الولايات ٠ (١)

استشعر بومبي اهمية ولاية سورية بين الممتلكات الاسيوية للامبراطورية الرومانية وعهد بها الى مبعوثه الكفؤ **اولوس غابينوس** (٥٧ ـ ٥٥ ق٠م٠) الذي زاد في انقاص سلطة المملكة اليهودية بتجريد كاهنها الاعظم هيركانوس الثاني حفيد اريسطوبولس من رتبته الملكية، وبفرض ضرائب ثقيلة على السكان ،

وتقسيم الدولة الى خمسة اقاليم صغيرة يحكم كلا منها مجلس او « سنهدرين »٠ واعاد غابينوس بناء عدد من المدن اليونانية الفلسطينية التي كان المكابيون قد هدموها مثل السامرة وبيسان ودورا وغزه ، وعمل على انعاش الهلينية فيها ٠

وبرز في فلسطين اوائل الحكم الروماني لها **انتيباتر الادومي** ٠ وهو من اهالي عسقلان ومن **الادوميين الذين اكرهوا على الدخول في الدين اليهودي** ، وقد عرف بغناه الوافر وبذكائه وكان يعمل مستشارا لهيركانوس الثاني ٠ وحين نشب الخلاف بين بومبي ويوليوس قيصر اخذ انتيباتر جانب الاخير ٠ كما امده بعون عسكري حيوي حين حاصر بطليموس الثاني ملك مصر يوليوس قيصر في الاسكندرية ، فسار انتيباتر بثلاثة الاف جندي وساعده على فك الحصار والانتصار على جيش بطليموس ٠ وقد منحه قيصر حقوق المواطنة الرومانية وعينه نائبا او وكيلا ماليا حين زار سورية عام ٤٨ق٠م٠ وهكذا اصبح انتيباتر السلطة الحقيقية وراء هيركانوس الضعيف وصرف امور البلاد ، واقام ابنه البكر «فصايل» واليا على القدس وابنه الاخر « هيرود » واليا على الجليل ، وحين اغتيل قيصر عام ٣٣ ق٠م قتل انتيباتر بايعاز من هيركانوس ٠

وعاشت فلسطين سنوات اضطراب ابان الحرب الاهلية التي نشبت في رومة اثر اغتيال قيصر ، شأنها في ذلك شأن سورية وبقية ولايات الامبراطورية ٠ وقد اصبحت اثناء تقسيم العالم الروماني من قبل الحكومة الثلاثية الثانية تحت حكم مارك انطوان مع سورية ومصر ولم يأت هذا الحكم الذي دام اربع سنوات (٤٠ ــ ٣٦ ق٠م٠) بالهدوء ولا بالسلم ٠٠ وشهدت البلاد الغزوة الفرتية الكبرى من ٤٠ ــ ٣٨ ق٠م٠ التي ادت الى اخراج الرومان من الولاية كلها باستثناء صور ٠ واستغل **انتيجونس الهسموني** حالة الفوضى التي عمت فحالف الفرتيين ملوك الفرس واقام نفسه ملكا على اليهودية ، وكان قيصر قد طرده من قبل ٠ لكن ما اسرع ما هلك حين استتب الامر مرة اخرى للرومان عام ٣٧ ق٠م٠ فقد اعدم بأمر من مارك انطوان وانقضى بموته ملك المكابين الذي دام ١٢٥ سنة ٠

تولى **هيرود بن انتيباتر العسقلاني** حكم اليهودية بفلسطين سنة ٣٧ ق٠م٠ حين عهد اليه بها مارك انطوان ٠ وكان هيرود قد ساعد الرومان في القضاء على انتيجونس ٠ وهو اول ملوك الاسرة اليهودية ٠ وقد اتخذ حفيده هيركانوس الثاني زوجة ثانية له ووطد سلطته كملك واتخذ من اورشليم عاصمة له ، وحكم لمدة ثلاث وثلاثين سنة (٣٧ ــ ٤ ق٠م٠) ٠

كان هيرود مواليا للرومان هيلينا في افكاره وأسلوب حياته ٠ وقد اطمأن له اغسطس قيصر ورضي عنه فولاه فضلا عن فلسطين مناطق اخرى مجاورة حتى اصبح حكمه يشمل البلاد الواقعة بين الصحراء والبحر من سفوح جبل

الشيخ الى سيناء · وقد اجتهد هيرود في نشر آداب الرومان وتقاليدهم وتدينهم · ونجح الى حد ما حيث اخفق **انطيوخس ابيفانس السلوقي** في جعل اليهودية بالقوة شبه مملكة هلنستيه · وبدأ في مشروع انشاء ابنيه عامة بدل بموجبه البلاد تبديلا تاما · فبنى في اورشليم ميدانا لسباق الخيل ومسرحا ومدرجا واقام العابا عامة لا تتفق مع الدين اليهودي ، واعاد بناء المعبد · وزين السامرة مقره المفضل بالابنية وسماها سبسطية اكراما لاغسطس قيصر · واعاد بناء برج ستراتون على الساحل وسماه قيصرية التي قدر لها ان تصبح عاصمة فلسطين الرومانية · وبنى هيرود مدينة انتيباتريس ــ نسبة الى ابيه عند منابع نهر العوجا للشمال الشرقي من يافا ، ومدينة فصايل بالغور ــ نسبة الى اخيه ، كما اعاد بناء قلعة قرن صرطبة بالغور · وزين اريحا وبنى فيها قصره الشتوي ، كما بنى جنوبها قلعة « قبرص » نسبة الى امه كذلك زين هيرود عسقلان مسقط رأسه ، وشيد كثيرا من القلاع والابراج في مختلف انحاء مملكته من اشهرها قلعة (**مسادا ــ مصعدة**) غربي البحر الميت ·

وعرف هيرود بقسوته وقوة ارادته · وكان واسع الحيلة حاد الذهن سحق بقسوة المعارضة لحكمه المطلق ، وقد عاش في بلاطه الكاتب **نيقولاوس الدمشقي** المؤرخ والفيلسوف الذي ولد بدمشق عام ٧٤ ق·م· وكان صديقا له وقد ألف تاريخا عاما وكتب مقالات فلسفية باليونانية · وعن تاريخه نقل المؤرخ يوسيفوس مادة القسم المتعلق بهيرود · ويسجل لهيرود انه بذل جهده عام ٢٢ ق·م· لتوفير الطعام للناس حين اصيبت البلاد بالقحط والمجاعة ، واشترى من ماله حنطة كثيرة من مصر لهذا الغرض وزعها على الناس مجانا ، وقد تزوج عشر نساء وانجب عدة بنين وذبح بعضا من نساءه وافراد اسرته ممن عارضوه · وعلى الرغم من تجديده المعبد بالقدس حتى اصبح اضخم واجمل من الذي بناه سليمان ، وعلى الرغم من اعتناقه ظاهريا الدين اليهودي فقد كرهه اليهود بفلسطين لتغريبه وانغماسه في الحضارة الهلسنتيه · وكانت وفاته عام ٤ ق·م· في فترة ولادة المسيح عليه السلام الذي يرجح انه ولد بين ٦ ــ ٢ ق·م· وقد لقب بالكبير لما قام به من الاعمال الضخمة ·

تقاسم اولاد هيرود الثلاثة مملكة ابيهم بحسب وصيته التي اقرها الامبراطور اغسطس وحكم **ارخيلاوس** القدس والخليل ونابلس وادوم · وتنافس مع اخيه **هيردوس انتباس** الذي حكم ما بين نهر الليطاني وبحر الجليل واجزاء من الساحل ومن شرق الاردن · وهذا الاخير هو الذي بنى طبرية وسماها على اسم طيبريوس قيصر · اما الثالث **هيردوس فيلبس** فقد كان واليا على الجولان واللجاة وقد اساء ارخيلاوس السيرة بظلمه وجوره فعزله اغسطس عام ٦م· ووضع اليهودية تحت الحكم المباشر للحكام او النواب الرومان وخامسهم هو بيلاطس البنطي الذي وقعت في عهده حوادث السيد المسيح · وحكم **انتباس** حتى

عام ٣٩ م· وهو الذي تزوج « هيروديا » ابنة الحارث الرابع ملك الانباط ثم طلقها ليتزوج ابنة اخيه اريسطوبوليس البارعة الجمال والماجنة والتي كانت متزوجة قبله عمها فيلبس · وقد تلوثت يداه بدم يحيى بن زكريا الذي انتقد هذا الزواج ونشبت بينه وبين ملك الانباط حرب خسرها وكانت نهايته العزل والنفي الى فرنسا بأمر من الامبراطور **كاليغولا** · كما حكم **فيليبوس** حتى عام ٣٤م· وقد تميز عن اخويه بشيء من الاعتدال · ومن الذين حكموا من سلالة هؤلاء « اغريبا الاول » من (٤١ ـ ٤٤ م) وهو حفيد هيرود الكبير ، وقد تعلم في روما وخص بيروت ابان حكمه بكثير من التحسين والتجميل وتوفي فجأة في قيسارية · وكان آخر من تولى منهم « اغريبا الثاني » ابن اغريبا الاول ، واشتهر بخضوعه التام للرومان ، وقد ساعدهم في جمع مقاومة اليهود وانتهى به المطاف في روما حيث مات هناك عام ١٠٠م وانتهت بموته دولة الهرادسة الادوميين واصبحت روما تحكم فلسطين حكما مباشرا · (٢)

وقبل ان نطوي صفحة حكم الادوميين لفلسطين نقف عند **حدث كبير شهده عهدهم · ذلك هو مولد المسيح عليه السلام وظهور المسيحية** · وقد ولد عيسى بن مريم في بلدة بيت لحم ، ونشأ في الناصرة ، وباشر دعوته حين بلغ الثلاثين من عمره ، فأخذ يتجول في فلسطين داعيا الى محبة الله ومحبة الانسان · وتبعه عدد من الحواريين والتلاميذ الذين بدلوا حياتهم كما فعل هو · وقد سجل بعض هؤلاء فيما بعد تعاليمه واعماله في كتب عرفت باسم الاناجيل (والانجيل كلمة يونانية معناها البشارة) · وكان تأكيد هذه التعاليم على وحدة الانسانية وعلى خدمة الانسان وعلى الروحانية الداخلية عوضا عن المبالغة في الطقوس والمظاهر الخارجية وقد انطلقت من نظرة عالمية ، وقرنت الحياة الاخلاقية بالدين ، فاصبح الاحسان من اعمال الايمان بدلا من ان يكون من اعمال العدل ، وبشرت بالحياة الاخرى ·

استمر المسيح يدعو قومه ثلاث سنوات ، ولفظة المسيح هي ترجمة للكلمة العبرانية « مشيا » التي كانت تستعمل كلقب للملوك اليهود وبالتالي للملك الموعود · وقد حمل الحواريون عبء الدعوة من بعده للدين الجديد الذي عرف باسم المسيحية ، وانتشر الدين الجديد اولا بين عدد قليل من فلاحي فلسطين اليهود ثم شق طريقه ببطء بين كافة السكان بفلسطين وبدأ تداول الاناجيل التي يرجح انها كتبت في القرن الاول للميلاد ، كما دونت اعمال الرسل من الحواريين ونشاطهم في التبشير ووصاياهم في سبعة وعشرين سفرا ، وكانت نواة المجتمعات المسيحية الاولى مؤلفة من اليهود ، وقد بدت الديانة الجديدة للمواطن الروماني المتوسط حتى نهاية القرن الاول كمذهب يهودي غامض · وحكم **الامبراطور دومتيان** على ابن عم له بالاعدام بتهمة كفر يتصل باليهودية ـ ويقصد المسيحية ـ ولم يلفت الدين الجديد انظار الناس بوجه عام حتى زمن

الامبراطور تراجان في القرن الثاني للميلاد (٩٨ ـ ١١٧م) · وحين اعلنت المسيحية تحديها للديانات القديمة في الامبراطورية قام الكتاب اليونان واللاتين يحاربون الدين الجديد ويدعون الناس للتمسك بالاديان القديمة التي تقترن بالامجاد الماضية لتاريخهم القومي ، وتعتبر رموز للسلطة الامبراطورية ، وقد بدت بعض مظاهر الدين الجديد غريبة على الفكر الروماني اليوناني ، ولكن جهود بولس والآباء المسيحيين الاوائل اعطت المسيحية شكلا هيلنيا جعلها ملائمة للانتشار ومقبولة لدى الرومان واليونان · وقد عملت ظروف عدة لصالح المسيحية ولكن كان على اتباعها الاوائل ان يتعرضوا لنار الاضطهاد قبل ان يتأكد لها النصر · (٣)

كانت فلسطين اذن مقر النبتة الاولى للديانة المسيحية · وبينما كان هذا الدين الجديد ينطلق منها الى شتى انحاء الامبراطورية والعالم ، كانت ارض فلسطين تشهد تجربة الحكم الروماني فيها · وقد حاول هذا الحكم ان يصبغها بالصبغة الهلينية الرومانية على مدى الحقبة الزمنية التي دام فيها من عام ٦٤ ق·م· الى عام ٣٢٣ م· وذلك ان الرومان ـ وهم من الهنود الاوربيين ـ كانوا الوحيدين من بين شعوب البحر المتوسط الذين تقبلوا بسهولة حضارة اقربائهم اليونانية ، بينما يلاحظ ان اكثرية سكان آسية الغربية وشمال افريقيا ـ اي منطقة الوطن العربي ـ وهم من الساميين والحاميين ، كانوا ينظرون الى تلك الحضارة كحضارة غريبة مفروضة عليهم من الاجانب · وقد اسبغ الحكم الروماني حمايته على مراكز الهيلنية في فلسطين وسوريا عموما ، فاستمرت الحياة في هذه المراكز كما كانت ابان الحكم اليوناني ، وتبنت السلالات المحلية التي سمح لها الرومان بالبقاء على هذه الحياة ، ومنهم سلالة هيرودس باليهودية في فلسطين والحارث في البتراء ، واذينه في تدمر ، واحتفظت الجماعات المحلية بفلسطين بديانتها ولغتها وعاداتها الخاصة ، ولم يفرض عليها نظام الولايات الروماني سوى قيود قليلة على ممارسة استقلالها الذاتي ، وقد اخذ الرومان على عاتقهم مسئولية حمايتها واخذ الجزية منها ، وعينوا لها حكاما من الرومان · فاما الجماعات الارامية في الداخل فاستمرت تسيطر على شؤونها الداخلية كما سبق ، وعلى حدود الصحراء حيث كان طراز المعيشة البدوي لا يزال سائدا كانت القبيلة هي الوحدة الاجتماعية ، واتبع النظام القبلي في الادارة · وفي اليهودية اصبح الكاهن الاعظم رئيسا للطائفة بعد ان فقد لقب الملك ، وكانت الارستقراطية اليهودية هي التي تعينه ، واظهرت رومة طيلة حكمها شيئا كثيرا من التسامح تجاه هذا التنوع ، واحتفظت المستعمرات اليونانية بحكامها الذين كان يتبعهم مجلس للشيوخ ومجلس شعبي ·

وتكلم غالبية سكان فلسطين في تلك الفترة اللغة الارامية بعد ان تبناها العرب سواء منهم الايتوريون الاقوياء في الشمال او الادوميون الذين تهودوا

اسميا واستقروا في الجزء الجنوبي الغربي من البلاد ، وبقيت اللغة العبرية لغة مقدسة بين اليهود ، كما كان المثقفون من اهل البلاد يكتبون باليونانية ، وتمسك العرب في البوادي بلغتهم العربية • ولم يجد سكان فلسطين ما يستعيرونه من الحضارة الرومانية الا القليل ، مع ما عندهم من حياة اجتماعية وفكرية واقتصادية راقية • وقد بقي الادب اللاتيني بالنسبة لهم كتابا مغلقا ، ولكن الحكم الروماني اهتم بطرق المواصلات ، فرصف عددا من الطرق في فلسطين وسورية عموما واقام عددا من الجسور ، الامر الذي ساعد على دفع جماعات من البدو نحو حياة الاستقرار ، ويسجل للادارة الرومانية انها فتحت امام البلاد سوقا عالمية •

ولقد شجع استتباب الامن وتوسع شبكة الطرق وظهور تجارة عالمية جديدة الانتاج الاقتصادي في البلاد الى حد لم يعرف قبلا ، وتجلى الازدهار في ارتفاع مستوى المعيشة بين السكان الذين تزايد عددهم حتى قارب المليون في فلسطين وسبعة ملايين في سورية الكبرى كما تجلى في العناية بالمدن •

وازدهرت الزراعة في البلاد وتحدثت الكتابات اللاتينية عن اشجار سورية التي ادخل بعضها الى ايطاليا وعن شهرة فطر اورشليم وبصل عسقلان ، وعن كبر ثمر البلح وحلاوته ووفرة اشجاره في الغور وعن الكروم الواسعة في الخليل والجليل وغزة وانتشرت البستنة واعتنى الناس «بالجنائن» ، وساعد على اتساع الزراعة استعمال الالات المائية والمعاصر وطرق التسميد الراقية وعناية الرومان بمشاريع الري وانشاؤهم القنوات •

كذلك ازدهرت الصناعة واشتهرت خمور غزة وعسقلان والجليل ، كما اشتهرت المدن الساحلية بصناعة صبغة الارجوان وبنسيج الحرير • وكان الزجاج يصنع قرب عكا ، واستخرج الملح من السواحل عموما والزفت من البحر الميت والنحاس من منطقة اريحا •

وكانت التجارة المورد الرئيسي للثروة ، وقد فاق التجار في الغنى ارباب الصناعة والملاكين الزراعيين ، وكان هؤلاء التجار من اهل البلاد وبقيت التجارة فردية واستمرت تجارة العبيد في الازدهار ، وكانت المدن الساحلية ومدن القوافل هي مراكز التجارة وهي اغنى المدن ، وقد صدرت النبيذ والارجوان والتمر والسمك ، واستوردت الخزف والبهارات والحرير والجواهر ، وبلغت المبادلات التجارية ذروتها ابان الحكم الروماني في عصره الذهبي •

ولم يطرأ تغير جذري على الحياة الاجتماعية في فلسطين خلال ذلك العهد فبقي المظهر العام لحياة الريف كما كان ، وعاش الفلاحون في القرى الكثيرة على انتاج الكروم والمزارع ، وكانت بعض الاراضي المحيطة بالقرية مشاعا وتؤلف مصدر ايراد للقرى ، وملك بعض الافراد القرى • وليس هناك وثائق

تدل على استخدام العبيد في الزراعة ، وكان تأثر هذه القـــرى بالحضـــارة الرومانية ضئيلا كتأثرها بالحضارة الهيلنية ، ذلك ان القرويين تمسكوا بقـــوة بطرق حياتهم التقليدية ، وفي المدن عاش كبار الملاك واصحاب قطعان الماشية ، وشكلوا الارستقراطية الوطنية وكان من بينهم رجال الدين · وعاش معهـــم موظفو الحكومة ، وقد استخدموا الرقيق وانصرف كثير منهم الى حياة الترف· ومع ذلك بقي شعور الولاء نحو العائلة مسيطرا وهو ما احتفظوا به من تـــراث العصر القبلي · وساعدت المفاهيم التقليدية على الاعتدال في العادات ، وكانت المرأة في الريف تخرج سافرة كما هو شأنها اليوم ، بينما لبست نساء المـــدن براقع تحيط بالرأس وتتدلى على الاكتاف ، واستحسنت النساء الوشم وخصوصا على الصدر ، ويبدو ان الرجال اهملوا عادة الختان ـ وهي عادة سامية قديمة ـ بفعل الاحتكاك بالهنود الاوربيين من يونان ورومان ، وتركوها نهائيا بتأثيـــر المسيحية لتعود من جديد بعد انتشار الاسلام ·· وقد انتشرت في المدن انـــواع اللهو الرومانية كالمصارعة وسباق العربات والمباريات الموسيقية والتمثيـــــل المسرحي · وكان الصيد محببا لدى الاغنياء · وبقيت الحمامات العامة التـــي ظهرت في العهد السلوقي وزاد الاقبال عليها ، واشتهر اهل فلسطين وسوريـــة في الامبراطورية الرومانية بالبراعة في الموسيقى والتمثيل ·

وازدهرت الحياة في المدن الفلسطينية التي جمعت بين نماذج مختلفة فكانت هناك المدن الفلسطينية القديمة على الساحل مثل غزة وعسقلان ويافا وعكا ،وقد اصطبغت بالصبغة الهيلينية · ثم كانت هناك المدن التي بنتها الاسرة الهيرودية وهي قيصرية على البحر وسبسطية وطبرية وقيصرية فيلبي · وكانت هنـــاك ايضا المستعمرات القليلة التي بناها الرومان واشهرها فيابوليس (المدينـــة الجديدة) وقد بنيت على موقع مدينة شكيم التي تذكر في العهد القديم ، وكانت قد جددت باسم سكيثوبوليس ثم خربها اليهود الثائرون لان يهودهـــا انضموا للرومان ، فاعاد فسباسيان الروماني بناءها واطلق عليها اسم فلافيـــــوس نيابولس · وقد بنى فسباسيان مدينة باسم عمواس على بعد سبعة اميال شمال غربي القدس · وفي الداخل بقي حلف المدن العشر « الديكابولس » موجودا ·

ونشطت في هذه المدن الحركة العلمية ، وازدهرت فيها مدارس غزة وعسقلان وقيسارية وظهر في فلسطين المؤرخ يوسيفوس الذي ولد في القدس حوالي ٣٧م وكان يهوديا ينحدر عن طريق امه من المكابيين على حد قوله وقد شارك في ثورة اليهود ضد حكم الرومان واسر ، ثم التحق بعائلة الامبراطور في روما وكتـــب كتابه « آثار اليهود » الذي تحدث فيه بالتفصيل عن حكم المكابيين وحكـــــم الهيروديين · وكتابه « حروب اليهود » الذي كتبه بالارامية وسجل فيـــه احداث الثورة التي شهدها· كما ظهر في فلسطين القديس يوستين الشهيد الذي ولد في نابلس حوالي سنة ١٠٠ م من ابوين وثنيين واعتنق المسيحية بعد ان كـــان

متحمسا للفلسفة الافلاطونية وكرس حياته للدفاع عن المسيحية والتبشير بها · واسس في روما مدرسة كان يعلم فيها اللاهوت المسيحي بعد ان ادخل فيه عناصر من الفلسفات الافلاطونية والرواقية · وقد دافع عن المسيحيين امام الامبراطور انطونيوس بيوس ثم استشهد في مدرسته حوالي سنة ١٦٥ م لانه رفض ان يقدم الذبائح للآلهة وكان ذلك في عهد ماركوس اوريليوس ·

كان انطلاق المسيحية من فلسطين الى مختلف انحاء الامبراطورية الرومانية ابرز مظهر من مظاهر تأثير الحضارة السورية على الرومان ، وبالمقابل كان للحضارة الرومانية تأثيرها على جوانب الحياة الاقتصادية والاجتماعية والسياسية ذروتها عام٢١٢م حين اصدر كراكلا مرسومه الشهير بمنح حق الرعوية التامة لجميع السكان الاحرار في الولايات ، وحدث هذا التأثير ايضا عن الرومانية وفي بعض المدن الاخرى · وحدث التوسع في منح الامتيازات الرومانية لغير الايطاليين حين اعتلى تراجان الاسباني الاصل عرش روما ، وبلغت هذه السياسة ذروتها عام ٢١٢ حين اصدر كراكلا مرسومه الشهير بمنح حق الرعوية التامة لجميع السكان الاحرار في الولايات وحدث هذا التأثير ايضا عن طريق الخدمة العسكرية وادخال عدد كبير من السكان الاصليين في الفرق الرومانية، لان افراد الجيش كانوا يصبحون مواطنين رومان بصورةتلقائية ، يستعملون اللغة اللاتينية ويتخذ بعضهم لنفسه اسماء رومانية ·

كانت الاستجابة للتأثير الروماني بين شعب فلسطين اقل منها في الجماعات السورية الاخرى ، وذلك بفعل انتشار اليهودية فيها · وكانت الجماعة اليهودية منقسمة الى الصدوقيين الذين مثلوا الارستقراطية المصطبغة بالصبغة الهلينية ، **والفريسيين** الذين مثلوا عامة الشعب وتمسكوا بتقاليد ديانتهم وهدفوا الى الى التحرر واتصلوا **بالهاسيديم** (الاتقياء) اسلافهم في العصر المكابي ، فاما الصدوقيون فقد احتكروا الوظائف وقبلوا الهيلينية الرومانية وحصلوا على تأييد روما ، بينما تشبث الفريسيون بديانتهم وخصائص حياتهم وتقاليدهم ومارسوا سياسة انطواء وعزلة ، وقد قاوموا من اجل ذلك محاولات الحكم الروماني فرض الهيلنية الرومانية وقاوموا انغماس الصدوقيين في حضارة المحتلين ، **وادت مقاومتهم الى انفجار ثورة يهود فلسطين ضد الرومان عام ٦٦م·**

استمرت هذه الثورة قرابة اربع سنوات ، وكانت لها اسبابها الدينية « العقيدية » واسبابها الاجتماعية ، وقد شارك فيها عدد كبير من اليهود ، وكانت الشرارة التي اشعلتها هي السياسة الهلينية التي انتهجها حاكم قيصرية والاوامر التي اصدرها ، الامر الذي ادى الى صدام مع يهود المدينة ، فكان ان خرجوا منها واثارت اخبار خروجهم يهود القدس والمناطق الاخرى فاشتعلت الثورة · ولما وضح لحاكم سورية « فسباسيان » تفاقمها قاد بنفسه الجيش لاخمادها ،

وكان نيرون قد عهد اليه بمهمة قمعها · وهكذا اخضع بين عـامي ٦٧ ، ٦٨ م منطقة الريف والحصون المنعزلة ودمر يافا واقترب من القدس · وحين توفـي نيرون ورفع هو الى العرش عهد الى ابنه تيطوس بأمر إخماده الثورة ، فشدد تيطوس الحصار على القدس مدة خمسة اشهر واحتلها وهدم المدينة واحـرق المعبد المزخرف الذي بناه هيرودس وقتل واسر الكثيرين · وكان من اسبـاب سقوط المدينة الانقسامات التي حدثت بين المحاصرين ، وقد فر احد الزعمـاء « **اليعازر بن يائير** » واعتصم بقلعة **مسادا** التي بناها هيرودوس على شاطىء البحر الميت مع عدد من رجاله حتى عام ٧٣ م وحين اشتد عليها حصار الرومان آثروا اللجوء الى عملية الانتحار الجماعي ، وهكذا طويت الصفحة الاخيرة من هذه الثورة · (٤)

عمد الرومان الى انتهاج سياسة جديدة بعد اخماد الثورة ، فجعلوا مـن « اليهودية » مقاطعة امبراطورية يحكمها عضو من مجلس الشيوخ يكون تحت تصرفه الفيلق الروماني العاشر المرابط قرب القدس · وقد فرضوا على اليهود ضرائب ثقيلة من بينها ضريبة للاله جوبيتر كبير الهة الامبراطورية كما اقاموا مستعمرة رومانية قرب القدس وحولوا مدينتي يافا وقيصرية الى مستعمرتيـن رومانيتين ، واعادوا بناء مدينة نابلس قرب شكيم القديمة ·

لم ينته وجود اليهود في البلاد اثر قمع الثورة · ولكن تغيرات واضحـة طرأت على توزعهم فيها · فقد اصبحت القدس خالية منهم ، كما خلت اكثـر المدن اليونانية من وجودهم ، وبقي يهود الاماكن التي استسلمت في الحـال للرومان كما هم ، وخصوصا في الجليل ، وتركز اليهود في منطقة الساحل الغربي واصبحت شغلة ويقنه واللد من مراكز تجمعاتهم الكبيرة ، وعلى الرغم من ان عشرات الالاف قضوا في الثورة فان البلاد شهدت تزايدا سكانيا في الستين سنة التالية · واستوطن اليهود من جديد قيصرية وعكا ومدن الساحل الاخرى · اما اليهودية كدين فقد انحط شأنها وخصوصا مع انتشار المسيحية · ولم يكـن اساسها القومي الضيق وبعض مظاهر طقوسها مناسبة لانتشارها ، وفشلـت محاولات العلماء اليهود لتقريبها الى العقلية اليونانية الرومانية ·

ونشبت ثورة اخرى بين يهود فلسطين في عهد الامبراطور الروماني هادريان (١١٧ ـ ١٣٨ م) فقد عمد هادريان لبناء مستعمرة رومانية في القدس اطلق عليها اسم ايليا كابتيولينا (وكان اسمه الاول ايليوس) · كما اصدر مرسومـا يحرم فيه الختان واهتم باضفاء الطابع الروماني على البلاد ، فنقم اليهود على سياسته وثاروا بقيادة **سمعان باركوخبا** سنة ١٣٢ م · (٥) وبارك الربى **اكيبا بن يوسف** الذي كان يتمتع بنفوذ كبير على جماعة اليهود هذه الثورة · ونجـح باركوخبا في احتلال القدس وبعض المراكز الرومانية بعد ان انضم اليه كثير من

اليهود فتصدى هادريان لهذه الثورة بجيش كبير قاده جوليوس سيفروس الذي استدعى من بريطانيا ، ونجح هذا القائد في استرجاع القدس وحاصر بقايا الثوار في « بتير » وقضى على الثورة نهائيا سنة ١٣٥ م وقد اورد المؤرخ الروماني ديوكاسيوس انه حطم خمسين حصنا وتسعمئة وخمسا وثمانين قرية وقتل خمسماية وثمانين الف رجل · واعاد هادريان بناء القدس واطلق عليها الاسم الجديد وبنى فيها تمثالا لجوبيتر وتمثالا آخر للامبراطور ، واصدر عدة مراسيم تحرم على اليهود دخول المدينة وممارسة طقوسهم فيها · وأطلق على البلاد اسم « فلسطين السورية » بدلا من اليهودية ·

اصبحت الجماعة اليهودية في فلسطين اقلية بعد ما فقدته من افرادها خلال هاتين الثورتين وبفعل انتشار الدين المسيحي في البلاد وتحول بعض اليهود اليه، وقد سمح الامبراطور انطيونيوس بيوس (١٣٨ ـ ١٦١ م) لليهود بختان اولادهم واحترام السبت وعبادة ربهم · **وتجدر الاشارة هنا الى قوانين هادريان ضد يهود فلسطين في اعقاب ثورتهم لم تسر على اليهود الذين كانوا يعيشون خارج فلسطين اذ عوملوا برفق كغيرهم** ، واهتم اليهود بفلسطين بتأسيس مدارس لهم واصبحت طبرية في الجليل اهم مراكزهم · وفي هذه المدارس نشطت كتابة التلمود ، وتشير الكتب اليهودية الى ان **بيت سيفروس** الامبراطوري كان متعاطفا مع اليهود وقد اصدر **اسكندر سيفروس** (٢٢٢ ـ ٢٣٥ م) مرسوما بالاعتراف بالحاخام على رأس الجماعة اليهودية · كما تشير هذه الكتب الى اصلاحات **ديو كليتيان** (٢٨٤ ـ ٣٠٥ م) التي سمحت لليهود بالتعبد في القدس · وتصف هذا الامبراطور بانه احترم العقيدة اليهودية ·

وتزايد عدد معتنقي المسيحية من شعب فلسطين على حساب معتنقي اليهودية وتعرضت المسيحية قبل أن تعم البلاد في عهد الدولة البيزنطية الى نار الاضطهاد · وقد حدث اول اضطهاد عنيف على مستوى الامبراطورية في عهد **الامبراطور نيرون** عام ٦٤ م وفيه استشهد **الحواريان بطرس وبولس** عام ٦٧ م، ثم حدث الاضطهاد العنيف التالي سنة ٩٥ م في عهد **دوميتيان** ، وفي عام ١١٢ اصدر **تراجان** مرسوما ينص على معاقبة كل مسيحي يرفض تقديم مراسم الاحترام لالهة الدولة · وفي عام ٢٥٠م· اكد **ديقيوس** هذا المرسوم · ثم حدث الاضطهاد الكبير في عهد **ديو كليتيان** الذي اصدر مرسوما عام ٣٠٣ م· نص على محو كنائس المسيحيين وحرق كتبهم وطرد كل من يشغل وظيفة مدنية وعسكرية من منصبه ، وقد استمر هذا الاضطهاد عشر سنوات ، وشهد صورا من التعذيب بالغة البشاعة ، واستطاعت المسيحية خلال تلك الفترة ان تنتصر على ديانات الاسرار التي كانت تنافسها ، وهي ديانات وثنية سرية من اصل شرقي اصطبغت بالهيلنية وشاعت بين الرومان · وكان من الذين استشهدوا ابان الاضطهاد الكبير في فلسطين القديس **جاورجيوس** الذي ولد في اللد عام ٢٨٠م·

لاب من اصحاب الاملاك واعتنق المسيحية ودعا اليها حتى قتلـــه الامبراطـور عـام ٣٠٣ م ٠

بقيت فلسطين ابان الحكم الروماني لها على صلة وثيقة ببقية اجزاء سورية وكانت تقوم في شرق الاردن **مملكة الانباط العرب** التي بلغت ذروتها في القرن الاول الميلادي ، وكان ابرز ملوكها **الحارث الرابع** (٩ ق٠م٠ ــ ٤٠ م)٠ وقـد ظهر اسم الانباط لاول مرة في القرن السادس قبل الميلاد ، واطلق على قبائـــل بدوية تعيش في صحراء شرق الاردن ، وتدرج الانباط من حياة الرعي الى حياة الزراعة ، ثم الى حياة التجارة ، وازدهرت عاصمتهم البتراء ٠ وقد ضمـــت المملكة في اقصى اتساعها جنوبي فلسطين وشرق الاردن وسورية الجنوبيـــة الشرقية وشمالي الجزيرة العربية ٠ وعلى الرغم من احتكاك الانباط بيهـــود فلسطين فان الديانة اليهودية لم تتمكن ابدا من عبور نهر الاردن ، وبقي الانباط يعتنقون ديانة سامية اساسها طقوس الخصب وابرز آلهتها « اللات » الى ان جاء القرن الثالث الميلادي واعتنقوا الديانة المسيحية ، وقد تبادلوا التاثير مع شعـب فلسطين ٠

وكانت تقوم في بادية سورية انذاك **مملكة تدمر** التي استقرت فيها بضـــع قبائل عربية وازدهرت كمدينة للقوافل ، وقد ظهر اسمها لاول مرة حوالي عـام ١٨٠٠ ق٠م٠ وحدث اول احتكاك بينها وبين الرومان عام ٤١ ق٠م٠ حين غزاها **القائد الروماني انطونيو** ٠ واعترفت بسيادة روما في عهد **طيبروس** بين عامي ١٧ و ١٩ م ٠ وجعلها **هادريان** عام ١٣٠ م تابعة لروما ٠ وفي منتصف القـرن الثالث حكمت تدمر **اسرة اذينة** الذي اقصى ملك الفرس شابور الاول عن سورية عام ٢٦٠م٠ وقد كافاه الامبراطور غالينوس فمنحـه لقب زعيم الشرق ٠ وحين قتل اذينة عام ٢٦٧ م تولت بعده زوجته زنوبيا (٢٦٧ ــ ٢٧٢ م) وعملت على توسيع ارجاء ملكها فاستولت على مصر عام ٢٦٧ م وعلى قسم من اسيا الصغرى فضلا عن سورية وفلسطين ، وقد استمر حكمها لفلسطين حتى عام ٢٧٢ م حين هزمها الامبراطور الروماني **اورليان** واسرها ٠

دخلت فلسطين ــ وسوريا بصورة عامة ــ في القرن الرابع الميلادي مرحلة حضارية جديدة هي المرحلة البيزنطية ٠ وقد نتجت عن اتحاد المسيحيين مـع الهيلنية الوثنية وحلت محل المرحلة الحضارية التي سبقتها وهي المرحلـــة الرومانية ٠ وكان مركز هذه المرحلة الجديدة مدينة القسطنطينية التي سميت باسم **الامبراطور قسطنطين** ٠ وقد حكم معامبراطور اخر الامبراطورية الرومانية سنة ٣٠٦م ثم انفرد بالحكم بين ٣٢٤ و٣٣٧م ، واسس العاصمة الجديدة في موقع بيزنطة القديم حيث تلتقي اوروبا بآسيا ، ودشنها عام ٣٣٠م٠

تعاطف قسطنطين مع المسيحية واعتنقها سنة ٣١٢م٠ ثم اعترف بها ديانة

رسمية جديدة للامبراطورية قبل ان يؤسس عاصمته الجديدة ٠ وعقد سنة ٣٢٥م٠ مجمعا كنسيا في مدينة **نيقية** باسيا الصغرى من كل اساقفة الامبراطورية حكم فيه على **المذهب الاريوسي** ونظم مجموعة تعاليم الدين المسيحي ٠ وحذا رجال الدولة حذو الامبراطور في اعتناق المسيحية ٠ واشتهرت امه القديسة هيلانة بتقواها ٠ وقامت بزيارة الى القدس حيث امر قسطنطين ببناء كنيسة القيامة وكنيسة المهد في بيت لحم ٠ وما اسرع ما انتشر بناء الكنائس والاديرة في فلسطين وبلاد الشام عموما ٠ وتصف المصادر اليهودية عهد قسطنطين بأنه كان معاديا لليهودية ، وتحدث عن انتفاضة قام بها يهود فلسطين احتجاجا على بناء الكنائس في بعض المدن التي يقيمون فيها حوالي عام ٣٥١م٠ (٦) ٠ وقد اعتنق جميع خلفاء قسطنطين الدين المسيحي عدا **جوليان المرتد** (٣٦١ ـ ٣٦٣م) الذي حكم عشرين شهرا والغى الاحكام التي اصدرها قسطنطين ضد اليهود ، واصدر احكاما تسمح لهم بالاقامة في فلسطين واعادة بناء الهيكل ٠ واشتهر من هؤلاء الخلفاء **تيودوسيوس** (٣٧٩ ـ ٣٩٥) ـ اخر امبراطور على الامبراطورية الموحدة ـ بصموده الباسل امام هجمات القوط ولدعمه المسيحية الخالية من البدع ٠

انقسمت الامبراطورية الرومانية الى قسمين شرقي وغربي عام ٣٩٥م٠ وتبعت سوزية ومنها فلسطين للامبراطورية الرومانية الشرقية التي اطلق عليها العرب اسم مملكة الروم ٠ وقسمت فلسطين اداريا في ذلك العهد الى ثلاثة اجزاء هي **فلسطين الاولى** وشملت ديار نابلس والقدس والخليل والسهل الساحلي حتى رفح ، وكانت قيسارية مركزها ، **وفلسطين الثانية** وشملت الجليل وام قيس وقلعة الحصن وطبرية ومركزها بيسان ، **وفلسطين الثالثة** وهي بلاد الانباط وديار بئر السبع ومركزها البتراء ٠

تمتعت فلسطين في عهد الامبراطورية الرومانية الشرقية براحة طويلة ٠ وكثرت فيها الاراضي المزروعة ، ودخلتها زراعة شجر التوت في عهد الامبراطور جوستيان في القرن السادس ٠ وجلبت شرانق دود الحرير من الصين ، وشتهرت غزة وعسقلان بالمنسوجات الحريرية ٠ ولم يتوقف ازدهار التجارة مع تقسيم الامبراطورية ، وبقيت علاقات غزة وعسقلان التجارية مع موانىء ايطاليا قائمة ٠ وكانت لفلسطين علاقة تجارية وثيقة مع الجزيرة العربية من خلال رحلة الصيف التي كان يقوم بها تجار قريش الى بلاد الشام ٠

واتصفت الحياة الفكرية في فلسطين وسورية بالاضطراب في مطلع العهد البيزنطي واستمرت المجادلات بين الكتاب اليونان واللاتين من المسيحيين وغير المسيحيين فترة بعد اعتناق قسطنطين للديانة المسيحية ٠ واحتفظت غزة وقيصرية وعسقلان بشعلتها الفكرية بينما كانت القدس لا تزال تقاسي من الخراب الذي الحقه بها الرومان ، وقد اشتهرت غزة بمدرسة البلاغة التي

ازدهرت فيها حوالي عام ٥٠٠م٠ وبرز في فلسطين خلال ذلك العهد عدد من العلماء من بينهم **يوسيفوس اسقف قيصرية** (٢٦٤ ـ ٣٤٩) واول مؤرخ كنسي عظيم ٠ وقد ولد في فلسطين وتثقف في انطاكية وكان صديقا حميما للامبراطور قسطنطين ومن اعظم الرجال المثقفين في عصره ٠ ومنهم **سوزمين (٤٠٠ـ٤٤٣)** وهو مؤرخ كنسي شهير ولد في قرية بيت لاهيا بجوار غزة ودرس القانون ، ثم عاش في القسطنطينية والف تاريخه في تسع مجلدات ٠ ومنهم **بروكوب الغربي** الذي ولد في اواخر القرن الخامس وكان علامة في اللاهوت وخطيبا ، والشاعر **ايناس** الذي ولد في غزة ، وتعلم الفلسفة في الاسكندرية وتوفي عام ٥٢١م ، **وبركوب القيصري** (٤٩٠ـ٥٧٠) الذي ولد في قيسارية وارخ لعصر **جوستنيان** (٥٢٧ـ٥٦٥) المليء بالاحداث ويعتبر من اعظم المؤرخين البيزنطيين ٠كذلك عاشفي فلسطين في ذلك العهد القديس **جيروم** (٣٤٥ ـ ٤٢٠) الذي تنسك في دير بيت لحم سنة ٣٨٦م٠ وانتقل منه الى الصحراء ، ومن اعظم مآثره ترجمته التوراة الى اللغة اللاتينية ٠

صبغت فلسطين وسورية في العصر البيزنطي بالصبغة الدينية ، واصبحت البلاد مسيحية ٠ وانتشرت فيها الكنائس والاديرة التي امتلأت بالرهبان والنساك وكانت الكنيسة اعظم مؤسسات هذا العصر ٠ وقد انبثقت الرهبنة كنظام من الزهد المسيحي ، وكان ظهورها لاول مرة في مصر على يد مؤسسها القديس انطون الذي اعتزل في الصحراء ومات بين عامي ٣٥٦ و٣٦٢م٠ وانتقلت من مصر الى فلسطين على يد **هيلاريون الغربي** اخر تلاميذ انطون ٠ وما اسرع ما انتشرت هذه الطريقة في الحياة القائمة على العزوبة والفقر والطاعة ، وذلك كرد فعل على ما عاناه الناس من المؤسسات العلمانية ابان العصر الروماني ٠ وقد شهد العصر مغالاة في الزهد كان من مظاهرها اقامة اعمدة في الخلاء يعيش عليها النساك العموديون ويموتون ٠

كانت نواة الجماعات المسيحية الاولى في فلسطين من اليهود على الاكثر ٠ وقد بدأ اتباع المسيح وعظهم في المعابد اليهودية ٠ وكان الكنيس اليهودي بديلا محليا للمعبد القديم بعد خرابه ، وقد بنيت الكنيسة المسيحية على نسقه مع شيء من التطوير ٠ ومن هنا جاء التشابه بينهما من ناحية العمارة ، وكان الفن فيهما متصلا وثيقا ٠ وقد عبر الفن عن موضوعات دينية وحرر نفسه من استعمال النماذج العادية والاشكال التقليدية التي سادت في الفن اليوناني والروماني، واتجه الى الواقعية ٠ وكانت اللغة السريانية تستعمل في الكنائس منذ القرن الثاني ، وبانتشار المسيحية في القرن الثالث فرضت السريانية نفسها تجاه اللغة اليونانية ٠ **وجاء هذا التحول عن اليونانية والعودة الى الارامية في هذا العصر عن الوعي القومي وكرد فعل ضد الوثنية ٠ وقد تمسك الناس باللغة**

الوطنية واضطر الموظفون البيزنطيون الى استخدام التراجمة في التعامل معهم ٠

وشهدت فلسطين ابان هذا العصر الانشقاقات الدينية بين المسيحية ٠ وكانت هذه الانشقاقات تحمل في طياتها تعبيرا عن اليقظة القومية ايضا ٠ اذ لم يكن الشعب راضيا عن الحكم البيزنطي من حيث المبدأ ومن حيث ممارسات هـذا الحكم ٠ فقد كان البيزنطيون من الناحية السياسية اكثر استبدادا في حكمهم واكثر جورا في نظام ضرائبهم من الناحية الاقتصادية ، وقد جردوا اهل البلاد من السلاح ولم يحترموا عواطفهم الا قليلا ٠ وكانوا اقل تسامحا من اسلافهم الوثنيين في المسائل الدينية ٠

وانغمس الناس في المناقشات اللاهوتية التي تركزت على طبيعة المسيح ، وكانت عصب الحياة بين المثقفين في القرنين الرابع والخامس ٠ ودخلت في هـذه المناقشات الفلسفة اليونانية ومنطق ارسطو ومبادىء الافلاطونية الحديثة على الخصوص مع بعض عناصر ديانات فارس ٠ وهكذا ظهر **اريوس** في القـرن الرابع الذي اكد على الطبيعة البشرية للمسيح وادين مذهبه في مجمع نيقيه ، ثم ظهر **ابوليناريس** كرد فعل على الاريوسية واكد على ان الكلمة تحتل في شخص المسيح المقدس مكان النفس ٠ وجاء **نسطور** الذي اصبح اسقف القسطنطينية عام ٤٢٧م٠ وتحث عن الطبيعتين الالهية والبشرية للمسيح ، وعم المذهب النسطوري قطاعات واسعة ٠ ثم تلاه **المذهب اليعقوبي** القائل بالطبيعة الواحدة للمسيح والذي اقره مجمع خلقدونية عام ٤٥١ م٠ وقد انتشر هذا المذهب اول الامر وايده العرب الغساسنة واخذ اسمه من الاسقف **يعقوب البرادعي** (ت ٥٧٨ م٠) الذي نظم كنيسته (٧) ٠

ومن حوادث فلسطين في عهد الدولة البيزنطية استيلاء **امرىء القيس شيخ «دومة الجندل »** على فلسطين وجزيرة تيران واقرار **الامبراطور ليـون الاول** (٤٥٧ ـ ٤٧٤م) حكمه عليها بعد تنصره ٠ كما حدث في عهـد الامبراطور انسطاسيوس (٤٩١ ـ ٥١٨م) ان اغار بعض قبائل كنده الذين حكموا في نجد على فلسطين ثم صالحهم الامبراطور ٠ وحدث في خضم الخلافات الدينية ان ثار **السامريون** في فلسطين في عام ٤٨٥م٠ وهدموا الكنائس في منطقتهم ٠ ثم عادوا الى الثورة في عهد **جوستنيان** عام ٥٢٩م٠ فحرقوا الاديرة وقتلوا الرهبان والاساقفة احتجاجا على قرارات اصدرها الامبراطور منعتهم من بناء معابد ٠ وقد اخمد هذه الثورة **الحارث الثاني الغساني** بعد ان هلك فيها الاف من الرجال والنساء ٠ وعانت فلسطين في عهد جوستنيان من زلازل وقعت فيها كان اعظمها زلزال عام ٥٥١ م٠ كما بدأت في ذلك العهد محاولات **السلالـة الساسانية** في فارس احتلال سورية وفلسطين ٠ وقد نجح **بليساريوس** قائـد جوستنيان في صد الهجوم الاول (٥٢٧ ـ ٥٣٢) ٠ وعاد الفرس للظهور مرة

اخرى عام ٥٤٠م٠ في عهد كسرى الاول انوشروان ونجحوا في احتلال انطاكية ثم عقدت هدنة عام ٥٤٢م٠ تجددت عدة مرات حتى وقع جوستنيان معاهدة مع الفرس عام ٥٦٢م ٠مدتها خمسون سنة التزم فيها بدفع جزية لملك الفرس ٠

وزحف الفرس على فلسطين في عهد **الامبراطور هرقل** حين هجمت جيوش **كسرى ابرديز (الظافر)** على سوريا عام ٦١٣م٠ ثم احتلت قيسارية فالقدس عام ٦١٤م٠ **وقد انضم يهود فلسطين الى جيش الفرس وقاتلوا معه** ٠ واشعلت النار في كنيسة القيامة ، ونقل الصليب الى فارس ، وهدمت الاديرة والكنائس ونهبت المدن ونكل بسكانها ٠ **وتتحدث الكتب اليهودية عن سيطرة اليهود على القدس لمدة ثلاث سنوات وعن الانتقام من المسيحيين والتحضير لاعادة بناء الهيكل ، ثم تتحدث عما تسميه خيانة الفرس لليهود حيث لم يلبث الفاتحون ان ساروا بأهل البلاد ـ وجلهم من المسيحيين ـ سيرة حميدة ٠ وعينوا اسقفا ليحكم القدس وامروا بطرد اليهود منها ٠**

ولم يطل حكم الفرس لفلسطين هذه المرة اكثر من اربعة عشر عاما ، اذ استطاع هرقل ان يجمع قواه ويطردهم منها ومن سورية عموما وينتصر على الجيش الفارسي في معركة فاصلة عند نينوى عام ٦٢٧م٠ ويستعيد الصليب ويرفعه في القدس يوم ١٤ ايلول (سبتمبر) ٦٢٨م٠ وقد اصبح ذلك التاريخ عيدا يحتفل به كل عام اهل البلاد من المسيحيين ٠ **وتشير المصادر اليهودية الى انتقام هرقل من اليهود والعقاب الذي انزله بهم ، والى ان عددا منهم دخل في المسيحية بينما اعتزل اخرون لينضموا بعد ذلك لجيوش الفتح العربي الاسلامي ٠**

ولا بد ان نشير ونحن نعرض لهذه الاحداث الى الدور الذي قام به **العرب الغساسنة فيها** ، بعد ان قدموا من اليمن واستقروا في منطقة حوران على اطراف فلسطين منذ القرن الثاني الميلادي ٠ فقد تنصروا في القرن الرابع وساهموا في الحرب ضد الفرس وفي اخماد ثورة السامريين ٠ واعتنقوا المذهب اليعقوبي وتمسكوا به فكان ذلك سببا في تحول الاباطرة ـ الذين اختاروا مذهبا اخر ـ عنهم ٠ وقد تجزأت مملكتهم قبل الفتح العربي الاسلامي ٠

ونشير ايضا الى ان **مسيحيي فلسطين والمنطقة عانوا في اوائل القرن السابع من انشقاق ديني جديد ، حين سعى الامبراطور هرقل لانهاء الانشقاق الذي كان قائما قبله بين النساطرة واليعاقبة واقترح تسوية زادت الطين بلة وادت الى انشقاق جديد** ، وقد قام **سرجيوس بطريرك القسطنطينية** ـ وهو سوري من اسرة يعقوبية ـ باستنباط هذه التسوية التي تقول بفكرة «**المشيئة الواحدة** »

للمسيح وهي المشيئة الالهية · ولم يرض مسيحيو فلسطين وسورية باعتناق هذا المذهب « **الملكاني** » الجديد ، وتشبثوا بكنيستهم ·(٨)

ولم يطل حكم هرقل لفلسطين بعد ان طرد الفرس منها ، اذ ما اسرع ان وصلت طلائع الفتح العربي الاسلامي اطراف فلسطين عام ٦٣٤م· واستكمل العرب المسلمون تحريرها وتحرير بقية سورية عام ٦٤٠م وطردوا البيزنطيين منها · وقبل ان نعرض بالحديث لهذا الحدث العظيم الذي غير وجه المنطقة عموما ، وشايع ما جرع من احداث بعده ، لا بد لنا ان نقف عند نهاية الحكم البيزنطي لفلسطين التي كانت ايضا نهاية القسم الاول من تاريخها لنستخلص مما عرضناه حقائق محددة ·

★ **كانت فلسطين مع نهاية الحكم البيزنطي قد اصبحت مسيحية في معظم سكانها ، بعد ان تحول غالبية اليهود من شعب فلسطين الى المسيحية ، واعتنق الدين الجديد من كان وثنيا** ·

وقد عانت فلسطين من تعصب بعض الحكام ، ومن محاولاتهم فرض عقائدهم على شعبها · **الامر الذي حدا بالناس ان يزدادوا تمسكا بعقائدهم ، ويلاحظ انهم في الحكم البيزنطي كانوا ينظرون الى كنيستهم ليس على انها مؤسسة دينية فحسب بل ومؤسسة قومية يعبر التمسك بها عن عاطفة قومية مكبوتة** ·

★ **كان تاريخ فلسطين في مراحله المتصلة خلال هذا القسم جزءا من تاريخ سورية والمنطقة بصورة عامة · ولم يحدث في اية مرحلة ان انفصل عنه** · وكانت الحضارة في فلسطين جزءا من حضارة المنطقة ·

★ ظهرت ملامح شعب فلسطين منذ اقدم العصور ، وبقيت هذه الملامح ظاهرة في مراحل تاريخه المتتالية · واندمج في هذا الشعب جماعات من شعوب مرت بفلسطين فصبغت بصبغته وتمثلت حضارته واسهمت فيها · وكانت فلسطين خلال هذه الفترات كنعانية الطابع والحضارة · وقد تكلم شعبها في غالبيته اللغة الكنعانية ثم اللغة الارامية واللغة العربية ، كما تكلم احبار اليهود منهم **اللغة العبرية** · وجميعها لغات « سامية » تعود للغة ام واحدة هي اقرب ما تكون الى العربية الفصحى ·(٩)

★**كان بين شعب فلسطين منذ اقدم العصور قبائل عربية وثيقة الصلة بجزيرة العرب ، فضلا عن الكنعانيين والعموريين والاراميين الذين جاؤوها من هناك· وتردد اسم « العرب » في تاريخها عبر مراحله · واوضح ان فلسطين كجزء من الهلال الخصيب مثلت مركز جذب بالنسبة لجزيرة العرب التي كانت مركز طرد** ·

★ اعتنق العبرانيون الدين اليهودي ، وادخل في هذا الدين ايضا جزء

اخر من شعب فلسطين لفترة من الزمن · وتحول اكثر هؤلاء وهؤلاء مع بقية شعب فلسطين الى الدين المسيحي في العهد البيزنطي · وبرزت في اوساط يهود فلسطين ومسيحييها مجموعات غالت في تعصبها لمعتقداتها · **وكان هذا التعصب يعم في « شره » الجميع ولا يختص باليهود وحدهم ·**

★ تمسك شعب فلسطين بطابعه وبلغته وبأديانه « السامية » طوال العهود التي حكمه فيها « الاجانب » من فرس ويونان وروما وبيزنطيين · ولم يعرف هذا الشعب والسوريون عموما ـ كما يقول حتي ـ «انهم فقدوا طابعهم القومي او اضاعوا لغتهم الاهلية او اهملوا دينهم السامي ، او سلكوا مخلصين المنهج اليوناني الروماني في الحياة · فالحضارة الهلينية لم تكن يوما اكثر من طلاء خارجي ، ولم تؤثر في غير النخبة من اهل المدن · **اما سواد السكان فقد كانوا يعتبرون الحكام غرباء عنهم** · واستفحل هذا الجفاء بين الحاكم والمحكوم بداعي سوء الحكم وفداحة الضرائب ·وغالب الظن ان السوريين من ابناء القرن السابع اعتبروا العرب المسلمين اقرب اليهم عنصرا ولغة ، وربما دينا ايضا ، من اسيادهم البيزنطيين المقوتين » (١٠) ·

الهوامش

(١) انظر حتي الفصل الحادي والعشرون ·

(٢) انظر الدباغ ص ٦٢٣ من الجزء الاول ·

Mommsen , History of Rome (Newyork, 1894) .

(٣) انظر عن المسيحية وتاريخها اسد رستم : الروم وصلاتهم بالعرب ؟ ص ٤ دار المكشوف بيروت ·

(٤) لاخذ فكرة عما تضمنته المصادر اليهودية ، واسلوبها في معالجة احداث هذه الفترة وتاريخ فلسطين بصورة عامة يراجع ·

Ben Gurion, The Jews in Thier Land .

A wind Fall Book (Newyork 1975)

(٥) باركوخبا تعبير ارامي يعني ابن الكوكب · وقد دعاه اليهود بعد هزيمة باركوزيبا اي « ابن الكوكب » انظر حتي ص ٣٧٧ ج ١ ·

(٦) انظر حتي الفصل السابع والعشرون ·

(٧) اسد رستم الروم/

Bury , History , of Later Roman Empire .

(٨) اسد رستم الروم ص ٢٣٠ ·

J . Parker , A history of Palestine From 135 a . d . to Modern Times (London) 1949.

(٩) بروكلمان تاريخ الشعوب الاسلامية ص ١٥ دار العلم للملايين ·

(١٠) حتي ج٢ ص ١٤ مصدر سبق ذكره ·

وديـــع حـــداد

في المسافة الطويلة التي قطعها وديع حداد بين صفد والشهادة ، كانت فلسطين تتوجع في عيون الذين اجبروا على الهجرة، فصارت هجرة الفلسطيني من وطنه ، اشارة الى هجرة كل العرب من ذاتهم · لذلك كانت المسافة بين صفد وفلسطين طويلة ، لانها تمر بكل السجون العربية ، وتتداخل مع التمنيات وبيوت الصفيح والتظاهرات الدموية ·

منذ سنة ١٩٢٨ ، وفلسطين لا تسمح باستقرار الغزاة ·· اجيال من المناضلين ولدوا وماتوا والثورة بين مد وجزر · ومنذ الهزيمة الاولى ، كانت ايدي المناضلين المرتفعة تحاول ان تمنع تحول هزيمة الطبقات الحاكمة الى هزيمة للامـــة · كانوا باصرارهم وسريتهم يبشرون بالشهادة العلنية وبالبندقية العلنية ، وبانتصار الامة ·

ربما كان وديع حداد اكثر قادة الشعب الفلسطيني غموضا وسرية · لكن ، وفي سماء العالم التي استطاع الفلسطيني ان يخطفها ، ويهز الامن الدولي الكاذب القائم على جثث الشعوب ، كانت سرية وديع حداد تنتقل الى علنية التحدي ·

منذ الطائرة الاسرائيلية الاولى التي اجبرت على الهبوط الى اخر طائرة ، كان استقرار الاحتلال يهتز على ايقاع الدم · فوديع حداد ورفاقه ، عرفوا كيف يحولون سرية النضال الفلسطيني وغموض الارض المليئة بالاسرار الى علنية شاملة ، تلتقي بالبنادق التي حملتها الالاف من جماهير المخيمات والاحياء الفقيرة ، لتطلق عبرها صرخة الولادة التي انتشرت من البحر الى الصحراء ، فالعرب لم تستسلم ، والعدو الذي صوروه اسطوريا ولا يهزم، هو ككل الاعداء ، معرض للهزائم وحتمي الهزيمة ·

من حركة القوميين العرب الى الجبهة الشعبية ، ومن الجفر الى النضال السري ، ومن بدايات متواضعة على طريق الكفاح المسلح الى السماء كانت الرحلة طويلة · وحول هذه المسيرة انقسمت الاراء وتعددت · حيث فقدت العمليات الخارجية عند الكثيرين اهدافها ، ولم تعد تتلاءم مع جماهيرية الثورة ، وكسرها لعزلة البداية ، عبر انخراطها داخل بحر الجماهير ··

لكن وديع حداد بقي في اصراره ، وكأنه يحلم بوطن لا حدود له · يمد فلسطين الى كل حركات الثورة والرفض في العالم ، ويعلن قانونا اخر للعدالة والشرعية ·

سيبقى وديع حداد ، الى جانب شهدائنا الذين سقطوا على درب فلسطين الطويل ، علامة بارزة لمرحلة من نضالنا · هو جزء من تاريخ شعب جرحته الهجرات والسجون ، ولم ينحن ولم ينكسر ·

« شؤون فلسطينية »

تقارير

قضايا الهجرة اليهودية

التناقض بين مصالح الصهيونية ومصالح اليهود

تدعي الحركة الصهيونية انها قامت لتخليص اليهود من اضطهاد الدول التي يعيشون فيها عن طريق جمعهم في دولة يهودية مستقلة · وكانت هذه « الغاية » مبررا لكل الجرائم التي ارتكبتها على ارض فلسطين ، وما زالت ترتكبها ضد الشعب الفلسطيني والامة العربية ·

هذا المبرر يتحطم عندما يرفض المهاجرون اليهود الذهاب الى اسرائيل والعيش فيها رغم كل الاغراءات والضغوط · ويفضلون العيش في دول اخرى كالولايات المتحدة الاميركية وكندا واستراليا ، بل ويعلنون انهم يفضلون الموت جوعا في النمسا ، فيما اذا حرموا تأشيرات الدخول الى تلك الدول ، على ان يتوجهوا الى اسرائيل · وسقوط هذا المبرر يتأكد اكثر ، عندما نعلم ان اسرائيل والمنظمات الصهيونية العالمية ، ترفض تقديم اية مساعدة لهؤلاء اليهود المحتاجين ، فيما اذا اصروا على عدم التوجه الى اسرائيل رغم ان اسرائيل والصهيونية العالمية تملأ الدنيا ضجيجا حول « اضطهاد » اليهود في الاتحاد السوفييتي وتطالب بالسماح لهم بمغادرة الاراضي السوفييتية ، مدعية بذلك ان كل ما تهدف اليه هو « تخليصهم » وضمان حقوقهم· وحين يغادر الالاف منهم الاتحاد السوفييتي ويتعرضون للجوع والبؤس وفقدان المأوى والعمل في النمسا وايطاليا، ترفض حتى المنظمات الصهيونية « الخيرية » ، التي تحمل اسماء « نجدة » اليهود وخاصة « اللاجئين » منهم بالتعاون مع اسرائيل ، ترفض تقديم اية مساعدة لهم ، لانهم يرفضون العيش في اسرائيل·

واذا اضفنا الى هذه الظاهرة ، ظاهرة النزوح المتزايد من اسرائيل الى دول الغرب نرى ان اهم مبرر ، ليس فقط لممارسات الحركة الصهيونية ، بل لمجرد وجودها كحركة من اجل اليهود ، قد سقط · بل اننا نتوصل الى نتيجة خطيرة وهي ان الحركة الصهيونية لا تعامل اليهودي كغاية بل كوسيلة · وهذه الظاهرة تعد بداية من اجل كشف التناقض بين مصالح الصهيونية ومصالح اليهود في العالم ·

يهاجرون ··· ولكن ليس الى اسرائيل ·

يظهر مما نشرته الصحف الاميركية والصحف الاسرائيلية منذ بداية عام

١٩٧٦ ، ان معدل الهجرة السنوية الشاملة الى اسرائيل انخفض في السنوات الثلاث الاخيرة بنسبة ٥٠ بالمئة ٠ وان نسبة المهاجرين اليهود من الإتحاد السوفييتي الذين يرفضون مواصلة السفر الى اسرائيل بعد توقفهم في اوروبا ارتفعت في عام ١٩٧٦ الى ٦٠ بالمئة ٠

وقد علقت احدى الصحف اليهودية الصادرة في نيويورك على موضوع رفض المهاجرين السوفييت التوجه الى اسرائيل بقولها : « **لم يحدث في السابق ان تعارضت مصالح يهود « الدياسبورا » [الشتات او المهجر] مع مصالح اسرائيل كما هو حاصل الان ٠ فمهمة تخليص يهود روسيا مهددة الان بالتخريب من قبل الدولة التي كان عليها ان تناضل بقوة من اجل حقوقهم [اسرائيل] ٠٠٠** » (١)

وحسب معلومات الصحيفة المذكورة غادر الاتحاد السوفيتي منذ عام ١٩٦٨ حتى عام ١٩٧٦ : ١٢٥ر٠٠٠ يهودي ٠ ذهب من بين هؤلاء الى اسرائيل ١١١ر٠٠٠ يهودي اي نسبة ٩٠ بالمئة ٠ وفقط ٦٠٠٠ شخص من هؤلاء المهاجرين غادروا اسرائيل الى دول اخرى اي : نسبة ٦ بالمئة فقط ٠ ولكن منذ بداية عام ١٩٧٦ ارتفع عدد اليهود القادمين الى فيينا من الاتحاد السوفييتي من المهاجرين اليهود ، والذين يرفضون التوجه الى اسرائيل الى نسبة ٥٠٪ ٠

وقد صرح الدكتور ناحوم غولدمان رئيس المجلس اليهودي العالمي ، في نيسان (ابريل) ١٩٧٦ حسب احصاءات حصل عليها من فيينا ان ٦٠ بالمئة من اليهود الحاصلين على تأشيرة خروج من الاتحاد السوفياتي يتوجهون الى دول اخرى غير اسرائيل ، واضاف ان ثلثي الخارجين من الاتحاد السوفيتي والذين منحوا تأشيرة الخروج بهدف الهجرة الى اسرائيل ، يتوقفون في النمسا في انتظار تأشيرات دخول الى الولايات المتحدة وكندا واستراليا ٠ (٢)

وافاد احد التقارير المقدمة الى الكنيست في الفترة نفسها من العام الماضي ، ان واحدا فقط من بين كل ثلاثة يهود يغادرون الاتحاد السوفيتي ، يصل الى اسرائيل (٣) ٠

واكدت تقارير الصحف الاميركية ان ظاهرة رفض مواصلة السفر الى اسرائيل من قبل المهاجرين اليهود في الاتحاد السوفييتي تتصاعد باستمرار منذ عام ١٩٧٣ ، فحسب تقرير نشرته صحيفة (لوس انجلس تايمز) ، كانت نسبة رافضي مواصلة السفر الى اسرائيل في عام ١٩٧٢ : واحد بالمئة فقط ، وارتفعت في عام ١٩٧٣ الى نسبة ٤ر٥ بالمئة ، بينما ارتفعت هذه النسبة في عام ١٩٧٤ الى ١٨ر٧ بالمئة ٠ وفي عام ١٩٧٥ وصلت الى نسبة ٣٧ بالمئة وقفزت في عام ١٩٧٦ الى نسبة ٥٠ بالمئة ٠ (٤)

وذكرت صحيفة اميركية اخرى ان نسبه « المتخلفين » عن الهجرة من الاتحاد السوفيتي الى اسرائيل قفزت في نيسان (ابريل) ١٩٧٦ الى رقم قياسي جديد هو : ٦٠ بالمئة ، واضافت هذه الصحيفة ان عدد المهاجرين من الاتحاد السوفيتي في عام ١٩٧٥ والذين كانوا يحملون تأشيرات خروج الى اسرائيل بلغ ١٥ر٠٠٠ مهاجر ٠ وان ثلث هؤلاء لم يواصلوا السفر الى اسرائيل ، بل توجه معظمهم الى الولايات المتحدة وغيرها من دول الغرب (٥) ٠

ان هذه الارقام التي نشرتها الصحافة

الاميركية اكدتها تصريحات بعض المسؤولين الاسرائيليين · فقد صرح يوسف الموجي رئيس الوكالة اليهودية في كانون اول / ديسمبر ١٩٧٦ / ان ٥٥ بالمئة من المهاجرين السوفيت الذين حصلوا على تأشيرات خروج الى اسرائيل لم يصلوا اليها · (٦)

واعترف موشي ديان في مقابلة مع التلفزيون النمساوي في بداية عام ١٩٧٧ بحقيقة رفض اليهود الهجرة الى اسرائيل، وقال تعليقا على ذلك : « ان مؤسسي دولة اسرائيل اعتقدوا ، ان معظم يهود العالم سينضمون اليهم ، ولكننا الان لا نملك سوى ثلاثة ملايين يهودي في بلادنا ، وهذا العدد يساوي عدد اليهود في مدينة نيويورك وحدها ·· » (٧)

هجرة ··· ام رحلة عذاب ؟!

قدر الكسندر جالبرن ، وهو نشيط في شؤون الهجرة ، وهاجر هو نفسه من الاتحاد السوفياتي منذ ثلاث سنوات ، قدر عدد المواطنين اليهود في الاتحاد السوفيتي في اخر عام ١٩٧٦ بمليون ونصف المليون مواطن · وحسب تقديراته يرغب فقط ٢٠ر٠٠٠ ـ ٦٠ر٠٠٠ من هؤلاء اليهود بمغادرة الاتحاد السوفيتي · وقال ايضا ان السلطات السوفيتية سمحت ل ١٤٧ر٠٠٠ يهودي بمغادرة الاتحاد السوفيتي منذ عام ١٩٦١ حتى اخر عام ١٩٧٦ · وان ١١٧ر٠٠٠ شخص من بين هؤلاء هاجروا الى اسرائيل واما الباقون فقد توجهوا الى دول اخرى قبل كندا والولايات المتحدة ونيوزيلندا · (٨)

ان السنوات التي اعقبت حرب ١٩٦٧، والتي شهد الاقتصاد الاسرائيلي انتعاشا ملحوظا خلالها ، سجلت اكبر عدد من المهاجرين اليهود من الاتحاد السوفيتي الى اسرائيل · ومع ذلك لم تخل تقارير الصحافة الاسرائيلية خلال تلك الفترة من المصاعب التي لاقاها هؤلاء ، وتحدثت عن صعوبة تأقلمهم في المجتمع الاسرائيلي ، ومن مغادرة اعداد منهم الى دول اخرى بدون اعطاء ارقام دقيقة عن ذلك ·

وفي اعقاب حرب اكتوبر ١٩٧٣ وما تلاها من هزات عنيفة اصابت الاقتصاد الاسرائيلي والتي ما زال يعاني منها بشدة حتى الان ، زاد الحديث عن خيبة امل المهاجرين السوفييت وغيرهم من العيش في إسرائيل ، وعن تزايد اعداد العائدين منها الى بلدان اخرى في العالم وخاصة الى الغرب ·

لقد شكلت خيبة الامل هذه ، عاملا اساسيا ، في رفض اليهود السوفييت التوجه الى اسرائيل بعد خروجهم من بلادهم ·

والمعروف ان المهاجرين اليهود الراغبين بالهجرة من الاتحاد السوفيتي يحصلون على تأشيرة خروج الى اسرائيل ، تحت بند « توحيد العلاقات » · وحسب بعض الصحف الاميركية اصبح سرا معروفا ان اسرائيل عمدت خلال السنوات الماضية الى اختلاق اسماء لاقارب وهميين في اسرائيل وزودت بها طالبي الهجرة من اليهود السوفييت لكي يحصلوا على تأشيرات الخروج بالاحتيال على القوانين السوفيتية · (٩) ان هذه الحالة تربك اسرائيل مرتين : مرة لانكشاف دورها في اتباع اسلوب التزوير من اجل جلب المزيد من اليهود ، وما قد يعكسه ذلك من تأثير على سياسة السلطات السوفيتية في

هذا الموضوع · ومرة اخرى لان اسرائيل تنكشف بوصفها لم تعد مكان جـــذب لليهود الراغبين بالهجرة ·

ومما يزيد في احراج اسرائيل والحركة الصهيونية ، ان هـــؤلاء المهاجريـــن السوفييت الرافضين للتوجه الى اسرائيل والمقيمين في اوروبا في انتظار تأشيرات دخول الى بلدان اخرى ، بدأوا يشكلـون مأساة انسانية ، واصبحوا يستصرخـون ضمير العالم لنجدتهم بعد ان رفضـــت اسرائيل والحركة الصهيونية مد يد العون لهم ، فقط لانهم يرفضون العيش فـــي « ارض الميعاد » ·

لقد وصفت الصحف الاميركية المأسي التي يعيشها هؤلاء في فيينا بالنمسا ، وفي ايطاليا · فذكرت صحيفة النيويورك تايمز ان الالاف من هؤلاء يعيشون حياة بؤس في بيوت حقيرة ومنذ اكثر من عاميـــن لا يجدون ما يعيشون منه سوى احسان الكنيسة الكاثوليكية ، وهم ينتـظرون تأشيرة دخول الى الولايات المتحدة (١٠)·

واذا كانت حياة المهاجرين اليهـــود الذين يرفضون السفر الى اسرائيـــل بلغت هذا الحد من البؤس ، فان المهاجرين الذين وصلوا الى اسرائيل ثم غادروهـا الى اوروبا في انتظار تأشيرة دخـــول الى بلدان اخرى ، يعانون ظروفا اقسى · فهؤلاء بمجرد وصولهم الى اسرائيـــل منحوا بموجب « قانون العودة » العنصري جوازات سفر اسرائيلية وحرموا بذلك من وضعهم كلاجئين مما يحرمهم بالتالي من تأشيرات الدخول الى الدول التي تمنـح مثل هذه التأشيرات للاجئين · وحرموا من مساعدة بعض الهيئات الدولية التـي انشئت لمساعدة اللاجئين ·

وفي اواخر عام ١٩٧٦ قام حوالـــي ٣٠٠ شخص من اليهود ، الذين هاجـــروا من الاتحاد السوفيتي الى اسرائيل ، ثـم غادروها الى ايطاليا بمظاهرة ، ودعـوا اخوانهم المقيمين في الاتحاد السوفيتـي الى عدم الاقتداء بهم ، لانهم خدعـــوا بواسطة الدعاية الصهيونية ثم « لعنـــوا اليوم » الذي غادروا فيه وطنهم ، الاتحاد السوفيتي ، بعد أن وجدوا ان الحياة في اسرائيل لا تحتمل · كما اعلـــن هؤلاء انهم لا يستطيعون العودة الى الاتحـــاد السوفيتي ، لانهم منحوا تأشيرات الخروج بعد ان تخلوا عن جنسيتهم السوفيتية ، بينمـا ترفـــض المنظمـــات الصهيونيـة مساعدتهم وترفض سفارات الدول القريبة منحهم التأشيرات · ويقول لهـــم وكلاء المنظمات الصهيونية وموظفو سفـــارات الدول الغربية : « **اما ان تعودوا الـــى اسرائيل واما ان تموتوا جوعا ···**» (١١)

وفي منتصف عام ١٩٧٦ اعلن ثلاثون من هؤلاء الاضراب عن الطعام في بلدة اوستيا Ostia بالقرب من رومـا مطالبين بتأشيرات دخول الى الولايـــات المتحدة ، واعلنوا انهم يفضلون المـــوت جوعا على العودة الى اسرائيل (١٢) ·

وفي شباط (فبراير) ١٩٧٦ عقد سبعة يهود عادوا من اسرائيل الى موسكـــو مؤتمرا صحفيا هناك ، وتحدثوا عن خيبـة املهم من العيش في اسرائيل واعلنـــوا ان « البؤس الذي سببته الصهيونية لليهود يفوق البؤس الذي سببته لهم الفاشية» (١٣)

خلاف صهيوني – يهودي

وضعت الحكومة الاسرائيلية مشـــروع خطـة توقفت بموجبـه كل المساعدات عـن اليهود المهاجرين من الاتحاد السوفييتي

والذين يرفضون العيش في اسرائيل · ومن جهة اخرى اعلن ان الوكالة اليهودية تنوي الطلب الى كل يهودي يطلب تأشيرة خروج من الاتحاد السوفييتي ان يتعهد خطيا انه ينوي الاستيطان في اسرائيل (١٤) · وهذه الخطط اثارت خلافات في الرأي بين اليهود سواءا في اسرائيل او في الولايات المتحدة · لقد عارضت بعض الصحف الاسرائيلية هذه الخطط ليس حرصا على مساعدة هؤلاء المهاجرين بل خوفا من احتمال توجههم لطلب المساعدة من منظمات غير يهودية (١٥) ·

وفضح اريه دولتسين المسؤول المالي في الوكالة اليهودية الموقف الصهيوني من اليهود في العالم عندما قال : « **ان النضال لتخليص اليهود من الاتحاد السوفييتي كان قائما على اساس عودتهم الى وطنهم ، انه ليس نضالا ضد الحكم السوفييتي وليس محاولة لجعل اليهود يهربون الى اي مكان** » (١٦) ·

ان القادة الصهاينة واريه دولتسين واحد منهم يدعون ان اليهود في الاتحاد السوفييتي يعانون من الاضطهاد ويحرمون من حقوق الانسان · وانهم ينظمون المظاهرات الصاخبة في المدن الاميركية ، ويدفعون بالمتطرفين اليهود الى الاعتداء على الدبلوماسيين السوفييت والى تلطيخ جدران مقرات البعثات السوفياتية بلون الدم « احتجاجا » على معاملة اليهود السوفييت · ولكن اذا رفض هؤلاء «الضحايا» العيش في اسرائيل فلا بأس بالنسبة لدولتسين وغيره من ان يبقوا في « الجحيم » السوفياتي !

ويعارض رأي دولتسين هذا ، الدكتور يونتان فرانكل ، الاستاذ في الجامعة العبرية ، لانه في رأيه « **اذا لم تعمل اسرائيل بمبدأ تخليص اليهود اينما كانوا ، فان الصهيونية ستظهر على انها كما قال عنها اعداؤها دائما : لا تعامل الفرد اليهودي كغاية بل تعامله كوسيلة** » (١٧)

لقد عكست مسألة المهاجرين اليهود خلافا بين اسرائيل من جهة والجاليات اليهودية الاميركية من جهة اخرى · فذكرت احدى المجلات الاميركية (١٨) ان الاسرائيليين ، ومن بينهم اعضاء في البرلمان الاسرائيلي ، يتهمون منظمة « هياس » (١٩) الاميركية ، بانها تساعد على عدم وصول المهاجرين من الاتحاد السوفياتي الى اسرائيل عن طريق تقديم المساعدات لهم بعد توقفهم في النمسا او نزوحهم من اسرائيل الى اوروبا ، وهم لذلك يطلبون اغلاق مكاتب المنظمة في اوروبا · وذكرت صحيفة اميركية اخرى(٢٠) ان ازمة كادت تقع بين اسرائيل ومنظمتين يهوديتين اميركيتين هما «هياس» و«جوينت» حول مساعدة او عدم مساعدة المهاجرين اليهود من الاتحاد السوفياتي ، والذين يعدلون عن السفر الى اسرائيل بعد خروجهم من الاتحاد السوفياتي · ونشرت الصحيفة تعليقا لاحد مسؤولي الهجرة في اسرائيل حول ظاهرة تفضيل المهاجرين من اصل يهودي لدول اخرى بدلا من اسرائيل · فقد برر هذه الظاهرة بقوله : « نحن لا نستطيع التنافس مع الدول الاخرى حول المنافع التي تقدمها · ولكننا نعطي ما هو اكثر من المال · اننا نعطي اليهود ليس فقط وطنا ولكننا نعطي ايضا امكانية العيش حياة يهودية كاملة · وهذا ما لا تستطيع ان تقدمه اية دولة اخرى » · (٢١)

واكدت صحيفة « الواشنطن بوست » هذا الخلاف عندما نشرت (في ١٠-١١-١٩٧٦) : « منذ شهور تقود حكومة اسرائيل حملة هدفها دفع يهود الولايات

المتحدة الى قطع المساعدات عن اليهود المهاجرين من الاتحاد السوفيتي ، والذين لا يريدون الاستيطان في اسرائيل · وهذه الحملة عورضت من قبل يهود اميركا ···»

اما اشد نقد لاسرائيل والمنظمات الصهيونية بسبب موقفها من المهاجرين اليهود ، فقد وجهته منظمتان يهوديتان في الولايات المتحدة هما « ناطوري كارتا » (« حراس القدس ») و «جمعية راف توف » · فالمنظمة الاولى نشرت اعلانا في بعض الصحف الاميركية استصرخت ضمير العالم لمساعدة الاف المهاجرين اليهود الذين حرموا من اي مكان يلجأون اليه ، فقط لانهم يرفضون العيش في اسرائيل ، ولان اسرائيل تمنع المنظمات الخيرية اليهودية من مساعدتهم· واضاف اعلان هذه المنظمة : « **هذه ليست اول مرة تضع فيها سياسة الهجرة الصهيونية حياة اليهود في خطر** » (٢٢) **وسجل الاعلان قائمة طويلة معززة بالتواريخ والارقام تثبت ان سياسة الصهيونية تجاه هجرة اليهود عرضت مئات الالاف منهم الى المخاطر والهلاك وقدمتهم ضحية على مذبح الاهداف الصهيونية اللاانسانية** ·

اما لجنة « راف توف » فقد عقد رئيسها الحاخام حاييم ستوبر مؤتمرا صحفيا في نيويورك بتاريخ ٣-٦-٧٦ واعلن ان مجموعة من المهاجرين اليهود اضربوا عن الطعام في ايطاليا لانهم يرفضون العيش في اسرائيل ويطالبون بتأشيرات دخول الى الولايات المتحدة · واتهم اسرائيل والمنظمات الصهيونية التي تجمع ملايين الدولارات بحجة مساعدة يهود الاتحاد السوفيتي بانها هي المسؤولة عن مأساة هؤلاء المهاجرين « باتباعها هذه السياسة الخاطئة » (٢٣) ·

كما ان المنظمة المذكورة نشرت اعلانا في الصحف الاميركية موجها الى الجاليات اليهودية تستصرخها فيه مساعدة المهاجرين اليهود المتوقفين في اوروبا · والذين يقبعون بلا مأوى او عمل · واضاف الاعلان : « **ان المنظمات الخيرية القائمة والقادرة على مساعدة هؤلاء اللاجئين اليهود لا تفعل ذلك لسبب بسيط ، وهو ان هؤلاء لا يرغبون بالعيش في اسرائيل** » · (٢٤)

نزوح مستمر

في الوقت الذي انخفضت فيه معدلات الهجرة الى اسرائيل ارتفعت معدلات نزوح الاسرائيليين منها · وتفيد المصادر الاسرائيلية ان النزوح بلغ حدا قياسيا عام ١٩٧٦ حيث وصل عدد المهاجرين من اسرائيل الى ١٧ الف مهاجر ·

ان النزوح ليس ظاهرة جديدة بالنسبة لاسرائيل ولكن الملفت للنظر ان هذه الظاهرة تتصاعد مع مرور السنين · فاذا اخذنا الخمس سنوات الاولى من عمر اسرائيل نجد ان ٤١ الف مهاجر نزحوا منها حسب الجدول التالي (٢٥) :

في عام ١٩٤٨ نزح : ١٠٠٠ يهودي
١٩٤٩ نزح : ٧ الاف
١٩٥٠ نزح : ١٠ الاف
١٩٥١ نزح : ١٠ الاف
١٩٥٢ نزح : ١٣ الف

من الصعب الحصول على ارقام دقيقة حول معدلات النزوح التي اعقبت تلك الفترة ولكن الخط العام هو التصاعد في النزوح · وهناك ظاهرة اخرى يجب الالتفات اليها في مسألة الهجرة الى اسرائيل وهذه الظاهرة يمكن النظر اليها من النواحي التالية :

١ ـ في الاعوام التي سبقت قيام الدولة تراوحت معدلات الهجرة اليهودية الى فلسطين بين ٢٠٠٠ مهاجر عام ١٩١٩ و ٢٢ الفا عام ١٩٤٧ ٠
وبلغت رقما قياسيا سنة ١٩٣٥ (٦٦ الف مهاجر) ٠

٢ ـ منذ قيام اسرائيل حتى عام ١٩٧٢ كان الحد الادنى من الهجرة السنوية في عام ١٩٥٣ (١١ الفا) والحد الاقصى عام ١٩٤٩ (٢٣٩ الفا) ٠

٣ ـ منذ بدء الهجرة اليهودية الى فلسطين عام ١٨٨٢ حتى عام ١٩٧٢ هناك ست سنوات فقط بلغت فيها الهجرة الى فلسطين ٥٠ الفا في العام الواحد وهي السنوات ١٩٥٦ ، ١٩٥٧ ، ١٩٦٣ ، ١٩٦٤ ، ١٩٧٢

٤ ـ خلال تاريخ الهجرة اليهودية الى فلسطين هناك اربع سنوات فقط زادت فيها الهجرة على ١٠٠ الف وهذه السنوات هي ١٩٤٨ ، ١٩٤٩ ، ١٩٥٠ ، ١٩٥١ ٠ والمعروف ان فترة الـ ٤ سنوات هذه هي الفترة التي هاجر فيها اكثر من نصف مليون يهودي من الدول العربية الى فلسطين ٠ والمعروف ايضا ان يهود الطوائف الشرقية يشكلون الان في فلسطين اغلبية السكان ٠ (٢٦)

ان الارقام التي اوردناها اعلاه تترتب عليها الملاحظات العامة التالية :

١ ـ لا بد ان القائمين على المشروع الصهيوني ينظرون بخيبة امل الى ما افلحوا في جمعه من يهود العالم في فلسطين خلال قرن من الزمن ٠

٢ ـ لا تدل حركة هجرة اليهود من والى فلسطين خلال الاعوام التي سبقت والتي تلت انشاء « الوطن القومي » لليهود في فلسطين على ان الدافع الاساسي لهجرة اليهود هو ما تدعو اليه الصهيونية من مبادىء « وطنية » و « قومية » او « دينية » او « تاريخية » ٠ بل الدافع الاساسي هو البحث عن ظروف معيشية افضل ٠

٣ ـ الصهيونية نجحت اكثر في جذب اليهود الى فلسطين ليس عندما سعت لتحسين ظروفهم بل عندما استغلت ظروفهم الانسانية خدمة لاهدافها ٠

٤ ـ الهجرة اليهودية الى فلسطين تتصاعد في السنوات التي تعقب حربا عربية ـ اسرائيلية تكون نتائجها قصيرة المدى لصالح اسرائيل ٠ هكذا حدث بعد الاعوام ٤٨ ، ٥٦ ، ٦٧ وقد حدث العكس بعد ١٩٧٣ ٠ والظاهر ان السبب في ذلك هو ما توفره الحرب الناجحة من ظروف اقتصادية ناتجة عن الاحتلال وثقة امنية ناتجة عن النصر العسكري هذا بالاضافة الى ارتفاع المعنويات ٠

٥ ـ مع ان الصهيونية قامت اساسا لاستغلال اوضاع اليهود في اوروبا لخدمة اهداف المشروع الصهيوني في فلسطين فانها نجحت اكثر في تجميع جاليات يهودية عاشت بشكل خاص في المغرب والمشرق العربيين ولم تتعرض لا للاضطهاد اللاسامي ولا للمذابح النازية ٠ اما الجاليات اليهودية الغربية والتي تعرضت للاسامية والنازية فقد فضلت الانتقال الى مجتمعات غربية اخرى ٠

ان كل هذه الحقائق يجب اخذها بعين الاعتبار عندما تطرح اسرائيل موضوع المطالبة بتعويض يهود الدول العربية في مقابل موضوع تعويض الفلسطينيين ٠ فالدول العربية ليست مسؤولة اساسا عن هجرة هؤلاء اليهود الى فلسطين وهي مستعدة لفتح ابوابها لهم من جديد ٠ اما

الحركة الصهيونية فهي المسؤولة الاساسية عن هجرتهم وكل ما ترتب عليها ٠

والاهم من ذلك ، كيف تستطيع الصهيونية واسرائيل التحدث باسم اليهود في اي اطار بعد ان انفضح موقفها منهم على مدى الاعوام وليس اخر ذلك المواقف اللاانسانية من اليهود المتوقفين في النمسا وايطاليا ؟ ان الحقائق الدامغة تشير الى ان الصهيونية فشلت في خلق « وطن آمن » لليهود وانها لا تمثل الجاليات اليهودية في العالم وانها تضر بمصالحهم لمجرد الادعاء بانها تمثلهم ٠ واذا كانت مشاكل اليهود في مجتمعات العالم هي مشاكل عنصرية فالواضح ان هذه المشاكل لن تحلها حركة عنصرية ادانتها الامم المتحدة بهذه الصفة ، بل ستحل بواسطة القضاء على العنصرية في العالم وهذا يعني القضاء على الصهيونية التي تدعي تمثيل كل يهود العالم ٠

يوسف حمدان

هوامش

1) Jewish Journal , 10 December , 1975.

2) The New York Post , 4 May 1976.

3) The New York Times , 6 July 1976.

4) Los Angeles Times , 12 July , 1976.

5) Washington Post , 4 May 1976 .

6) هآرتس ـ ٢٤ـ١٢ـ١٩٧٦

7) Action , 17 January , 1977.

8) Washington Post , 12 December , 1976 .

9) Jewish Journal , 30 November , 1976.

10) New York Times , 30 January , 1977.

11) Jewish Journal, 10 December , 1976.

12) The Daily Telegraphe , 4 June , 1976.

13) The New York Times , 13 February , 1976.

14) Sunday News , 13 October 1976.

15) Ibid.

16) The Guardian , 3 October 1976.

17) Ibid.

18) Newsweek , 9 August , 1976.

19) (Hebrew Immigration Aid Society :

وقد اسست عام ١٨٨٥ بهدف مساعدة اللاجئين اليهود)

20) Cristian Science Monitor , September 1976.

21) Ibid.

22) Wall Street Journal , 2 December 1976.

23) The Daily Telegraphe , 4 June 1976.

24) The New York Times , 27 January 1977.

25) Jewish Press, 11 February 1977.

٢٦) الارقام مستقاة من كتاب الاحصاءات الاسرائيلي عام ١٩٧٣

مراجعات

زهير الماردينى ، الف يوم مع الحاج امين

الطبعة الاولى ـ بيروت : دار العرفان ، لا تاريخ

صدر مؤخرا كتاب الاستاذ زهير الماردينى عن حياة الحاج محمد امين الحسيني (١٨٩٧ ـ ١٩٧٤) مفتي القدس ورئيس المجلس الشرعي الاسلامي الاعلى ورئيس اللجنة العربية العليا ، ثم رئيس الهيئة العربية العليا ، وعلى الرغم من عشرات المؤلفات والمقالات التي صدرت عن حياة الزعيم الراحل فما زالت الكتابة عنه تجد قطاعا عريضا من القراء العرب والاجانب ، بعضهم يتتبعها من زاوية الاهتمام المطلق بالقضية الفلسطينية وتاريخ فلسطين ، وبعضهم من زاوية سيرة الرجل الذي كان لحوالي ثلاثين سنة (هي مدة الانتداب البريطاني في فلسطين) شاغلا حكومة الانتداب ووزارة المستعمرات البريطانية والمؤسسات الصهيونية . وبصرف النظر عن اي تقييم تاريخي لسيرة هذا الرجل الزعيم ، لايجابياته وسلبياته ، فالحقيقة انه قد تمكن من ان يجعل من سيرة حياته جزءا لا يمكن التغاضي عنه من تاريخ فلسطين .

انطلاقا مما تقدم ، تفرض علينا الامانة التاريخية ان نتعرض لكتاب الاستاذ الماردينى ككتاب تاريخي ، اكثر منه كتابا مشوقا يروي حياة زعيم سياسي باسلوب صحفي وخاصة ، أن الكتاب قد نشر بعد وفاة المفتي ، فاثار نشره خلافا بين من يقول بان الكتاب تسجيل للاحاديث التي اوردها المفتي للكاتب ـ وهذه هي رواية الكاتب ـ وبين من يقول بان الكتاب في معظمه منقول عن مقالات وكتب صدرت عن حياة المفتي واعماله ـ وهذه هي رواية بعض المقربين من المفتي واقربائه ـ والكاتب نفسه يذكر (ص : ٤ ـ ٥) انه قرأ عشرات الكتب حول سيرة الرجل ، وانه اجتمع بشخصيات سياسية عديدة لعبت ادوارا بارزة في حياة القضية الفلسطينية ، الا انه لا يذكر اسماء هؤلاء ، كما انه لا يقدم للقارىء قائمة بالمراجع والمصادر التي اطلع عليها ، وهذا ما يجعل الاولوية للسؤال التالي : هل الكتاب حقا هو نتاج احاديث للمفتي الراحل مع الكاتب ؟ وليس مهما لدينا ان تكون الاحاديث قد امتدت عبر الف يوم او اكثر او اقل ، اذ ليس هذا هو بالامر المهم ، انما المهم هو مصداقية الاحاديث نفسها .

يروي المؤلف (ص : ٥) باسلوب انشائي وعاطفي ان جهات معينة قد رفضت السماح له بنشر الكتاب حين انتهى من اعداده ، ثم يتضح ان هذه الجهات ما هي الا المفتي نفسه والمقربون منه . ثم يروي الكاتب بعد ذلك كيف استدعاه المفتي مشترطا عليه ان لا يعلم احد بهذه الزيارة من « الملتصقين » به ، فيقول : (ص : ٦) : « وسألني الرجل : هل ما تزال مصرا على اصدار الكتاب ؟ فأجبته « الم تأمروا بدفنه حيا ، فما الذي ذكركم به الان ؟ قال وابتسامته التي لا تفارق وجهه تشارك كلامه : يجب ان تأتيني بعد أيام للابراق الى دار النشر لايقاد من يمثلها لالتقاط الصور التي سبق ان طلبتها .

« واحسست أن الرجل يريد ان يفارقنا ·· لقد تعب من حياته ، وتعب من النضال الطويل القاسي ·· وتعب اكثر فاكثر من هؤلاء الذين يشكلون حوله حزام الضغط ·· فقلت له :

« لقد امضيت مع سماحتكم الف يوم من اجل انجاز الكتاب ·· وفقدت نصف بصري ، فاذا لماذا كان العنوان (الف يوم مع الحاج امين) ؟

« ابتسم الرجل ·· ثم اغفى ، وخرجنا (الكاتب والبرناوي مرافق المفتي الدائم) من غرفة نومه ونحن نغالب دموعنا » ·

وانتقل المفتي الى رحمته تعالى بعد هذا اللقاء بايام قليلة ـ كما يروي الكاتب ـ وكان لقاء سريا جدا لم يدر به احد من المقربين الى المفتي كما يروي ايضا ، وهذا مع العلم انه لا يوجد سبب منطقي يستدعي هذه السرية المطلقة ، فليس هناك احد من « المقربين » هؤلاء من بامكانه ان يعارض سماحته ، ان هو بالفعل وافق على نشر كتاب ما عن سيرة حياته · وقد كان من مصلحة الكاتب اكثر ان يعلن هذا اللقاء في حينه بدلا من الكتمان ·

والاهم من ذلك اللقاء ، انه توجد رسالة (تقديم) في الكتاب بقلم « محمد امين الحسيني » ، كان كتب في اعلاها ، ويتضح في التقديم موافقة المفتي ضمنيا على النشر ، فلو كان صاحب التقديم معارضا للنشر لما كتب التقديم · انما من المستغرب فعلا ان يخلو هذا التقديم من اي تاريخ ، فمتى كتبه المفتي ؟ هل كتبه حال الانتهاء من اعداد الكتاب مثلا ؟ ان الكاتب نفسه اعترف بان المفتي كان معارضا للنشر في البداية ، ثم عاد فوافق في ايامه الاخيرة ، فهل يعقل اذن ان يكون قد املى الرسالة ـ وهو في ايامه الاخيرة ـ ومن دون ان يدري احد من المقربين اليه ، ومن الاقرباء ·

بماذا يجيب على هذا المقربون والاقرباء ؟

الاستاذ منيف الحسيني صاحب جريدة الجامعة العربية التي صدرت في القدس (١٩٢٧ ـ ١٩٣٥) ، رافق المفتي منذ اوائل العشرينات ، حتى وفاته في المنصورية .

يقول منيف الحسيني (مقابلة ـ بيروت : ٢٤ـ٢ـ١٩٧٨) حول الرسالة (اي التقديم) ان اسلوبها ليس اسلوب سماحته ابدا ، وهو يجزم بان الرسالة لا وجود لها اصلا ، ولو وجدت فعلا لكانت اثمن ما في الكتاب ، ومن دونها يفتقر الكتاب الى الاساس القائم عليه ، وهو احاديث سماحته ثم يتساءل : لماذا لم يصورها الكاتب بالزنكوغراف ، ان تكن موجودة حقا ؟

ويقول ايضا ان كل ما يعرفه حول الكتاب هو التالي : لقد طلب زهير الماردينى من المفتي ان يجري مع سماحته عددا من الاحاديث ، وذلك بعد ان تم الاتفاق بينه وبين دار صحفية فرنسية على نشرها ، ووافق سماحته في البداية فعلا ، وتحدث معه عن طفولته وسيرة حياته الاولى في فلسطين ، ثم توقف عن ذلك · وسجل المؤلف هذه الاحاديث المعدودة في الفصل الاول وجاء بها الى سماحته كي يطلع عليها ، ولكن سماحته حين اطلع عليها قرر التوقف عن اعطاء الكاتب اي حديث كان وطلب عدم النشر اطلاقا ، وكان السبب في ذلك الاسلوب الانشائي والخيالي ثم المبالغات التي كان سماحته منها براء · فهو مثلا عندما قرأ الوصف عن طفولته بين اروقة المسجد الاقصى ، علق بقوله مبتسما انه لم يذكر للكاتب شيئا من ذلك · ويكاد منيف الحسيني يجزم بان الفصول الباقية كلها مستقاة مما نشر عن سماحته في الكتب ومن مذكرات سماحته التي نشرتها مجلة

فلسطين للهيئة العربية العليا في حوالي ثمانين حلقة (١٨٦٧ ـ ١٩٧٥) ٠

وتقول السيدة زينب الحسيني كريمة المفتي حول الكتاب (مقابلة ـ بيروت : ٢٤ـ٣ـ١٩٧٨) انها شاهدت الكاتب في منزلهم عدة مرات ، ولكنها لا تعلم شيئا عن مدى الاحاديث التي جرت بينه وبين والدها ، وهي بعد ان قرأت الكتاب تستطيع ان تؤكد انها طالما سمعت من والدها ما جاء فيه في العديد من المناسبات بالنسبة اليها اذن ، ليس هناك من جديد في الكتاب ٠ والمهم بالنسبة اليها ايضا الا تكون هناك معلومات مختلقة لم تحصل بالفعل ٠

والشيء الاهم بعد ذلك كله هو الكتاب نفسه فنحن لو سلمنا جدلا بأن الكتاب هو مجموعة من الاحاديث التي رواها المفتي بنفسه للكاتب، فما هي المكانة العلمية التي يصل اليها الكتاب بين الكتب التي صدرت عن سيرة المفتي ؟

ان تتبع الخطوات النقدية الرئيسية بالنسبة الى هذا الكتاب بالذات هي من الصعوبة بمكان ، وذلك لانه كتاب جامع بين السيرة الشخصية وكتابة التاريخ باسلوب الحوار المباشر تارة ، وبالاسلوب الانشائي الخيالي تارة اخرى، ثم باسلوب الكتابة التاريخية المقتضبة جدا والخالية من كل مسؤولية علمية ، اي انها الكتابة التي لا تعترف بالمصادر والمراجع والهوامش ٠ ولذلك فاننا سوف نتعرض فقط لمجموعة من الملاحظات التي فرضت علينا نفسها فرضا من خلال قراءته مبتعدين عن تصنيف الكتاب تصنيفا علميا محددا ، وذلك لافتقاره الى اي اساس علمي واضح متفق عليه ، فهو من ناحية لا يخضع لاحكام الكتب التاريخية ، لانه لا يذكر المصادر التي استقى منها مادته، كما أنه من ناحية اخرى لا يمكن اعتباره بكليته تسجيلا لاحاديث المفتي ، وذلك ليس استنادا الى الخلاف القائم بين الكاتب واقرباء المفتي حول ذلك ، ولكن استنادا الى الكتاب نفسه الذي سوف تكشف لنا الملاحظات التالية حوله عن نقاط واخطاء يستبعد المنطق كل البعد ان تكون صادرة بالفعل عن المفتي ٠

اولا ـ تاريخ النشر : ذكر في الصفحات الاولى من الكتاب انه طبع في نوفمبر (تشرين الثاني) مع اغفال السنة ،ولدى تتبع مقدمة الكاتب وكلمة المفتي ثم الصفحة الاخيرة من الغلاف لا نجدُ ذكرا لاي تاريخ ، وذلك مستغرب بالفعل ، وخاصة بالنسبة الى تقديم المفتي ، لان ذكر التاريخ الذي كتب فيه التقديم امر مهم جدا عندما تختلف الروايات حول كتابته فعلا بقلم المفتي ، او بادعاء ذلك ٠

ثانيا ـ فصول الكتاب : يحتوي الكتاب على ثمانية عشر فصلا ، الخمسة الاولى منها في نشأة المفتي وفي نضاله في فلسطين ، ومن ثم يستعرض الكاتب ابتداء من الفصل السادس وحتى الاخير مراحل حياة المفتي السياسية خارج فلسطين ابتداء من سنة ١٩٣٧ حين اضطر الى مغادرة البلاد الى لبنان ومواصلة الثورة من الخارج ٠ ثم يستعرض انتقاله في بداية الحرب العالمية الى بغداد ، ثم قصة علاقته بالمانيا وايطاليا وملاحقة الحلفاء له بعد الحرب ، ثم قصة عودته من فرنسا الى مصر ٠

يتضح جليا من هذا الاستعراض السريع ان مواضيعه هي المواضيع نفسها التي سبق ونشرت عن المفتي مرارا وتكرارا ، واما المواضيع التي لم ينشر الكثير ولا القليل حولها ، فالكاتب لم يعرج عليها ٠ وهنا يبرز السؤال التالي : هل يعقل ان تمتد الاحاديث عبر اربع سنوات

بين المفتي والكاتب ولا يتطرق الحديث بينهما الى ما هو ابعد مما نشر سابقا وقيل سابقا وعرف في كل الاوساط ٠ وخاصة عندما نشير في هذا المجال الى طبيعة المفتي السمحة فقد كان يشجع الكتاب والصحفيين ، ومن المشهور عنه اللباقة في الحديث والرغبة الدائمة في الحديث عن تاريخ فلسطين ، وقد استطاع العديد من الكتاب والصحفيين ان يرووا عنه في جلسات معدودة معلومات وآراء لم يتطرق اليها احد من قبلهم ٠

ثالثا ـ الإخطاء التاريخية : يصل القارىء الى درجة الوثوق من عدم رواية المفتي لكل ما جاء في الكتاب عندما يصطدم باخطاء تاريخية لا يعقل ان يكون المفتي ـ وهو العارف بتاريخ قضيته وهو المساهم في صنع ذلك التاريخ ـ من الوقوع فيها ٠ واكثر من ذلك ، وبكل صراحة ، ان بعضا من هذه الاخطاء البارزة التي سنتعرض لامثلة منها فقط لا يعقل ان تصدر عن مطلق مواطن فلسطيني عاش المرحلة وتتبع خطواتها ٠

١ ـ يروي الكاتب عن المؤتمرات الوطنية في فلسطين (ص : ٦١) انه « انعقدت خلال السنوات ١٩٢٢ ـ ١٩٢٩ سبعة مؤتمرات عربية ٠٠٠ » والصحيح ان المؤتمر الاول عقد سنة ١٩١٩ اثناء انعقاد مؤتمر الصلح في باريس واثناء الحكم العسكري البريطاني (١٩١٧ ـ ١٩٢٠) ، وكان المؤتمر الاخير سنة ١٩٢٨ ٠

٢ ـ يذكر الكاتب ما يلي حول القيادة العليا سنة ١٩٣٣ (ص : ٧٨) « كان الوضع يزداد سوءا ٠ وبدأ الشعب يبحث عن سبيل للخلاص فلا يجد ٠ كان لا بد من الخروج من الازمة فدعت اللجنة العربية العليا التي يرأسها موسى كاظم الحسيني في شباط ١٩٣٣ الى مؤتمر مثلت فيه المدن والشعب بمختلف طبقاته يعقد في مكاتب المؤتمر الاسلامي » ٠٠٠ والصحيح هو ما يلي :

لم تكن اللجنة العربية العليا قائمة سنة ١٩٣٣ ، فهذه اللجنة لم تنبثق الا سنة ١٩٣٦ ، واثر اعلان الاضراب الكبير، وقد اقترنت باسم رئيسها الحاج محمد امين الحسيني وبعضوية رؤساء الاحزاب الستة ٠ واما في سنة ١٩٣٣ فالقيادة العليا التي كان يترأسها موسى كاظم الحسيني كانت تدعى باللجنة التنفيذية العربية ، وقد عرفت بهذا الاسم منذ المؤتمر الثالث في حيفا في اواخر ١٩٢٠ واستمرت حتى سنة ١٩٣٤ ٠ وهي السنة التي توفي فيها الرئيس موسى كاظم ٠

واما مكان انعقاد المؤتمر فكان مقر اللجنة التنفيذية نفسها لا مكاتب المؤتمر الاسلامي كما ذكر ، وهذا مع الاشارة الى ان المؤتمر المذكور كان من اهم المؤتمرات التي دعت اليها اللجنة التنفيذية ، فاي مبرر لها كي تعقده خارج مقرها ؟

٣ ـ جاء حول احداث ١٩٣٣ ايضا (ص : ٧٨) : « وفي اول آذار سنة ١٩٣٣ اعلن الاضراب العام وقامت اللجنة العربية العليا بزيارة ليافا لتنظيم المقاطعة، وعندما عاد المفتي ورفاقه الى القدس وجدوا المدينة في وضع متأزم » ٠

والصحيح انه لم يعلن اي اضراب عام اول اذار ١٩٣٣ ، هذا بالاضافة الى ان كلمة الاضراب العام تطلق عادة على الاضراب الكبير والشهير الذي امتد ستة اشهر في خلال سنة ١٩٣٦ ٠ واما الذي جرى بالفعل سنة ١٩٣٣ فهو دعوة اللجنة التنفيذية الى الاضراب اضرابا رمزيا ليوم واحد في جميع مدن فلسطين، على ان يرافق الاضراب في كل يوم جمعة ابتداء من ١٣ تشرين الاول مظاهرات في القدس ، وبالفعل جرت مظاهرة القدس الضخمة وتلتها المظاهرة في يافا ، وقد سار الرئيس موسى كاظم في

كل منهما مع عدد من اعضاء اللجنة التنفيذية في المقدمة ، وقد اقدمت السلطة على منع هذه المظاهرات بقوة السلاح وحالت دون تكرارها ٠

ذكرنا ذلك بشيء من التفصيل لنتوصل الى التشابك الذي عرض الكاتب اليه نفسه بين مظاهرات ١٩٣٣ والاضراب الكبير المقترن بالثورة المسلحة ١٩٣٦ ٠ وهو يخلط بين الحدثين بكل بساطة وكأنهما حدث واحد لا يفصل بينهما ثلاث سنوات ، ولا يفرق بينهما كون الاولى مظاهرات سلمية ليس اكثر ، والثانية ثورة شعبية ٠ وفي هذا يقول الكاتب (ص : ٧٩) :

« وفي يوم الجمعة ١٣ تشرين الاول سنة ١٩٣٣ خرجت مظاهرة اشترك فيها عدة الاف من العرب من المسجد الاقصى بقيادة موسى كاظم الحسيني فهاجمتها قوى الجيش وجرح ٣٥ عربيا » ٠٠٠

« بعد هذا الحادث دعا المفتي الى اجتماع في المؤتمر الاسلامي اعلن فيه متابعة المظاهرات وقامت مظاهرة ضخمة في يافا ٠٠٠ » ٠

« واعلن عن مظاهرة ثانية في يافا غير ان الشرطة هاجمت مبنى الجمعية الاسلامية المسيحية واوقفت وجهاء المدينة المجتمعين لدراسة تنفيذ المظاهرة ووضعوا في سجن عكا ٠ اما المفتي الذي اصبح المسؤول الاول عن المقاومة فقد التجأ الى المسجد الاقصى ولم تجرؤ السلطات البريطانية على الاقتراب منه خشية اثارة الرأي العام الاسلامي » ٠٠

ان الفقرة الاولى حول مظاهرة القدس صحيحة ، واما ما تلاها من دعوة المفتي الى اجتماع خاص اعلن فيه متابعة المظاهرات ، فهو غير صحيح على الاطلاق لسبب رئيسي وشهير وهو عدم اقدام المفتي في تلك المرحلة على قيادة الحركة الوطنية علنا وهو الذي القى خطابا شهيرا في تلك السنة بالذات وقبل المظاهرات باشهر (في ٢٦ اذار ١٩٣٣) وذلك في اثناء انعقاد مؤتمر وطني كبير في يافا حاول فيه خصومه السياسيون ان يورطوه بالاستقالة من منصبه كرئيس للمجلس الشرعي الاسلامي الاعلى من اجل ان يتسلم القيادة العلنية للحركة الوطنية ، وقد رد على هذه المحاولة بخطبة اشتهرت بجملته التاريخية « اني لست ممن يتورطون » ، وقد جاء في مستهل خطابه :

« قبل قدومي اليوم الى هنا حاول بعض الناس ان يثنوني عن عزمي قائلين لي ان في المسألة محاولة للتوريط ، وان بين المجتمعين ممن سيطلب مني الاستقالة ٠ فقلت لهم احسنوا الظن فاني لست ممن يتورطون ٠

« انا لست في هذه الحركة الوطنية دخيلا ، ولم التصق بها التصاقا ، ولم تأت الي الرئاسة الا على الحاشية ٠ ولقد حضنت غمار الحركة الوطنية العامة وعملت قبل الان والى الان » ٠٠٠ (١)

واستمر المفتي على موقفه من عدم الرغبة في القيادة العلنية حتى انبثق الاضراب الكبير عفويا في ١٩ نيسان ١٩٣٦ وانتشر ، وبعد ذلك قبل المفتي برئاسة اللجنة العربية العليا وتزعم الحركة الوطنية ٠

---

(١) راجع ، وثائق المقاومة الفلسطينية العربية ضد الاحتلال البريطاني والصهيوني ، جمع وتصنيف عبد الوهاب الكيالي (بيروت : مؤسسة الدراسات الفلسطينية ، ١٩٦٨) ، ص ٣٢٤ ٠

واما الدليل الواقعي على عدم اشتراك المفتي فعلا في المظاهرات المذكورة ، فهو وجوده خارج البلاد يترأس وفدا باسم المؤتمر الاسلامي لزيارة الاقطار الاسلامية الشرقية ، ومنها الهند وافغانستان وايران والعراق ، وذلك بقصد جمع الاموال لانشاء معهد « الجامعة الاسلامية » . والطريف فعلا ان المعارضة في فلسطين حين شنت حربها الدعائية ضد المفتي والامير شكيب ارسلان في سنة ١٩٣٥ بتهمة التواطؤ مع موسوليني ، كانت من جملة الاتهامات التي كالتها للمفتي عدم اشتراكه في تلك المظاهرات الشهيرة سنة ١٩٣٣ ، وكان الرد على ذلك من قبل انصار المفتي بانه كان خارج البلاد ـ كما ذكرنا .

وبقيت اشارة اخيرة وهي حول قول الكاتب بان المفتي الذي اصبح المسؤول الاول عن المقاومة فقد التجأ الى المسجد الاقصى . والصحيح ان المفتي ـ كما اكدنا ـ لم يشارك في مظاهرات ١٩٣٣ وبالتالي لم يلتجىء الى المسجد الاقصى . واما حين التجأ فعلا الى حماية المسجد الاقصى المجاور لمنزله ، فقد كان ذلك بالتحديد في ١٧ تموز ١٩٣٧ حين حاصرت السلطة البريطانية دار اللجنة العربية العليا ، ولما كان مقر اللجنة قريبا جدا من منزل المفتي فقد تمكن من الافلات قبل مداهمة الجنود للدار ثم الاعتصام في منزله . وما كان بامكان السلطة ان تصل اليه دون ان تعتدي على حرمة المسجد الاقصى الشريف .

اذا كان المؤلف يعني هذه الحادثة ـ وهذا مجرد استنتاج ـ فكيف يخول لنفسه الانتقال فجأة من احداث ١٩٣٣ الى احداث ١٩٣٧ ، ومن دون اية اشارة الى الفارق الزمني ، والى الفوارق الهائلة في تطور الاحداث السياسية .

٤ ـ حول استشهاد القسام وحول الكفاح المسلح ورد (ص : ٨٧) ما يلي : « عندما توفي القسام شهيدا كانت اللجنة العربية العليا قد عزمت على اللجوء الى السلاح » . والصحيح هو عدم وجود اللجنة العربية اصلا حين استشهد القسام . لقد استشهد القسام في ٢٠ تشرين الثاني ١٩٣٥ ، واما اللجنة العربية العليا فقد تألفت في نهاية الاسبوع الاول من الاضراب الكبير ، وصدر البيان الاول بتاسيسها في ٢٥ نيسان ١٩٣٦ ، وليس الكاتب هو اول من يحاول في هذا المجال اثبات وجود الكفاح المسلح في فلسطين قبل استشهاد القسام ، والحقيقة المطلقة التي لا يرقى اليها الشك هي ان المؤسسات السياسية في فلسطين كلها لم تفكر بالكفاح المسلح اداة للنضال قبل استشهاد القسام وقبل الاضراب الكبير . صحيح ان حزب الاستقلال العربي بالذات مهد فكريا ونفسيا للعداء ضد الانكليز وجاهر بذلك منذ سنة ١٩٣٢ ، الا ان المجابهة العملية المسلحة ضد السلطة مباشرة لا يستطيع احد ان يدعي شرفها قبل «القساميين» .

ان هذه الامثلة من الاخطاء التاريخية الرئيسية لا يمكن ان تصدر عن المفتي بأي حال ، كما انها لا يمكن ان تنسب الى سرعة او تسرع في تسجيل الاحاديث . انها ليست الا دلالة على اهتمام الكاتب بسيرة المفتي فقط كزعيم شهير ، دون اي التفات الى الالتحام والتشابك بين سيرة الرجل وتاريخ فلسطين . ومن يتعرض بالكتابة لسيرة الزعيم السياسي لا بد له وان يدرس تاريخ بلده دراسة وافية ، وكذلك من يتعرض بالكتابة الى تاريخ فلسطين بالذات لا بد له وان يدرس سيرة الحاج محمد امين الحسيني دراسة وافية .

بيان نويهض الحوت

Faris Glubb : **Zionist Relations with Nazi Germany**
— Palestine Research Center — Beirut 1978

خلال الحرب العالمية الثانية وجه الزعيم اليهودي السلوفاكي الحاخام دوف ميخائيل هايسمندل رسالة الى الحركة الصهيونية جاء فيها : « نبعث اليكم بهذه الرسالة الخاصة لنبلغكم أن الالمان ابتدأوا امس ترحيل اليهود من المجر ... ويذهب المرحلون الى اوشفيتس حيث يقتلون بغاز السيانيد ... هذا هو برنامج او شفيتس ، من امس الى النهاية : ١٢ الف يهودي ـ من الرجال والنساء والاطفال والشيوخ والرضع والاصحاء والمرضى ، يخنقون يوميا . وانتم ، يا اخوتنا في فلسطين ، وفي جميع بلدان الحرية ، وانتم يا وزراء جميع المملكة ، كيف تبقون صامتين في وجه هذه الجريمة الكبرى ؟ صامتين بينما قتل الالوف والالوف الذين وصل عددهم الان الى ستة ملايين . ان قلوبهم المحطمة تصرخ اليكم طالبة النجدة فيما هم يبكون وحشيتكم .

متوحشون انتم وقتلة ايضا بالنظر الى قسوة الصمت الذي فيه تراقبون . لانكم تجلسون مكتوفي الايدي ولا تفعلون شيئا ، مع انه بامكانكم ان توقفوا او تؤخروا قتل اليهود في هذه الساعة عينها .

انتم ، يا اخوتنا ، ابناء اسرائيل ، هل انتم مجانين ؟ الا تدرون بالجحيم الذي هو حولنا ؟ لن تدخرون اموالكم ؟ قتلة . مجانين . من الذي يقدم الاحسان ؟ انتم الذين تقذفون ببضعة فلوس من بيوتكم الامنة ؟ ام نحن الذين نعطي دماءنا في اعماق الجحيم ؟ » .

الجواب على هذه الصرخة الغاضبة ، كما يوضحه هذا الكتاب الصغير ، هو ان زعماء الحركة الصهيونية لم يكونوا صامتين مكتوفي الايدي فحسب ، بل كانوا يتعاونون بشكل فاضح ايضا مع قادة النازية الالمانية . ومؤلف الكتاب هو الشاعر والمؤرخ فارس غلوب ، الذي يستعمل ايضا اسم فارس يحيى . وكتابه هذا من الحجم الصغير ويقع في ٨٢ صفحة . ويظهر بشكل واضح ان الكتاب ارتكز على ابحاث مستفيضة قام بها المؤلف .

يوضح الكاتب في المقدمة ان كتابه محاولة لتصحيح الجهل الواسع الانتشار حول العلاقة بين الصهيونية والمانيا النازية . وقد استقى معلوماته كلها من مصادر يهودية صرفة ، تتراوح بين الصهيونية والمناهضة للصهيونية .

ويشير غلوب الى ان مؤسس الحركة الصهيونية السياسية ، تيودور هيرتزل ، كان يعي الاسس المشتركة الفلسفية بين الصهيونية واللاسامية . فقد كتب يقول : « ان حكومات جميع البلدان المبتلية باللاسامية ستكون مهتمة اهتماما بالغا بمساعدتنا في تحقيق السيادة التي نريدها » . لقد اكد هيرتزل في مناسبات كثيرة ان اللاساميين هم افضل اصدقاء اليهود والحكومات اللاسامية افضل حليفات لهم . وهو يضيف : « اللاسامية قوة غامرة وعلى اليهود ان يستعملوها والا ابتلعتهم ... فاللاسامية هي القوة المحركة المسؤولة عن جميع الالام اليهودية منذ دمار الهيكل ... وسيثبت ان هذه القوة المحركة هي العامل الاكثر فائدة في الحياة اليهودية . وستستخدم بنفس الطريقة التي يستخدم بها الماء الغالي لانتاج الطاقة البخارية » .

ويلاحظ غلوب ان هيرتزل كان رجلا

يمارس ما يبشر به · لذا راح يتصل بالسياسيين والمسؤولين اللاساميين في اوروبا · وفي طليعة هؤلاء وزير الداخلية القيصري الروسي فنزل فون بليهفة ، الذي كان مسؤولا عن تنظيم مجازر ضد اليهود، ووزير المالية القيصري الروسي الكونت فيتي الذي عرف بعدائه الشديد لليهود · كما اتصل هيرتزل بزعماء يمينيين لاساميين في بريطانيا امثال اللورد ارثر بلفور وجوزف شمبرلين ·ومن بعده واصل حاييم وايزمان ، رئيس الاتحاد الصهيوني البريطاني انذاك الاتصال ببلفور واللورد روبرت سيسيل ورئيس الوزراء لويد جورج · وكان وعد بلفور في الثاني من تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩١٧ نتيجة هذه الجهود الدبلوماسية · وهكذا فان الدافع لاول ميثاق « لوطن قومي » صهيوني كان مزيجا من المطامع الامبريالية والمشاعر اللاسامية من جانب السياسيين اليمينيين الذين اصدروه ·

وجاءت اقوى معارضة للوعد ضمن الحكومة البريطانية من عضوها اليهودي الوحيد ، السير ادوين مونتاغيو ، الذي ادرك بوضوح الدوافع اللاسامية وراء سياسة بلفور ولويد جورج · وكتب مونتاغيو يقول : « انا اؤكد ان لا وجود لامة يهودية ··· عندما يقال لليهود ان فلسطين هي وطنهم القومي ، فان جميع البلدان سترغب على الفور في التخلص من مواطنيها اليهود ، وستجد في فلسطين سكانا يطردون منها سكانها الحاليين ، آخذين كل ما هو الافضل في البلاد » · ويلاحظ غلوب ان تكهنات مونتاغيو كانت صائبة · فالاعوام اللاحقة لوعد بلفور شهدت ازدياد اللاسامية في اوروبا وبلغت اوجها في مجازر هتلر · وتبع ذلك تشريد الشعب الفلسطيني · وكان الحدثين مترابطين ·

في الثلاثين من كانون الثاني (يناير) ١٩٣٣ جاء هتلر الى السلطة ، وصارت اللاسامية السياسة الرسمية للحكومة الالمانية · وعلى الاثر خرج اليهود والليبراليون وغير الاريين من المانيا باعداد كبيرة · ومن الناحية الاخرى كانت الحركة الصهيونية تؤمن بدورها بان اليهود يجب الا يكونوا جزءا من مجتمع الامم · وتوضح هذه الحقيقة لماذا ادت النازية الى زيادة قوة الصهيونية الى حد كبير بين اليهود الالمان · ولذا استطاع نازي مقتنع مثل ايتسمان ان ينمي علاقات ودية مع الصهاينة ، حتى انه وصف نفسه كموال للصهيونية ، فيما بقي مخلصا للنازية · ومما لا ريب فيه ان مجيء هتلر الى السلطة ادى الى سحق منافسي الصهيونية الرئيسيين على الزعامة الايديولوجية لليهود الالمان · وخلال الاعوام القليلة الاولى بدا للصهاينة ان الحكم النازي يعني الهزيمة التامة لامتصاص اليهود في المجتمع · ومن هنا كان بامكان الصهاينة القيام بدرجة معينة من « التعاون غير الاجرامي » مع السلطات النازية · وفيما بعد صار الباب مفتوحا لتعاون اخطر بكثير يشمل التأييد النازي للبرنامج الصهيوني : هجرة اليهود الى فلسطين · ونالت هذه السياسة بركة هتلر · واتخذت العلاقة بين الصهيونية والنازية صفة رسمية في عقد اتفاقية هي الاولى في سلسلة اتفاقيات · فقد اعطي اليهود المهاجرون الى فلسطين فرصة لنقل رؤوس اموالهم بما سمي اتفاقية هاعافارا ، التي وقعها الرايخ الالماني والوكالة اليهودية لفلسطين · وبعد فترة اضيفت اليها اتفاقية مقايضة لتبادل البرتقال الفلسطيني لقاء سلع المانية مثل الخشب وورق اللف والسيارات والمضخات والالات الزراعية · وكما قال راول هيلبرغ : « بدا كأن العلاقات بين المانيا النازية والجالية اليهودية في فلسطين كانت ممتازة » · كما ازدادت امتيازات

الحركة الصهيونية في ظل الحكم الهتلري بينما تقهقر مركز اليهود الالمان. وسمح للمنظمة الصهيونية بفتح مراكز تدريب مهنية وزراعية للمرشحين اليهود الذين ارادوا ان يهيئوا انفسهم لحياة جديدة في الشرق الاوسط . وتم تنظيم دروس في العبرية في عدة مدن . وبتوجيه من رجل ذي قيمة بالغة ، هو روبرت فيلتش ، حملت الصحيفة الصهيونية يورديشه روندشاو الامل بحياة افضل لالوف من اليهود .

وصارت المصالح المشتركة للجانبين تتطلب الاسراع في هجرة اليهود من الاراضي والبلدان التي سيطر عليها النازيون . ومنذ نهاية ١٩٣٨ كان مبعوثان من فلسطين ، هما بنحاس غينزبرغ وماكس زيملر ، يعملان بلا كلال على اراضي الرايخ لتحضير القوافل غير القانونية الى فلسطين . ولم يضع الغستابو اية عراقيل في طريق نشاطهما . ويوضح الكاتب ان الاتفاقيات بين المبعوثين الصهاينة والسلطات النازية ، التي قدمت المانيا النازية بموجبها مساهمة حيوية في تعزيز الطاقة البشرية والتدريب وبالتالي الاستعداد العسكري للصهيونية، لم تكن تدابير غير رسمية . بل كانت اتفاقيات رسمية دخلتها الحكومة النازية سرا : تحالف مصلحة لمر به هتلر نفسه . فقد قرر الفوهرر الاستمرار في تشجيع الهجرة اليهودية من المانيا « بكل الوسائل المتوفرة » . والمعروف ان الكثيرين من النازيين جمعوا ثروات كبيرة من ممتلكات ضحاياهم اليهود . الا ان الامر الذي يجهله الكثيرون هو ان المنظمين الصهيونيين للهجرة نالوا حصتهم ايضا من الفوائد المادية على حساب اليهود الافراد .

وبعد سنتين من الحرب وجد هتلر انه لم يعد من الممكن تخليص اوروبا من اليهود ، لذلك اختار « الحل النهائي » لمعسكرات الابادة . وهكذا صار الصهاينة يواجهون اختيارا حاسما بين سبيلي عمل . الاول هو اعلان الحرب على النازية ورفع راية انتورة اليهودية على النازيين في جميع انحاء اوروبا . وبالطبع يعني هذا التخلي عن جميع الاحتمالات لتأمين حتى هجرة « قانونية » محدودة جدا للطاقة البشرية من اوروبا عن طريق التعاون مع النازيين في المستقبل . وكان الاختيار الثاني المفتوح امام الصهاينة هو القبول بان الحالة قد تغيرت ، موقتا على الاقل ، في اتجاه غير مؤات لهم ، ومحاولة التوصل الى ترتيبات جديدة ، محدودة اكثر . وخلال الفترة ١٩٤١ ـ ١٩٤٤ قطع عدد من الصهاينة الافراد في اوروبا الشرقية التي يحتلها النازيون ، امثال موردخاي انيلفتش ، صلاتهم بالسياسة التقليدية الصهيونية وشاركوا في ثورات ضد النازية . وكانت جميع هذه الثورات منظمة محليا في وارسو وفيلنو وبياليستول ، ولكن دون التعاون مع الحركة الصهيونية على الصعيد الدولي .

ويلاحظ غلوب ان التاريخ لا يسجل اي اعلان للثورة من قبل الحركة الصهيونية ضد النازيين في اوروبا ، لقد حاول اليهود في مدينة فيلنو ، مثلا ، ان يقوموا باعمال تخريبية ضد النازيين ، لكن امالهم في انتفاضة جماهيرية لم تتحقق . واحد العوامل الرئيسية في هذا الفشل كان الدور الذي قام به جاكوب جنس ، وهو متعاون صهيوني رئيسي مع النازيين ، الذين جعلوه رئيسا لقوة شرطة يهودية في فيلنو . وكما يقول روبنشتاين : « ... ما من زعيم اخر من زعماء الغيتوات ذهب الى ذلك الحد في خدمة النازيين كما فعل جنس . وما من زعيم اخر من زعماء الغيتوات استعمل قوة شرطته لتنفيذ القتل الفعلي

لليهود ... ، ولعبت «المجالس اليهودية»، التي عينها النازيون لادارة كل غيتو ، دورا رئيسيا في برامج الابادة . وكان معظم اعضاء هذه المجالس من الصهيونيين ، الذين اعتقدوا انهم ، بتحضيرهم لليهود الذين يرسلون الى حتفهم ، انما ينقذون اليهود الاخرين . هذا النمط من التعاون بين الصهاينة والنازيين في قتل اليهود شمل عدة مدن وقرى في جميع انحاء بولونيا وليتوانيا والمجر ورومانيا .

ان روايات المؤرخين اليهود لمحنة يهود اوروبا الشرقية في ظل الاحتلال النازي تضمنت قصة ذات جانبين : بطولة المقاومة وعار التعاون . ويطرح غلوب السؤال : ماذا كان بالضبط دور الحركة الصهيونية ، كحركة ، في كل هذا ؟ ويجيب ان البعض ادرك ان المانيا النازية مصممة على ابادة اليهود وان خطر الابادة يشمل اي يهودي لم يهرب او لم يخرجه الصهاينة من اوروبا بموجب اتفاقيات ١٩٣٨ . اما البعض الاخر فقد استمر يأمل بانهم يستطيعون انقاذ انفسهم واتباعهم المختارين عن طريق عقد صفقات مع النازيين على حساب اخوانهم اليهود . الا ان الصفوف العليا من الحركة الصهيونية ، وبخاصة الوكالة اليهودية التي بقي قادتها في اماكن بعيدة آمنة عن الحرب ليشكلوا الحكومة الاسرائيلية في المستقبل ، لم تواجه مثل هذا الانقسام في الرأي . ولم يصدر اي اعلان للثورة ضد النازية من هؤلاء الزعماء .

وقد قامت الحركة الصهيونية ببعض النشاط العسكري المحدود في الحرب العالمية الثانية ، لكن الهدف الاساسي من هذه المشاركة كان تعزيز فكرة الدولة اليهودية وليس محاربة النازية او مساعدة اليهود المضطهدين على مقاومتها . وهكذا الف الصهاينة « الفرقة اليهودية » في الجيش البريطاني . وفي اخر مراحل الحرب القى الصهاينة مجموع ٣١ مظليا في البلدان التي يحتلها النازيون مهمتهم كانت تنظيم المزيد من الهجرة الى فلسطين وليس مقاومة النازيين .

ويروي غلوب قصة الاتفاق السري الذي عقده الدكتور رودلف كاستنر ، عضو لجنة الانقاذ التابعة للوكالة اليهودية في بودابست ، مع الكولونيل ادولف ايشمان ، المسؤول عن عملية ابادة اليهود في المجر ، العام ١٩٤٤ . وظلت الحقيقة حول نشاطات « لجنة الانقاذ » هذه سرية الى ان فضح امرها ، في ١٩٥٣ ، كاتب اسرائيلي يدعى مالكييل غرينفالد الذي ادان كاستنر علنا بوصفه متعاونا مع النازيين ، وقال ان « اعمال كاستنر في بودابست كلفتنا ارواح مئات الالوف من اليهود » . وواجه غرينفالد المحاكمة في دعوى تشهير لم يرفعها كاستنر ضده ، بل رفعتها الحكومة الاسرائيلية ، التي كان زعماؤها رؤساء كاستنر وقد رسموا السياسة التي نفذها . ولم تسر المحاكمة سيرا حسنا بالنسبة للحكومة الاسرائيلية . فقد برىء غرينفالد من تهمة التشهير ، مما يشير الى ان ثمة اساس متين للتهمة التي وجهها الى « لجنة انقاذ » كاستنر بانها قد تعاونت مع النازيين وساعدتهم في ابادة القسم الاعظم من يهود المجر مقابل السماح بانقاذ اكثر من ٦٠٠ صهيوني بارز واخذهم الى فلسطين . وفي وقت لاحق تم اغتيال كاستنر على يد زئيف اكشتاين الذي كان في السابق عميلا سريا لجهاز استخبارات الحكومة الاسرائيلية . وهكذا ازيل الخطر من ان مثوله امام المحكمة ، في دعوى اخرى اقيمت ضده هذه المرة ، قد يكشف المزيد من التفاصيل المحرجة .

ويقول موريس ر . كوهين ان الصهيونية « وصفت الهجرة الى فلسطين

على انها الجواب الوحيد على اللاسامية ، وقد انتقدت ورفضت اي صراع للتحرر وتشريعات الحقوق المدنية الخ · ووجدت نفسها في معسكر واحد مع هؤلاء اللاساميين الذين قالوا للجاليات اليهودية المحلية : اذهبوا الى فلسطين · ولم تصدر المبادرة في الصراع اليهودي ضد النازية ابان الثلاثينات ابدا عن المنظمة الصهيونية · وكان الافراد والمنظمات اليهودية غير الصهيونية هم الذين اخذوا على عاتقهم المبادرة والعبء في ذلك الصراع · وكلما ازداد الصراع شرارة ، ابتعدت المنظمة الصهيونية اكثر فاكثر عن بقية اليهود ··· » فكما قال بن غوريون في رسالة الى اللجنة التنفيذية للمنظمة الصهيونية في السابع عشر من كانون الاول (ديسمبر) ١٩٣٨ : « ان انقاذ الارواح اليهودية من هتلر تعتبر هنا خطرا محتملا على الصهيونية ، الا اذا جيء بهم الى فلسطين · وعندما كان على الصهيونية ان تختار بين الشعب اليهودي والدولة الصهيونية فانها لم تتردد في تفضيل الدولة الصهيونية ···ان الصهاينة يقبلون في الجوهر بالايديولوجيا العنصرية للاساميين ، ولكنهم يستمدون منها استنتاجا مختلفا · فاليهودي ، عوضا عن التيوتوني ، هو العرق النقي او المتفوق » ·

ويقول غلوب في نهاية كتابه : « ان القصة الكاملة لدور الصهيونية خلال عهد هتلر ما تزال غير معروفة على نطاق واسع ، لا في العالم فحسب ، بل ايضا بين الجاليات اليهودية · وان الفعالية التي كتمت فيها هذه القصة ··· انما تشير الى مدى النجاح الذي حققته الحركة الصهيونية في فن الدعاوة » ·

والمأمول الان ان يساعد هذا الكتاب القيم في ردم هوة الجهل عن طريق نشره على اوسع نطاق ممكن ، وعن طريق متابعة الابحاث التي تكشف عنصرية الحركة الصهيونية وكونها معادية لليهود كبشر ·

رجا جورج

صدر عن مركز الابحاث

Zionist Relations with Nazi Germany

تأليف : فارس جلوب

اطلب نسختك بالبريد من : قسم التوزيع في مركز الابحاث ـ ص·ب ١٦٩١ ـ بيروت·

سعر النسخة ٦ ل·ل· (ما عدا اجور البريد)

رد على مراجعة
كتاب « تاريخ الصهيونية »

نشرت « شؤون فلسطينية » (العدد ٧٧ ، نيسان / ابريل ١٩٧٨ ، ص ١٤٨ ـ ١٥٨) مراجعة للجزء الاول من كتابي « تاريخ الصهيونية » ، كتبها سمير ايوب. ولدى اعتراضات عديدة على هذه المراجعة وانتقادات لها .

تحتوي المراجعة المشار اليها على عدد لا بأس به من المغالطات والافتراءات التي لا مبرر لها . وقد وصلت تلك المغالطات ـ الافتراءات الى درجة من « الجرأة » لا استطيع معها الا القول اما ان المراجعة كتبت عن سوء نية مسبقة ومبيتة ، بهدف الاساءة الى الكتاب ومؤلفه ، لغاية في نفس يعقوب ، او ان المراجع اراد فقط ان يستعرض عضلاته « العلمية » . ومع وصولي الى هذا الاستنتاج فكرت في الامتناع عن كتابة هذا الرد ، الا انني اثرت اخيرا القيام بذلك ، خشية ان تتحول المتاجرة بعدم المعرفة الى فضيلة ، او تعتبر النظرة الضيقة الافق ميزة . كذلك يهمني ان اوضح لمحرري « شؤون فلسطينية » وناشريها ، انهم لم يقدموا خدمة علمية كبيرة عندما قاموا بنشرها ، بل على العكس حملوا انفسهم قسطا من المسؤولية عما جاء فيها .

يستهل سمير ايوب مراجعته الطويلة بعرض مبسط لمحتويات الكتاب ـ وهذه ، على كل حال ، آخر « موضات » مراجعات الكتب التي اخترعها نوع من القراء العرب ، بينما برع نوع اخر من الصحف والمجلات في نشرها ـ مع ان العادة درجت عن ان تكون المراجعة قصيرة ، خلاصتها عرض الكتاب المراجع باختصار ، من خلال انتقاد نواقصه او لفت النظر الى محاسنه، وبشكل سريع ، بهدف مساعدة من يطلع عليها ان يقرر اذا كان من الواجب عليه اقتناء ذلك الكتاب او قراءته او اخذ علم بوجوده فقط (وهناك نوع آخر من المراجعات ، هي عبارة عن « قراءة » للكتاب ونقاش لمحتوياته ـ ولكن سمير ايوب موجود في واد آخر) . غير ان بعض المراجعات اصبحت عكس ذلك ، ولذلك يقتضي ان تكون الردود عليها عكس الردود المألوفة ايضا .

بعد عرض محتويات الكتاب بصورة مبسطة،تسمح للمراجع بالتهرب من التعامل مع المقولات الاساسية الواردة فيه، وتغطي بالتالي على ضحالة معلوماته ، ينتقل سمير ايوب الى التفاصيل ، فيورد انتقاداته تحت عناوين مختلفة ، منها « اشارات عامة » و « ملاحظات في الشكل » ، ثم يعود الى « محتوى الكتاب » وينتقل الى « منهج البحث » ويختتم بما يسميه «ملاحظات في النتائج» . والواضح من هذا القفز بين العناوين المختلفة ان كاتب المراجعة لم يستطع ان يجد طريقة لترتيب مادة من ١١ صفحة فقط بشكل منطقي ، علمي ومنهجي ، فراح يكرر افكاره واقواله ويقفز من نقطة الى اخرى، ثم يعود الى نقطة الانطلاق. ولكي نستطيع كتابة هذا الرد ، قمنا بـ « مراجعة » لمراجعة سمير ايوب ، جمعنا في نهايتها اعتراضاته وانتقاداته واسس وجهة نظره، وحاولنا جهدنا استخلاص فحوى ما جاء في مقولاته المتكررة ، ثم صنفنا ما توصلنا اليه وفقا لرؤوس اقلام . وسيكون ردنا وفقا لذلك .

(١)

ان اول ما يلفت النظر في المراجعة هو

مجموعة من الاعتراضات حول اسلوب البحث وطريقة الكتابة (يسميها سمير ايوب « ملاحظات في الشكل » ، وهذا خطأ لان الامر أعمق من ذلك ويتعدى الشكليات) · وفي هذا الصدد ، يشن المراجع حملة ضارية على محتويات الكتاب ، من خلال تقديم امثلة لمقاطع مجتزأة منه ، على غرار « لا تقربوا الصلاة » (انظر ، مثلا ، ص ١٥٤ من المراجعة ، العمود الاول) · ومثل هذه الطريقة لا تخدم سمعة المراجع « العلمية » ونكتفي برصدها دون ان نجهد نفسنا في الرد عليها ·

غير انه على الرغم من هذه الطريقة ، التي تكاد تنطبق على معظم الانتقادات التي يوردها المراجع ، هناك بعض الاعتراضات التي تبدو كأنها وجيهة ، ولذلك لا يجوز تجاهلها ، منها مثلا ما « اكتشفه » (ص ١٥٣ ، العمود الثاني) من « خلل في قدرة الكاتب على استخدام الاقتباسات والاستشهادات فهو يوردها بكثرة وفي مواقع لا تصح وبكميات تصل في بعض الاحيان الى اكثر من نصف صفحة للاقتباس الواحد » · ويضاف الى ذلك « خلل » اخر يتعلق بقدرة المؤلف « على استخدام الاقواس التي تفصل كلامه عن كلام الاخرين المستشهد بهم ، [فالمؤلف] مرة يورد الاقواس ويشير الى المصدر ومرة لا يشير اليه وغالبا ما يمتنع عن استخدامها » (وملاحظة سريعة للغاية : كان من المفروض ان تحتوي هذه الجملة التي اقتبسناها ، مما كتبه سمير ايوب ، على فاصلتين على الاقل) ·

والرد الاولي على مثل هذه الاقوال هو ان سمير ايوب تصرف ، في هذه الحالة ، بحسب القول المأثور : « رمتني بدائها وانسلت » ، اذ يبدو ان الرجل لا يعرف ابدا ما هدف الاقتباسات والاقواس ولا حتى كيفية استعمالها · ولتوضيح ذلك يجد المرء نفسه مضطرا الى العودة للتذكير بما تدرسه عادة الجامعات (التي تستحق هذا الاسم) لطلاب السنة الاولى فيها ـ وهي مواد يبدو ان سمير ايوب قد نسيها ·

بحسب الانظمة والتقاليد والاعراف العلمية المتبعة في كافة المعاهد العلمية الرصينة، ليس هناك اي خلل في استخدام الاقتباسات والاستشهادات بكثرة ، بل قد يكون العكس هو الصحيح · ان البحث النظري في نهاية الامر ، هو عملية تفتيش عن الحقيقة ، الموزعة عادة في بطون الكتب والمجلات والصحف وغيرها من المراجع · وكلما وسع الباحث نطاق اهتمامه واوجه نشاطه ، واطلع على المزيد من المواد المتعلقة بدراسته ، تتوسع مداركه وتزداد قيمة عمله · وهذه ميزة وليست خللا · ويقينا ، اننا لم نصادف حتى الان الا شخصا واحدا ، هو سمير ايوب ، تصل « جرأته » الى حد الطعن بكثرة الاقتباسات والاستشهادات في عمل بحثي· ويبدو ان هناك مقاييس جديدة لمستوى اللا ـ علم ، لم تصل الى مسامعنا حتى الان ·

كذلك ليس هناك اي خلل ، ابدا وبتاتا ـ الا لدى اصحاب « ثقافة » معينة ـ في ان تصل كمية الاقتباس احيانا الى اكثر من نصف صفحة · بل ان هناك بعض المؤلفين الذين يوردون اقتباسات بتلك الكمية ، ويفصلونها عن النص المكتوب من قبلهم ، ويوصون حتى بطباعتها بحرف طباعي يختلف في صورته عن الحرف المستعمل لطباعة متن الكتاب باكمله ، الذي يتضح من اول نظرة اليه ان نوعين من الحروف استعملا لطباعته ، واحد للمادة التي يكتبها المؤلف نفسه ، واخر للاقتباسات · واحيانا يكون هنالك ايضا حرف طباعي ثالث للملاحظات ورابع للمصادر ، وهلم جرا · وقد صدرت كتب عديدة بهذا الشكل عن جامعات مشهورة ودور نشر محترمة للغاية ·

الا انه كانت هنالك ايضا غاية معينة نصب اعيننا ، عندما لجأنا الى اختيار طريقة الكتابة هذه دون غيرها · ان الكتاب يبحث في موضوع « حساس » ، وكونه مكتوبا بالعربية يعني انه موجه الى جمهور معاد للصهيونية (وقد يكون بعضهم معاديا ، « بالغريزة » ، حتى لمن يتجرأ على الكتابة عنها) تحمل قطاعات منه الكثير من المفاهيم الخاطئة والاراء المسبقة عن تلك الحركة · كما ان كثيرا من المواد التي اوردت بتوسع غير معروفة، على حد علمنا ، لغير قراء العبرية · ولذلك ، وفي محاولة منا لدحض تلك المفاهيم الخاطئة ، واحيانا التخرصات ، وسعيا الى توضيح العديد من النقاط الحساسة أو الاراء الصهيونية في كل جوانبها ، وتقديم خدمة الى باحثي المستقبل ، آثرنا ان نورد جزءا من المواد – خصوصا ما اعتبرناه اساسيا منها ، كدساتير الاحزاب والمنظمات الصهيونية المختلفة او وثائقها الرئيسية او ملخصات وجهات نظر زعماء الصهيونية او مفكريها – على شكل اقتباسات ، وان كانت طويلة، من كلام كاتبيها انفسهم · وليس هذا الاسلوب الا امعانا في الامانة العلمية ، هدفه تجنب محاولات التلاعب بعقل القارىء ومفاهيمه ، باعتباره قارئا ناضجا ، وكذلك ايقاف ذلك الصنف من مدعي الثقافة ، الذين يحلو لهم التحدث عن اي موضوع او الخوض فيه ، مهما كان مستوى اطلاعهم عليه ، عند حدهم ، حتى لا « يتحفونا » بتخرصات جديدة عن « مفاهيمهم » اللا – علمية للصهيونية · ويبدو لنا اننا نجحنا في تحقيق هدفنا باتباع هذا الاسلوب · فسمير ايوب لم يتجرأ على الخوض في صلب المادة الوازدة في الكتاب او التعرض للاطروحات والتفسيرات التي تضمنها او مناقشتها – اذ ابتعد ، مثلا ، عن مناقشة ما جاء في الكتاب عن تأثير الدين او الافكار القومية او الاستعمار على الصهيونية ، ومر مرور الكرام على اسس العقيدة الصهيونية ، ولم يتطرق الى الهجرة الثانية ، رغم الدور المهم الذي لعبته في ارساء أسس الكيان الصهيوني في فلسطين ، الخ · وبدلا من ذلك راح يفتش عن «تناقضات» ثانوية للغاية ، وعندما لم يجدها اخترعها (كما سنوضح ادناه) للطعن بالكاتب والكتاب من باب « هذا حصرم رأيته في حلب » ·

وما قلناه عن اعتراضات المراجع على استخدام الاقتباسات والاستشهادات ينطبق ايضا على انتقاداته لاستخدام الاقواس ، وان كانت الانتقادات في هذا المجال تثير لدينا حنقا شديدا ، ممزوجا بنوع معين من « الاحترام » . نظر لعدم اطلاع سمير ايوب ، كما يتضح من كتابة المراجعة نفسها ، على طريقة استعمال الاقواس والهوامش واشارات الاقتباس · ولتوضيح وجهة نظرنا فيهذه الانتقادات، لا بد من العودة – مرة اخرى – الى ابسط اسس البحث العلمي ، كما تدرس او تستعمل فيالجامعات او المعاهد العامية (التي تستحق هذا الاسم)، رغم ما في ذلك من « استذة » لا نهواها ·

ان الاقواس واشارات الاقتباس هي احدى الوسائل المهمة، واحيانا الاساسية، التي لا بد من اللجوء اليها عند كتابة اي بحث منهجي علمي ، واهدافها كثيرة، منها الفصل بين فكرة او اخرى او ضبط الافكار المتصارعة او ابداء التحفظ او القاء المسؤولية على الاخرين · والاقواس على انواع ، منها المزدوجان الصغيران (هكذا : « ···· ») ، ويستعملان حكما عند ايراد اقتباس معين من كلام الاخرين ، بحيث يبدأ الكلام المقتبس بقوسين مفتوحين (هكذا : « ···) وينتهي باغلاقهما (هكذا :

... ») · وبعد اغلاقهما توضع نقطة او فاصلة او خط او تستمر الكتابة في مجراها ، بحسب النص والمعنى في الحالة المعنية · ومن المتعارف عليه ايضا ان يبدأ الاقتباس ـ اذا شاء الكاتب ذلك ـ بنقطتين (هكذا : « ...») ·

ويستعمل القوسان المزدوجان ايضا للتحفظ على عبارة معينة (مثلا : « مخربون » ، عندما يكون المقصودون بهذا اللفظ ليسوا مخربين فعلا) او للسخرية (مثلا : اذا وصفت طريقة كتابة ما بانها « علمية » ، ووضعت كلمة علمية بين قوسين مزدوجين ، كما هي الحالة هنا ، فالقصد هو ان تلك الطريقة ليست علمية) · كذلك يستعمل القوسان المزدوجان عند اللجوء الى ايراد الاقوال المأثورة او كلمات بالعامية · وهناك ايضا القوسان الكبيران ، هكذا : [ ] ، ويستعملان حكما داخل النص المقتبس فقط ، عندما يريد الكاتب ان يضيف كلمة ما الى النص الاصلي المقتبس او يختصر سطرا بكلمة ، الخ · وهناك ايضا الاقواس العادية ، هكذا ( ) ، والخطوط لفصل الجمل المعترضة والفواصل وغيرها · ولكي لا نسترسل كثيرا ، في هذه الناحية ، لا بد من لفت النظر الى وجود كتب مخصصة لتدريس القواعد التي اشرنا الى بعضها فقط · ويبدو انه لا بد من الاقتراح على سمير ايوب العودة اليها ·

لقد وضع « تاريخ الصهيونية » من خلال التقيد التام بقواعد استعمال الاقواس والاستشهادات والاقتباسات التي اشرنا اليها ، وغيرها · ومن هذه الناحية ليس فيه ، على حد علمنا ، اي خلل ـ الا ، ربما ، بموجب مقاييس المراجع السفسطائية ـ وان كان هنالك اي خلل من هذا النوع فيكون قد سقط سهوا · ولا صحة في زعم سمير ايوب ان « [المؤلف] مرة يورد الاقواس ويشير الى المصدر ومرة لا يشير اليه وغالبا ما يمتنع عن استخدامها » · فالمصدر يرد دائما ، وعند تقديم اي اقتباس · اما الحالات التي لا يذكر فيها المصدر في الاقتباس فانها ناجمة عن اتباعنا لاخر « موضات » البحث (التي لا شك ان سمير ايوب لم يسمع بها حتى الان ، فهو غير مطلع على الوضع في هذه الناحية قبل « الموضة » الجديدة ، فكيف بعدها ؟) · وبموجب هذه القواعد الجديدة ، لا حاجة عند الاقتباس من مصدر معين اكثر من مرة ـ شرط ان تكون الاقتباسات متتالية ، لا يفصل بينها اقتباس من مصدر اخر ـ الى اضافة رقم ملاحظة ، ثم التنويه بانك استعملت المصدر نفسه · ويكفي عندئذ ان نذكر المصدر عند اول قطعة مقتبسة ، ثم نعود ونكرره مع آخر قطعة ، وبذلك نتجنب تكرار عبارة « المصدر نفسه » في الحواشي مرات ومرات · ويفترض في القارىء ، في هذه الحالة ، ان يدرك ان كل الاقتباسات التي ترد بين عبارتي « المصدر نفسه » مأخوذة فعلا من مصدر واحد ووحيد ، وهو ذلك المشار اليه عند اول اقتباس منه · ولا يستطيع المرء الا ان يبدي اسفه اذا كان سمير ايوب لم يكتف بعدم الاطلاع على هذه الطريقة الجديدة، بل يصف استعمالها بانه « خلل » !

ولكن على الرغم من ذلك ، لا بد من الاشارة الى ان الكتاب يحتوي فعلا على كمية كبيرة من الكلمات والعبارات التي ترد بين قوسين مزدوجين · الا ان لذلك سببا وجيها للغاية ، وهو ضرورة التحفظ تجاه عبارات لا يمكن الاستغناء عنها عند الكتابة عن الصهيونية ، نظرا لترابطها الوثيق بها · فلا يمكن ، مثلا،

البحث في الصهيونيةدون ذكر عبارة « ارض ـ اسرائيل » ، وبما ان لدي تحفظات تجاه المدلول الصهيوني لهذه العبارة فلا يمكن ، عند الاشارة اليها خارج اي نص مقتبس ، الا وضعها بين قوسين مزدوجين · والقاعدة نفسها تنطبق ايضا على عبارات مثل « الامة اليهودية » ، «الشعب اليهودي» ، « مجتمع العمل العبري » ، «الصهيونية الاشتراكية » ، التي لا استطيع الا استعمالها بتحفظ ، ولذلك توضع بين قوسين مزدوجين· ومن هنا جاءت كثرة الاقواس المزدوجة في الكتاب ـ وليس في اليد حيلة ·

غير ان الادهى من ذلك كله هو ان سمير ايوب ينتقدنا لـ « خلل » في استعمال قواعد يبدو انه لا يعرف بوجودها ، بل حتى لم يسمع بها · ونظرة سطحية على مراجعته تكفي لاثبات ذلك · ان ربع حجم المراجعة، على الاقل ، هو عبارة عن قطع وفقرات وكلمات مأخوذة من الكتاب لاغراض التعليق عليها (وعمليا ، للطعن بها بصورة غير ذكية) · وفي مثل هذه الحالة ، تفرض الامانة العلمية على المراجع ان يضع كل ما اقتبسه ، دون ان يسقط حرفا واحدا ، بين قوسين مزدوجين ، وذلك لكي لا « يلطش » عبارات المؤلف ويدعيها لنفسه اولا ، وليمكن القارىء من التمييز بين النص الاصلي الذي اعتمده الكاتب والتعليق عليه من قبل المراجع ثانيا ، وحتى يوضع قيد على سوء نيته فلا يستطيع ان ينسب للمؤلف كلاما لم يكتبه ثالثا · ولكن بدلا من ذلك ، لا تحتوي المراجعة على اي شيء من هذا القبيل ، رغم انه من المفروض ان تظهر فيها عشرات الاقواس المزدوجة ، المفتوحة والمغلقة ، لكثرة الاقتباسات من الكتاب · بل ان المراجعة تخلو ايضا من الفواصل الضرورية للفصل بين جملة واخرى ، وكذلك من الاقواس الكبيرة او خطوط فصل الجمل المعترضة وغيرها · واذا كان الامر كذلك ، فلماذا هذا « التفاخر » من قبل كاتب المراجعة ؟ ولماذا الاصرار على استعراض عضلات « علمية » غير موجودة ؟ ثم ما الذي يدفعه الى التحدث عن امور لا يستطيع مراعاتها في مراجعة بحجم ١١ صفحة فقط ، فيلفت النظر بالتالي الى السلبيات التي تعاني منها طريقة كتابته ؟ واخيرا، لماذا التفاخر باللا ـ معرفة ؟

وانتقاداتنا لسمير ايوب ، في المجال « الاقتباسي الاستشهادي الاقواسي » ، ليست بعيدة عن محرري « شؤون فلسطينية » ، الذين يتحملون ، بموافقتهم على نشر تلك المراجعة بالشكل التي نشرت به ، مسؤولية تزيد عن تلك التي يتحملها المراجع · ان « شؤون فلسطينية » ليست من تلك المجلات التي تعنى كثيرا بمسالة ضبط الاقتباسات والاستشهادات والاقواس والمراجع ·

ويعيب علينا سمير ايوب ايضا الاعتماد على المصادر الصهيونية (يقصد استعمال الكتب العبرية) ، ويريد ان نعود ايضا الى المصادر التركية والانكليزية والفرنسية والروسية والالمانية وغيرها (صفحة ١٥٥ ، العمود الاول) · ويكاد من يقرأ كلامه يعتقد انه علامة مشهور ، ليس في تاريخ الصهيونية وحده بل الكون باسره ،يتقن معظم اللغات التي يشير اليها · غير ان هذا لا يعفينا من الرد على ما يسوقه المراجع في هذا الصدد ·

ان المشكلة الاولى التي تواجه اي باحث ، كما هو معروف ، هي معرفة المصادر المتعلقة بموضوع بحثه وحصرها ، قبل ان يبدأ الكتابة · وبعكس ذلك يكون قد قصر بواجبه ، ولن

يكون عمله متكاملا · وقد واجهتني هذه المشكلة ، مثل ما واجهت وتواجـــه غيري ، في الوقت الذي قررت فيـــه ، قبل سنوات عدة ، المباشرة بالعمـــل الذي نشر الجزء الاول منه · ولم يكن من الصعب حلها من خلال الرجوع الى قوائم البيبليوغرافيا الكثيرة والمتعـــددة والواسعة للغاية ــ فليس هناك نقـــص ابدا في المراجع التي تبحث في تاريـــخ الصهيونية من كل وجوهـــه · بل ان العكس هو الصحيح ، فهناك فيض من تلك الكتب · اما قوائم البيبليوغرافيـــا التي رجعنا اليها ، العديدة والمفصلة ، فانها تحتوي فعلا على مراجع بلغـــات مختلفة ، اكثريتها الساحقة باللغـــة الانكليزية بالذات وبعدها تأتي ، مـــن حيث الكمية ، المراجع العبرية · وهناك بالطبع مراجع اخرى مكتوبة بلغـــات اخرى ايضا ، الا ان عددها قليل ·ولدى التدقيق في نوعية هذه المراجع وجودتها، اكتشفنا ــ لحسن الحظ ــ ان كل ما هـــو منها على جانب ما من الاهمية مترجـم الى الانكليزيـــة او الى العبريـــة (والصهيونيون ، على كل حال ، يهتمون كثيرا بتاريخهم ويترجمون كل ما يكتب عنهم تقريبا) · وحيث اننا نستطيـــع استعمال هاتين اللغتين ، اي الانكليزية والعبرية ، بصورة لا بأس بها ، بحكـم دراستنا لهما ابتداء من المدرســـة الابتدائية ، مرورا بالثانوية وانتهـــاء بالجامعة ، فتحت امامنا الطريـــق على مصراعيها لمتابعة تاريخ الصهيونية، في كل النواحي التي تهمنا ، باعتبارنـــا نستطيع قراءة كل المصادر المهمة ، بـــل حتى الاولية للغاية ، المتعلقة بالموضوع·

ولا نكتم سمير ايوب سرا اننا ، في بداية عملنا ، نظرنا بعين الريبة الـــى المصادر العبرية ، وفضلنا الانكليزيـــة عليها · وقد انهمكنا لوقت غير قصير في متابعة تلك المصادر الانكليزية وسبـــر غورها ، حتى استطعنا التمييز بين الغث والسمين · الا اننا عندما وصلنا الـــى هذه المرحلة اكتشفنا وقائع غريبـــة و « طريفة » للغاية ، اذ اتضح لنا ان عددا لا بأس به من المراجع الانكليزية ، جيدة التحرير والطباعة والتجليد ، التي تبدو ذات قيمة اكاديمية رفيعة ، هي في نهاية الامر عبارة عن مواد مستقـــاة اساسا من العبرية ، « مؤدلجة » ومراقبة ومصاغة بطريقة معينة ، هدفها الحقيقي تجميل الصهيونية ، وتقديمها للقـــراء الاجانب عامة بشكل جذاب · ومع هذا « الاكتشاف » تطرق الشك الى فؤادنا ، فقررنا العـــودة اولا الى الوثائـــق الاساسية ، بنصوصهـــا الاصلية او المترجمة · وسرعان ما باانت صحة هذا الاتجاه ، واتضحت لنا حقائق كثيـــرة كانت مخفية · ونضرب مثلا على ذلك : لقد احترنا كثيرا في امر حركـــة هـــواة صهيون وطبيعتها واهدافها ومركزهـــا وتأثيرها في تاريخ الصهيونية ، حتـــى رجعنا الى مجلدين بالعبرية يضمان كل وثائقها الاساسية ، فاذا بالصورة تتغير عما هي عليه في المصـــادر الاخرى ، وتصبح اكثر وضوحا ــ فتظهر الحركة على حقيقتها ، دون ماكياج ·

وما قلناه عن حركة هواة صهيـــون ينطبق ايضا على موضوعات البحـــث الاخرى في الكتاب · والمصادر التـــي اوردناها هي مصادر اساسية واوليـــة تكفي قطعا لمعالجة الموضوع ، ولا ضيـــر فيها انها مكتوبة بالعبرية او الانكليزية فقط · ويقينا ان من يجد تحت تصرفـــه مثل تلك المصـــادر التي اوردناها لا يحتاج ابدا الى مصادر اخرى ، ان كانت كتابات جانسن او هلبروك ، او ادعاءات سمير ايوب ، او غيـــره · ولا شك ان كاتب المراجعة لو كان مطلعا ، ولو لماما، على تاريخ الصهيونية لنظر بصورة اكثر احتراما الى المصادر التي اوردناهـــا ،

ولما تطرق الى هذه الناحية بتاتا ٠

ثم لماذا هذه « الفذلكة » حول المراجع، واعتبار كل ما هو عبري صهيونيا ، و « اتهامنا » بالتالي باننا عدنا الى المصادر الصهيونية فقط ـ وهذا غير صحيح ٠ ان قائمة المراجع في اخر الكتاب (ص ٢٩٩ ـ ٣٠٨) تضم ١٢٦ مرجعا ، فضلناها على غيرها ، منها ٩٠ مرجعا بالعبرية و ٣٦ بالانكليزية ٠ ومن الخطأ والسذاجة الاعتقاد ان الكتب العبرية التي رجعنا اليها يمكن ان توصف بانها صهيونية ، اذ ان هنالك عددا منها لا علاقة له بالصهيونية ، بل ان بعضها معاد لها٠ وعلى سبيل المثال، هناك كتاب يحزكيئيل كويفمان عن اسس الديانة اليهودية ، وبن ـ تسيون كاتس واهرون زئيف اسكولي عن بعض الحركات الاصلاحية الدينية التي ظهرت بين اليهود ، وبن تسيون شرشفسكي عن قوانين العائلة اليهودية ، وكتاب ـ تفسير الحاخام موشي بن ـ نحمان للتوراة ، وكتاب ـ تعليق حاييم ريفلين على تفسير بن ـ نحمان لبعض فصول التوراة ٠ وقد عدنا الى هذه المراجع لنرى اذا كانت هنالك علاقة بين الديانة اليهودية ، او التلمود وبين الصهيونية ، وما هو مداها ٠ وهناك ايضا كتابا يعقوب روزنهايم وعمرام بلوي ، زعيما اغودات يسرائيل ، المعادين بازدراء للصهيونية ٠ واخيرا هناك كتاب شمعون دوفنوف ، احد ابرز المؤرخين اليهود غير الصهيونيين في العصر الحديث ، الذي لم يكتف بمقارعة الصهيونية نظريا فقط ، وانما عمليا ايضا (وكان اكثر من مؤرخ صهيوني قد حاول كسر منهج دوفنوف في دراسته تاريخ اليهود ، ولكن دون نتيجة) ٠ وقد اعتمدنا كثيرا على دوفنوف ، عندما تتبعنا مفاصل تاريخ اليهود ، قديما وحديثا ٠ ومما لا شك فيه ان سمير ايوب لا يفقه شيئا من امر هذه الكتب ، ولا يعرف بالطبع من هم مؤلفوها وما هو « وزنهم » ـ لا لسبب الا لانه ، ببساطة ، لا يستطيع قراءة العبرية ٠ وعدم معرفة العبرية ، على كل حال ، ليس آفة ٠ ولكن اذا كان الامر كذلك فلماذا يحشر سمير ايوب انفه في امور لا علاقة له بها ولا تعنيه كثيرا ، وهو غب مطلع عليها ؟

وما اشرنا اليه بالنسبة للمصادر العبرية ينطبق ايضا على المصادر الانكليزية ، التي تضم كذلك عددا من الكتب لا يمكن وصفها بانها صهيونية ٠ فبين المصادر الانكليزية هنالك ، مثلا ، كتاب جورج انطونيوس ، وكتب غاري سميث ، الذي جمع اهم ما كتبه يهود في انتقاد الصهيونية ، والتروتسكي ابرام ليون ، وشبه ـ التروتسكي ايلي لوبيل ، ورجل ناتوري كارتا اميل مارمورشتاين ، الذي يبدو من كتاباته انه يعتبر الصهيونية جريمة واتباعها كفرة وزنديق ، وعزرا مندلسون ، الذي لا يهتم بالصهيونية ، وكريستوفر سايكس ، ابن مارك سايكس ، صاحب اتفاقية سايكس ـ بيكو ، الذي ينتقد سياسة والده ٠ كما تضم المصادر الانكليزية ، التي رجعنا اليها ، كتب رئيس حكومة بريطانيا لويد جورج وبعض الوثائق البريطانية الرسمية ٠

ويبدو لنا ، بعد هذا التوضيح ، ان ادعاء سمير ايوب بان كتاب « تاريخ الصهيونية» يستند الى مصادر صهيونية فقط غير صحيح ٠

ولا يكتفي سمير ايوب بالاخطاء التي اشرنا اليها ، وانما يمعن ايضا في توجيه الاتهامات التي تصل الى ابعد من الاهانة ، دون ان يستطيع الوقوف على ابعاد كلامه والنتائج المترتبة عليه٠

ففي الصفحة ١٥٣ (العمود الاول) يقول صراحة : « لا بد ... من البوح ولو بهمس بان ما كتبه [المؤلف]وبالطريقة الذي عرضها ، عن عذابات اليهود والمذابح التي تعرضوا لها في اوروبا الشرقية [وكان عليه ان يضيف « في روسيا القيصرية ايضا » ، لان هذا ما كتبناه فعلا] والمؤامرات التي ... حيكت ضدهم لا توقظ في القارىء العادي اكثر من تعاطف مع الصهيونية » . ولا بد من التنويه رأسا ، وبسرعة ، ان هذا القول الذي يدل على ان صاحبه يعتبر كل يهودي صهيونيا يدفعنا الى اتهام سمير ايوب ـ لا همسا ، بل علنا ، صراحة وكتابة ـ بانه مصاب بجراثيم العنصرية المقيتة . ان الخلط بين اليهود والصهيونية يكاد يعتبر نازية مستحدثة، وهو بالتالي قمة الغباء السياسي الذي يمكن لشخص ما ، خصوصا اذا كان فلسطينيا ، ان يرتكبه . ولا بد من التمييز دائما ابدا بين الصهيونية واليهودية ، والا وقعنا فريسة لاحدى المقولات الصهيونية الاساسية وقبلنا بوجهة نظرها . ثم اين « التقدمية » ؟

ان الاضطهاد الذي تعرض له اليهود في بلدان عدة هو احد العناصر التي تشكل عقدة الصهيونية وعقدها . ولا يزال حتى اليوم يلعب دورا مهما في تغذية النفسية الصهيونية العنصرية . وقد استغل كثيرا لحمل الاجانب على التعاطف مع اليهود ، الذين عرضتهم الصهيونية كانهم جميعا صهيونيون . ولذلك ليست هنالك اية محاذير في عرض صنوف الاضطهاد باعتبارها عاملا في مركب الصهيونية ، لا بد من الوقوف عليه ، اسوة بالعوامل الاخرى ، لكي نستطيع فهم هذه الظاهرة وبالتالي التصدي لها .

كذلك لا بد من التنويه الى ان كتاب « تاريخ الصهيونية » ليس موجها الى القارىء العادي ، ولذلك لا خوف على مثل هذا القارىء من ان « تضطرب » افكاره ؛ ان الكتاب ليس قصة مشوقة ولا شعرا مرسلا ، وبالتالي فان القراء العاديين لن يتهافتوا عليه ، وموضوعه لا يهمهم . وباعتقادنا ان قلة فقط من المتخصصين هي التي قد تقرأ مثل هذا الكتاب . وبحكم تخصصها واهتماماتها وقدرتها الذهنية لا خوف عليها . ولمثل هذه القلة ينبغي ان تقال الحقيقة بكاملها . وهذا ما هدفنا اليه عند عرض قصص اضطهاد اليهود .

ولا يكتفي سمير ايوب بان يعيب علينا حديثنا عن اضطهاد اليهود ، وينكر تأثيره في دعم الصهيونية ، بل ان له حتى « رأيا » في الموضوع ، اذ يقول (ص ١٥٨ ، العمود الاول) : « نحن [اي سمير ايوب] نشك كثيرا في ان يكون اليهود قد واجهوا اضطهادا بسبب ديانتهم » . ولا بد من الاشارة هنا الى ان كبار العلماء او الباحثين فقط ، الذين نشرت ابحاثهم العلمية على الملأ، يحق لهم ان يتحدثوا بهذه الطريقة من الثقة المطلقة بالنفس . ولم يصل الى علمنا ان سمير ايوب قد وضع يوما ما كتابا او كتب بحثا او دراسة او مقالا عن تاريخ اليهود ، يمكن ان يسمح له بالادعاء : « نحن نشك كثيرا ». وشكوك سمير ايوب ، على كل حال ، ليست في محلها ، اذ تنفيها الحقائق التاريخية البسيطة الغاية ، والتي يفترض في اي مثقف ان يكون على الملم بها . فمحاكم التفتيش ، مثلا ، التي تبنتها الكنيسة الكاثوليكية واشرفت عليها ، اضطهدت اليهود ـ وباعتراف الكنيسة الكاثوليكية نفسها فيما بعد ـ بسبب دينهم ، لانهم لم يكتفوا بـ « قتل » المسيح ، بل رفضوا ايضا اعتناق ديانته . وروسيا القيصرية اضطهدت اليهود على هذا الاساس ، وقبل ان تكون

هنالك ثورة صناعية ، وفرضت عليهم مختلف القيود في « منطقة استيطان » خاصة بهم (اوردنا خريطتها في الصفحة ٣٢ من الكتاب) ، وهناك « عشعشت » الصهيونية ـ ثم لجأت اسرائيل الى فرض سياسة « مناطق الاستيطان » هذه على الفلسطينيين الذين وقعوا تحت حكمها بواسطة نظام الحكم العسكري · والنازيون كذلك اضطهدوا اليهود ،ليس بسبب ديانتهم فقط وانما ـ ببساطة ـ لانهم خلقوا يهود · صحيح احيانا ان هنالك اسبابا « خاصة » ايضا للاضطهاد الذي مارسته هذه الفئة او تلك ضد اليهود ، ولكن الدين كان دائما من بين هذه العوامل · ثم لماذا الذهاب بعيدا ؟ ما قول سمير ايوب في نظام عربي معين ، يزعم ان اليهود في بلده مواطنون متساوون في الحقوق والواجبات ، ثم تكتب على بطاقات الهوية التي تمنح لهم ، وباللون الاحمر الصارخ ، كلمة « موسوي » على كل صفحات بطاقة الهوية ؟ وما قوله ايضا في نظام اخر ، يصدر قانونا ترد فيه صراحة هذه العبارة : « تصادر املاك اليهود ··· » (وعندما قامت اسرائيل بعمل من هذا القبيل لجأت ، على كل حال الى اسلوب عنصري اكثر « رقيا » ، فاستعملت في قوانينها عبارات مثل « تصادر املاك الغائبين » او «اللاجئين» ولم تستعمل ابدا كلمة « عرب ») · والقانون اياه يحمل تواقيع كل الوزراء، مضافا اليهم توقيع رئيس الجمهورية نفسه · وتقوم اسرائيل بعرض صورة عنه في الامم المتحدة ، على مرأى ومسمع ممثلي كافة دول العالم، مستغلة الفرصة للتشهير بالعرب باسرهم · ورغم ذلك يترك القانون على حاله ·

وباختصار : ان اضطهاد اليهود كان من بين العوامل التي ساعدت الصهيونية على تحقيق اهدافها ، وبالتالي ليس من مصلحتنا السكوت عليه ، لا بسبب انسانيتنا فقط ، بل لان الامر يلحق ضررا مباشرا بنا ·

وانطلاقا من التقاليد « القومجية » يعيب علينا سمير ايوب ايضا قولنا في مقدمة الكتاب (ص ٩) ان « الحركة الصهيونية ··· من اشد الحركات خطورة، لا على الفلسطينيين وحدهم ، وانما على العرب ايضا » ، باعتبار ان الفلسطينيين عرب ، ولذلك فالخطر عليهم خطر على العرب ايضا · ومنطقيا يبدو هذا الاعتراض صحيحا ، الا ان الموضوع الذي نعالجه يجبرنا على التمييز بين الطرفين ، من حيث نوعية الخطر الذي يتعرضون له · اننا نتعامل مع الصهيونية ، التي تسعى الى نفي وجود الفلسطينيين باسرهم تمهيدا لالغائهم كشعب ، بينما ليس هو موقفها بالنسبة لباقي العرب ، الذين تشعى للوصول الى « اتفاق » معهم ، وان تم ذلك من خلال سعيها الى تحقيق اهدافها اولا · ولذلك اضطررنا الى التمييز بين الفلسطينيين والعرب ، لكي نستطيع شرح المخططات الصهيونية بشكل افضل ، وبالتالي تقدير ابعاد خطورتها على كافة الاصعدة · ونعتقد اننا بهذا التمييز ، الذي لجأنا اليه اضرارا ، لم نرتكب « مخالفة » منافية للتعاليم «القومجية» ـ وان كان الامر كذلك ، نرجو المعذرة، فهذا خطأ غير مقصود ·

والتفسير نفسه ينطبق على اعتراضات سمير ايوب على وصفنا سكان قرية المطلة بانهم دروز (ص ١٣٣ من الكتاب) ، لان « هؤلاء السكان هم عرب فلسطينيون يرفضون الاكتفاء بتصنيفهم دروزا فقط » · وللمرة (س) ، لو كان سمير ايوب على اطلاع ، ولو لماما ، على بعض اساليب الدس الصهيونية ، لادرك سبب اثبات كلمة « دروز » بالذات · ان اسرائيل ،

في مساعيها لتفتيت العرب الفلسطينيين الذين بقوا داخلها منذ سنة ١٩٤٨ ، عمدت الى تصنيف الدروز كـ « قومية » منفصلة قائمة بحد ذاتها ، ثم ادعت ان الصهيونية صديقتها · ومن يعلم ذلك بحكم اطلاعه على الشؤون الصهيونية والاسرائيلية ولو سطحيا ، يدرك حال قراءة كلمة «الدروز» ان الموقف الصهيوني منهم لا يختلف ابدا عن الموقف من باقي العرب ، ولم يكن مختلفا في الماضي · والهدف هو السخرية العابرة من الادعاءات الصهيونية في هذه الناحية ·

(٢)

وننتقل من هذه الملاحظات الى الرد على ما ذكره المراجع حول « محتوى الكتاب »· ولا بد في هذا الصدد الا ان نؤكد اولا ما اشرنا اليه اعلاه من ان سمير ايوب قد تهرب من التعامل مع وجهات النظر او الاطروحات او النتائج التي اثبتت فـي الكتاب · وسبب ذلك ، بحسب رأينا ، واضح للغاية : جهله في الشؤون الصهيونية · وليس في هذا ، على كل حال ، اي عيب ـ فالاطلاع على الشؤون الصهيونية ، في نهاية الامر ، ليس احد متطلبات عصرنا · ولكن العيب ، كل العيب ، يكمن في ادعاء المعرفة والتبجح بالعلم ، عندما تكون الحقيقة عكس ذلك تماما · وبسبب هذا النقص الاساسي المفضوح في معلومات سمير ايوب واطلاعه على موضوع الكتاب ، ترك اللب واتجه نحو القشور ، يفتش فيها عن نواح تساعده على عملية الطعن والذم ، التي قرر القيام بها · ولما صعب عليه ذلك ، عمد الى لي يد الحقيقة ، فنسب لبعض المواد معاني لا تتحملها ، من خلال تجاهل مغزى البحث وفحواه ، وحاول الضحك على ذقون الاحياء ، فوصل احيانا الى حد الانخراط في عملية دس ، لا تثير احتراما كبيرا ·

ولكي لا نظلم سمير أيوب ، سنتجنب الرد على الانتقادات « الخفيفة » التي وردت في مراجعته حول محتوى الكتاب · ونركز على الانتقادات « الجدية » ذات العيار « الثقيل » :

١ ـ ينسب لنا المراجع ، بعد قراءة الكتاب ، استنتاجا (ص ١٥٠ ، العمود الثاني) مفاده ان « هرتسل كما يقول [المؤلف] كان يرى في بداية تصهينه ان حل المسألة اليهودية في أوروبا هو في شراء منطقة ما في العالم واقامة دولة لليهود فيها » · والقول هذا غير صحيح، ويبدو ان المراجع لم يستطع حتى قراءة الكتاب جيدا · ان اول ما اقترحه هرتسل لحل المسألة اليهودية ، وبالتالي مشاكل اليهود باسرهم ، هو دفعهم نحو اعتناق المسيحية ، شرط ان يتم ذلك « بمسيرة احتفالية ، بقرع اجراس ··· وبدون خجل » (ص ١٤٥ من الكتاب) ·

٢ ـ وما دمنا بصدد الحديث عن هرتسل ، تنبغي الاشارة الى ان المراجع « يكتشف » في الكتاب ايضا « تناقضات داخلية » بشأن « روايات الكاتب عن قصة هرتسل » (ص ١٥٦ ، اخر العمود الاول) · ويورد في هذا الصدد ٣ روايات مختلفة يزعم ان المؤلف يتبناها ، ثم يتساءل اي من الروايات ينبغي تصديقها ؟ والجواب بسيط ـ لا ينبغي تصديق اي من الروايات الثلاث ! وليس في الامر اي « تناقض داخلي » او غرابة ، الا وفقا لمفاهيم سمير ايوب المبتورة الخاصة به · وهاك توضيحا ·

عند دراستي لهرتسل ونشاطه اوليت ، بالطبع ، اهتماما خاصا باسباب تصهينه، وبذلت جهدا للاطلاع عليها ، فالرجل في نهاية الامر هو مؤسس المنظمة الصهيونية العالمية ، وبالتالي ليس مجرد شخصية ما في تاريخ الصهيونية ، يمكن المرور عليها

مرور الكرام · ولكني ، رغم محاولاتي العديدة ، لم استطع الوصول الى نتيجة تقنعني ، بسبب التناقض بين المصادر التي تتطرق الى هذه الناحية · ولذلك اثبتت اخيرا تلك الروايات ، ومن بينها روايات هرتسل نفسه عن اسباب تصهينه، وحرصت على ابداء تحفظي الواضح تجاهها جميعا · وعليه كتبت (ص ٤٩) : « ··· اسدت محاكمة درايفوس ··· خدمة جليلة للصهيونية ، اذ ان صيحات العداء لليهود التي كانت تطلق في اثنائها، جعلت من هرتسل ،مؤسس المنظمة الصهيونية العالمية ـ اذا اردنا الاعتماد على مذكراته ـ صهيونيا » · هذا ما يقوله هرتسل، وتحفظي على هذا القول كامن ، كما هو واضح ، في جملة « اذا اردنا الاعتماد على مذكراته » · وفي الصفحة ١٤٥ اوردت صيغة اخرى للرواية ، وان كانت لا تختلف كثيرا عن الاولى ، فكتبت : « وهي المحاكمة [اي محاكمة درايفوس] التي جعلت من هرتسل صهيونيا ـ كما يقول في احدى مقالاته ··· » · وهذا ايضا يقوله هرتسل نفسه ، في مكان اخر من كتاباته · وتحفظي على هذا القول كامن ، كما هو واضح ايضا ، في جملة « كما يقول في احدى مقالاته » · وفي الصفحة ٧٣ من الكتاب اوردت ايضا تفسيرا ـ رواية اخرى لاحد مؤرخي الصهيونية البارزين ونسبتها له ، فكتبت : « وقد تكون تعاليمه [اي الحاخام الكلعي] هي التي غرست في قلب هرتسل الفتى بذور الصهيونية ··· » · والتحفظ كامن في كلمة « قد » · وعليه لم « اقرر» ابدا ، كما يزعم سمير ايوب ، ان كل تلك الروايات او اي منها صحيح ، بل على العكس تحفظت تجاهها جميعا واوردتها على هذا الشكل لانني لم اجد تفسيرا مقنعا لاي منها ، وتركت الحكم للقارىء · فاين « التناقض الداخلي » ؟ ترى الا يحق لنا ان نتساءل حول نوعية اللغة التي اعتاد سمير ايوب على قراءتها او استعمالها ، والتي يبدو انها لا تعترف بشيء يسمى تحفظا ، وتكتفي بالنبرة العالية والالفاظ الرنانة الطنانة ؟ وهل من الضروري اضافة هذه « الميزة » الى « المآثر » الاخرى ؟

٣ ـ وفي مسلسل « التناقضات » التي يوردها المراجع يتساءل ايضا (ص ١٥٦ ، العمود الثاني) عن مبرر طلب اليهود في فلسطين ، ايام الحكم العثماني الحماية من الدول الاجنبية بينما كانوا يتمتعون بالحرية الدينية وبالاوضاع السياسية المريحة · « والتناقض » المزعوم هذا يتعلق بما جاء في الصفحتين ٦٠ و ٦٤ من الكتاب · والجواب بسيط وقد ورد بين الصفحتين المشار اليهما ، وبالذات في الصفحتين ٦٢ و ٦٣ ! وفحوى الجواب هو ان اولئك اليهود قد طلبوا الحماية لكي يحصلوا على امتيازات اضافية ، يستطيعون بواسطتها تقوية مركزهم عند التعامل مع السلطات ، وباقي سكان البلد · اما السبب الثاني لطلب الحماية من قبل اليهود فهو حث الدول الاستعمارية ، وعلى رأسها بريطانيا ، اياهم على طلب حمايتها ، لكي تستطيع ايجاد من « تحميه » في فلسطين ، فتتمكن بذلك من التدخل في شؤون البلد الداخلية · وهذان التفسيران واردان في الكتاب · والسؤال الذي يطرح نفسه الان : كيف غاب عن بال سمير ايوب رصد هذا التصرف الاستعماري ، المذكور صراحة في الصفحة ٦٣ من الكتاب ، لاضافته الى معلوماته الاخرى في هذا الصدد ؟

٤ ـ ومن « التناقض » المزعوم السابق، الى تناقض اخر · ان سمير ايوب يتساءل (ص ١٥٦ ، العمود الثاني و ص ١٥٧ ، العمود الاول) عن سر عدم تاثير

المساعدات التي قدمها مونطفيوري على تحسين اوضاع اليهود في فلسطين ، في منتصف القرن الماضي ، رغم قلة عددهم نسبيا ـ « وهذا امر غريب بحاجة الى تفسير وتعليل » · واليك بهما : لم يستطع مونطفيوري ان ينقل اولئك اليهود من حياة الخمول التي كانوا يعيشونها الى حياة العمل المنتج ، لان المفاهيم الدينية التي كانت سائدة بينهم دفعتهم الى تحديد هدفهم في الحياة بانه اقامة الصلوات ، انتظارا لقدوم المسيح ـ المخلص ، وليس تعاطي اي عمل دنيوي · بل كانوا يعتقدون ان من « واجب » الاخرين هو تقديم المساعدات لهم ، لكي يتفرغوا لاقامة الشعائر الدينية المختلفة · ولذلك عندما توقفت المساعدات ، التي صرفت لتلبية الحاجات اليومية ، دون الاهتمام بمشاريع للمستقبل ، عاد الوضع الى ما كان عليه ، وبقيت اوضاعهم كما كانت دون تحسن يذكر ·

٥ ـ ويتساءل المراجع ايضا حول « تناقض » مزعوم اخر (ص ١٥٧ ، العمود الاول) و « التناقض » قائم ، بحسب رأيه ، بين الصفحة ١٢٤ من الكتاب ، حيث جاء ان المستوطنين الصهيونيين كانوا متعلقين بجهاز موظفي روتشيلد ، والصفحة التالية حيث الحديث عن صدامات نشبت بين الطرفين · ولا شك ان « مستوى » لا بأس به من عدم القدرة على فهم النص المكتوب واستيعابه ، حتى وان كان بالعربية ، هو الذي دفع سمير ايوب الى ايراد مثل هذه الاعتراضات · لقد اشرنا في الكتاب عند الحديث عن هواة صهيون ان مصادرهم المالية قد نضبت بعد وقت قصير من قدومهم الى فلسطين ، فكادوا يفلسون ، لولا تدخل روتشيلد الذي وعد بتقديم المساعدات لهم ، من خلال جهاز موظفين معين من قبله يتولى ادارة تلك المستوطنات · ومن الطبيعي ان يتعلق الموظفون بهذا الجهاز، في بداية تعامله معهم ، خصوصا بعد ان عرض نشاطه كأنه يهدف الى تخليصهم من ضائقتهم المالية ـ فروتشيلد وجهاز موظفيه انقذوا المستوطنين في نهاية الامر من كارثة مالية · ولكن مع مرور الوقت راح اولئك الموظفون يسيطرون تدريجيا على حياة المستوطنين ونشاطه وطريقة معيشته باسرها (وهذا ما جاء الكتاب على ذكره) ، ويصرفون الاموال المخصصة للمستوطنين على هواهم ، من خلال اساءة استعمال الصلاحيات الممنوحة لهم ، كما يحدث في حالات من هذا النوع ، ولذلك نشبت الصدامات بين الطرفين · فما هي الغرابة في ذلك ؟ وما هي صعوبة «فهم» الامر ؟ بل ما هو مبرر التساؤل ؟

٦ ـ وفي الصفحة ١٥٥ ، العمود الثاني يكتشف سمير ايوب ايضا « تناقضا » اخر ـ وما اكثر « اكتشافاته » ـ فيتساءل لماذا نعتبر طرد اليهود من اسبانيا سنة ١٤٩٢ بداية لنشوء المسالة اليهودية بمفهومها الذي شكل احدى مقدمات الصهيونية ، بينما كان اليهود قد طردوا من بريطانيا سنة ١٢٩٠ · ورغم « الخفة » التي ينم عليها مثل هذا التساؤل ، الذي لا تترك المادة الواردة في الكتاب مجالا لطرحه ، فالجواب بسيط للغاية : ان يهود بريطانيا، عند طردهم سنة ١٢٩٠ ، شكلوا اقلية هامشية بالنسبة لعدد اليهود في اوروبا باسرهم ، ولذلك لم تؤثر عملية طردهم ، التي كانت منفصلة عما سبقها او تبعها من تطورات في هذا المجال ، على اوضاع اليهود ككل · اما عملية الطرد من اسبانيا فقد كانت اوسع نطاقا ، ثم اصبحت فاتحة لعمليات اخرى مماثلة في بعض الدول الاوروبية ، كانت نتيجتها انتقال اكثرية اليهود للعيش في بولونيا وروسيا الشرقية · ومن هنا التغيير الجذري في اوضاعهم ، ثم بداية تبلور المسالة اليهودية · فما هو مبرر التساؤل ، والحديث عن « تناقض » ، خصوصا وان

بحث هذا الموضوع في الكتاب واضح للغاية ؟

٧ ـ وفي الصفحة نفسها من المراجعة تساؤل اخر ايضا ، ينم عن « خفة » اكبر لدى المراجع : اذا كانت معرفة العبرية منتشرة بين اليهود خلال النصف الاخير من القرون الوسطى ، فلماذا لم تحظ الكتب العبرية التي صدرت انذاك بانتشار واسع ؟ ـ لانها كتبت جميعا من قبل المسكيليم ، الذين كانوا اقلية اعتبرت الاكثرية اليهودية المتدينة المحافظة كتاباتها نوعا من الهرطقة ، ولذلك ضيقت الخناق عليها وعملت على منع انتشارها · والكتاب يتناول قصة الصراع الشرس بين المسكيليم ، ودعواتهم الى النهضة ، وبين المتدينين المتزمتين الخاملين بشكل واضح ·

٨ ـ وفي مكان اخرمن المراجعة (ص ١٥٦ ، العمود الاول) يتجرأ سمير ايوب حتى على اتهامنا بـ « التورط » (!)، نتيجة لما ينسبه لنا من قولنا « ان الثورة الصناعية والنمو الرأسمالي اقتلعا اليهود من جذورهم في اوروبا الشرقية ولكنهما ساعدا على استيعابهما في اوروبا الغربية » · وعمليا ، لم نقل ذلك ابدا ،بل قلنا ان اوروبا الغربية استوعبت يهودها نتيجة للثورة الصناعية · اما اوروبا الشرقية فقد لفظت سكانها اليهود ، نتيجة لتلك الثورة ، فهاجرت اكثريتهم الى اميركا الشمالية ، وقلة منهم فقط استوعبت في اوروبا الغربية · ولذلك فان الحديث عن « تورط » لا طعم له ، اذ ان المراجع هو الذي تورط في اساءة فهم المادة المكتوبة امامه بالعربية والمطبوعة بالحبر الاسود على الورق الابيض ·

٩ ـ ويستطرد المراجع ويتساءل في الصفحة نفسها من مراجعته : هل الرأسماليون اليهود قلة او كثرة ، اذ في وارسو وحدها ١٢ مليونيرا · ترى ما المبرر لمثل هذا التساؤل ؟ فحتى لو كان هنالك ١٢٠ مليونيرا ، لا ١٢ فقط بين ٥ ملايين يهودي ، الا يعتبرون قلة ؟

١٠ ـ ولا بد من الرد على انتقادات سمير ايوب « الثقيلة » برفض زعمه ، او افتراءه ، بانني تبنيت الرأي القائل « بان وعد بلفور قد جاء بمثابة مكافأة لوايزمان من لويد جورج بسبب الخدمات التي قدمها للمجهود الحربي لبريطانيا خلال الحرب العالمية الاولى » (ص ١٥٢، العمود الثاني) · وهذا القول غير صحيح على الاطلاق وناجم عن طريقة فهم ، واحيانا لا تفهم ، المراجع الغربية لما يقرأه · ان القطعة التي اتطرق فيها الى علاقة البريطانيين والصهيونيين فيما يتعلق بوعد بلفور واسباب صدوره تبدأ في الصفحة ٢٧١ من الكتاب وتنتهي في الصفحة ٢٩٠ منه · وملخصها ـ وهذا ما « اتبناه » وهذا هو رأيي ـ هو ان البريطانيين لم يهتموا كثيرا وجديا بالحركة الصهيونية الا ابتداء من سنة ١٩١٦ ، وبعد ان قرروا استغلالها كأداة ضغط تجاه الفرنسيين لحملهم على التنازل عن الامتيازات التي اعترفت بريطانيا لهم بها في اتفاقية سايكس ـ بيكو ، لكي يكون لبريطانيا نصيب اكبر عند السيطرة على المشرق العربي ، بعد انتهاء الحرب · ولذلك شجعت بريطانيا الصهيونيين على التقدم بطلباتهم وادعاءاتهم تجاه فلسطين ، شرط ان يتم ذلك تحت الاشراف والحماية البريطانيتين، وبشكل يخرج الفرنسيين وباقي الموقعين مع بريطانيا ، واولهم الايطاليون ، على اتفاقية سايكس ـ بيكو من الصورة قدر الامكان ، ويترك لبريطانيا وحدها اكبر قدر من الغنائم · وهذا هو فحوى التحالف البريطاني الاستعماري ـ الصهيوني الذي ادى الى اصدار وعد بلفور · وما قاله لويد جورج عن مكافأة لوايزمان

ليست الا احدى التبريرات التي اعتاد الساسة البريطانيون تقديمها فيما يتعلق باسباب اصدار وعد بلفور لتغليف مطامعهم ومخططاتهم الاستعمارية · وقد اوردنا كلام لويد جورج في هذا السياق ، وتحفظنا عليه ، وقلنا انه هو الذي يقول ذلك ـ لا نحن (انظر ص ٢٨٠ من الكتاب) · واعتراضات سمير ايوب ، في هذا الصدد ، هي محاولة لقلب الحقائق رأسا على عقب ، وتكاد تصل حتى الدس ·

ونكتفي بهذا القدر من الردود على انتقادات سمير ايوب العينية ، حتى لا نثقل على القارىء ، مؤكدين ان الانتقادات الاخرى المشابهة لها لا تختلف كثيرا ، في « مستواها » ، عن تلك التي تعرضنا اليها في هذا الرد ·

(٣)

وننتقل اخيرا الى الاعتراضات حول المنهج · وقبل ان ندخل في صلب الموضوع ، لا بد من الاشارة الى ان سمير ايوب كان غير منهجي عند حديثه عن المنهج ، اذ انه يتطرق الى هذه الناحية في فقرات عدة من مراجعته ،دون ان يربط بينها ، وكذلك ـ وهذا هو المهم ـ دون مبرر · ومثل هذا العمل يعتبر منافيا لابسط اسس الكتابة العلمية الصحيحة ، اذ لا يجوز ان يجزأ الحديث حول نقطة معينة ، خصوصا اذا كانت واضحة ومحددة ، على طول المادة المكتوبة وعرضها ، بل على العكس من ذلك ينبغي تجميعه كله في فقرة او فقرات محددة في مكان واحد ·

ففي الصفحة ١٥٣ (العمود الاول) من المراجعة يتحفنا سمير ايوب باول ارائه عن المنهج ، قائلا : « ان لا تاريخ دون فلسفة تاريخية متماسكة » ، بينما يرد الرأي الثاني في الصفحة ١٥٤ (اخر العمود الاول ومطلع العمود الثاني) ومفاده ان « ما يحفظ التاريخ السياسي هو الفكرة والعناوين الكبرى ··· والتفاصيل وحدها كما يقول فلاسفة التاريخ لا تكفي للارتقاء درجة واحدة في الفهم » · أما الرأي الثالث فيرد في الصفحة ١٥٧ (العمود الثاني) وهو ان « ··· المنهج متصل بالعقل والفكر الانساني · وكل منهج علمي لا بد له من وجود فرض · ومصدر الفرض في بعض الاحيان قد يكون التساؤل وقد يكون الظن · ويشمل المنهج الفرض والتساؤل والظن والاختيار النظري » · وهنالك ايضا رأي رابع ، يرد في الصفحة ١٥٨ (العمود الاول) حيث يظهر سمير ايوب اكثر وضوحا ، فيكتب : « الباحث ينفعل بالواقع ويقف منه موقفا معينا ·· يحب ويكره ··· ولن يستطيع ان يكون باحثا حقيقيا الا اذا ترجم مشاعره الى خيال · فالخيال بحد ذاته يلهم الباحث ويضع امامه امكانيات واختيارات عديدة » ·

ومع تجميع هذه الاراء وقراءتها سوية، ينفضح امر سمير ايوب وتظهر مشكلته الحقيقية : انه يتحدث بنبرة عالية ، وثقة بالغة بالنفس عن المنهج ، ولكن لا منهج لديه ! انه لا يقترب بتاتا من الناحية العملية ، ولا يقترح علينا اي منهج ، وحتى لا يبدي رأيه من اي المناهج التي كان علينا ان نعتمدها لكتابة تاريخ الصهيونية · وان كانت هذه الحال فما الحاجة الى الكلام المنمق في المراجعة حول المنهج ، وما الفائدة منه ؟

وبغياب اي رأي واضح لسمير ايوب حول المنهج الذي يقترحه او يريدنا ان نتبعه ، لم يبق امامنا الا اللجوء الى التخمين لمعرفته · وليس من الصعب القيام بذلك ، اذا قرأنا المراجعة بتمعن ·

ففي الصفحة ١٥٢ (العمود الاول) يكتب المراجع ان « علاقة الاستعمار بالصهيونية في رأيي [هي] الدراسة الاساسية الرئيسية التي كان يجب ان تكون مادة الكتاب والتي تلقي الاضواء المحللة لتلك الظاهرة الاقتصادية ـ الاجتماعية ـ السياسية والمسماة بالصهيونية فكرا وحركة ودولة » ٠

ثم يكتب في مكان اخر (صفحة ١٥٨، العمود الثاني) : « لا يمكن للصهيونية الا ان تكون نتاجا لظاهرة الاستعمار الاوروبي » ٠ واذا « ركبنا » هذه الاقوال على ما اقتبسناه من كلام سمير ايوب اعلاه حول الباحث « النموذجي » بالنسبة له ـ اي الباحث صاحب « الخيال» (وهذه، على كل حال ، اول مرة نسمع فيها عن ضرورة ان يكون من بين مواصفات الباحث « الخيال » ، رغم خطورة هذه الصفة ، اذ ان الباحث « الخيالي » قد يتحول الى باحث كاذب !) لاتضحت لنا صورة ما يصبو اليه سمير ايوب جليا ، وان لم يجرؤ على البوح به ٠ انه يريدنا ان نضع النتيجة التي ينبغي ان يصل اليها البحث سلفا ، وربما في اول فقرة في الكتاب (وذلك بواسطة اللجوء الى « الخيال ») ، وهي ان الصهيونية ليست الا نتاجا للاستعمار واحدى ادواته ٠ وكلها ما فيها وما يتعلق بها استعمار في استعمار ٠ ثم ننطلق من هذه النتيجة المحددة سلفا نحو اثباتها سلفا ايضا ٠ واذا اتضح ان هذا ليس هو الواقع بالضبط ، واشار البحث الى نواح اضافية ليس من السهل تجاهلها ، وقد تمس بالفرضية الاساسية ، فينبغي ان ندجل ونزور ونكذب ونتحايل ونلوي يد الحقيقة ، لكي نصل الى النتيجة المحددة سلفا٠٠ وقد قدم ، على كل حال ، عدد من الكتاب العرب والاجانب اكثر من كتاب « قيم » من هذا النوع عن الصهيونية ٠ ولا شك اننا لو اتبعنا هذا الاسلوب ، و « طعمنا » عملنا باقتباسات من بعض المصادر العبرية ،من خلال استعمال « الخيال » ، لقدمنا كتابا يتهافت عليه الغوغائيون على اختلاف انواعهم ، ولقرأه العديد منهم بشغف ، واغدقوا علينا كافة الاوصاف «الحميدة» ـ ولازدادوا في الوقت نفسه جهلا بالصهيونية ، لاننا في هذه الحالة لن نكون قد قدمنا الا طبعة معاكسة للكتاب اللاسامي سيء الصيت « بروتوكولات حكماء صهيون » ٠

ان مسالة المنهج الذي اتبعناه لوضع الكتاب ، على كل حال ، ليست ثانوية ، بغض النظر عن مزاعم سمير ايوب بشانه٠ ونعتقد انه لا بد لنا من توضيحه ، خصوصا وان تساؤلات حوله قدمت لنا من قبل اشخاص عدة ، بعضهم من « المتحمسين » للكتاب ٠ ويمكنني القول ان المنهج الذي اعتمدته هو ، ان صح التعبير ، « منهج مركب » يجمع بين عناصر من مناهج اخرى وان كان لا يأخذ بها كلها ٠ والسبب ؟ ـ لقد اتضح لي ان مثل هذا المنهج هو الوحيد الذي يمكن اللجوء اليه لفهم مركب الصهيونية ، المؤلفة من عناصر عديدة ،تبدو احيانا غير منسجمة، بل ومتناقضة ٠ والامر بحاجة الى توضيح وتفسير ٠

مما لا شك فيه ، مثلا ، ان هنالك علاقة عضوية وترابطا وثيقا بين الاستعمار والصهيونية ان كان ذلك نظريا ، اي بتبني الصهيونيين الفكرة الاستعمارية والادعاء بانه « يحق » لليهود ، اسوة بباقي الدول الاوروبية ، خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر ، السيطرة على منطقة ما في اسيا وافريقيا واستغلالها لصالحهم ، او عمليا، بواسطة التعاون الوثيق بين الصهيونيين والمستعمرين للسيطرة على فلسطين وجوارها ٠ ولا حاجة للتعمق كثيرا في هذا الموضوع ، فهو واضح ومعروف

جيدا · الا ان الادعاء ، استنادا الى ذلك، ان الصهيونية ظاهرة استعمارية لا غير ، ليس صحيحا على الاطلاق · ولو كان الامر كذلك ، وكانت الصهيونية جانبا من مؤامرة استعمارية فقط ، مخطط لها سلفا ، لما كان الصهيونيون بحاجة ـ مثلا ـ الى قضاء وقت طويل ، اي نحو ٣٦ سنة ، منذ بداية الهجرة الاولى سنة ١٨٨١ (هذا اذا لم نعد الى سنة ١٨٦٢ ، عندما صدر كتابا كاليشر وهس) وحتى سنة ١٩١٧ ، يفتشون فيه عن دولة استعمارية تتبنى مخططاتهم وطروحاتهم ، دون طائل ، الى ان حانت الظروف الملائمة لذلك ، وتغيرت المواقف فصدر وعد بلفور · ولذلك فان الاستناد الى اي منهج يأخذ بالقول ان الصهيونية هي ظاهرة استعمارية فقط لا غير ، ثم استعمال هذا المنظار لوحده ، سيدفعنا نحو تبني نظرة احادية الجانب ، ولن يكون بالتالي كافيا لدراسة الصهيونية وفهمها · فهنالك ايضا عوامل اخرى تدخل في مركب الصهيونية ، وتجاهلها سيمس بالقدرة على فهم افضل لتلك الظاهرة من كافة نواحيها · والامثلة على ذلك عديدة ·

فبالاضافة الى التأثير الاستعماري ، لعبت ايضا اوضاع اليهود الاقتصادية والاجتماعية والسياسية في اوروبا خاصة ، منذ منتصف القرن التاسع عشر ، وموقف الاخرين منهم ، دورا مهما في دعم الصهيونية ، لا نظريا فقط ، بل عمليا ايضا ، وساعدتها على اقامة اسرائيل · ونظرة سطحية وسريعة للغاية الى تاريخ الصهيونية تثبت ذلك · فالاسامية واضطهاد اليهود ساهما ، نظريا ، في بلورة الفكرة الصهيونية ، ثم تطبيقها عمليا باشكالها المختلفة · فلولا المذابح التي وقعت في روسيا ، في مطلع الثمانينات من القرن الماضي ، التي مست بشكل واضح باليهود ، الذين كانوا يمرون انذاك في اوضاع اقتصادية متدهورة ، نتيجه لاتجاه روسيا القيصرية الى السير على طريق النمو الرأسمالي ، لما بدأت الهجرة اليهودية من هناك ، ولما اتجه جزء من اولئك المهاجرين الى فلسطين لاقامة المستوطنات الصهيونية الاولى فيها · ولولا ازدياد الاوضاع سوءا في روسيا القيصرية ، بعد هزيمتها في حربها مع اليابان سنة ١٩٠٤ ، لما بدأت ما عرفت باسم الهجرة الثانية الصهيونية الى فلسطين ، التي ارست اسس النظام الصهيوني في البلد · ولولا السياسة الاقتصادية الضاغطة على اليهود ، التي انتهجتها بولونيا بعد استقلالها ، مع انتهاء الحرب العالمية الاولى ، لما اضطر عدد من يهود ذلك البلد الى الهجرة الى فلسطين خصوصا بعد ان وضعت الولايات المتحدة ـ وهي حتى ذلك الوقت محط انظار معظم المهاجرين من اوروبا وغيرها ، قيودا على الهجرة اليها من اي مكان في العالم · بل يمكننا القول انه لولا ظهور هتلر والنازية لما قامت اسرائيل كدولة · كذلك يمكن القول انه لولا التواطؤ بين الاستعمار والصهيونية وبعض الانظمة الرجعية العربية ، الذي ادى ، في مطلع الخمسينات ، الى « شحن » اعداد كبيرة من يهود تلك الدول الى اسرائيل ، لما وصل عدد سكانها اليهود الان الى ما يزيد على ٣ ملايين نسمة · وباعتقادنا ان اي منهج يمكن ان نلجأ اليه لكتابة تاريخ الصهيونية ، قد يؤدي بنا الى تجاهل مثل هذه الوقائع ـ حتى وان لم تحظ بـ «اعجاب » بعضهم ـ سيكون ناقصا ، وسيحرمنا اعتباطا من دراسة نواح مهمة في تاريخ الصهيونية ، وسيكون عملنا بالتالي ناقصا ·

كذلك لا يمكننا ان نتغاضى عن عنصر اخر في مركب الصهيونية ، ناجم عن تأثير بعض المفاهيم الدينية اليهودية ، بالتفسيرات الخاصة التي اعطيت لها ،

على عقيدة الصهيونية وممارساتها ، وخصوصا ما يتعلق بـ « ارض ـ اسرائيل » (ص ٥٠ ـ ٥٨ من الكتاب) · ولا حاجة للذهاب بعيدا من هذه الناحية· ان اي مهتم بالسياسة ، يشاهد رئيس وزراء اسرائيل مناحيم بيغن ـ مثلا ـ وهو يتحدث بتشنجه المعهود عن « ارض ـ اسرائيل » و « حقوق » اليهود فيها ، لا بد ان يثور لديه التساؤل وحب الاستطلاع بالنسبة لهذه المفاهيم · وباعتقادنا ان اي كتاب يبحث في تاريخ الصهيونية لا يتطرق الى هذه الناحية ، ولا يفسر وجهة النظر الصهيونية بشانها، سيكون ناقصا · ولذلك لا يمكن عند التعامل مع هذا التاريخ ، اللجوء الى اي منهج ، مهما وصف بانه « علمي » او « جدلي » ، يمكن ان يدفعنا الى استبعاد البحث في تاثير بعض المفاهيم الدينية اليهودية على الصهيونية · واذا حدث ذلك فلن نستطيع الاطلاع على ناحية مهمة من العقيدة الصهيونية ، وبالتالي سنغفل تاثيرها على السياسة الصهيونية العملية · وليس في ذلك اي فائدة ، بل انه على العكس قد يكون مضرا ·

وبامكاننا اضافة نقطة اخرى الى ما اشرنا اليه ، تتعلق بتاثير نشوء الدول القومية على تفكير اباء الصهيونية ، ومن تبعهم من قادتها ومعلميها · وهذا التاثير واضح للغاية في ناحية واحدة على الاقل : محاولات احياء اللغة العبرية · لقد كان الصهيونيون هم الذين بذلوا الجهود الكبيرة ، دون غيرهم من اليهود ، لاحياء اللغة العبرية وجعلها لغة عصرية متداولة يستعملها اليهود في حياتهم اليومية (مقابل اهمال الايديش ، بل ومقارعتها) انطلاقا من الراي القائل ان « دولة قومية » ينبغي ان تكون لها « لغة قومية » خاصة بها · وقد نجحوا فعلا في محاولات احياء تلك اللغة ، على الاقل داخل اسرائيل · إلا ان مسالة احياء اللغة لم تكن ، في نهاية الامر ، الاعنوانا لصراعات واسعة ومستمرة داخل الطوائف اليهودية ، في اماكن مختلفة من العالم ، حول ما يسمى « الثقافة اليهودية » · وقد اتسع نطاق هذه الخلافات فوصل الى الدين ، وادى الى اضطهاد الصهيونيين لاتباع بعض التيارات الدينية اليهودية ، وخصوصا الاصلاحي منها · ولم يكن هذا بالذات في مصلحة الصهيونية على المدى الطويل · وهذه ، مثلا ، احدى نقاط الضعف الصهيونية ، التي لا يجوز التغاضي عنها ·

ان العناصر التي اشرنا اليها (والتي لا حاجة الى الاسترسال في الحديث عنها كثيرا) وغيرها هي عوامل مهمة في مركب الصهيونية ، لا يجوز اغفالها · ولكي نتمكن من دراستها جميعا ، لجانا الى استعمال ما رأينا ان نسميه « المنهج المركب » ، ومنحاه كامن في فصل « التوطئة » في الكتاب (ص ١٣ ـ ٧٠)· **ولا نزعم ان هذا المنهج هو آية في الكمال وقمة العلم ، بل نعتقد انه المنهج الوحيد الصالح للتعامل مع الصهيونية ،** وهو من هذه الناحية افضل من المناهج الاخرى ، بما في ذلك تلك التي توصف بانها « علمية » ، وتقودنا في نهاية الامر الى طريق النظرة احادية الجانب وضيقة الافق · بل نكاد نقول ان ظاهرة الصهيونية هي احدى الامثلة التي يمكن تقديمها للدلالة على بعض نواحي النقص في تلك المناهج « العلمية » ·

وختاما ، لا بد من التاكيد على ان ردنا على مراجعة سمير ايوب **لا يجوز ان يفسر كاننا نريد القول ان كتاب « تاريخ الصهيونية » غير قابل للمراجعة او النقد·** فنحن لا نعتقد ان هنالك عملا ما يمكن ان يكون متكاملا من كل الوجوه · وكان املنا ان تكون مراجعة سمير ايوب ـ على الاقل بحكم حجمها ـ من ذلك النوع من « القراءات » الذي يقوم به اناس اكفاء من حيث اطلاعهم على الموضوع ، فيساهمون بذلك في اثراء النقاش حوله ، لما فيه المصلحة العامة ·

شهريات

المقاومة الفلسطينية

عاشت المقاومة الفلسطينية على امتداد الفترة من منتصف آذار حتى منتصف نيسان ، حدثين بارزين في لبنان : الاحتلال الاسرائيلي للجنوب ، والمعركة بين قوات الردع السورية والجبهة اللبنانية في عين الرمانة ببيروت ، وكان للحدثان تفاعلاتهما العسكرية والسياسية لبنانيا وعربيا ودوليا ، وتأثيرهما المباشر على مستقبل وجود المقاومة في لبنان في ظل المعركة الدائرة منذ بدء الحرب الاهلية في نيسان ١٩٧٥ ضد هذا الوجود ٠

بدأت عملية الغزو الاسرائيلية عند منتصف ليل ١٤ آذار ، وتميزت بالقضايا التالية :

١ ـ كان العدوان الاسرائيلي واسعا وشاملا ، شاركت فيه قوات عسكرية ضخمة قدرت بين ٢٥ الف ـ ٣٠ الف جندي ، تساعدهم الطائرات والقوات البحرية ٠

٢ ـ ترافق الهجوم العسكري مع هجوم دبلوماسي عالمي قامت فيه اسرائيل بمطالبة العواصم العالمية رسميا باغلاق مكاتب منظمة التحرير الموجودة فيها ، وشمل هذا الطلب بلدانا مثل النمسا والسويد واليابان وبلجيكا والولايات المتحدة ، والتي رفضت كلها الاستجابة لطلب اسرائيل ٠

٣ ـ واجه الغزو الاسرائيلي مقاومة صلبة ومستمرة من الفدائيين الفلسطينيين تسترت عليه اسرائيل في اليوم الاول ، ثم اضطرت للاعلان عنه في الايام التالية ، وجاء هذا الاعلان المتكرر على لسان مردخاي غور رئيس الاركان ، الذي خص بالذكر معركتي بنت جبيل ومارون الرأس ، وقال ان القتال فيهما كان من بيت الى بيت ٠

٤ ـ ان مقاومة الغزو والاحتلال لم يقتصر فقط على الفدائيين الفلسطينيين ، بل ساهم فيه اللبنانيون ايضا بثلاثة اشكال : مقاتلون لبنانيون مع الفدائيين (بنت جبيل) ، مقاتلون لبنانيون في منظمات الحركة الوطنية (الناقورة ومارون الرأس) ، مقاومة لبنانية من الاهالي (حداثا وصفد البطيخ) ٠

٥ ـ قامت القوات الانعزالية اللبنانية المتواجدة في منطقة مرجعيون برئاسة الرائد سعد حداد ، بالتعاون مع القوات الاسرائيلية الغازية وتقديم التسهيلات لها ، والترحيب بوجودها واهدافها ٠

الهدف الاسرائيلي :

وفي اليوم الاول للهجوم (١٤ آذار) اعلنت اسرائيل ان هدفها منه ليس الانتقام لعملية كمال عدوان الفدائية

التي نفذت في قلب تل ابيب بل كما جاء في بيان رسمي :

١ ـ القيام بعملية تطهير (للفدائيين) على طول الحدود اللبنانية ٠

٢ ـ اجتثاث قواعد « الارهابيين »قرب الحدود ، وضرب القواعد الخاصة التي انطلق منها « الارهابيون » في عملياتهم في عمق اسرائيل ٠

وفي اليوم الثاني للهجوم (١٥ آذار) اعلن مناحم بيغن رئيس الوزراء ان قواته ستحتل شريطا بعرض ١٠ كلم ، ولن تنسحب منه الا بعد توقيع اتفاق يضمن ان لا يبقى فلسطيني واحد في المنطقة ٠

واعلن عيزر فايتسمان وزير الدفاع الاسرائيلي في اليوم الثالث للهجوم (١٦ آذار) ان اسرائيل ستبقى في منطقة الحدود الى ان يتم ضمان الامن ٠ واعلن في اليوم الرابع (١٧ آذار) من مرجعيون ان « على منظمة التحرير ان تخرج من كل لبنان وان تعود الى سوريا والاردن ومصر » ٠

وقد طرأ على هذا الهدف الاسرائيلي المعلن لعملية الغزو تغير جوهري ، بسبب المقاومة التي واجهته من جهة ، وبسبب التطورات الدولية التي رافقته من جهة اخرى ٠ ففي اليوم الثالث للهجوم اعلنت الولايات المتحدة الاميركية على لسان هودنغ كارتر الناطق بلسان وزارة الخارجية انها تؤيد دعوة لبنان لعقد مجلس الامن، وان احدى الترتيبات ستكون تشكيل قوات سلام دولية ، وان الولايات المتحدة تتوقع من اسرائيل ان تنسحب من المنطقة التي احتلتها ، وستقوم بكل الجهود من أجل مساعدة لبنان على استعادة سيطرته على جميع ارجاء بلاده ، وربط ذلك « بالحاجة الى ترتيبات امنية تحمي اسرائيل من هجمات الفدائيين الفلسطينيين » ٠ وقد اجتمع مجلس الامن يوم ١٧ آذار ، واستمع يوم ١٨ آذار الى مشروع قرار اميركي يتضمن ارسال قوات عسكرية تابعة للامم المتحدة الى الجنوب، وصدر نص القرار يوم ١٩ آذار ، يدعو اسرائيل للانسحاب الفوري ٠ وقد قامت اسرائيل في محاولة لاستباق قرار مجلس الامن باحداث تغيير على اهدافها المعلنة للغزو ، اذ اعلن الجنرال غور يوم ١٨ آذار « اذا استمرت مقاومة الفدائيين الفلسطينيين فان الجيش الاسرائيلي لن يجد بديلا سوى مواصلة الاندفاع نحو الشمال » اي خارج « حزام الامن » الذي اعلنه بيغن والذي يصل عمقه الى ١٠ كلم، وعاد غور ليعلن صراحة يوم ١٩ آذار «لم نعد الان نتحدث عن حزام امني ، بل عن اتفاق عام ، وعن تدبير يقام في المنطقة، ونأمل بان يشمل الاتفاق السياسي جنوب لبنان كله ، وان يضع نهاية لنشاط « الارهابيين » في جميع انحاء العالم » ٠

ثم قام وزير الدفاع الاسرائيلي يوم ٢٠ آذار بتوسيع نطاق هذه المطالب من جديد فقال : « ما لم يحدث تغير اساسي فاننا سنبقى حيث نحن الى حين التوصل الى حل » ، والحل « اتفاق يضمن امننا » ، وشروط هذا الحل اربعة :

١ ـ الغاء وجود الفدائيين جنوب الليطاني ٠

٢ ـ بقاء بوابات «الجدار الطيب» مفتوحة ٠

٣ ـ عودة ميناء صور كميناء تجاري ٠

٤ ـ استبعاد وجود الفدائيين في صيدا والمخيمات المجاورة ٠

وفي ظل هذه الاهداف الاسرائيلية صدر قرار مجلس الامن الذى يدعو اسرائيل للانسحاب الفوري والكامل ، مع

السعي لعودة السلطة اللبنانية ، وتمركز القوات الدولية ، ولكن اسرائيل واصلت قتالها حول مدينة صور بعد صدور القرار (٢٠ آذار) ، وانتظرت حتى يوم ٢١ آذار لتعلن عن وقف اطلاق النار من جانب العدو ٠

الموقف الفلسطيني :

ركز الموقف الفلسطيني بالدرجة الاولى على مقاومة الاحتلال ، معتبرا ان هذه المقاومة هي التي تتيح له المطالبة بأي موقف عربي دولي مساند ٠ وعلى قاعدة منها وجه عرفات في اليوم الثاني للغزو (١٥ آذار) برقيات الى الملوك والرؤساء العرب ، واجرى اتصالات هاتفية مع المسؤولين السوفيات ، ووزير الخارجية السوري عبد الحليم خدام ، والرئيس الجزائري هواري بومدين ، واميين الخارجية الليبي ٠٠٠ التريكي ٠

وفي اليوم نفسه اعلن عبد المحسن ابو ميزر الناطق الرسمي بلسان المنظمة ان الغزو يتم بتنسيق اميركي ـ اسرائيلي. وقال ياسر عبد ربه رئيس دائرة الاعلام في المنظمة ان هدف العدوان :

١ ـ اضعاف المقاومة الفلسطينية ٠

٢ ـ وضع سوريا في موقف حرج ٠

٣ ـ فرض تسوية اسرائيلية ـ مصرية٠

وذكر انه ايا كانت المكاسب العسكرية التي قد تحققها اسرائيل فانها لن تتمكن سياسيا من فرض اي شيء ٠

وفي ١٦ آذار اعلن عرفات في مهرجان ذكرى جنبلاط « نحن والحركة الوطنية اللبنانية نقاتل وحيدين على ارض الجنوب » ٠ وصدر في اليوم التالي بيان للجنة التنفيذية لمنظمة التحرير « يؤكد على واجب الدول العربية في مجابهة هذا الخطر » و « يشدد على أهمية المشاركة الكفاحية لسائر البلدان العربية في القتال الدائر ، وفتح الباب امام جماهير المتطوعين والدعم المادي والعسكري المباشر ، للاستمرار فيمجابهة الغزو » ٠ وبادرت سوريا في هذه الاثناء الى دعوة وزراء خارجية دول « جبهة الصمود والتصدي » للاجتماع في دمشق، وبدأ المؤتمر اعماله مساء يوم ١٩ آذار ، اي في اليوم الخامس لعملية الغزو ٠ وانتهى المؤتمر مساء ٢٠ آذار دون ان تكون له نتائج علنية حاسمة ، فيما تردد انه اتخذ مقررات سرية بتقديم مساعدات مادية وعسكرية وبشرية للمقاومة تمكنها من الصمود والقيام بحرب استنزاف للاحتلال الاسرائيلي ٠

وقد حصلت المقاومة بعد ذلك على مساعدات عديدة لم يعلن عن الكثير منها ، وما اعلن عنه فقط يشير الى :

☐ ٣١ شاحنة عراقية و ١٥ شاحنة سورية شوهدت تتجه يوم ٢٠ آذار الى النبطية (رويتر) ٠

☐ اعلن في ليبيا ان الدفعة الاولى من ٢٠٠ متطوع غادروا طرابلس الى لبنان ٠

☐ اعلن صدام حسين نائب رئيس مجلس الثورة العراقي ان مجموعات كوماندس ومساعدات عسكرية وصلت الى جنوب لبنان ٠

وكانت دمشق قد أعلنت رسميا يوم ١٦ آذار انها ابلغت بغداد موافقتها على تمرير المساعدات العراقية للمقاومة ٠

وقد اثار هذا الموقف العربي رد فعل لبناني حاد عبر عنه الرئيس الياس سركيس في مجلس الوزراء بقوله : « اننا نرفض تدخل اي دولة او جهة في شؤوننا

وعلى ارضنا ما لم يكن ذلك بموافقتنا ، وسنلجأ الى كل وسيلة لوضع حد لمثل هذه التدخلات والممارسات » ، واصدرت قيادة قوات الردع (٢٤ آذار) بيانا اعلنت فيه منع دخول المساعدات العسكرية الى لبنان، وحصرت دخول المساعدات الاخرى باجهزة الدولة ، ولكن المقاومة الفلسطينية عادت واعلنت يوم ٢٩ آذار رسميا « مرور المساعدات اليها عبر سوريا » ٠

المواقف اللبنانية :

حصرت السلطة اللبنانية موقفها في القيام بعمل دبلوماسي لمواجهة الغزو الاسرائيلي ، وباتجاه استصدار قرار دولي من مجلس الامن لتأمين انسحاب القوات المحتلة ، فيما كانت « الجبهة اللبنانية ، تعمل باتجاه معاكس يربط ويساوي بين الاحتلال الاسرائيلي والوجود الفلسطيني ، ويطلب معالجة المشكلتين في وقت واحد ٠ وفي يوم ١٦ آذار بدأت الدبلوماسية اللبنانية تحركها نحو مجلس الامن فيما أعلن كميل شمعون بعد زيارة للقصر الجمهوري انه من « الافضل تأجيل دعوة مجلس الامن حتى نجهز قوات ترسل الى الجنوب ، ولا يجب ان يبقى في الجنوب الا اللبنانيون، لا نريد اسرائيليين ولا نريد فلسطينيين » ٠ وفي نوع من السجال بين السلطة و « الجبهةاللبنانية» كان فؤاد بطرس وزير الخارجية يعلن ان « الحل هو بالانسحاب الاسرائيلي وعودة السيادة الى الجنوب في وقت واحد » بينما كان بيار الجميل يكمل موقف شمعون بالقول ان « الاعتداءات في الجنوب تأتي تارة من الفلسطينيين وطورا من اسرائيل» واجتمع تجمع النواب الموارنة المقرب من « الجبهة اللبنانية » يوم ١٨ آذار واقترح برنامج عمل يتضمن :

☐ دعوة الدول العربية لتحمل مسؤولياتها تجاه القضية الفلسطينية ، وتنظيم الوجود الفلسطيني في لبنان ، ووضعه ضمن استراتيجية عربية ٠

☐ انشاء مجلس دفاع عربي موحد للاشراف على العمليات الفلسطينية ٠

وفي يوم صدور قرار مجلس الامن كان شمعون يعلن ان القرار « ليس بامكانه ان يحل المشكلة ، لان المهم هو ازالة الوجود الفلسطيني المسلح » ، وكان ابنه دوري يهدد بالقول ان « مشاكل جديدة ستقع بين الفلسطينيين والجبهة ، وقد وصلتنا تقارير أكيدة ونحن بالمرصاد لكل ما سيحدث » ٠ وبعد صدور قرار مجلس الامن اجتمعت « الجبهة اللبنانية » ودعت الحكومة في بيان رسمي الى « اعادة طرح القضية اللبنانية على مجلس الامن ٠ كون القرار ٤٢٥ لم يعالج سوى وجه طارىء واحد من وجوه القضية » ٠

الاحتلال والانسحاب :

فور صدور قرار مجلس الامن واعلان اسرائيل عن قرار وقف اطلاق النار من جانب واحد ، اعلن رئيس دائرة الاعلام في منظمة التحرير (٢١ آذار) انه « ليس في قاموسنا اي شيء عن وقف اطلاق نار مع العدو » ، فيما اعلن محمود اللبدي المكلف بالاتصال بالصحافيين الاجانب « ان ردنا هو الدعوة لانسحاب القوات الاسرائيلية فورا ودون شروط مسبقة » ٠ وبات واضحا ان منظمة التحرير لن تلزم نفسها رسميا بوقف اطلاق النار ، ولكنها ستسهل عمليا تمركز القوات الدولية في مواقعها ، لاختبار مدى جدية اسرائيل بالالتزام بقرار الانسحاب ، خاصة وان اسرائيل اعلنت

يوم ٢٢ آذار ثلاثة شروط للانسحاب هي : دخول قوات الامم المتحدة ، وخـــروج الفدائيين الفلسطينيين ، واقامة السلطة اللبنانية ٠

وفي نطاق الموقف الفلسطيني قـــام عرفات في اليوم نفسه بالالتقاء مع سبعة سفراء اجانب ، واعلن ناطق رسمي معلقا على الشروط الاسرائيلية « ان السلطـــة اللبنانية هي التي تعالج الموضوع ٠٠٠ ونحن التزامنا فقط مع السلطة اللبنانية، وضمن حدود اتفاق القاهرة ، واي تغيير في هذا الاتفاق من طرف اخر لا يلزمنا »٠

وحدث اول لقاء سياسي بين منظمـــة التحرير والقوات الدولية يوم ٢٣ آذار اذ اجتمع عرفات مع المستشار السياســـي لمكتب هيئة الامم المتحدة في بيـــروت وتلا ذلك اجتماع عسكري لبحث اجراءات دخول القوات الدولية ، وتم تعيين ضباط ارتباط بين الجانبين ٠

واعلن عرفات بعد هذا اللقاء (٢٥ آذار) ان « المهمة الاساسية الان هي ضمـــان الانسحاب الاسرائيلي ، وفي غضون ذلك سوف تستمر حرب العصابات ضد المحتل» واعلن فاروق القدومي رئيس الدائـــرة السياسية في المنظمة ان « المقاومة لا بد ان تسهل الاجراءات والترتيبات التي يمكن ان تتخذ على مستوى عربي او دولي من اجل تأمين انسحاب اسرائيلي فوري ودون قيد او شرط » ، واستقبل عرفات الجنرال اماتويل ارسكين قائد القوات الدولية في لبنان (٢٨ آذار) وابلغه تعهد منظمـــة التحرير بمساعدتـــه قواته على القيـــام بمهمتها «من اجل تسهيل الانسحـــاب الاسرائيلي » ، وصدر في هذا اليوم نداء من كورت فالدهايم امين عام الامم المتحدة موجه الى جميع الاطراف للتقيد بوقـــف اطلاق النار ، فيما كانت طلائع القـــوات الدولية تتوجه لاستلام بعض المواقع علـــى الليطاني ، ومنها جسر الخردلي والقعقعية فيما بقي جسر القاسمية تحت سيطـــرة القوات المشتركة للمقاومة والحركـــة الوطنية ٠ وفي السادس من نيسان اعلن ناطق في الامم المتحدة عن برنامج اولي لانسحاب اسرائيلي محدود ، وقد نفـــذ هذا الانسحاب على مرحلتين :

الاولى في ١١ نيسان وشملت : كوكبا، الفرديس ، الهبارية ، ابل السقي ، كفر شوبا ، شبعا ٠

الثانية في ١٤ نيسان وشملت : الطيبة القنطرة ، الغندورية ، مزرعـــة فـرون ، الطريق الرئيسي بين الطيبة والغندورية ، وذلك بعمق من ٥ الى ٦ كلم ٠

وقد نفذت اسرائيل انسحابها هـــذا بشكل يتيح لها الاحتفاظ بالسيطـــرة العسكرية على المواقع التي انسحبـــت منهـا ٠

مقابل هذا الموقف الفلسطيني كـــان الرائد سعد حداد يقوم بعرقلة تمركـــز القوات الدولية الى حد اطلاق النار على القوة الايرانية المتوجهة نحو جســـر القعقعية (٢٣ آذار) ، ويعلن من الاذاعة الاسرائيلية (٢٧ آذار) تشكيل جيش في الجنوب وحرس وطني وشرطة وفـــرض الخدمة الاجبارية ، ويجبر قوة نروجية على الخروج من قرية الطيبة (٦ نيسان) ٠ وكانت اسرائيل بدورها تعرقل عمليـــات عودة مظاهر السلطة اللبنانية الى الجنوب فتمنع وصول الدرك اللبناني الى بعـــض المواقع ، (٥٠ دركيا) وتشترط تجريدهم من السلاح قبل دخولهم (٦ نيسان)٠

الملف الفلسطيني :

في اليوم التالي مباشرة لاعلان اسرائيل

عن وقف اطلاق النار ، بدأ التجمع النيابي الماروني يبحث مع الرئيس كامل الاسعد فتح ما يسمى بـ «الملف الفلسطيني» في مجلس النواب (٢٢ آذار) ، وقد بدأ هذا البحث في ظل انتقادات واسعة من قادة التجمعات الاسلامية لموقف « الجبهة اللبنانية » وبيانها الداعي لاعادة طرح القضية اللبنانية على مجلس الامن ، وشكلت الدعوة لطرح الملف الفلسطيني في مجلس النواب بداية مساجلة سياسية واسعة بين « الجبهة اللبنانية » والاطراف الاسلامية كافة (سلام ـ عسيران ـ اليافي ـ علي الخليل ـ المرابطون ـ الحركة الوطنية) وحذر صائب سلام (٢٥ آذار) من استعمال العنف لمعالجة قضية الوجود الفلسطيني المسلح وقال : « اذا كان المقصود من طرح الموضوع في المجلس النيابي الاستفزاز والمزايدة فلا داعي لهكذا طرح ... انا اقول بوفاق لبناني لمعالجة كل قضية ، وفي مقدمتها علاقات لبنان مع الفلسطينيين » . وفي اجتماع نيابي عقد برئاسة الاسعد وضم نوابا من السنة والشيعة والموارنة برز الخلاف جليا حول هذه القضية ، اذ طالب النواب الموارنة بفتح الملف الفلسطيني والغاء الوجود المسلح لهم ، بينما اعلن النواب المسلمون انه لا يجوز تجريد الفلسطينيين من السلاح ، لا سيما ان السلاح لا يزال في ايدي اللبنانيين . وفي الاول من نيسان وبعد أن انهى الاسعد مشاورات نيابية مطولة حول عقد او عدم عقد جلسة للملف الفلسطيني ، اعلن عن ضرورة عقد جلسة تطرح فيها مختلف القضايا المصيرية وفي طليعتها الوجود الفلسطيني المسلح ، ونبه الى خطر شبح التقسيم الفعلي في حال تفجير الموقف الداخلي . وفي السادس من نيسان تم تحديد موعد الجلسة في ٢٠ نيسان ، فيما اعلن صائب سلام بعد زيارة لرئيس الحكومة الدكتور سليم الحص «ان فتح الملف الفلسطيني لا يكون بجلسة نيابية ، بل على الحكم المسؤول ان يعالج ذلك ، لان فتح الملفات يولد المزايدات » . بينما دعا تجمع النواب الموارنة في بيان له الى اتخاذ موقف موحد من الوجود الفلسطيني المسلح (٧ نيسان) واعتبر هذا الموقف مدخلا للوفاق الوطني ، وابدى اسفه وقلقه لاصرار البعض على معارضة فتح الملف الفلسطيني .

وفي ظل هذا الحوار المتوتر انفجرت احداث العنف في منطقة عين الرمانة (٩ نيسان) ، وكان واضحا ان الهدف منها هو تفجير صراع مسلح في منطقة التماس التقليدية اثناء الحرب (الشياح ـ عين الرمانة) على أمل جر المقاومة الفلسطينية الى معركة مكشوفة بحيث يكون ذلك مقدمة لمناقشة الوجود الفلسطيني المسلح في جلسة مجلس النواب ، كوجه اخر للوجود الاسرائيلي المسلح في الجنوب . ولكن المقاومة الفلسطينية لم تنجر بسهولة الى هذا المخطط ، وامتنعت عن الرد على كل الاستفزازات العسكرية التي تعرضت لها في اماكن تواجدها ، بينما قامت قوات الردع العربية بانذار اي جهة تطلق النار ، ثم نفذت انذارها بعنف ضد مقاتلي « الجبهة اللبنانية » المتمركزين في عين الرمانة وذلك طوال خمسة ايام (من ٩ الى مساء ١٣ نيسان) .

وتلا هذا الصدام حملة مركزة من قادة « الجبهة اللبنانية » ضد القوات السورية داخل قوات الردع العربية ، فيما اعلنت السلطة اللبنانية ان قوات الردع هي قوات الشرعية ، وان العمليات التي قامت بها انما نفذت باوامر منها ، وتصاعدت في هذه الاثناء الحملة ضد الجبهة ومواقفها

التصعيدية ، سواء من الحركة الوطنية او من التجمعات الاسلامية : او القوى الدولية (فرنسا) التي اعلنت ردا على مطالبة شمعون بالتدويل انها لن تتدخل خارج جنوب لبنان ، ولا تؤمن بتدويل القتال الحالي (١٣ نيسان) ، وادت هذه التفاعلات كلها الى الغاء جلسة « الملف الفلسطيني » ، ثم استقالة حكومة الدكتور سليم الحص ، وتشكيل لجنة برلمانية مصغرة تتولى وضع صيغة لاسس الوفاق اللبناني ، يتم على ضوئها تشكيل حكومة جديدة والبدء بمعالجة القضايا اللبنانية المتعددة ، ومنها قضية الوجود الفلسطيني ·

بلال الحسن

المناطق المحتلة

الانتفاضة

مع اندلاع الحرب التي شنتها اسرائيل ضد التواجد الثوري الفلسطيني اللبناني في جنوب لبنان، كمحاولة لتصفية المقاومة الفلسطينية ، تحركت العناصر الوطنية في المناطق المحتلة ، وفجرت انتفاضة شعبية عارمة ، ضد سلطات الاحتلال ، واتخذت اشكالا ، من بينها التظاهرات والاضرابات واقامة الحواجز على الطرق ورجم السيارات الاسرائيلية بالحجارة ، واشعال النار في اطارات السيارات في الساحات العامة وعند مفترق الطرق وسط المدن والقرى والمخيمات ، والتصدي للقوات الاسرائيلية · وغدا المشهد المألوف طوال ايام الحرب في لبنان ، هو السنة الحرائق المندلعة من دواليب السيارات ، واعمدة الدخان التي تغطي اماكن الانتفاضة ، ويتصارع تحت ظلالها المواطنون العزل مع قوات الجيش الاسرائيلي التي وجدت نفسها امام جبهتين ، لا ثالث لهما ، اللهم الا جبهة الاعلام العربي الرسمي على مختلف انواعه الذي كان مفرطا في حماسه لتغطية جبهة الداخل ، في محاولة منه لطمس سير المعارك الضارية في الجبهة الاولى ، وذلك من اجل هدف ليس خافيا عسلى احد ·

لم تقتصر الانتفاضة على ايام المعارك في جنوبي لبنان ، بل استمرت ايضا بعد ان اعلنت اسرائيل وقف اطلاق النار، لاسباب عدة من بينها الاحتجاج ضد وحشية قوات الاحتلال في تصديها للتظاهرات ، وضد مقتل احد سكان مدينة القدس العربية على يد جندي اسرائيلي ، والاحتفال بيوم الارض · وسنكتفي هنا بالحديث حول بعض ايام الانتفاضة ، وخاصة تلك التي سقط فيها عدد من الشهداء والجرحى ·

في الثامن عشر من اذار عادت مدن وقرى ومخيمات الضفة الغربية وقطاع غزة ، وشهدت اضرابات وتظاهرات صاخبة سقط خلالها ثلاثة شهداء وعشرات الجرحى · الشهداء هم

محمود ابو غضيب (٨ سنوات) من مخيم عسكر ، وبسام صلاحات (١٧ سنة) من قرية طلوزه ، وعمر عبد سالم (٣٧ سنة) من مخيم جباليا · ولعل في قصة استشهاد هؤلاء ما يدل على مدى «ارتباك» جنود الجيش الاسرائيلي و « عصبيتهم » المفرطة في مواجهة التظاهرات · فبالنسبة لاستشهاد الطالبين اليافعين في مخيم عسكر ، عزت المصادر الاسرائيلية السبب الى تدهور سيارة عسكرية كانت تسير بالقرب من المخيم بعد ان اصيب السائق بحجر في رأسه « فاغمي عليه » ولم يتمكن من قيادة السيارة التي حادت عن طريقها ، وارتطمت بمقهى بالقرب من الطريق ، واودت بحياة الطفل والفتى ، واصيب ستة من جنودها بجراح متوسطة ·

اما قصة مقتل احد سكان مخيم جباليا ، فقد ابرزتها الصحف الاسرائيلية تحت عنوان : محاولة خطف سلاح جندي اسرائيلي ! » الا ان الحقيقة غير ذلك ، فقد اقترب اثناء التظاهرات الحاشدة في مخيم جباليا ، احد المواطنين العرب — كان قد قدم الى المخيم قبل ايام من مستشفى الامراض العقلية في بيت لحم — اقترب من موقع قريب للجيش الاسرائيلي، فما كان من احد الجنود الا ان اطلق النار عليه دون ان يقوم المغدور باية محاولة للسيطرة على سلاح جندي ما ، وارداه قتيلا !

ومما يلفت النظر ان عملية تشييع جنازة الطالبين جرت في جو احتفالي وطني ، ودرج المواطنون على نعي الضحايا في الصحف الصادرة في المناطق المحتلة بتقديم النعي بجملة « بمزيد من الفخر والاعتزاز ، ننعي ··· » ·

وفي التاسع عشر من اذار عمت التظاهرات الشعبية جميع مدن وقرى ومخيمات الضفة الغربية والقطاع ، التي سادها منظر الدخان من جراء حرق الدواليب · واستخدمت قوات الاحتلال في تصديها للمتظاهرين الغاز المسيل للدموع ، والقت القبض على اعداد كبيرة من المواطنين · وفي هذا اليوم برزت مدينة خان يونس في العطاء ، فقد سقط في المدينة عدد من الجرحى من بينهم طفلان ، اثناء تظاهرة على الطريق الرئيسي · وتقول الرواية الاسرائيلية ان الحادث وقع عندما رجم المتظاهرون في المدينة سيارة باص كانت تسير على الطريق الرئيسي متجهة نحو سيناء ، فاطلق جنود كانوا بداخلها النار صوب المتظاهرين ، الامر الذي تسبب بوقوع اصابات · كما وتدعي ان المتظاهرين كانوا قد رجموا سيارة عسكرية بالحجارة « واصابوا عددا من الجنود بجراح » · وهرعت قوات كبيرة الى المدينة ، وقامت بتفريق المتظاهرين بالغاز المسيل للدموع ، مشفعة ذلك باطلاق النار « فوق » رؤوسهم ·

طوال ايام القتال ، كانت مدن الضفة الغربية ، نابلس ، رام الله ، البيرة ، جنين ، طولكرم ، القدس ، الخليل ، بيت لحم ، حلحول ، واريحا · وكذلك غزة ، وخان يونس وسائر القرى والمخيمات تشهد مظاهرات ، واضرابات تجارية شاملة وجزئية ، واشتباكات مع قوات الاحتلال · تسفر عن جرحى ومعتقلين ·

وبعد انتهاء القتال ، شهدت هذه التجمعات الفلسطينية ، احتفالات بمناسبة يوم الارض · وفي الثلاثين من اذار حدث اضراب تجاري في عدد من مدن الضفة ، وكان الاضراب شاملا في مدينة نابلس ·

الى جانب ذلك ، جـــرت تظاهـرات احتجاجية اخذت شكل الاعتصام ضـــد « وحشية » قوات الاحتلال في تصديهـا للتظاهرات خلال الحرب ، ففي الثالـث والعشرين من اذار الماضي اعتصم عـدد كبير من طلبة جامعة بيرزيت بالاضافـة الى معلمين من اماكن مختلفة من الضفـة الغربية في مكاتب الصليب الاحمر فـي القدس ، ووزع المعتصمون بيانا استنكروا فيه « تصرف جنود الجيش الاسرائيلـي وحرس الحدود » خلال التظاهرات ، واماط البيان اللثام عن أعمال « التنكيل » ضـد المعتقلين من المتظاهرين ، واشار الـــى كثرة عدد المصابين من جراء وسائـــل القمع التي اتخذتها سلطات الاحتـــلال ضد المتظاهرين ٠

ومن الجدير بالذكر ان سلطات الاحتلال القت القبض على الصحفية ريمونـــــدا الطويل من رام الله بسبب التقاطها صورا لقوات الجيش الاسرائيلي وهي « تقـــوم بقمع التظاهرات في رام الله » وفق مـــا ذكرته هعولام هزيه (٢٤ـ٣ـ٧٨) بعـد ان فتشت بيتها وعثرت فيه على علم فلسطيني ومقالات صحفية تخصها واشرطة مسجل عليها اغان للاطفال ٠ ونسبت الصحيفـة الى ريموندا الطويل ادعاءها بان التحقيـق معها يجري تحت التهديد بالضرب واطلاق الكلام البذيء « يجب عليك ان تكونـــي برفقة الزانيات » ٠

كما وجرت تظاهرات في السادس مـن نيسان في نابلس ومخيم بلاطه احتجاجـا على صدور حكم الاعدام في قبرص ضـد المتهمين بمقتل يوسف السباعي ، وقـام المتظاهرون في مدرستـــي الصالحيـة والعايشية في نابلس برجم قوات الامـــن بالحجارة ٠

وفي اليوم نفسه جرت في رام اللـــه مسيرة جنائزية حدادا على روح خليـل طحان من القدس الذي سقط شهيدا بعـــد ان اطلق النار عليه جندي اسرائيلي فـي المدينة ، وتصدرت المسيرة الجنائزيـــة طالبات المدرسة الثانوية ٠

ومن الجدير بالذكر ان مقتل الشـــاب خليل طحان البالغ من العمر عشرين عاما، جاء كرد فعل انتقامي ، على مصرع جندي اسرائيلي عند متحف روكفلر في القدس على يد رجال المقاومة الفلسطينية ، فبعـد مضي يوم على هذا الحادث ، اقدم جندي اسرائيلي كان يقوم باعمال الحراسة فـي نفس المكان ، على اطلاق النار ، كمـــا تذكر المصادر الاسرائيلية باتجاه مجموعة من العمال العرب ، كانت متجهة الـــى اماكن عملها ، الا ان الرصاص لم يصب افراد المجموعة ، واستقر في صدر خليل طحان الذي سقط شهيدا ٠

قبل الانتقال الى التفاعلات التـــي احدثتها الحرب في نفسية سكان المناطـق المحتلة ، تجدر الاشارة الى ان سلطـات الاحتلال لجأت الى جانب اساليب القمع الوحشية ضد المتظاهرين ، الى اسلـوب المحاكمات السريعة للمعتقلين ، حيـث درجت على تقديم اعداد كبيرة من المعتقلين في الاماكن المختلفة امام محاكم عسكرية ٠ وكمثال على ذلك نذكر هنا ، محاكمـة ٤١ شابا في خان يونس خلال ساعـات معدودة بتهمة القيام « باعمال شغـب » وصدور الحكم على كل واحد بالسجـن لفترات تمتد حتى ستة شهور مع وقـف التنفيذ ودفع غرامات مالية تصل الـى عشرة الاف ليرة ٠

التبعات السياسية

الى جانب تفجير الانتفاضة في المناطق

المحتلة ، خلفت الحرب الاخيرة تبعات سياسية هناك يمكن اجمالها بالتالي :

١ ـ ازدياد نفوذ مكانة م٠ت٠ف في المناطق المحتلة ٠

٢ ـ ترسخ الاعتقاد بان سياسة المفاوضات مع العدو الاسرائيلي التي تنتهجها بعض الانظمة العربية علانية او سرا ، لن يتأتى عنها ، ضمن معادلة القوى الراهنة ، سوى ضرب م٠ت٠ف ، والتوصل الى حل على حساب الشعب الفلسطيني ٠

٣ ـ تنامي الاحساس في المناطق المحتلة بخيبة الامل تجاه الدول العربية كافة ٠

وسنقف هنا على رأي ثلاثة من المعلقين الاسرائيليين حول انعكاسات الحرب على سكان المناطق ، وعلى ردود فعل بعض رؤساء البلديات ، وعلى البيان الصادر عن البلديات والهيئات الشعبية والمؤسسات العامة ٠

تطرق الكاتب الاسرائيلي يوسف تسورائيل (معاريف ٢٤ـ٣ـ٧٨) الى انعكاس الحرب على المناطق المحتلة ، وقال ان لهذا الانعكاس شقين ، الاول اخذ شكل التظاهرات والاضرابات ، كتعبير ضد الاحتلال الاسرائيلي والتماثل مع م٠ت٠ف ، والثاني اخذ شكل « خيبة الامل » تجاه الانظمة العربية ٠ والاحساس بان « العالم يقف ضدنا » ٠ وقال « الانطباع تجاه الخارج هو ان الدول العربية ٠٠٠ خذلت عرب المناطق المحتفظ بها » ٠

الا ان الكاتب يشير الى جانب ذلك الى وجود عدد من الفلسطينيين لم « يوهموا » انفسهم بمساعدة الدول العربية لقوات الثورة الفلسطينية ، وينقل عن احد كتاب صحيفة الفجر قوله : « لقد ثبت لي ثانية ، وهذه المرة بشكل اكثر ، اننا نقف وحيدين في صراعنا مع اسرائيل ٠ وليس هنالك ثمة من يساهم معنا بالفعل في هذا الصراع ٠٠ » ويستشهد بقول كاتب اخر « لا يوجد من نعتمد عليه » ٠

اما الكاتب الاسرائيلي يوسف فولتر (معاريف ١٩ـ٣ـ٧٨) فقد وقف عند مشاعر سكان المناطق المحتلة تجاه عملية الباص والحرب في جنوب لبنان ، وذكر ان الفرحة امتلكت مشاعر السكان في الضفة الغربية عقب العملية ، وتحولت بعد ذلك ، اي خلال حرب الجنوب الى سخط موجه ضد اسرائيل والدول العربية: «لقد ثبت لهم مرة اخرى ان تأييد الدول العربية للفلسطينيين محدود ، وان الوحدة العربية نكتة ٠٠٠ لا احد يقدم مساعدة عسكرية للفدائيين ٠٠٠ وباستثناء التنديد لا تقوم الدول العربية بأي عمل حقيقي لصد هجوم الجيش الاسرائيلي ٠ انهم غاضبون على اسرائيل ، ويشتمون الدول العربية وعلى راسها مصر ، لمواقفها السلبية » ٠

ونقل الكاتب رأي مجموعة من الشباب في نابلس التقى بهم اثناء التظاهرات في المدينة « انهم يخدعوننا ، ويجعلون من الفلسطينيين لحما للمدافع ٠ الدول العربية تستغلنا لاغراضها ، فهي تشجعنا للخروج للحرب ، وعندما يشن علينا هجوم ، لا نجد من يهب للمساعدة ، وليس هنالك شك ان الرئيس المصري يدرك الان كم كان على خطأ في خطواته ٠ ان اسرائيل دولة محتلة ، وتخطيء اذا ما تصورت انه يمكن لها في عمليتها محو الفلسطينيين ، فمن المستحيل ابادتهم ٠ ان الحل لا يكمن في احتلال اخر ، وسيقف العالم في نهاية الامر ضدكم » ٠

ويرى الصحفي الاسرائيلي يهودا ليطاني (هآرتس ٢٩-٣-٧٨) ان العملية الفدائية وكذلك الحرب في جنوب لبنان ادتا الى ارتفاع هيبة ومكانة م.ت.ف ودفعتا بالكثيرين ممن يوصفون بـ « المعتدلين » الى الوقوف مع الخط الذي يتزعمه انصار المنظمة . واستشهد باقوال عدد من هؤلاء ومن بينهم شخص لم يكشف عن هويته « هذه ليست حربا ضد الفلسطينيين في جنوبي لبنان فقط ... انها حرب ضدنا جميعا ... صدقني لا يوجد لدينا ما نفقده . لقد فقدنا وطننا وهويتنا وكل غال ، والان علينا ان نقاتل ، وان ننشد المساعدة من كل من يرغب في تقديم السلاح والمال لنا ، وليذهب العالم الى الجحيم ... انك تذكر انني كنت أمل دائما بان تظهروا اعتدالا ، وتتم التسوية . لقد كنت اعتقد انه لا يوجد بينكم اناس يتحلون بالمنطق ... » ويخلص الكاتب الى ان « الاحساس بان العالم كله ضدنا، ليس خاصا فقط بالاسرائيلين ، فهذا الاحساس يسود الان العديد من الفلسطينيين » مرجعا السبب الى تعدد الضربات العربية الموجهة الى الفلسطينيين .

وفيما يتعلق بردود الفعل لدى معظم رؤساء بلديات الضفة الغربية وقطاع غزة، فقد تحكمت بها مشاعر السخط تجاه الهجمة الاسرائيلية الشرسة التي تستهدف الوجود الفلسطيني والحركة الوطنية اللبنانية ، ومشاعر الخذلان تجاه الدول العربية ، بدون استثناء ، التي لم تقدم اي دعم فعلي للقوات المشتركة باستثناء الدعم « الكلامي » . ففي مقابلة اذاعية (رأ ٢٢-٣-٧٨) اشار رئيس بلدية طولكرم حلمي حنون الى موجة التظاهرات التي تعم المناطق المحتلة وقال انها « لا تستهدف فقط التعبير عن الاحتجاج على عملية الجيش الاسرائيلي في لبنان ، بل اللامبالاة التي اظهرتها الدول العربية تجاه الموضوع ... الجميع يتحدثون ، ولا من يقدم المساعدة » .

اما رئيس بلدية حلحول محمود ملحم ، فقد انتقد جميع الدول العربية ، مركزا على ان « الجميع وقفوا متفرجين ».

وكذلك رئيس بلدية خان يونس ، فقد ندد هو الاخر بالمواقف المختلفة للدول العربية .

ومن الجدير بالذكر ان الهيئات الشعبية والعناصر المؤيدة لمنظمة التحرير الفلسطينية نشطت خلال فترة الانتفاضة بتوزيع منشورات في مدن الضفة الغربية ، تستنكر العدوان الاسرائيلي على جنوب لبنان ، وتدعو الجماهير في الاراضي المحتلة للتصدي للحرب التي تستهدف « تصفية الشعب الفلسطيني » ومن بينها منشور وزعه الاتحاد العام لنقابات العمال، تضمن نداء الى الامين العام لجامعة الدول العربية محمود رياض يناشده « التدخل».

وفي الثامن عشر من اذار ، اثناء احتدام القتال بين القوات المشتركة ، والعدو الاسرائيلي في جنوب لبنان ، اصدرت البلديات والهيئات والمؤسسات والنقابات في الضفة الغربية بيانا « **يستنكر بشدة** » العدوان الاسرائيلي و « **يستغرب ويستنكر** » موقف الدول العربية عامة . وقال البيان :

« ان جماهير شعبنا العربي الفلسطيني في المناطق العربية المحتلة من مؤسسات وهيئات وافراد اذ تستنكر بشدة العدوان الاسرائيلي الغاشم على جنوبي لبنان وضرب المدنيين في المخيمات والقرى والمدن ، لتؤكد التحامها الوثيق بممثلتنا الشرعية الوحيدة منظمة التحرير الفلسطينية .

« ان الجماهير الصامدة في الارض العربية المحتلة التي تفخر بصمود ابطالنا امام الهجوم الصهيوني البربري ، تستغرب

وتستنكر موقف الدول العربية عامة ، وتدعوها للكف عن المهاترات الكلامية ، واصدار البيانات المنمقة ، وان تبدأ فورا ، باتخاذ الخطوات العملية والفعالة من اجل دعم م٠ت٠ف ، وصمود ابطالنا المقاتلين ، كما وتستنكر هذه الجماهير مواقف دول العالم الصامتة تجاه العدوان الصهيوني الجديد ، وتطالب الدول المؤيدة للحق الفلسطيني بان تترجم تأييدها الى اعمال فورية ٠

« ان شعبنا العربي الفلسطيني الواقع فريسة الاحتلال البغيض لن يتوانى مطلقا عن التصدي والصمود في وجه ممارسات الاحتلال التي لن ترهب هذا الشعب ، ولن تجعله يحيد ولو لحظة واحدة عن تقديم العون والمساعدة والتضحية في سبيل اثبات وجوده ، ومنحه حق تقرير المصير وانشاء دولته على ارضه » ٠

التمرد في معتقل بئر السبع

شهدت المعتقلات الاسرائيلية خلال الاعوام الماضية ، نتيجة للاوضاع السيئة والظروف الصعبة اللاانسانية التي يعيشها المعتقلون الفلسطينيون ، سلسلة من اعمال التمرد قادها المعتقلون في سجن عسقلان وامتدت الى المعتقلات الاخرى ٠

وفي العاشر من اذار الماضي ـ قبل العملية الفدائية بيوم واحد ـ حدث تمرد في معتقل بئر السبع ، حين اصطدم ١٧ معتقلا اثناء زيارة ذويهم لهم ، مع قوات امن السجن ٠ وخلال الاصطدام ردد المعتقلون مع اهاليهم هتاف « عاشت فلسطين » ، وتجاوب معهم في الهتاف ، وبشكل ايقاعي ، قرابة ٦٠٠ معتقل فلسطيني من داخل غرفهم ٠ وقد استدعت سلطات السجن تعزيزات من قوات الشرطة ، وزجت بالمعتقلين الـ ١٧ في زنازين منفردة وطردت اهاليهم ٠

وفي اليوم التالي ، اجرت سلطات المعتقل تفتيشا في غرف المعتقلين ، اشفعته بتفتيش اخر دقيق عند منتصف الخامس عشر من اذار ، حيث حدث صدام اخر بين قوات من حرس الحدود مكلفة بـ « مهمة خاصة » وبين المعتقلين الذين اضطروا ازاء اعتداءات قوات حرس الحدود الى استخدام البطانيات المشتعلة ، وصناديق الخشب وكل ما تقع عليه ايديهم ٠

واسفرت اعمال التفتيش عن العثور في غرف المعتقلين على كميات من السكاكين ومطارق الحديد ومدافع رشاشة مصنوعة من الخشب ، ورتب رائد في الجيش الاسرائيلي وراديو ترانسستور صغير ، كما تقول المصادر الاسرائيلية التي اوحت بان الفدائيين يعدون لعملية هروب ٠ ومن الجدير بالذكر ان جهاز الراديو الصغير ، اثار لدى الدوائر الاسرائيلية التكهن بان الفدائيين المعتقلين تلقوا من خلال الجهاز اشارة بالتمرد من اذاعة الثورة الفلسطينية ، وذلك بهدف « صرف انظار اجهزة الامن عما يجري على شاطىء البحر عشية الانزال المرتقب لمجموعة الفدائيين » ٠

وقد اتخذت سلطات مصلحة السجن بحق المعتقلين سلسلة من الاجراءات التعسفية ، تزيد في سوء وضعهم ، تتمثل في التالي :

١ ـ حرمان المعتقلين من التزود بالحاجيات البسيطة من الدكان ٠

٢ ـ الغاء زيارات ذويهم حتى اشعار اخر ٠

٣ ـ مصادرة علب الكبريت والقداحات وعلب السجائر من المعتقلين ٠

٤ ـ مصادرة « كميات كبيرة من الادبيات الشيوعية الصادرة باللغة العربية » تعالج ثورتي الصين وكوبا

والكفاح المسلح كوسيلة للحصول على هدف سياسي ٠

٥ ـ نقل ٨٨ فدائيا من معتقل بئر السبع وتوزيعهم على المعتقلات الاسرائيلية الاخرى ٠

ظهرت عقب التمرد في معتقل بئر السبع عدة مقالات في الصحف الاسرائيلية تعالج اوضاع المعتقلين الفلسطينيين الذين يزيد عددهم على ثلاثة الاف معتقل ، وابرز البعض منها تعاطف المعتقلين مع العملية الفدائية شمالي تل ابيب ، حيث استقبلوها بـ « التصفيق الحاد » ، كما واشار البعض الى قصيدة كتبها احد المعتقلين تمتدح العملية ٠ بيد ان الملاحظ في تلك المقالات تركيزها على المستوى الجيد في مجالات التنظيم الداخلي مع الحرص على الوحدة الوطنية للتنظيمات ، والنظافة ، والثقافة ٠

بالنسبة لدقة التنظيم الداخلي يقول يجال ليف (ملحق معاريف ٢٤ـ٣ـ٧٨) « من خلال نظرة سطحية يبدو هؤلاء اناسا ، جمعتهم الصدف ، بعد القاء القبض عليهم عقب اعمال نسف وقتل ، الا ان ذلك بمثابة رؤيا خارجية فقط ، يستتر خلفها جهاز منظم بشكل جيد ، فهنا توجد قيادة ابتداء من اللجنة العليا وانتهاء باخر جندي ٠ هنا يوجد انضباط » ٠

كما ان الصحفي ميشولام عام (دافار ٢٤ـ٣ـ٧٨) ابدى هو الاخر دهشته تجاه دقة التنظيم والوحدة الوطنية ٠ فقد نقل عن المسؤولين في مصلحة السجن القول « هؤلاء السجناء منظمون داخليا ، لديهم لجنة عليا تتمثل فيها جميع التنظيمات ، ويتبع هذه اللجنة ، لجنة عمل تضم مندوبا عن كل تنظيم ٠ وتتخذ القرارات بالاجماع فقط ٠ وعلى الرغم من الخصومة بين منظمات التخريب المختلفة في الخارج ، فانهم يحرصون على العيش بسلام داخل المعتقل ، يوحدهم في ذلك مواجهة ادارة المعتقل ، كما ويوجد لهؤلاء المعتقلين لجان مختلفة ، مثل لجنة العمل والثقافة ، والنضال ، والاستخبارات ، والتحقيق ، وتنفيذ الاحكام » ٠

وفيما يتعلق بالنظافة ، قال الصحفي يجال ليف على الرغم من حالة الاكتظاظ داخل السجون « بعض الاحيان ٨٠٠ فدائي في قاعة واحدة ، وفي المعدل ٣٠ـ٤٠ في الغرفة الواحدة ، فانك تجد هنا نظافة ونظاما » ٠

الا ان المستوى الثقافي الجيد الذي يتمتع به المعتقلون الفلسطينيون أثار بشكل ملفت للنظر ، انتباه و « دهشة » المسؤولين والمعلقين الاسرائيليين ، واعتبره البعض منهم أخطر « مادة متفجرة » !

تطرق رئيس مصلحة السجون حاييم ليف الى هذا الموضوع (انظر ملحق معاريف ٢٤ـ٣ـ٧٨) وقال « على الرغم من الاحتفاظ بهم بمجموعات كبيرة ، فانهم ينجحون في الحفاظ على نظامهم الداخلي والتقاليد الصحية ، وعلى شبكة ثقافية لم نصل حتى الان الى عمقها ٠ واذا ما امطنا اللثام عنها ، فمن المؤكد انها ستثير الدهشة » ٠

ويكشف رئيس مصلحة السجون عن اسباب الدهشة بالقول « يخضع المخربون في السجن لنظام تدريسي خاص بهم ، نظام قاس ٠ فهم يعرفون كل ما يتعلق بتطور التنظيمات الثورية في العالم ٠ يعرفون شفهيا كتابات بن غوريون ، وباستطاعتهم تقديم اقتباسات طويلة منها ، كما ويعرفون شفهيا طريقة حياة رئيس الحكومة مناحيم بيجن ابان زعامته للتنظيم السري ، ويرددون نظريات قادة الثورات ٠ ان الطريقة التي يعملون بها تدل على تنظيم واسلوب ، كأن يقوم احد افراد الغرفة بقراءة كتاب حول

موضوع وطني او متعلق بحزب العصابات، بهدف تقديم مراجعة مكتوبة له ... وقد عثرنا أثناء اعمال التفتيش التي جرت عقب محاولة التمرد في بئر السبع على كراس يحتوي على تحليل لمقال العميد احتياط مئير عميت الذي عالج فيه حرب فيتنام وتبعاتها » .

ويؤكد المفوض العام « انك لن تعثر بين صفوف ال ٣٠٠٠ فدائي في المعتقلات الاسرائيلية على شخص واحد يتعاطى المخدرات ، واذا ما وجد ذلك الشخص ، فانه سيمثل امام محكمتهم » .

يتطرق بعد ذلك الى « خطورة » ما يسميه بـ « المواد المتفجرة الثقافية الكامنة بين صفوف المخربين » ويقول ان حوالي ١٠ـ١٥٪ من المعتقلين الفلسطينيين ،يتقدم سنويا الى امتحانات الثوجيهي ، وتصل نسبة النجاح بين ٩٠ـ٩٥٪ ، بينما يتقدم اقل من ١٠٪ من السجناء اليهود الى امتحانات بجروت !

ويصل الصحفي يجال ليف الى الاستنتاج القائل بان الخطر لا يكمن في السكاكين التي عثرت عليها قوات الامن في سجن بئر السبع، وانما «المادة الخطرة هي الاوراق . هذه الاوراق لا تعلم الفدائيين طريقة اعداد المواد التخريبية ، بل توجههم ايديولوجيا ! »

عبد الحفيظ محارب

اسرائيليات

الخلاف الاميركي ـ الاسرائيلي حول استمرار عملية « التسوية » في الشرق الاوسط

زار مؤخرا رئيس الحكومة الاسرائيلية مناحيم بيغن واشنطن ، وذلك للمرة الثالثة منذ تسلمه رئاسة الحكومة في جزيران الماضي . وتعتبر هذه الزيارة من اصعب الزيارات التي قام بها بيغن الى واشنطن ، اذ اعلن بعد عودته : « انني قضيت ثلاثة ايام تعتبر من اصعب الايام التي مرت علي حتى الان » . ومن الملاحظ في هذه الزيارة (التي رافق بيغن فيها وزير الخارجية موشي دايان ، وكان قد سبقهما الى هناك وزير الدفاع عيزر فايتسمن) ، ان الولايات المتحدة حاولت للمرة الاولى وضع النقاط على الحروف بشأن بعض المسائل التي تتعلق بحل أزمة الشرق الاوسط ، خلافا للمحادثات السابقة ، التي تجنب فيها الطرفان الخوض في ذلك خوفا من الاختلاف والاحتكاك .

ويبدو واضحا من خلال التصريحات التي ادلى بها المسؤولون الاسرائيليون ، خلال الزيارة وبعدها ، ان هناك اختلافا ملحوظا في وجهتي النظر الاميركية والاسرائيلية حول حل أزمة الشرق الاوسط . وقد وصل الامر الى حد القول بان هناك مجابهة بين الطرفين . وعلى سبيل المثال ، فقد علق وزير الدفاع على ذلك بقوله : « نحن نمر في ذروة مجابهة مع الولايات المتحدة ، لم نعرف مثيلا لها ابدا . انها مجابهة عنيفة وصعبة ، يرتبط مصيرنا بها . يجب على الفور تشكيل حكومة سلام وطنية ،

بالاشتراك مع المعراخ ، وتجنيد كافة الادمغة من اجل الصمود في المجابهة مع الولايات المتحدة كشعب متكتل» (معاريف، ٢٤ـ٣ـ٧٨) ٠

وقد وصل الامر ببيغن الى حد مناشدة اليهود في الولايات المتحدة للانضمام الى جانبه في مجابهة الادارة الاميركية ٠ فقد تحدث امام ٥٠٠ مندوب عن المنظمات اليهودية في نيويورك قائلا : « انتم الجالية اليهودية في الولايات المتحدة ، تشكلون خط الدفاع الثاني لدولة اسرائيل ٠ نحن محتاجون لمساعدتكم في هذه الساعة ، وانني اؤمن بكل قلبي ، اننا اذا وقفنا سوية فسننتصر في المعركة » المصدر نفسه) وناشد بيغن يهود اميركا علنا ، بعد ان اوضح لهم خطورة الوضع ، العمل على ايضاح مشروعه للسلام وتجنيد الراي العام الاميركي لتأييده ٠ وقال ايضا : « ان الايام الاخيرة كانت اصعب ايام حياته » ٠ اما وزير الخارجية موشي دايان فقد اراد التخفيف من حدة الانطباع السائد حول الخلاف مع الادارة الاميركية، فاشار لدى عودته الى اسرائيل من نيويورك ، الى « أن الازمة في العلاقات الاسرائيلية ـ الاميركية ليست اعنف ما عرفناه حتى الان » ٠ وحسب اقواله ، فان الازمة التي حدثت خلال حكم بن غوريون والانسحاب من سيناء سنة ١٩٥٦ ، كانت اصعب بكثير ٠ وختم دايان محاولاته لتخفيف حدة الخلاف بالقول : « لم أسمع خلال المحادثات الحالية في واشنطن اي تلميح ، ولم اشعر باي ظل للضغط علينا ، بالمقارنة مع عام ١٩٥٦ ، عندما كان الضغط مصحوبا بالتهديدات » (دافار ، ٢٤ـ٣ـ ٧٨) ٠

ومما يؤكد وجود الخلاف الاميركي ـ الاسرائيلي هو عدم اذاعة اي بيان مشترك في اعقاب انتهاء المحادثات ، كما هو متبع في مثل هذه الحالات ٠فقد رفضت اسرائيل التوقيع على البيان المشترك واقترحت نشره باسم الادارة الاميركية ، شرط ان تضاف اليه بعض الفقرات حول موقف اسرائيل في المحادثات ٠ وقد تقرر في اعقاب ذلك عدم نشر اي بيان ٠

واوردت صحيفة معاريف (٢٤ـ٣ـ٧٨) النقاط الرئيسية في البيان غير المنشور، كالتالي :

ـ تعود الولايات المتحدة وتؤكد التزامها بأمن اسرائيل والتمسك به ٠

ـ المطالبة بالسلام الكامل ، الذي يشمل جعل العلاقات بين اسرائيل وجاراتها طبيعية ٠

ـ تأكيد الموقف الاميركي مجددا ، بان قرار مجلس الامن ٢٤٢ هو اساس للمفاوضات ، وان مبادىء ذلك القرار تسري على كافة الجبهات ٠

ـ العودة الى وجهة النظر الاميركية في انه لا يمكن تحقيق السلام بدون حل المشكلة الفلسطينية ٠

ـ الاقتراح بان افضل الطرق لحل هذه المشكلة هو « صيغة أسوان التي يجب بموجبها الاعتراف بالحقوق المشروعة للفلسطينيين » (وذلك بواسطة السماح للفلسطينيين بالاشتراك في تقرير مصيرهم) ٠

واما نقاط الاتفاق بين الرئيس كارتر وبيغن فتتمثل في الدعوة الى استمرار عملية السلام ، والتعبير عن الاستعداد لمواصلة العمل من اجل بلورة اعلان المبادىء فيما يتعلق بالنزاع في الشرق الاوسط ٠ ويشير الزعيمان انهما بحثا ـ

ولكنهما لم يتوصلا الى اي اتفاق – ولم يستكملا المحادثات حول موضوع التسويات الجزئية في المستقبل بالنسبة لقطاع غزة والضفة الغربية ٠

نقاط الخلاف والاتفاق

يفهم من التصريحات والتعليقات الاسرائيلية ان الخلاف بين كارتر وبيغن قد تركز حول نقطتين رئيسيتين ، هما قرار مجلس الامن ٢٤٢ والمستوطنات اليهودية في المناطق المحتلة ٠ فبالنسبة للقرار ٢٤٢ تؤكد بعض المصادر الاسرائيلية ان الرئيس كارتر طالب اسرائيل بان تعلن على الملأ ان ذلك القرار يسري على كافة الجبهات ، اي على الضفة الغربية ايضا٠ واكد كارتر ان انعدام الحديث الواضح في هذا الشان انما هو بمثابة وضع عقبة في طريق السلام ٠ اما بيغن فقد وافق على اعتبار القرار ٢٤٢ اساسا للمفاوضات مع الدول العربية ،ولكنه اشار الى ان القرار لم يذكر موضوع الجبهات المختلفة وانه لا يوجد فيه نص للانسحاب من كافة المناطق (أرييه تسيموكي – يديعوت احرونوت ، ٣١–٣–٧٨) ٠ واما بالنسبة للمستوطنات في المناطق المحتلة ، واينما كانت ، فقد طرأ تبدل في الموقف الاميركي منها ، الذي كان ينظر اليها على انها « غير قانونية وتشكل عقبة امام السلام » ، فأصبح الان يعتبرها « تضر » بالمفاوضات (معاريف ، ٢٤–٣–٧٨) ٠

وتظهر الخلافات بين وجهة نظر الرئيس الاميركي كارتر وبيغن بصورة واضحة فيما يتعلق بمشروع بيغن للحكم الذاتي ٠ فبعد ان زار بيغن واشنطن في شهر كانون الاول (ديسمبر) الماضي وعرض مشروعه على كارتر ، ابدى الرئيس بعض الارتياح لهذا المشروع ورأى فيه اساسا صالحا للمفاوضات ، دون ان يبدي موافقته القاطعة عليه ٠ وفسر بيغن ذلك الموقف بانه تأييد علني وايجابي لمشروعه ، مما جعله يردد على مسمع من الاميركيين والاسرائيليين البشرى بأن المشروع قد حظي بموافقة الرئيس ٠ انما اتضح خلال المحادثات الاخيرة ان هناك خلافا واضحا بين وجهتي النظر الاميركية والاسرائيلية فيما يتعلق بذلك ٠ وهنا لا بد من اجراء مقارنة بين مفهوم كل من بيغن وكارتر لمشروع الحكم الذاتي بالنسبة للضفة الغربية :

– ينص مشروع بيغن على انه بالامكان اعادة النظر في اسسه بعد مرور خمس سنوات ٠ واما مشروع كارتر فانه لا يقبل باعادة النظر من جديد وانما يدعو الى اجراء استفتاء عام (ومصر هي التي اقترحت ذلك) ٠

– يتحدث مشروع بيغن عن ان الامن والنظام العام سيكونان بأيدي السلطات الاسرائيلية ٠ وكان بيغن قد اعلن في مشروعه امام الكنيست ، انه يجب ان يكون واضحا لكل من يريد الاتفاق معنا ان الجيش الاسرائيلي سيبقى في الضفة الغربية وقطاع غزة ، بالرغم من اجراء اية ترتيبات امنية اخرى ٠

اما مشروع كارتر فانه يدعو الى تحديد عدد القواعد العسكرية خلال فترة السنوات الخمس المشار اليها ، وهو يتحدث عن معسكرات Cantonment ومعناها العملي التواجد في معسكرات للجيش خارج المدن ٠

– يتحدث مشروع بيغن عن حق سكان اسرائيل في شراء الاراضي والاستيطان في مناطق الضفة الغربية وقطاع غزة ،

الامر الذي يعني ، ان باستطاعه اليهود اقامة المستوطنات في تلك المناطق · اما مشروع كارتر فيدعو الى تقليص عدد المستوطنات اليهودية الى الحد الادنى ، وانه لا ينبغي اقامتها الا في حال وجود مبرر أمني ، سواء على امتداد نهر الاردن او على التلال التي لها قيمة استراتيجية ·

ومن النقاط التي برز الخلاف حولها ، في تلك المحادثات ايضا ، ضرورة اجراء المحادثات مع الاردن ، على اعتبار ان اسرائيل ستضطرّ الى القيام بذلك · ولكن ما اعتبره الاسرائيليون مفاجئا في الموقف الاميركي ، هو اقتراح كارتر بدء المفاوضات بين الاردن واسرائيل خلال فترة السنوات الخمس ، وليس بعد انقضائها (يوسف حاريف ـ معاريف ، ٢٤ـ٣ـ٧٨) ·

ومن جهة ثانية ، يبدو انه قد اثير جدل عنيف ومطول حول الاقتراح الذي تقدم به الرئيس كارتر ، وهو اجراء استفتاء عام في الضفة الغربية وقطاع غزة حول مستقبلهما ، وذلك في اعقاب انتهاء الفترة المشار اليها · وقد سعى كارتر الى تليين موقفه عندما اوضح بان المقصود هو عرض ثلاثة اسئلة فقط على سكان تلك المناطق عند الاستفتاء : (١) الابقاء على الوضع الحالي ، (٢) المحافظة على الارتباط بالاردن او ، (٣) المحافظة على الارتباط باسرائيل ·وقد اكد كارتر انه لن تكون هنالك امكانية رابعة ، اي اقامة دولة فلسطينية مستقلة ، واوضح ايضا ان الضفة الغربية ستبقى منزوعة السلاح ليس فقط لمدة خمس سنوات (المصدر نفسه) · ولكن السلطات الاسرائيلية تعتبر مشروع الاستفتاء العام « خدعة » تنطوي على سعي واشنطن لتأمين الانسحاب الاسرائيلي ، ثم تحويل الضفة والقطاع الى « وطن » فلسطيني يكون مرتبطا بالاردن · وقد سعى كارتر الى جعل هذه الجرعة حلوة بالنسبة لاسرائيل ، فقد أكد لبيغن انه سيسمح لاسرائيل ، بعد الانسحاب ، بالاحتفاظ بعدد من القواعد العسكرية في الضفة الغربية (المصدر نفسه) ·

ولكن ، على الرغم من كافة الضمانات الاميركية بعدم السماح باقامة دولة فلسطينية ، ثم السماح لاسرائيل بالاحتفاظ بقواعد عسكرية في الضفة الغربية ، حتى بعد انقضاء فترة السنوات الخمس ، أوضح بيغن بصورة قاطعة « انه لن يكون هناك اي حل وسط في هذا الشأن من قبل اسرائيل » · وقد رفض بيغن نهائيا فكرة الاستفتاء العام لان منظمة التحرير الفلسطينية ، حسب رأيه ، هي التي ستحدد نتائجه ، و « ان الاستفتاء سيؤدي بالضرورة الى اقامة دولة فلسطينية تابعة لـ م·ت·ف » · واشار بيغن على مسمع من كارتر الى وجود تناقض بين معارضته للدولة الفلسطينية وبين اقتراحه اجراء استفتاء عام ، سيؤدي بالضرورة الى اقامة مثل هذه الدولة · ودعا بيغن الى « عدم الاختباء وراء صيغ شرعية » · وهكذا يكون موضوع الاستفتاء العام قد بقي على رأس قائمة الخلافات الاميركية ـ الاسرائيلية بعد محادثات واشنطن (يديعوت احرونوت ، ٣١ـ٣ـ٧٨) ·

ومن ناحية اخرى ، عبر الرئيس كارتر بصورة قاطعة عن معارضته لاقامة مستوطنات وقرى جديدة في الضفة الغربية · واما بالنسبة لسيناء فان الولايات المتحدة متفقة مع مصر ، على ان

ما يلزم اسرائيل هو « ترتيبات امنية » وليس المستوطنات · وهناك اعتقاد بان كارتر قد حصل من السادات على موافقته على ابقاء المطارات في سيناء تحت السيطرة الاسرائيلية ، وكذلك جعل عمق المناطق المنزوعة السلاح في سيناء كبيرا · ولهذا فان الادارة الاميركية تعتقد ان اسرائيل يجب الا ترى في هذه المستوطنات في سيناء الضمانة الامنية الوحيدة · ولكن يبدو ان الخلاف حول هذه المسألة بقي على اشده ، لان الرأي السائد لدى كل من بيغن ودايان وشارون وحتى مئير يعري ويعقوب جزان ، رجلا مبام ، هو ان هذه المستوطنات تعتبر امرا حيويا لاسرائيل من الناحية الامنية (يوسف حاريف ـ معاريف ، ٢٤ـ٣ـ٧٨) ·

لاءات بيغن

اشارت بعض المصادر الاسرائيلية الى ان الرئيس كارتر قد تحدث الى اعضاء الكونغرس عن لاءات بيغن ، التي سميت « سياسة اللاءات الست » · واشار كارتر، بعد محادثاته مع بيغن الى انه « اذا لم تتخل اسرائيل عن هذه اللاءات ، فانه لا توجد اية فرصة للسلام في الشرق الاوسط » ·

وتتلخص هذه اللاءات الست فيما يلي :

(١) رفض قبول طلب الرئيس كارتر بعدم اقامة مستوطنات جديدة في الضفة الغربية وكذلك عدم تكثيف المستوطنات القائمة ·

٢) « لا » اسرائيلية للمطالبة بالتنازل عن المستوطنات في سيناء ·

٣) رفضت اسرائيل الاقتراح القائل انه اذا ما وافقت مصر على ابقاء المستوطنات ، فانه سيتم حمايتها اما من قبل قوة مصرية او قوة دولية ، واصرت على ان الدفاع عنها سيبقى بأيدي الجيش الاسرائيلي فقط ·

٤) ترفض اسرائيل التعهد بالانسحاب من اي جزء كان من الضفة الغربية او قطاع غزة ، بأي ثمن في المستقبل دون الاخذ بالحسبان التسويات الامنية التي يمكن ان تشملها اتفاقية للسلام ·

٥) رفض بيغن اقتراح كارتر بان يسري القرار ٢٤٢ على كافة الجبهات ، اي القبول بان القرار يلزم اسرائيل بالانسحاب من الضفة الغربية ايضا ·

٦) رفضت اسرائيل قبول اي مشروع اميركي للتسوية في الضفة الغربية وقطاع غزة يرتكز على تسويات جزئية واستفتاء عام (يديعوت احرونوت ، ٢٧ـ٣ـ٧٨) ·

ماذا تريد واشنطن ؟

بات واضحا ان اهم ما تسعى اليه واشنطن، ضمن مفهومها للتسوية السياسية لازمة الشرق الاوسط ،هو تأمين الانسحاب الاسرائيلي من المناطق المحتلة ، مع اجراء بعض التعديلات على الحدود · ويتطلب ذلك الحصول على موافقة اسرائيلية بان القرار ٢٤٢ يسري على كافة الجبهات ، ومن ثم السعي الى ايقاف عملية بناء المستوطنات في المناطق المحتلة· وتعتبر الادارة الاميركية كافة المستوطنات ـ وليس فقط تلك التي اقامتها حكومة بيغن ـ سواء كانت في الضفة الغربية او قطاع غزة او سيناء ، بمثابة عقبة امام السلام (يوسف حاريف ـ معاريف ، ٢٤ـ٣ـ٧٨) ·

كما ان الاميركيين يرفضون رفضا قاطعا فكرة الدولة الفلسطينية المستقلة . وهم يرفضون امكانية ان تصبح م٠ت٠ف شريكا في المفاوضات او في السلطة في اي كيان فلسطيني ٠ ولذلك فانهم يقبلون. مثلا ، بوجود عسكري اسرائيلي ليس فقط على امتداد نهر الاردن ، وانما في اماكن استراتيجية اخرى ايضا ، خلال فترة السنوات الخمس الانتقالية ، وربما بعدها ايضا ٠ ويعتبر هذا تطورا مهما بالنسبة لاسرائيل ٠ ومن جهة ثانية ، توافق واشنطن على اجراء تعديلات على الحدود بين اسرائيل وبين منطقة الحكم الذاتي للفلسطينيين ٠ ولم يتحدث الاميركيون ، هذه المرة ، بصيغة « تعديلات طفيفة » ، ويبدو أن هذه الصيغة قد اختفت من قاموسهم منذ حوالي ستة اشهر على الاقل ٠ فقد قال الرئيس كارتر لاعضاء الكونغرس ، « انه في منطقة ناتانيا ـ قلقيلية يجب أن تكون تعديلات الحدود هذه اكثر من طفيفة » (اريئيل غيناي ـ يديعوت احرونوت ، ٣١ـ٣ـ٧٨) ٠

تطور الخلاف

تشير بعض الجهات الى ان الجو المتوتر الذي يسود العلاقات الاميركية ـ الاسرائيلية الان لم يبدأ في اعقاب زيارة بيغن لواشنطن في اذار ١٩٧٨ ، بل انه يبدأ مع « مشروع بروكينغز » لسنة ١٩٧٥ ٠ ففي حين سعى هنري كيسنجر في سياسة الخطوة خطوة الى تأجيل معالجة الموضوع الفلسطيني الى نهاية عملية السلام ، تسعى ادارة كارتر الى الزام اسرائيل ، قبل حلول السلام ، « بالخط الفلسطيني » الذي صاغه معهد بروكينغز ٠ ونتيجة لذلك كانت المحادثات بين اسحاق رابين وكارتر في اذار من العام الماضي صعبة ٠ وكل ما فعله بيغن خلال اول زيارتين قام بهما الى واشنطن تلخص في انه نجح في الحصول على « وقف اطلاق النار » فيما يتعلق بالموضوع الفلسطيني ، وذلك عن طريق مبادرته التي قدمها في الصيف لعقد مؤتمر جنيف ، ومن ثم تقديم « مشروع السلام » في الشتاء (موشي زال ـ معاريف ، ٢٤ـ٣ـ٧٨) ٠

وحيث ان كارتر « اكتسب تجربة » في المواجهة مع يهود الولايات المتحدة ، فانه لم يتسرع في مواجهة الحكومة الاسرائيلية ، وانما ترك وسائل الاعلام تتحدث عن اخطائها ، وخصوصا فيما يتعلق بانشاء المستوطنات ، التي اعتبرتها وسائل الاعلام بانها العقبة الرئيسية امام السلام ٠ وكذلك الحال بالنسبة لقرار ٢٤٢ ومبادرة السادات ٠ ومن هنا اصبح الرأي العام الاميركي واليهودي « مهيئا » لمجابهة بيغن ، حيث ساد الانطباع لدى الرأي العام الاميركي ان كارتر والسادات بادرا الى السلام مع اسرائيل ، وان الحكومة الاسرائيلية هي التي تعرقله ، لان مناحيم بيغن يرفض « صيغة اسوان » بالنسبة للقضية الفلسطينية (المصدر نفسه) ٠

وكان من الواضح ان بيغن سيلاقي صعوبة كبيرة في محادثاته مع كارتر . وقد ظهر ذلك حتى قبل ان يغادر بيغن الى واشنطن ، عندما لم يستجب كارتر لطلبه تأجيل اتخاذ قرار بشأن جنوبي لبنان الى حين وصوله ، ولكن كارتر رفض ذلك ، وأيد اصدار قرار من مجلس الامن بصدد لبنان دون موافقة اسرائيل عليه ٠ ويرى البعض ان هدف كارتر من وراء ذلك كان افهام بيغن سلفا ، ان محادثاتهما لن تتعرض للبنان او للعلاقات

بين الدولتين ، بل ان المحادثات ستتركز حول المسألة الفلسطينية · (المصدر نفسه) · وللتخفيف من حدة المجابهة مع بيغن وحمله على القبول بالمشروع الاميركي ، وافقت الحكومة الاميركية على بيع بعض الطائرات والمعدات للقتال الليلي لاسرائيل · وكان تسليم هذه الاعتدة قد تأخر لفترة ما · وهكذا اصبحت اسرائيل في حالة الدفاع عن النفس امام الاتهام بأن عنادها يعرقل السلام · وبذلك صعب ايضا على اصدقاء اسرائيل في الكونغرس أفشال « صفقة الرزمة » ، اي تزويد مصر والسعودية ، بالاضافة الى اسرائيل ، بطائرات ف ـ ٥ ، ف ـ ١٥ · ويتوقع البعض انه بعد اقرار الكونغرس لهذه الصفقة ، ستتجه اميركا الى ممارسة الضغط على اسرائيل بواسطة مجلس الامن لحملها على القبول بالتفسير العربي للقرار ٢٤٢ وسريانه على الضفة الغربية ايضا · ولهذا ينصحون بالقيام بحملة قبل ان يقر الكونغرس « صفقة الرزمة » ، اي قبل ان تتم الموافقة على « الخط الاميركي ـ السعودي ـ المصري » في الشرق الاوسط (المصدر نفسه) ·

ازمة في العلاقات الاميركية ـ الاسرائيلية

يعتقد البعض ان ازمة تسيطر الان على العلاقات الاميركية ـ الاسرائيلية ، وان الوضع بالنسبة لاسرائيل اصبح اسوأ مما كان عليه عام ١٩٧٥ · اذ عندما قررت الحكومة الاسرائيلية انذاك مجابهة ادارة الرئيس فورد ، كانت تحظى بتأييد كبير من قبل الكونغرس الاميركي (العريضة التي وقع عليها ٧٦ عضوا في مجلس الشيوخ) وكذلك الرأي العام الاميركي والجالية اليهودية ومن ثم وسائل الاعلام الاميركية · واما الان « فان اي واحد من هؤلاء لا يقف الى جانب اسرائيل من دون تحفظ » · والصورة السائدة لدى المواطن الاميركي العادي ، الذي مل مسألة الشرق الاوسط ، اخذت تبدو الان كالتالي « السادات ـ سلام ، بيغن ـ مستوطنات» · اما بالنسبة للجالية اليهودية فانها منقسمة على نفسها ، وفي وضع دفاع عن النفس · ويرى البعض ان في نية الولايات المتحدة تقديم مشروع سلام متكامل من قبلها ، والى حين الاعلان عنه فانها « ستحاول احداث ازمة داخلية في اسرائيل تؤدي الى تغيير الحكومة ، آملة ان تشكل حكومة اكثر مرونة من الحالية » (عيدو ديسنتشيك ـ معاريف ، ٢٤ـ٣ـ ٧٨) · كما ان بعض اعضاء مجلس الشيوخ انضموا الى الحملة ضد اسرائيل بهدف تحميلها مسؤولية الجمود الحاصل في الشرق الاوسط · فعلى سبيل المثال ، قال السناتور تشارلي برسي « انه طرأ تحول ملحوظ في نظرة الرأي العام الاميركي والكونغرس تجاه سياسة اسرائيل · فقد ابدت مصر المبادرة والعمل ، وقد مرت اسابيع ونحن ننتظر مبادرة وعملا مماثلا من قبل اسرائيل ، ولم نحظ بذلك بعد » (المصدر نفسه) ·

ويعتقد بعض الاسرائيليين انه كان للضغط المصري والسعودي ، الذي يتم من وراء الكواليس ، نصيب كبير في وصول الوضع الى ما هو عليه الان ، حيث ان كارتر القى بكل ثقله للوصول الى تسوية المشكلة الاسرائيلية ـ العربية التي تبدو في نظره على رأس سلم الاولويات · ولذلك سعى الى عدم تمكين بيغن من مغادرة واشنطن بدون صيغة متفق عليها لتجديد المحادثات الاسرائيلية ـ المصرية · وكذلك سعى الى الحصول منه على تنازل

عن المستوطنات في مشارف رفح وايقاف الاستيطان في سيناء ، وبالذات في الضفة الغربية · » وان واشنطن تعمل منذ الان على تقزيم بيغن ، ثم بصورة غير مباشرة تقليص مجال المناورة الاسرائيلية » · (يهوشواع تدمور - دافار ، ٢١-٣-٧٨) ·

المطالبة باستقالة الحكومة ، انتخابات جديدة ، وسياسة جديدة

ادى فشل زيارة بيغن لواشنطن الى حملة انتقادات عنيفة في اسرائيل ضد الحكومة الحالية ، وقد وصلت هذه الحملة الى حد مطالبة الحكومة بالاستقالة · فقد اصدر حزب مبام بيانا اشار فيه الى ان زيارة بيغن للولايات المتحدة قد انتهت بازمة خطيرة ، وانتهت كذلك المفاوضات السياسية الى الجمود ، وتقع المسؤولية الرئيسية في ذلك على عاتق رئيس الحكومة · واضاف البيان ان تفسير بيغن للقرار ٢٤٢ يتناقض مع مواقف كافة الحكومات الاسرائيلية منذ ١٩٦٧ ، وان تمسك بيغن بمشروع الحكم الذاتي الذي رفضته الولايات المتحدة قد تسبب في عزلة اسرائيل التامة في العالم · واضاف البيان : « لقد فشل رئيس الحكومة في طريقه السياسي بأكمله ، وعليه ان يستخلص العبر · ان اسرائيل بحاجة لحكومة اخرى » (دافار ، ٢٤-٣-٧٨) ·

كذلك انتقد البعض وزير الخارجية موشي دايان ، لمحاولاته تخفيف حدة الخلاف ، والاشارة الى ان الازمة الحالية لا تعادل ما حدث عام ١٩٥٦ · فقد اعلنت دافار ، الناطقة باسم المعارضة العمالية (في افتتاحيتها ليوم ٢٤-٣-١٩٧٨) ان دايان مخطىء باعلانه انه لا توجد الان أزمة صعبة في العلاقات مع الولايات المتحدة ، وان اي محاولة للتخفيف من حدتها بالاقوال فقط ، وللاغراض الداخلية انما هي بمثابة خداع · واشارت الصحيفة الى ان واشنطن قد بدأت عمليا بـ « اعادة تقييم » سياستها تجاه اسرائيل قبل زيارة بيغن لواشنطن ، وقد اتخذت خطوات لم تجرؤ الادارة الاميركية السابقة على اللجوء اليها في ذروة الازمة حول الاتفاق المرحلي مع مصر ، وفي أشهر « اعادة التقييم » عام ١٩٧٥ ، وذلك بتأخير عقد صفقات اسلحة جديدة مع اسرائيل · وقد اسرعت الادارة الاميركية ، هذه المرة ، واشترطت تنفيذ صفقات اسلحة كان قد تم الاتفاق عليها مع اسرائيل مسبقا ، مقابل صفقات اسلحة بعيدة المدى مع السعودية ومصر · ومثل « صفقة الرزمة » العسكرية هذه لم يحدث مطلقا في السابق · وهزأ البعض من قول بيغن ان الرأي العام والجهاز السياسي في اسرائيل يؤيدانه في خلافاته مع الولايات المتحدة ، موضحين بان هذا الادعاء بحاجة الى اثبات ، ليس فقط لان الظروف السياسية وسلم الافضليات السياسي قد تغيرت تماما منذ الانتخابات الاخيرة ، وانما لان ما تطلبه الولايات المتحدة من الحكومة الاسرائيلية الحالية الان هو بالذات التمسك بمواقف حكومات المعراخ منذ ١٩٦٧ · ونظرا لاعتراف بيغن بفشله في « بيع » مشروعه في واشنطن ، ونظرا لخطر فقدان الفرصة السانحة لتحقيق تسوية مع احدى الدول العربية على الاقل ، ثم تدهور العلاقات مع الولايات المتحدة ، يرى بعضهم انه يجب على اسرائيل ان تدخل فترة من النقد الذاتي · كما وجه اخرون تحديا الى بيغن بقولهم اذا كان رئيس الحكومة يعتقد ان اكثرية الاسرائيليين تعارض

مثله الحل الوسط الاقليمي في الضفة الغربية وتؤيد سياسة اقامة المستوطنات هناك.. فلماذا لا يعرض الامر ، في استفتاء ،على الناخب ليبدي رأيه · واعلن احدهم بان الوقت قد حان لظهور شخص ما يقود اسرائيل ويعيدها الى الواقع والى العالم · « ان هذه الحكومة لم تبن الجدار الحديدي ـ وانما تضرب رأسها به » (حانوخ بارطوف ـ معاريف ، ٢٤ـ٣ـ ٧٨) ·

ومن ناحية اخرى وجه نقد لاذع للحكومة الاسرائيلية لتأييدها رئيس الحكومة ووزير الخارجية لدى عودتهما من واشنطن والتصويت الى جانبهما بالنسبة لموقفهما في المحادثات مع كارتر، مما ادى الى تخندقهما في موقفيهما المعروفين · ومثل هذا التأييد « يتناقض مع المصلحة القومية تناقضا مطلقا » · واوضح مغلق صحيفة هآرتس المعروف . فولص ، ان ما ينبغي على اسرائيل عمله هو اتفاق مع الولايات المتحدة ، من خلال المحافظة على الضرورات الحيوية لامن اسرائيل · كما دعا الى التوقف عن الترويج لمشروع الحكم الذاتي الذي رفضته الولايات المتحدة ، وكذلك التوقف عن استخدام التفسير الجديد للقرار ٢٤٢ ، لان ذلك سبب لاسرائيل ضررا كبيرا لدى الرأي العام الاميركي والغربي على السواء · كذلك ينبغي « الحذر من التكتل الكاذب والوطنية الزائفة ، والعمل من اجل الخلاص من الطريق المسدود الذي دفعتنا اليه هذه السياسة » (هآرتس، ٢٨ـ٣ـ٧٨) ·

وفي استفتاء اجراه معهد « بوري » اجاب ٩ر٦٠٪ بأن سياسة الحكومة بشأن المستوطنات قد أضرت بمكانة اسرائيل في العالم ، بينما ذكر ٧ر٨٪ انها افادت · وحول السؤال « اذا كان امامك الخيار بين حقنا التاريخي في الاستيطان في كافة انحاء البلاد وبين السلام الان في حدود معترف بها وآمنة فايهما نختار » ، اجاب ٨ر٦٩٪ ـ السلام الان و ١٨٪ ـ بحقنا التاريخي ، وحول المستوطنات ، اجاب ٨ر٥٩٪ بانهم لا يؤيدون اقامتها بينما ايدها ٦ر٢١٪ (دافار ، ٢٤ـ٣ـ٧٨) ·

ولكن ، في مقابل ذلك ، اتجه البعض الى تأييد موقف الحكومة الحالي فيما يتعلق بالنزاع مع الادارة الاميركية ، خصوصا وان حكومة رابين كانت قد واجهت مثل هذا الوضع في اذار (مارس) ١٩٧٥ ، عندما رفضت مقترحات كيسنجر بالنسبة للتسوية الجزئية بين مصر واسرائيل · وقد ساد في حينه جو من الازمة في العلاقات بين واشنطن وتل ابيب · ولكن الرأي العام الاسرائيلي والقوى السياسية المختلفة تكتلت وراء الحكومة ، التي توصلت انذاك الى استنتاج بانه يجب القول «لا» للسادات ولكيسنجر · وقد ارتفعت شعبية رابين لدى الجمهور بفضل ذلك ، ولم يطالب اي شخص باستقالته لانه وسط اسرائيل في صراع مع الولايات المتحدة · وانبرت صحيفة « معاريف » (٢٦ـ٣ـ٧٨) الواسعة الانتشار الى الدفاع عن بيغن باعلانها انه لمن المؤسف القول ان رد الفعل الشعبي، بعد خلاف بيغن مع كارتر ، كان بعيدا عن التكتل العفوي الذي ظهر عام ١٩٧٥ ، وعن ذلك الاستعداد العام الذي وجد تعبيرا عنه في الاستعداد لدعم الحكومة في الصراع الذي تخوضه ، خصوصا « وان المجابهة الحالية وكذلك المجابهات التي سبقتها لم تكن بين رئيس حكومة معين وبين الادارة الاميركية ، وانما بين مفاهيم امنية رئيسية مشتركة بين جميع الاحزاب الكبيرة في اسرائيل ، وبين الهدف الاميركي في الحصول ـ قبل اية مفاوضات

ـ على موافقة اسرائيلية للانسحاب الى خطوط الرابع من حزيران ١٩٦٧ ولاقامة دولة فلسطينية » · ثم « ان من يعتقد ان هذه هي الساعة الملائمة للعمل من اجل اسقاط حكومة بيغن ، لا يبدي مسؤولية سياسية او شعورا وطنيا · ولذلك قد يجد نفسه في معسكر واحد مع من لا يكتفي بالتآمر ضد بيغن فقط ، وانما ايضا ضد الحاجيات الامنية ذات الحد الادنى لاسرائيل بأسرها (المصدر نفسه) ·ودافع المعلق يوسف حاريف عن موقف الحكومة، في هذا الصدد ، بقوله : « ان مشروع الاستفتاء العام [في الضفة الغربية وقطاع غزة] هو اسوأ بكثير من مشروع روجرز ، وان اية حكومة كانت ستعارض مثل هذا المشروع » (المصدر نفسه ، ٢٤ـ ٣ـ٧٨) ·

المطالبة بمشروع اسرائيلي للسلام

تسود المخاوف لدى بعض الاوساط الاسرائيلية من ان الاميركيين سيبلورون قريبا مشروعا للتسوية السلمية يكون قريبا جدا من موقف مصر · وتخشى هذه الاوساط من ان يؤدي الاعلان عن مثل هذا المشروع الى « حشر اسرائيل في الزاوية » وتوجيه مزيد من الضغط السياسي عليها · ولهذا توصلوا الى استنتاج مفاده انه يجب المبادرة الى استمرار المفاوضات مع الولايات المتحدة، وخاصة فيما يتعلق بموضوع اعلان المبادىء · ويبدو ان هذا الاتجاه قد اعطى ثماره ، فقد اعلن عن ان دايان سيسافر قريبا الى واشنطن لاستكمال المحادثات مع الاميركيين (دافار ، ٢٩ـ ٣ـ٧٨) · ويرى البعض ان المشروع الاميركي سينطلق من اعتبارات تحسين العلاقات مع سوريا وكذلك توثيقها مع مصر وضم الاردن الى دائرة المفاوضات مع اسرائيل ، وعلى اسرائيل ان تندمج في هذا المشروع وتساعد على تنفيذه وعدم عرقلته · ويسعى الاميركيون الى توثيق صداقتهم الجديدة مع مصر بواسطة المساعدة العسكرية والاقتصادية وكذلك بواسطة « صفقة الرزمة » ، اي بيع الطائرات لاسرائيل ، شرط بيعها لكل من السعودية ومصر ايضا · واما بالنسبة لسوريا فان واشنطن موافقة على سيطرتها على لبنان وذلك من اجل تأجيل المفاوضات الاسرائيلية ـ السورية وحل مسألة الجولان · واما بالنسبة للاردن ، فواشنطن تسعى الى ادخاله الى دائرة المفاوضات ، ولهذا سيطلب من اسرائيل تقديم تنازل اخر · ويرى الاميركيون ان على اسرائيل تقديم « مشروع سلام » جديد يحتوي على تنازلات اخرى بشأن الضفة الغربية وقطاع غزة (حغاي ايشد ـ دافار ، ٢٦ ـ ٣ـ٧٨) · واشار المعلق نفسه الى ان حكومة اسرائيل ان عاجلا او آجلا ستضطر الى صياغة « مشروع للسلام » فيه تنازل اخر للاردن في الموضوع الفلسطيني ، وانه لم يبق لديها الوقت الكثير لذلك ، اذ ستضطر في النهاية الى الاندماج في المشروع الاميركي الشامل للشرق الاوسط، او على الاقل عدم عرقلته ·

حمدان بدر

قضـــايـا عسكريـــة

سلاح م/د جديد

اعلن متحدث عسكري اسرائيلي فـــي ١٢ـ٤ـ٧٨ ان القوات الاسرائيلية عثـرت في اثناء هجومها الاخير في جنوبي لبنان على سلاح مضاد للدبابات جديد ، لـم يسبق استخدامه في الشرق الاوسط من قبل، ضمن اسلحة اخرى كانت مع مقاتلـي المقاومة الفلسطينية ، وهـو المدفـع ، السوفييتي الصنع ، عديم الارتداد عيـار ٧٣ مم المعروف باسـم « س ب ج ـ ٩ » (SPG - 9) .

وهو مدفع خفيف الوزن يحمله رجـلان عادة، ويمكن قطره باستعمال عربة صغيرة ذات عجلتين. ويتألف من قاذف وزنه ٤٧ر٥ كلغ وطوله ٢ر١١ متر ، ويركب فوق منصب ثلاثي يبلغ وزنه ١٢ كلغ ، يجعل القاذف مرتفعا عن الارض ٨٠ سم . ويستخـدم قذيفة صاروخية مضادة للدبابات من النوع الشديد الانفجار المضاد للدبابات Heat مثبت خلفها محرك صاروخي صغير ووعاء به حشوة دافعة خلف زعانف تثبيت حركة القذيفة . وعندما يطلق المدفع القذيفـة تدفعها الحشوة الدافعة من القاذف بسرعة انطلاق ابتدائية قدرها ٤٢٥ مترا فـي الثانية ، ثم يشتعل المحرك الصاروخـي المساعد فيزيد من سرعة اندفاع القذيفة الى ٧٠٠ متر في الثانية (وهـذا هـو التطوير الرئيسي الجديد في ذلك المدفع عـن بقية المدافع عديمة الارتداد) ، الامـر الذي يمكنها من خرق درع من الصلب يبلغ سمكه نحو ٤٠٠ مم (أي اكثر من ١٥ر٥ بوصة) ، علما بأن سمك درع الدبابـة « سنتوريون » بمقدمة البرج (وهو اقوى اجزاء تدريع اي دبابة عادة) يبلغ نحـو ١٥٠ مم، ودرع مقدمة برج الدبابة «باتون» يبلغ نحو ١١٠ مم ، والدرع المماثل فـي الدبابة « ت ـ ٦٢ » يبلغ نحو ١٧٠ مم . ويتم خرق هذا السمك المذكور عندما تصيبه القذيفة بزاوية ٩٠ درجة . وعموما فان المدفع فعال ضد اي دبابة حال اشتباكـه بها لمدى يبلغ ١٣٠٠ متر . وهذا يعني ان المدفع الجديد ، الاصغر في العيار والوزن من سابقه المدفع « ب ـ ١٠ » عيار ٨٢ مم (يبلغ وزن الاخير مع منصبه ٧٢ كلغ) يتفوق عليه في قدرة خرق الدروع النموذجية (اي بزاوية ارتطام ٩٠ درجة) وفي المدى الفعال للاشتباك مع الدبابات ، اذ ان المدفع « ب ـ ١٠ » يخرق درعا سمكه ٢٤٠ مم ، ومداه الفعال ٥٠٠ متر فقط .

كما انه يتفوق في مدى الاشتباك الفعال ضد الدبابات عن المدفع عديم الارتـداد الاميركي عيار ١٠٦ مم الاثقل منه وزنـا بكثير ، اذ ان وزن الاخير مع منصبـه يبلغ ٢٠٩ كلغ (القاذف لوحده يزن ١١٣ كلغ) مقابل نحو ٦٠ كلغ للمدفع ٧٣ مم، على حين ان مداه الفعال ضد الدبابات لا يزيد عن نحو ١١٠٠ متر (مقابل ١٣٠٠ متر للمدفع ٧٣ مم) . وهكذا يتيح هذا المدفع، الذي يتمتع بميزة خفة الوزن وصغر الحجم

قدرة جيدة للغاية لوحدات المقاومة الفلسطينية ضد المدرعات الاسرائيلية ،كما انه يوفر سلاحا فعالا لكتائب المشاة العربية النظامية ضد المدرعات بدلا من المدفع « ب ـ ١١ » السوفييتي ، المقابل تقريبا للمدفع الاميركي ١٠٦ مم ، الاثقل وزنا بكثير من المدفع ٧٣ مم كما انه اكبر حجما ، الامر الذي يصعب معه نسبيا اخفاءه والمناورة به · على حين ان المدفع الجديد يسهل اخفاءه والمناورة به ، ومن ثم يصبح اقل عرضة للاصابة بنيران الدبابات بعد ان يكشف عن وجوده اثر الطلقة الاولى ، وهي احدى المشكلات التي واجهت سدنة هذه المدافع في كتائب المشاة العربية اثناء حرب تشرين (اكتوبر) ١٩٧٣ · وبطبيعة الحال يتكامل هذا المدفع مع نظم الصواريخ الموجهة المضادة للدبابات ، في تشكيل قوة النيران م/د لدى كتائب والوية المشاة فيالجيوش العربية، وفي تشكيلات المقاومة الفلسطينية ايضا · ويوجد هذا المدفع حاليا لدى المشاة الميكانيكية في الجيش السوفييتي ، وكذلك في جيوش كل من بولندا وبلغاريا والمجر والمانيا الديمقراطية ، ومن المحتمل ان يكون موجودا لدى بعض الجيوش العربية التي تتسلح من الاتحاد السوفييتي الان ، مثل الجيش السوري والجيش العراقي والليبي والجزائري ·

« اسرائيل تستخدم القنابل العنقودية »

القنابل « العنقودية » Cluster Bomb المحرمة دوليا ، والتي انتجتها وطورتها الولايات المتحدة الاميركية اثناء الحرب الفيتنامية لتستخدمها في قتل الثوار والسكان المدنيين في المناطق المحررة وفي مناطق الشمال ، ضمن حملات الابادة والارهاب التي لم تقهر ارادة الثورة الفيتنامية ، تبين من خلال عمليات القصف الجوي الاسرائيلي ، اثناء الهجوم على الجنوب اللبناني ، ان الولايات المتحدة قد زودت اسرائيل بالاف منها تقدر بنحو ٢٢ الف قنبلة ، ضمن صفقات الاسلحة الضخمة التي زودتها بها عقب حرب ١٩٧٣ ، لتكون لها اليد العليا عسكريا ضد الجيوش العربية في اي حرب خامسة · والهدف الرئيسي الذي زودت الولايات المتحدة من اجله اسرائيل بالقنابل العنقودية ، هو توفير اداة تكتيكية ، تتكامل مع غيرها من الاسلحة الحديثة الاخرى (صواريخ لانس والصواريخ جو ـ ارض بعيدة المدى نسبيا الخ) ، تساعد في التغلب على بطاريات الصواريخ المضادة للطائرات التي حدت من قدرات الطيران الاسرائيلي خلال حرب ٧٣ ، وفي محاولة القضاء على رماة الصواريخ المضادة للدبابات من وحدات المشاة العربية، وعموما للتغلب على عنصر التفوق الكمي العربي المفترض مواجهته للقوات الاسرائيلية المحدودة الموارد البشرية نسبيا ·

وتقول الولايات المتحدة ان اسرائيل قد خرقت الشروط المتفق عليها بينهما لاستخدام هذا النوع من القنابل ، من حيث انها يجب ان تستخدم ضد اهداف عسكرية فحسب ، وضمن حالة دفاع عن النفس ، وليس ضد المدنيين ، وفي عملية هجومية مثل عملية غزو جنوب لبنان ·

فقد اعلن النائب الاميركي الديمقراطي « بول ماكلوسكي » ، في ٨ـ٤ـ٧٨ ، ان الطائرات الاسرائيلية القت قنابل عنقودية من صنع اميركي على السكان المدنيين في جنوبي لبنان ، خاصة في الغارات التي جرت على مخيمات اللاجئين الفلسطينيين جنوبي « صور » يوم ١٩ـ٣ـ٧٨ ،مما نتج عنه خسائر كبيرة في الارواح ·

على حين ادعى ناطق اسرائيلي يوم

١٠ـ٤ـ٧٨ أن « ايا من هذه القنابل لم تستخدم ضد ما يمكن ان يعتبر هدفا مدنيا » ٠

ولكن مراسل وكالة « رويتر » في الجنوب كان قد كذب عمليا هذه الادعاءات اثناء الحرب ذاتها ، حيث نقل صورة حية عن قصف المخيمات حول « صور » يوم ١٩ـ٣ـ٧٨ بالقنابل العنقودية فقال « في اليوم الخامس من الحرب الفلسطينية ـ الاسرائيلية في جنوبي لبنان ، رأيت طائرات الفانتوم الاسرائيلية تأتي في طلعة اثر طلعة وتفرغ حمولتها من القنابل العنقودية على ضاحية المعشوق التي تقع على بعد اقل من كيلو مترين الى الشرق من صور » ٠

وفي ١٤ـ٤ـ٧٨ قال مراسل صحيفة « هآرتس » في واشنطن ان الرئيس « كارتر » اعطى امرا بوقف شحنات هذه القنابل مؤقتا وانه لا ينوي استئنافها قبل وضع شروط للحد من استخدامها في قساوة ٠ وذكرت صحيفة « جيروزاليم بوست » في اليوم نفسه، نقلا عن مراسلها في « واشنطن » ان الولايات المتحدة جمدت موافقتها على مطالب اسرائيل العسكرية باستثناء طلب الحصول على طائرات هيلكوبتر وبعض الاعتدة الحربية ٠

وفي ١٥ـ٤ـ٧٨ اكد « بريزنسكي » ، مستشار الامن القومي للرئيس الاميركي ، ان اسرائيل استخدمت القنابل العنقودية في جنوبي لبنان ، على الرغم من التطمينات السابقة التي قدمتها للولايات المتحدة بهذا الخصوص ، ثم اوضح ان الحكومة الاميركية ستحاول تشديد الشروط المفروضة على اسرائيل في مجال استعمال هذه القنابل ٠ ولم يشر، هو او غيره من المسؤولين الاميركيين ، الى مسألة وقف شحن هذه القنابل ، او تجميد طلبات الاسلحة الاسرائيلية ٠ هذا وقد نفى وزير الدفاع الاسرائيلي في حديث له مع مجلة « نيوزويك » ، نشر في ١٦ـ٤ـ٧٨ ، وجود أي قيود على اسرائيل في استخدام هذه القنابل من قبل الحكومة الاميركية ٠ وتجدر الاشارة الى ان القنبلة العنقودية هي عبارة عن عدة قنابل صغيرة تضمها قنبلة واحدة كبيرة داخل وعاء خارجي يطلق عليه « ديسبنسر » تتبعثر منه القنابل الصغيرة قبل ان تصل القنبلة « الام » الى الارض فتنتشر على مساحة كبيرة مسببة اصابة وموت عدد كبير من الافراد عن طريق متفجرات تحملها او شفرات حادة تتناثر منها في كل اتجاه ٠ وتختلف عبوة كل وعاء ، اي « ديسبنسر» وفقا لغرض القصف وحجم الهدف ، فهناك نوع منها يضم مثلا ٢٤٧ قنبلة صغيرة ، وهناك نوع آخر يضم ٧١٧ قنبلة ٠ ولذلك تسمى احيانا بالقنبلة المتناثرة ٠ اما تسمية « الانشطارية » فليست دقيقة في التعبير عن صفة التناثر ، لان الانشطار يطلق علميا عن الانشطار داخل النواه ومن ثم تعتبر القنابل الذرية قنابل انشطارية ٠

« حاملة الطائرات الاميركية « نيميتز » في « حيفا » »

كشفت وكالات الانباء ان وزير الدفاع الاسرائيلي عيزر فايتسمن والجنرال «ايفان»، رئيس الاركان الحالي، والاميرال ميخائيل بركاني ، قائد البحرية الاسرائيلية والجنرال « دافيد عفري » ، قائد السلاح الجوي الاسرائيلي ، حضروا تدريبات رماية جرت من على ظهر حاملة الطائرات الاميركية « نيميتز » في البحر الابيض المتوسط ٠ وان طائرة من حاملة الطائرات المذكورة نقلتهم من مطار « اللد » الى ظهر الحاملة ومعهم ايضا « افرايم افرون » .

المدير العام لوزارة الخارجية الاسرائيلية، ليحضروا هذه المناورة البحرية ـ الجوية الاميركية الهامة التي جرت يوم ٥ـ٤ـ١٩٧٨ ٠

وفي اليوم التالي مباشرة دخلت حاملة الطائرات المذكورة ميناء « حيفا » ورست فيه ، فيما اعلن عنه انه زيارة وديـة لاسرائيل ، وقد صعد الى ظهرها ، مناحم بيغن ، رئيس الوزراء الاسرائيلي ، ومعه « عيزر فايتسمان » وعدد من كبار الضباط وتجولوا فيها ، ثم حضر مأدبة غذاء اقامها على شرفه قائد الحاملة الاميرال « روبرت شولتز » ٠ والحاملة المذكورة هي احدى ثلاث حاملات طائرات تسير بالطاقة النووية ، تمتلكها البحرية الاميركية حاليا، والاخريان هما « دوايت ايزنهاور » و « انتربريز » ٠ وتعد من احدث حاملات الطائرات الاميركية ، اذ انها دخلت الخدمة العملية في ٣ـ٥ـ١٩٧٥ ٠ وقد بلغت كلفتها مليار و ٨٨١ مليون دولار ٠ وهي ، و « دوايت ايزنهاور » ، و « كارل فينسون» التي ما زالت قيد الانشاء ، اكبر حاملة طائرات اميركية وفي العالم كله ايضا ٠ اذ يبلغ وزنها، بحمولة القتال ، ٩٣ر٤٠٠ طن، ويبلغ طولها الاجمالي ٣٣٢ مترا ، وعرض مهبط طائراتها ٧٦ر٨ مترا، وعمق غاطسها ١١ر٣ مترا ٠ وتدفعها محركات تبلغ قوتها ٢٦٠ الف حصان ، وتزيد سرعتها القصوى عن ٣٠ عقدة (اي اكثر من ٥٥ كلم) ٠ وتحمل نحو ١٠٠ طائرة حربية من مختلف الانواع ، تضم طائرات مقاتلة متعددة المهام من طرازي « ف ـ ١٤ » (توم كات) و « ف ـ ٤ » (فانتوم) ، وطائرات دعم قريب من طراز « كورسير » وطائرات هجوم في مختلف الاحوال الجوية من طراز « انترودر » ، وطائرات استطلاع جوي استراتيجي وطائرات انذار مبكر وطائرات هليكوبتر مضادة للغواصات واخرى لمهام الانقاذ ٠

ويبلغ عدد الطاقم البحري للحاملة ٣٣٠٠ رجل ، وعدد الطاقم الجوي ، من طيارين ومساعدين مختلفين ، ٢٨٠٠ رجل، اي ما مجموعه ٦١٠٠ رجل ٠ وهي مسلحة بثلاث مجموعات من صواريخ « سبارو » المضادة للطائرات ٠ ومما تجدر الاشارة اليه ان الاميرال « جيمس هولوواي » قائد البحرية الاميركية كان قد زار اسرائيل في ٢٩ـ٣ـ٧٨ لمدة ثلاثة ايام ، وذلك عقب زيارته لمصر ، وخلال زيارته هذه تفقد كل من « حيفا » و « شرم الشيخ » ، ورفض ان يدلي بأية تصريحات صحفية خلال الزيارة ، مؤكدا انه يحرص على ان تظل زيارته بعيدة عن الاضواء ٠ واذا ما تذكرنا ان «موشي ديان» ، وزير الخارجية الاسرائيلي ، كان قد اعلن في مجلس النواب الاميركي يوم ٢١ـ٩ـ١٩٧٧ عن استعداد « اسرائيل لمنح الاسطول السادس الاميركي قاعدة في ميناء حيفا » ٠

وقول « غولدا مائير » ، رئيسة الوزراء السابقة ، اثناء مقابلة صحفية اجريت لها في القدس عام ١٩٧٢ ، عن الرؤساء الاميركيين « انهم دائما لطفاء معي ، فهم يعدونني بكل شيء ، ولكن هل تعلم ماذا يعطونني ؟! انهم لا يعطونني مفاتيح الاسطول السادس ، وبدون هذه المفاتيح ، فنحن مدعوون لان نلعب دور باكستان » ٠

اذا ما تذكرنا هذه الاقوال ، فاننا نستطيع ان نتفهم مغزى هذه الزيارات الودية لحاملة الطائرات الاميركية ،وقائد البحرية الاميركية ، لحيفا ٠ ونفهم كذلك مغزى حضور القادة العسكريين الاسرائيليين لتدريبات الحاملة المذكورة في

شرقي البحر الابيض المتوسط ، من حيث ان الولايات المتحدة تؤكد للعرب دور الاسطول السادس في دعم امن اسرائيل ، ويكفي في هذا الصدد ان نتذكر قول الكاتب الاستراتيجي الاميركي « هانسون بالدوين » في كتابه « استراتيجية للغد » «يبدو واضحا أن اسرائيل لا يمكنها البقاء لمدة طويلة وسط بحر من العرب .. وبدون الاسطول الاميركي السادس في البحر الابيض المتوسط ، ستواجه اسرائيل قدرها » .

ويجدر بنا ان نتذكر ايضا ان الاسطول السادس تشكل رسميا تحت هذا الاسم في اول حزيران (يونيو) ١٩٤٨ ، اي عقب اعلان قيام الدولة الصهيونية باسبوعين فقط ! ويتألف الاسطول السادس عادة من حاملتي طائرات و ١٥ سفينة حربية ، من بينها طرادين مسلحين بالصواريخ ، و ٤ غواصات نووية ، ونحو ٢٠٠٠ من مشاة البحرية تحملهم ٣ ـ ٥ سفن انزال ، واجمالي قطعه المختلفة ما بين ٤٠ و ٥٠ قطعة بحرية وقوته البشرية نحو ٢٥ الف رجل .

« سفينة انزال الدبابات الفرنسية تجري مناورة عند « صور » »

في الفترة من ١٠ الى ١٤ نيسان (ابريل) ١٩٧٨ ، نفذت البحرية الفرنسية مناورة بحرية قرب شاطىء صور في جنوبي لبنان ، بهدف دراسة امكانات انزال القوات والاسلحة والمعدات من البحر على الشاطىء الجنوبي لصور ، وتضمنت هذه المناورة ، التي قامت بها اساسا سفينة انزال الدبابات المسماة « بيداسو » عمليات مسح دقيق للشاطىء والقضاء نقاط الاقتراب البحري اليه ، شاركت فيها جماعات من الضفادع البشرية استخدمت قوارب مطاطية مزودة بمحركات ، كما شاركت فيها زوارق انزال مركبات وجنود ، وكلها تشكل جزءا من طاقم ومعدات انزال السفينة « بيداسو » ، التي تحمل الرقم « ل ٩٠٠٤ » .

وفي الوقت ذاته اشتركت في المناورة على الشاطىء بعض العربات المدرعة الفرنسية ، التابعة للوحدة الفرنسية التابعة لقوات الطوارىء الدولية ، وكانت تقوم بتنظيم الاتصالات اللاسلكية مع السفينة اثناء تحركاتها ، وتجري حماية لرأس الجسر الذي ستنزل عليه القوات المفترضة من البحر .

وكانت السفينة المذكورة قد انزلت في ميناء « بيروت » يوم ٣ـ٤ـ٧٨ قوة فرنسية ضمت ٩٠ جنديا و ٣ ضباط ، و ١١ عربة مدرعة « بانهارد » خفيفة من النوع المسمى « ه ا ي ٦٠ ـ ١٢ » المسلحة برشاش عيار ٧ر١٢ مم وهاون عيار ٦٠ مم ، و ٢ عربة مدرعة « بانهارد » من النوع المسمى «ه ا ي ـ ٩٠» المسلحة بمدفع عيار ٩٠مم ورشاش ٦٢ر٧ مم ، فضلا عن نحو ١٥ شاحنة خفيفة وعربة اسعاف .

والسفينة « بيداسو » هي واحدة من خمس سفن انزال دبابات لدى البحرية الفرنسية من الطراز نفسه ، والاربع سفن الاخرى تحمل الارقام « ل ٩٠٠٣ » و «ل ٩٠٠٧» و «ل ٩٠٠٨» و «ل٩٠٠٩» . وسفن انزال الدبابات ذات تصميم خاص يشبه تصميم ناقلات النفط ليسمح بحمل اكبر قدر ممكن من حجم السفينة بحمل اكبر عدد ممكن من الاليات المختلفة ، وخاصة الدبابات او العربات المدرعة او عربات قتال المشاة المدرعة ، وفقا لحجم ووزن الآليات . كما انها مزودة بباب

يفتح في مقدمة السفينة ويدلى منه منزلق خاص بانزال الآليات الى الشواطىء الرملية مباشرة ، او في المياه الضحلة القريبة منها . او على رصيف عائم او ثابت ، كما يمكن للسفينة ان تنزل من الباب المذكور او من احد جوانبها ٤زوارق انزال صغيرة قادرة على حمل دبابة او الية اخرى او عدد من الجنود على الشاطىء مباشرة · ويسمح صغر غاطس سفينة الانزال ، يسمح لها بالاقتراب كثيرا من الشواطىء الرملية ، والسير في المياه القليلة الغور نسبيا ، ولذلك تسبق عمليات الانزال البحري عمليات مسح للشواطىء المقرر اجراء العملية عليها . وذلك للتعرف على طبيعة الشاطىء وعمق المياه القريبة منه ، ومدى خلو قاعها من الموانع الطبيعية التي قد تصطدم بها السفينة حال اقترابها الكبير من الشاطىء وطبيعة التيارات المائية بالمنطقة الخ ·

وقد انزلت السفينة « بيداسو » المذكورة الى الماء في ٣٠-١٢-١٩٦٠ ، وتم تجهيزها وادخالها الخدمة العملية بالبحرية الفرنسية خلال عام ١٩٦١ ، ومن ثم فهي تعتبر حديثة نسبيا بالقياس لسفن الانزال المبنية اصلا خلال الحرب العالمية الثانية ، والتي ما زال الكثير منها يعمل بمختلف البحريات العالمية · وهي تعتبر من السفن المتوسطة الحجم والوزن، اذ ان وزنها القياسي يبلغ ١٤٠٠ طن ، ووزنها العادي ١٧٦٥ طنا ، اما في حالة الحمولة الكاملة فيبلغ وزنها ٤٢٢٥ طنا· ويبلغ طولها الاجمالي ١ر١٠٢ مترا ، واقصى عرض لهيكلها ٥ر١٥ مترا ، وعمق غاطسها ٢ر٣ امتار · وهي مزودة بمحركات ديزل تبلغ قوتها ٢٠٠٠ حصان، وسرعتها القصوى ١١ عقدة (اي نحو ٢١ كلم في الساعة) ، ويمكن ان يصل مدى عملها الى ١٨٥٠٠ ميل بحري بسرعة ١٠ عقد ، وهي مسلحة بثلاثة مدافع مضادة للطائرات من عيار ٤٠ مم ومدفع هاون عيار ٧ر٤ بوصة · وتستطيع السفينة ان تحمل ١٨٠٠ طن من الشحنات المختلفة ، كما تحمل ٤ زوارق انزال جنود وآليات ويمكنها ان تحمل عادة ٣٣٥ جنديا ، بالاضافة لطاقمها البحري المؤلف من ٧٥ رجلا (٦ ضباط و ٦٩ رتب اخرى) · ويمكن لها في حالات الضرورة ، ولمسافة قصيرة نسبيا ، ان تحمل ٨٠٧ جندي (٣٢٩ منهم ينامون في اسرة مثبتة بجسم السفينة و ٥٥٢ آخرين ينامون في شباك نوم معلقة) ، وفي تقديرنا انها تستطيع ان تحمل ما بين ١٥ و ٢٠ دبابة قتال رئيسية ، والسؤال الهام الآن هو هل تستعد فرنسا من اجل انزال لواء مدرع او ميكانيكي من قوات الاحتياطي الاستراتيجي في صور بواسطة سفن انزال الدبابات الخمس المذكورة في المستقبل ؟

« خطوة اولى على طريق الصناعة الحربية العربية »

في ١٥-٣-٧٨ اجتمع وزير الحربية المصري الفريق اول « محمد عبد الغني الجمسي » مع الرئيس الفرنسي « فاليري جيسكار ديستان » في باريس لمدة ٩٠ دقيقة ، ولم يصرح بشيء عن تفاصيل ما دار في هذا الاجتماع · ثم اعلن بعد انتهاء زيارة الوزير المصري انه تم توقيع اتفاق عام بينه وبين وزير الدفاع الفرنسي يحدد مبدأ التعاون الصناعي بين فرنسا والهيئة العربية العليا للتصنيع الحربي ، ينظم بمقتضاه تبادل المعلومات في مجالات الصناعة الحربية بين فرنسا والدول العربية الاعضاء في الهيئة المذكورة ، وهي

مصر والسعودية وقطر ودولة الامـــارات العربية المتحدة ٠

وكان الشيخ « خليفة بن زايد » ، ولي العهد في « ابو ظبي » ، قد صرح لجريدة « الرأي العام » الكويتية ، في ٢٤ـ٢ـ٧٨، أن مصر والدول العربية الثلاث الاخرى ستبدأ تنفيذ خطط الانتاج المشترك للاسلحة قبل نهاية السنة الحالية، واوضح أن خطط الانتاج المذكورة تشمل انتاج صواريـــخ مضادة للدبابات بريطانية النوع وسيارات جيب وطائرات هليكوبتر بريطانية من نوع « لينكس » ٠ ثم دعا الدول العربية الاخرى الى الانضمام الى الهيئة المذكورة ، التي يبلغ رأس مالها الف مليون دولار ، قائلا : « ان قوة العرب هي في الاعتماد علـــى انفسهم » ٠

وكانت الخطوة العملية الاكثر وضوحا، على طريق وضع برامج الهيئة العربيـــة للتصنيع الحربي (التي يطلق عليهـــا اختصارا في الكتابات الانجليزية AMIU وهو اختصار لكلمات Arab Military Industries Organisation موضـــع التنفيذ ، هي توقيع بروتوكول التعـــاون الفني بين الهيئة المذكورة وبريطانيا فـــي مجالات الصناعة الحربية ، وذلك فـــي القاهرة يوم ٤ـ١ـ٧٨ بين الفريـــق اول « الجمسي » ، وزير الحربية المصـــري ورئيس الهيئة المشار اليها ، ووزيـــر الدفاع البريطاني « فريدريك موللي » ٠ وصرح « الجمسي » عقب التوقيع علـــى البروتوكول بانه سيوضع موضع التنفيذ على الفور ، وان الاتفاق بين الجانبين تم على انشاء ثلاث شركات مشتركة لتصنيع الصواريخ الموجهة المضادة للدبابات من طراز « سوينغ فاير » ، وتصنيع محركات وهياكل الطائرات الهليكوبتر من طـــراز « لينكس » ٠ وسيترتب على الاتفاق تسليم مصر دفعة كاملة التصنيع من طائـــرات « لينكس » يبلغ عددها ٢٠ طائرة ، ثـــم يجري بعد ذلك تجميع وتصنيع نحو ٢٠٠ طائرة اخرى محليا فيمصر لحساب الدول المشاركة في الهيئة ٠ والطائرة « لينكس » تنتجها شركة « ويستلاند » البريطانيـــة ، وهي نتاج تعاون بريطاني ـ فرنسي فـــي انتاج ثلاث انواع من طائرات الهليكوبتر، هي « غازيل » و « بوما » و « لينكس » ، والنوعان الاولان تشرف على تصميمهمـــا وانتاجهما مؤسسة « ايروسباسيـــال » الفرنسية ، على حين صممت شركـــة « ويستلاند » الطائرة « لينكس » ، وتنتج من قبل الشركتين ٠ وهي طائرة هليكوبتر لمختلف الاغراض العسكرية بما فيها النقل الخفيف وقنص الدبابات بصواريخ «سوينغ فاير » (الطراز المخصص منها لطائـــرات الهليكوبتر المسمى بيسوينغ) ، كما انها يمكن أن تعمل ضد الغواصات ايضا وهي مزودة بمحركين « رولز رويس » قوة كل واحد ٩٠٠ حصان لمدة دقيقتين و ٣٠ثانية و ٧٥٠ حصانا لفترات الطيران الطويلة ، ويبلغ وزنها فارغة ٣١٧٤ كلغ ، واقصى وزن لاقلاعها (في المهمات البحرية)٤٣٠٩ كلغ ٠ وسرعتها القصوى ٣٣٣ كلم /ساعة وسرعتها الاعتيادية ٢٧٣ كلـم / ساعة ، وارتفاعها بدون تأثير ارضي ٣٦٦٠ مترا، واقصى مدى لها اعتمادا على الوقـــود الداخلي ٦٣٠ كلم ٠

ويمكن تسليحها برشاش من عيار ٢٠مم مع ١٥٠٠ طلقة ، او رشاشين من طـراز « مينغن » في نقطتي التعليق الخارجيتين، او رشاش واحد من الطراز نفسه تحـــت حجرة الطائرة مع ٣٠٠٠ طلقة ، او بـ ٦ صواريخ مضادة للدبابات من طـــراز « بيسوينغ » ، او « س س ـ ١١ » ، او ٨ صواريخ مماثلة من طراز « تاو » او من طراز «هوت » ٠ وعند تسليح الطائرة

لمهام مضادة للغواصات يمكن ان تسلح بصاروخين موجهين من طراز « مارك ٤٤» او « مارك ٤٦ » ، او قنبلتي اعماك «مارك ١١ » . وبطبيعة الحال فان انتاج هذه الكمية من الطائرات في مصر ، سيزيد من قدرة الدفاع المضاد للدبابات وللغواصات لدى الجيش المصري ، كما سيساعد على وضع اساس وخبرة تقنية في مجال هام من مجالات الصناعة الجوية، شرط عدم كتم المعلومات الرئيسية في الصناعة عن التقنيين المصريين وعدم عرقلة مراحل التصنيع المتطورة اثناء التطبيق - ولكن في نهاية الامر فان اعتماد العرب على انفسهم في مجال التسليح المصنوع محليا لن يتم لمجرد صناعة اسلحة دفاعية محدودة مثل الصواريخ م/د وطائرات الهليكوبتر او التدريب ، وانما يجب ان يتم في مجالات الطائرات المقاتلة المتطورة والمدرعات الخ ، حتى يمكن ان يواجهوا التفوق العسكري الاسرائيلي ، وهو ما يتطلب اساسا نشوء وتطوير الصناعات الثقيلة العربية ، الامر الذي تعارضه بدون شك الامبريالية الغربية .

محمود عزمي

التحرك الجماهيري في الاردن خلال حرب الجنوب

في اليوم الاول للعدوان الاسرائيلي على جنوبي لبنان ، شهدت الساحة الاردنية تحركا جماهيريا واسعا هو الاول من نوعه منذ احداث ايلول ١٩٧٠ وما تلاها في تموز الاحراش عام ١٩٧١ وما نجم عنهما من حسم مؤقت للصراع على الساحة الاردنية لصالح النظام الاردني .

بدأ التحرك الجماهيري في الجامعات الاردنية (الجامعة الاردنية ـ الجبيهة وجامعة اليرموك ـ اربد) وفي المدارس الثانوية كما كان منتظرا خاصة وان الجامعات وحدها التي شهدت تحركات سابقة خلال سنوات الحرب في لبنان وان اقتصرت ، وقتها ، على توزيع بيانات الاتحادات الطلابية ، والمطالبة بوحدة لبنان وعروبته ، واعلان المشاعر المناهضة للتقسيم ، دون ان تتعرض لدور النظام الاردني او حتى أن تطالبه بتحرك في هذا الاتجاه .

على ان ازدياد الغضبة الطلابية داخل الجامعات والمدارس الثانوية تتناسب هذه المرة طردا مع حجم العدوان الاسرائيلي ودخلته عناصر جديدة زادت من حدته ، فقد شارك مدرسو الجامعات هذه المرة في المهرجان الطلابي الذي اقامه طلبة الجامعة الاردنية داخل الحرم الجامعي ، وصدر بعد هذا المهرجان بيان للهيئة التدريسية في الجامعة ادان الصمت العربي وحيا صمود المقاومة الفلسطينية والحركة الوطنية اللبنانية . وطالب باعطاء الحرية للجماهير للالتحاق بساحة المعركة

(الجماهير ـ نشرة الحزب الشيوعي الاردني العدد الثالث اذار ٧٨) ٠

وفتحت الجامعة الاردنية باب التطوع ، وبلغ عدد المتطوعين في اليوم الثاني ستماية متطوع ، كانت الدفعة الاولى التي اختيرت للتوجه الى لبنان مائة وعشرين متطوعا منعتهم السلطات من السفر ولعب عميد الجامعة اسحق الفرحان دورا كبيرا في ذلك اذ وضع شروطا تعجيزية اثناء اعتصام الطلبة في كلية الطب ، حيث اشترط ان يكون معدل الطالب التراكمي اكثر من ٦٠٪ في كافة المواد التي درسها ، كما طلب اذنا خطيا من اولياء امور الطالبات والطلاب بالموافقة على سفر ابنائهم علما بانه اعلن ان الجامعة غير مسؤولة عن عدم السماح لاي متطوع بالعودة الى الاردن ٠ وفي جامعة اليرموك دخل مدير مخابرات اربد قاسم الغراية مباشرة الى الحرم الجامعي واعتقل رئيس اتحاد الطلبة فيها هاشم غرايبة ، وتعرضت السلطات الى الدفعة الاولى من المتطوعين على مراكز الحدود بالضرب والاهانة واعادتهم من حيث اتوا ٠

لم يقتصر الامر على الجامعات بل شهدت مدن المملكة من اربد في الشمال الى الكرك في الجنوب مرورا بالمدن الرئيسية عمان والزرقاء والسلط ومخيمات البقعة ، الوحدات ، شنلر ، شهدت تظاهرات صاخبة رفعت شعارات التأييد للمقاومة الفلسطينية والحركة الوطنية اللبنانية ، وادانت صمت الانظمة ٠ وما ان ازداد حجم هذه التظاهرات تصدت السلطات لها في محاولة لحصرها بادىء الامر في اماكن انطلاقها ، واضطرت بعدها الى استعمال القنابل المسيلة للدموع والعصي والهراوات ، اولا . ثم استعمل الرصاص في كل من عمان والبقعة وشنلر حيث سقط عدد من الشهداء عرف منهم الطلاب سليمان محمد البنا ، امين المستوخي ، جاسر محمد عوض الله داوود،كما استشهد المعلم صالح علي احمد المحسيري ونقل عشرات الجرحى الى المستشفيات وجراح بعضهم خطرة ٠ كما اعتقل عدد كبير من المواطنين افرج عن بعضهم ولا زال البعض الاخر نزيل السجون ٠

على ان اعنف هذه المظاهرات كانت تظاهرة تشييع جثمان الشهيد جهاد حمو والتي تميزت بعنصرين بارزين هي اشتراك جماهير مسلحة من عشائر سحاب في تعزية مخيم الوحدات والمشاركة في التظاهرة ، وثانيها توجه التظاهرة الى السفارة المصرية بعمان لادانة مبادرة السادات الخيانية ٠

هذا وتداعت النقابات المهنية الى اجتماع في اليوم الاول اصدرت على اثره بيانا شجبت فيه العدوان الصهيوني الصارخ على الجنوب اللبناني واهابت بالامة العربية ان تتحرك للرد على العدوان مهما يكن الثمن ، وقد اعربت النقابات المهنية عن اسفها للصمت العربي المطبق ودعت الجماهير العربية للتحرك السريع والفعال لدفع الحكومات العربية للقيام بواجبها الوطني والقومي بالتصدي الجدي الفعال للعدوان الاسرائيلي (صحيفة الدستور الاردنية ١٦ اذار ١٩٧٨) ٠

ويوم ١٧ـ٣ـ٧٨ بدأت النقابات تنفيذ برنامجها فاعلن الدكتور حسن خريس نقيب الاطباء عن فتح عدة مراكز للتبرع بالدم (صحيفة الدستور الاردنية ١٧ـ٣ـ ٧٨) واعلن عن توجه بعثة طبية الى

بيروت يرافقها بنفسه للاطلاع على احتياجات الهلال الاحمر الفلسطيني ، وهذا ما حصل فعلا · وامام كميات الدم الكبيرة التي تبرع بها المواطنون اصدرت وزارة الصحة الاردنية بيانا استندت فيه الى الدكتور خريس نفسه يطلب وقف الحملة لاكتفاء الهلال الاحمر من جهة . ولان الكميات التي تبرع بها المواطنون فاضت عن اماكن تخزين الدم في الاردن نفسه ·

هذا وتداعى اعضاء المجلس الوطني الفلسطيني الى اجتماع في المنظمة بعمان حضره ثلاثون عضوا ، تدارس المجتمعون الوضع الجديد الناجم عن التحرك الجماهيري وانتخبوا لجنة دائمة من بينهم السادة ياسر عمرو وسليمان النجاب وساجي خليل وعزمي الخواجا مهمتها التنسيق مع الحركة الوطنية الاردنية ·

كما سارعت الاحزاب والقوى الوطنية الى اصدار بيانات تطالب فيها الجماهير بالالتحاق بساحة المعركة ، واصدر الحزب الشيوعي الاردني بيانا يوم ١٨-٣-٧٨ دعا فيه كافة رفاقه ومرشحيه ومؤيديه ، كلا حسب قدرته وامكاناته ، التوجه الى ارض المعركة والمساهمة فيها ببسالة وشرف (الحقيقة عدد ٣ اذار ١٩٧٨) ·

ومن جهة ثانية وقع مائة وواحد وعشرون معتقلا سياسيا في السجون الاردنية عريضة ارسلوها الى السلطات وارسلوا نسخا منها الى فصائل الحركة الوطنية يطالبون فيها باطلاق سراحهم للتوجه الى ارض المعركة ، وتضمنت عريضتهم عهدا بعودة من يبقى منهم على قيد الحياة بتسليم نفسه للسلطات لكي تعيده الى السجن اذا ارادت ·

على ان قمة التحرك الوطني كان مساء يوم ١٨ اذار حيث تداعى في مجمع النقابات المهنية بعمان ما ينوف على مائة وخمسين شخصية وطنية يمثلون الاحزاب والقوى الوطنية والمنظمات الجماهيرية وعدد من الشخصيات الوطنية بينهم الشيخ عبد الحميد السائح ، داوود الحسيني ، روحي الخطيب ، بهجت ابو غربية ، محمود المعايطة ، كما حضر ممثلون عن منظمة التحرير الفلسطينية وانتخب المؤتمر امانة دائمة للمتابعة من السادة : الشيخ السائح ، د· حسن خريس نقيب الاطباء ، المهندس ابراهيم ابو عياش نقيب المهندسين والمحامي سليمان الحديدي ، وحمد الفرحان وعيسى مدانات وتيسير الزبدي وعزمي الخواجا · بادرت اللجنة الى اصدار بيان سياسي منعت السلطات الاردنية نشره ونشرته وكالة الانباء الفلسطينية « وفا » يوم ٣/٢٠ جاء فيه :

استنكار الصمت العربي في الوقت الذي كانت فيه الانظمة العربية تتحرك على وجه السرعة لارسال المساعدات الى بلدان غير عربية معادية لقضايا التحرر الوطني في اشارة واضحة الى تحركات الاردن ومصر والمغرب · كما طالب البيان بضرب المصالح الاستعمارية وباعطاء الشعوب العربية حقها في المشاركة وبتعبئة القوات المسلحة المحبوسة للتصدي للعدوان ، وادان البيان قمع السلطة للتظاهرات ومنع الجماهير من اداء واجبها الوطني ·

هذا وقابل وفد الامانة الملك حسين يوم ٣/١٩ وعبر عن استهجانه لموقف السلطة وطالب باطلاق سراح المعتقلين والسماح بالتسهيلات على الحدود للمتطوعين ، كما ارسل وفد الامانة مذكرة الى رئيس

الوزراء يطالب فيها بتنفيذ قرارات المؤتمر الوطني ·

كان رد الحكومة تعليمات مشددة لمنع التظاهر ، واصدرت وزارة الداخلية الاردنية بيانا بهذا الخصوص (الدستور الاردنية ٢١-٣-٧٨) جاء فيه :

صدرت التعليمات المشددة لمنع قيام اي تظاهرة مهما كان حجمها وبمنتهى الشدة، كما اعلن البيان عن أن مراكز التعبئة والتدريب جاهزة لاستقبال كل من يرغب في التدريب العسكري ، شاكرين للمواطنين مشاعرهم النبيلة وانتماءهم القومي بصدق وايجابية · ولم يخف البيان سقوط عدد من الجرحى بين المواطنين ورجال الامن ·

هذا ولم تمنع هذه الاجراءات حملات التطوع والدعم فقد وصلت المساعدات النقدية والعينية وسلمت لرئيس اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير الفلسطينية الاخ ياسر عرفات الذي قابل ظهر يوم ١٢-٤-٧٨ وفدا من التجمع حضر الى بيروت لهذه الغاية ·

غانم زريقات

اليوميّات الفلسطينيّة

المجلد الثامن عشر

من ١/٧ الى ١٩٧٣/١٢/٣١

مجلد ضخم مؤلف من ٩١٤ صفحة من القطع الكبير ، يضم عرضا موجزا ودقيقا لما يحدث في العالم فيما يتعلق بالقضية الفلسطينية مباشرة ، او ما يقال او يكتب عنها ، يوما بعد يوم ·

يغطي هذا المجلد الفترة من ١/٧ الى ١٩٧٣/١٢/٣١ ويضم جدولا بالعمليات العسكرية لقوات الثورة الفلسطينية عن تلك الفترة ، كما يضم فهرسين : الاول بالاسماء والثاني بالموضوعات الواردة في متن اليوميات ·

مجلد لا غني عنه لكل باحث ولكل مهتم بالقضية الفلسطينية ·

سعر المجلد ٣٠ ل·ل· يضاف اليها أجور البريد

اطلبه من : مركز الابحاث ـ قسم التوزيع

ص·ب ١٦٩١ ـ بيروت

تدعى ذات يوم الى دخولها ، فتسهل لنا هذه المعرفة التصرف ونحن على اطلاع جيد ٠(١)

ان هذا التذكير التاريخي القصير لا يعني مباشرة أن جاك بيـــرك ، وارث شرعـــي للايديولوجيا الاستعمارية ولسوسيولوجيتها الاسلامية داخل الحـــرم المقدس للكوليـــج دو فرانس ، المحور الاساسي للمبادلات بين الشرق والغرب ٠ على العكس ، فان بيـــرك منظر لتصفية الاستعمار أكثر خطورة من فرانز فانون ! وقد كتب فوق غلاف الكتاب بأن بيرك « ينذر الاستشراق العتيق بالانفجار النابع من ذاته » ٠ لنتتبع ، اذن ، شرارات هذا الانفجـــار ٠

يعلم الجميع ان بيرك مستشرق محترف ، ينشر بانتظام كتبا عن العرب (« عن عربه »)٠ وأمام تعقيدات المهام النظرية التي تثقل كاهل أساتذة هذا الكوليج ، لجا بيرك ، تدريجيا ، الى تأسيس « نظرية » خفيفة الوزن ، اقليمية ، تتعلق بالعرب وبالعالم الثالث ٠ ووضع هذه النظرية يتسارع بتسارع مع حركة تصفية الاستعمار ٠ تبدو هذه « النظرية » ، لاول وهلة ، خاضعة للنزوة ،تلفيقية،وانتهازية بكيفية مباشرة : انها تقتطف خطفا عناصـــر ومفاهيم تنتمي لاشكاليات متباينة ٠ ولغة كتبه عتيقة وغائمة المعاني ٠ ان كتابته تطبـــخ معالم احتفال تطبعه السيولة والبلاغة المتكلفة ، والعبارات الزئبقية والتكرار والاشارات٠٠ باختصار ، تتوفر كتابته على جميع عناصر مظهرية الفكر ، وعلى التصنع البلاغي ٠

لكن علينا أن ننظر بجدية الى مثل هذا التصنع : انه يخفي عربا من نوع نادر ، وهذا النوع هو الذي نريد ان « نزوره » بدورنا ٠ هؤلاء العرب من أين يأتون ؟ والـــى أيـــن يمضـــون ؟

انهم يأتون مباشرة من الميتافيزيقا بالمعنى الذي يعطيه هيدجر لمصطلح الاونطولوجيـــا اللاهوتيـــة L'Onto-theo-logie بهذا المعنى ، تكون الميتافيزيقا هي فكر الوجـــــود باعتباره قائم الذات ٠ وبذلك تتيح انبثاق محرك اولي ، موجود اولي ، يحـــدد مراتـــب الموجودات والاشياء ٠ لاجل ذلك فان مسألة الظل Simulacre تزعزع ميتافيزيقية الكينونة، انها تبرز في المرآة مجموع سلسلة المقولات الاساسية : الواحد ، الكل وما هـــو نفسه ، المغاير والمطابق ، الغياب والحضور ٠

ان هذه مسألة ذات أهمية حاسمة ، ولا نستطيع هنا سوى الاشارة الى توجيه عـــام ، وتحديد القلق الداخلي لمثل هذا التأكيد ٠ فمقالة جدالية مخاصمة مثل مقالتنا ، لها حدود تركيبها واستراتيجيتها ٠ اننا نكتبها خطفا واغتصابا لنرد على نوع من الاعتداء ٠ ومـــا دامت نوعا من الالتماع السافر يعلو الوجه ، ويمس حقيقة القناع الخاص ، فانها تنحو الى اقامة الحوار حول العنصر الوحيد لعنف التساؤل ٠

هل الاسلام ، في حد ذاته ، قابل لان يتناول من خلال ميتافيزيقا ذات اصل غربي ؟ أين يقع موضع تدخل الاستشراق ؟

يتوجب ان نستخلص الان الملامح الغالبة على الاستشراق ، وذلك بقصد استحضـــار الاتجاه البعيد الذي يدعم الخطاب الاستشراقي ٠

١ ــ باعتبار الاستشراق يستهدف تحليل موجود (لساني ، تاريخي ، ديني) محدد ، يحمل اسم الشرق ، بدون طرح مسألة الكينونة والظل طبقا لفكر مغاير متيقظ وقوي ، فانه

يبقى منغرسا ، من حيث الجذور ، في التربة الميتافيزيقية · وبالفعل فان الاستشراق يضفي، على ما يسميه الشرق ، الخصوصيات والصفات او الفضائل التي لا يطالها العقل ولا يدرك المسافة الفاصلة لها · وهكذا توصف العروبة بروحانية مرتفعة ، كما توصف وبكيفيـــة متوازية ، بحسية جموحة · ويحدد الاسلام بنوع من التعالي اللاهوتي وبتاريخ اقنومي · وفي هذا الصدد نجد أن أعمال ماسينيون ترسي دعائم الماهوية الجذرية ، وتصير الكينونة العربية مؤطرة بفضيلة ثلاثية : التراث الابراهيمي ، الكلمة المنزلة وحق الالتجـاء · ان ماسينيون ، أكثر من اي مستشرق آخر ، شعر في أعماقه باهتزاز مسألة الكينونة · لكن هذا الاهتزاز بقي مجرد اهتزاز لارضاء انعطاف صوفي : فلأن ماسينيون جعل من الحلاج « منقذا مسيحيا » ، فقد آل به الامر الى « تمسيح » الاسلام · اننا لا نعرف ، عنده ، ما هي « المحنة » الاسلامية الخالصة ، ولا كيف يسمي المسلم الالم بما هو الم ·

والمعنى المعكوس الذي نجده عند هنري كوربان هو اكثر حدة · فهذا المستشرق يجعل فكر هيدجر شيعيا (٢) ، هذا الفكر الذي يريد ، بالضبط ، ان يشق طريقه علـــى هامش الميتافيزيقا وعلى هامش كل لاهوت* ولو كان صوفيا ·

ان مثال ماسينيون ، وكوربان ، يتطلب تحليلا مفصلا ، ونحن مضطرون هنا الـــى الاشارة فقط الى موقف ، والى توجيه ، بالقدر الذي تظل فيه هذه الكلمة الاساسية مفهومة في اللغة المشتركة ·

لا شك ان الاستشراق ، بعد الحرب العالمية الثانية ومع تقدم العلوم الاجتماعية ، قـد غير مناهجه وتقنيات ابحاثه · الا ان الاشكالية السائـــدة لم تتغيـــر · فالمستشرقون العقلانيون يبذلون الجهد لتحليل البنية الاقتصادية والمادية للمجتمعات العربية ، لكن الا تصدر هذه العقلانية في العلوم الاجتماعية عن جوهر التقنية والميتافيزيقا ، اذا ما قبلنـــا التأمل الهيدجري ؟

ان الاستشراق ، وهو يقوم بقلب بسيط للروحانية ، يسقط في حقل مادي غير مفكر فيه· فمسألة الشرق ، بما هو شرق ، وباعتباره تنسيقا جذريا مع الغرب ، تنتسى هنا مـــرة اخرى · ومجال الحديث واسع حول المناقشات الاخيرة التي دارت بين المستشرقيـــن والمثقفين العرب ، المتوخية معرفة ما اذا كان العرب خاضعين للحتميـــة الحاسمة ذات الاولية الايديولوجية ، ام للانتاج السوسيو ـ اقتصادي ، ام للممارسة السياسية ·· وهذه الزحزحة لموضوع المناقشة لا تعني مطلقا نوعا من الخروج عن الميتافيزيقا فالامر يتعلق ، في احسن الحالات ، بتاريخانية معممة تطالب الغرب بزحزحة عرقيته المركزة ·

لكن يجب القول ، فيما يرجع لجاك بيرك ، بانه ينجز تركيبا كيماويا من جميع الوجوه، وحسب اندفاعة لعبية خالصة ·

٢ ـ الملمح الثاني السائد عند الاستشراق ، يتمثل في طابعه الوضعي ، الذي لا يتعارض مع روحانيته · وهذا ما يدفعنا الى القول بان هناك وحدة تضامنيـــة بين الجوهرية ، والوضعية ، والميتافيزيقا · ولقد وضع هيدجر في مختلف تأملاته ، السؤال حول التقنيـة

بكيفية تثير الاعجاب · فاذا ما قبلنا معه كون مصير التقنية هو نفس مصير الميتافيزيقا ، وكون العلم يبدو كظل اعلى (ارادة الارادة) للسيطرة الغربية ، فاننا قد نجيد فهم موقف الاستشراق داخل حقل العلوم الاجتماعية · ان الاستشراق الفرنسي ، بعد ان انغمس في فقه اللغة والاسطوغرافيا ، والنزعة الثقافية ، اخذ ينفتح ، منذ امد قريب ، على التحليل البنيوي ، وعلى السيميائية وعلى الماركسية ، الا ان محاكمة هذه المعارف قد طرحت فيما يتعلق بمسألة اسسها الميتافيزيقية · وطالما ان الاستشراق يكتفي باتباع الايديولوجيـــة السائدة في عصره ، بدون محاولة التفكير فيها ، وطالما انه لا يتأمـــل في « هامشـه الضروري » ، فانه سيظل مقتفيا لآثار الميتافيزيقا · انه في الوقت الذي بدأ فكر المغايرة يفرض قوة خصبة ، نجد الاستشراق يتابع طريقتـــه الوضعية ، وكأن نيتشه وفرويد ، وهيدجر ، لم يوجدوا قط ، وكأن فينومينولوجية سارتر العجيبة وتأمل دريدا اليقظ ، لـــم يتحدثا ، كل حسب أسلوبه ، عن مسألة كل غرب وكل شرق · ماذا يفيد ان نحاول القيام بتحليل سيميولوجي للقرآن (كما فعل بيرك) اذا كان الشرق سيظل نبأ مغلوطا ومجـــرد تمرين انسانوي ؟ لكننا سنرى ان بيرك يكتب من موقع من يوجد في حالة « اسقـــاط » Preterition (كلمة يتذوقها كثيرا) والاسقاط حسب قاموس زوبير ، هو : «اغفال ذكر وريث شرعي في وصية » · علينا الا ننسى ، اذن ، مصير الاستشراق في الوصيـة الميتافيزيقية ، لكن من سيكتب هذه الوصية ؟

٣ ــ سواء كان الاستشراق مسيحيا او مثاليا او عقلانيا ، فانه متضامن مع النزعـــة الانسانية · اكثر من ذلك ، تجد الانسانية اللاهوتية في الاستشراق ملجأ عند التقهقر · فعندما انسحب الاله السكولاستيكي من مسرح الغرب ، في القرن التاسع عشر ، تاركـا المجال للانسان باعتباره فاعلا للتاريخ ، بادر الاستشراق الى استرجاعه عند العرب · ما هي الضرورة الداخلية التي تجذب الاستشراق نحو الاسلام ؟ هل يرجع ذلك الى كـون الاله قد تخلى عن الغرب لشيطانية تقنية ؟

في الاخرويات المحمومة التي كتبها ماسينيون ، نجد ان الاسلام هو الذي ينقذ ، خـلال فترة من التاريخ ، الانسانية (الابراهيمية بطبيعة الحال) · فالاسلام رفع من جديـــد مستوى الايمان ، في حين ان المسيحية المنحرفة عن حقيقتها الاولية ، قد نسيت ، حسـب ماسينيون ، رسالتها النبوية بتسترها على الجريمة الاستعمارية ، ودوسها بذلك ، لحق الالتجاء الابدي فوق هذه الارض · الامر نفسه بالنسبة للديانة اليهودية التي ضللتهـــا الصهيونية · ان الاله الابراهيمي الماسينيون ، يساند كلمة الضعفاء والمسيطر عليهم ويهيء التصالح الكبير بين هذه الديانات الثلاث ·

ينتسب بيرك ، وهو يتجه في مسار آخر ، لفلسفة الانوار ، وبخاصة لفلسفة جـــان جاك روسو · لذلك فان استشهاداته بماركس وسارتر وهيرقليد (« صديق الاشياء وأبونا المشترك » ، كما يقول) هي استشهادات سطحية وظرفية · انه يطالب ، مفتتنا بأبوة روسو، مثله في ذلك مثل ليفي ستروس الذي يؤسس الانتربولوجيا البنيوية علـى النوستالجيـــا اللاهوتية للاصل · وقد حلل هذه الهيومانية Humanisme تحليلا نفاذا ، جاك دريدا الذي لا يزال الحصار مضروبا حوله بسبب تعلقه المتين بالإستماع الى كل ما هو صـــادر عـن الهوامش ، وبقياس التباعد · ذلك الهامش الذي يسهر على ظلالهSimulacres الخاصة · ان فكر دريدا قفزة نظرية ·· فهل فهموا ذلك جيدا ؟

مهما يكن ، فان انسانوية بيرك ، تتكيء ، في جميع مستوياتها الفاعلة ، على لاهوتيـة واخروية يضفي عليها طابعا دنيويا ويخفيها تحت اسم « طوباوية » · انه يتمنى قيـــام

« نسف للارض » (ص ٣٤٩) · ثم يتساءل : « كيف ننجز عملية الالتقاء بمشروع يؤسس علميا على الرغبة ؟ » (ص ٣٥٠) · وهذه « العملية » قد طرحها من قبل في السؤال المتصل بالتقنية وبشيطانيتها ·

لكي نقيس الفانطازيا الاستشراقية ، علينا ان نقرأ النص الغريب للمناظرة التي عقدت سنة ١٩٦٠ بين بيرك وماسينيون ، تحت الرئاسة « المقدسة » لمجلة الفكر Esprit (اكتوبر ١٩٦٠) · صحيح ان تدخل ج·م دومينياك (مدير المجلة انذاك) يزيد من ضبابية الرؤية ، فهو مثلا يتساءل عما اذا كان العرب قادرين ، فعلا ، على ان يصنعوا انفسهم، أو أن ينتجوا افكارا مثل فكر مونيي وشاردان · ثم ينتهي بالكشف عن جرأته الروحية صارخا : « لكن الا تجدون ما يبعث القلق ، في كون جميع هذه الاسئلة التي تطرح على العالم العربي ، نحن الذين نطرحها وليس العرب انفسهم ؟ » ·

أما أنا ، فلا أجد ذلك مقلقا البتة ، لان الاسئلة التي تطرحها على نفسك يا سيد دومينياك لا تقول شيئا سوى أحكامك المسبقة : وعليك ان تعيد قراءة ما كتبته كلمة كلمة لتتأكد من ذلك · أما فيما يتعلق بمونيي وشاردان ، فاننا نؤثر الجدية ، لذلك نوفر على العالم العربي الحديث عنهما ، ونتابع تحليلنا لكتاب جاك بيرك ·

ان بلاغة بيرك الابوية المتصنعة ، المتعجرفة ، تلح على ما يسميه التوتر بين المقدس والتاريخي : فهل يعرف مجتمعا او مرحلة تاريخية لم يكن فيهما هذا التوتر فاعلا ؟ ان خاصة الكائن ، أن يتحول في ترابط بين الآلهة وبشر والاشياء · صحيح ان هذا الترابط يمكن ان يمس ، قليلا او كثيرا ، الكلام ، ولكن السؤال الاساسي يظل هو نفسه · ومن ثم فان الجدال يصبح عقيما في حد ذاته عندما يدعو بيرك العرب الى الحفاظ على هويتهم مع اكتساب التقنية : « ما يمكن ان نفعله ، هو أن نعيد ، فيما هو أبعد من التقنية ، اقرار القيم ، لكن من خلال وبوساطة التقنية ، واعتقد ، غريزيا او بوعي ، أن العرب ، مثلنا ، يطمحون الى فعل الشيء نفسه » · ان هذا « الابعد » (au-dela) هو بالضبط ما يستعصي على التسمية ، ان التقنية ليست مجرد عبور بالنسبة للانسانوية انها تحمل مصير الميتافيزيقا ·

تقابل هذه البلاغة المتصنعة ، الاخزويات الكريمة لماسينيون · وكعادة هذا الاخير ، فانه لا يستوحي سوى رأسه ، فهو يتحدث عن قوانين الضيافة ، وحق الالتجاء ، والسجن «الذي يؤدي الى الحرية التي سيدرك العرب امتلاءها بواسطة هذا الطريق نفسه » ·

لقد جرت هذه المناظرة والحرب الجزائرية في اوجها · وهكذا كان يرى ماسينيون ، ان اهانة المضطهدين والمعذبين ستنقذ الابراهيمية وستنقذ معنى المحنة المسيحية · وبما ان المناظرة لم تمتد ، فان ماسينيون وجد حلا لانهائها ·

اقرأوا جيدا هذا اللحن الثنائي ·

بيرك : ــ « ولاجل ذلك ، هناك في العمق ، قليل من الاختلاف بين مواقفك وبين مواقفي» ·

ماسينيون ــ « نحن الاثنان ننتمي الى الكوليج دو فرانس ، وهذا يكفي » ·

اننا لم نورد هنا هذا الحديث ــ الطرفة ، الا لنوضح الى اي حد يمكن ان تأخذ الانسانوية الاستشراقية طابع الثرثرة ·

لنتابع الآن نقدنا لجاك بيرك ٠

يعلن بيرك انتماءه الى العلوم الاجتماعية مع وفائه للتعارض القائم بين العلم والميتافيزيقا التي يظن انه تخلص من تاثيرها ٠ انه يطبق ذلك التعارض على الاسلام دون ان يشغل باله بمصير مثل هذا التعارض داخل الاسلام نفسه ٠ كيف تلقى الاسلام مثل هذه التفرقة بين العلم والميتافيزيقا ؟ كيف اول الاسلام في لغته الخاصة ، الانطولوجيا الاغريقية ؟

طالما اننا لم نستحضر مثل هذه التساؤلات ، فان مسالة العرب تظل تائهة ٠ الى اين اذن تقودنا مشاهد بيرك ؟

ان الاستشراق يلعب دوره بين حركتين للميتافيزيقا : حركة التقليد الغربي ، وحركة التقاليد الاسلامية ٠ الاسلام بصفته مأخوذا من عمق اللغة العربية ٠ ويعتمد بيرك في نصه على اشارة مزدوجة ٠ من جهة ، يطبق على العرب وعلى الاسلام اسهما نارية تجريبية ٠ وهي تجريبية تتحول ، في عدة مواضيع ، الى فولكلورية فارغة ، مثل هذه الاستعارة المزوقة : « في ساعات الصلاة ، يمتد من فوق المآذن ، صياح المؤذن على شكل زخارف (ارابسك) » (١٤) ٠

ومن جهة ثانية ، تغمر جوهرية روحانية مجموع كتاباته مضفية عليها مناخا مسيحيا خاصا (أوه ! صحيح انها مسيحية دنيوية) ٠ مناخ يلعب فيه المستشرق دور الكاهن ، او المسيح الابوي الذي يدل العرب على طريق « اصالة من نوع جديد » (ص ٢٤٢) ٠

ينصح جاك بيرك العرب قائلا : « كونوا انفسكم » ، والواقع انه ينصح « عربه » هو ٠ لكن ، من اي موقع يتكلم ؟ والى من يتكلم ؟ وفي اتجاه اي موتى/احياء ؟ من هم العرب الذين اخترعهم مسرة للنظر ؟ واذا كان مصير المستشرق هو ان يكون « متنقلا » محظوظا بين شواطىء اللسنيات وشواطىء الفكر ، واذا كان قدره دعاء فجريا ، فاي يوم مشرق تعدنا به كتابات واعمال جاك بيرك ؟

لنتبع خطاه في هذه المناقشة ، ولنتتبع هذه الطريقة التي تريد ان تكون متموجة الخطى ، انيقة و « في المستوى » ٠ لنتابع هذا التقليد الجامعي في لهوه المولع بالغرابية ٠٠ فلربما نفاجأ باننا اخذنا على غرة ، فنعاد الى قحتنا غير المالوفة ٠

منظورا اليه من هذه الوجهة المزدوجة (الهجائية والانطولوجية اللاهوتية) يخفي الاستشراق قوانين تركيبه حسب نقل مزدوج لاساسه الميتافيزيقي ٠ وسواء شاء ام ابى ، فان الاستشراق سيبقى منتميا الى تقليد عرقي ممركز على الذات لا يمكن اختزاله ، وذلك ما دامت المعرفة التي تسنده ، تندرج في حقل الميتافيزيقا ٠

الا اننا ، من جانب اخر ، نجد ان الاسلام لا يسهل مهمة المستشرقين ٠ ان الاسلام ، نتيجة لفعول المرآة ، قابل لقراءة تمت من قبل من خلال مسافة اخرى ٠ ذلك ان الها معينا لارسطو قد دخل في الاسلام قبل ظهوره ٠ ويبقى السؤال مطروحا لمعرفة ما اذا لم يكن اللاهوت الابراهيمي (مهما كانت صوره المختلفة) في اساسه ، ظلا للالهي الاغريقي ٠

مهما يكن فان الاستشراق محكوم عليه بان يستثمر الاخر عن طريق تحويل للاصل ،

وعندما يضايقه ذلك الاخر فانه يرمي به الى ارجاء الثقافية والتاريخية · وقد كتب بيـرك سنة ١٩٥٧ يقول : « اجسر على التصريح اليوم بان الفرنسية تظل هي هيلينية الشعـوب العربية » · فما معنى ذلك ؟

ان فعل (Simuler) معناه صنع مثل ، او حاكى ، اي صنع صورة مشابهة او ظلا للشيء المحاكى (Simulacre) · وفي معنى عميق نقول مع احد الباحثين بان « الظل Simulaire ليس نسخة مشوهة ، بل انه يكشف عـن قوة ايجابيـة تنفي الصورة الاصلية والنسخة معا ، كما تنفي النموذج والاستنساخ » (٣) · من ثم يكـون الظـل تخيلا ضروريا للواقع حتى يهتدي هذا الاخير الى ذاته لكن محورا الى ايهام قوي · وهذه العملية التحويرية العجيبة هي خاصية الفن وميزته · الا ان « الظلال » لا تتوفر جميعهـا على نفس الكثافة · وفي مثال جاك بيرك ، فان الامر يتعلق بفن ضئيل يتوخى اخفـاء العرب · انه يريد الاستيلاء على العرب دون ان يستند هو نفسه على اشارة الاب وعـلى نسبه الخاص ، بل عن طريق التكسب بالقول الميتافيزيقي الذي يستبد بمجموع ارجـاء نفس كاتبنا ·

□

تاريخيا ، ترجع كلمة « مستشرق » الى نهاية القرن الثامن عشر · غير ان الكراسـي الاولى لتدريس اللغات الشرقية ، كانت موجودة منذ ١٢٤٥ عقب قرار المجمع الدينـي المنعقد في فيينا (٤) · وتعني هذه الكلمة ، تخصصا جامعيا يهتم اساسا بماضي الشـرق وبلغاته وديناناته · وبصفة عامة ، تميز الاستشراق بمرحلتين : الاولى تمتد من القـرن الثالث عشر الى قيام الحرب العالمية الثانية · وكان هذا النوع من الاستشراق يبحـث اساسا في التاريخ وفقه اللغة والاثنولوجيا ·

وخلال المرحلة الثانية ، التي بدأت منذ فترة وجيزة ، اخذ الاستشراق يندمج في حقـل « العلوم الاجتماعية » ، مع بعض التأخر · وقد عاش بيرك ، « ذلك الصديق للثقافـة العربية » ، هذا الانتقال محاولا تنظيره بطريقته الخاصة ·

ماذا يعني هذا الانتقال ؟

لنعد قليلا الى الوراء : ان جاك بيرك ، المولود سنة ١٩١٠ بالجزائر ، هو ابن لاحـد المسؤولين عن استعمار هذه البلاد · وقد عرف اوغسطيس بيرك ايضا بالرقة التي ميـزت بعض مقالاته القليلة · على ان الاب والابن يكتبان تقريبا بنفس الاسلوب · وكانت ابحاث جاك بيرك تنصب خاصة على التاريخ الاجتماعي للعالم القروي · شـارك مع المهندسـين كولون فـي محاولـة للاصـلاح الفلاحـي اطلق عليهـا اسم « قطاعات لتحديث طبقة من المزارعين » · وكانت الاقامة العامة بالمغرب (اثناء الحماية) قد قررت سياسة زيـادة الانتاج ، متوخية من وراء ذلك ، مواجهة عواقب الحرب العالمية الثانية ، وجفاف سنـة ١٩٤٥ ، والنمو الديموغرافي لسكان المغرب · وهذه السياسة كانت مصحوبة بمحاولـة اعطاء « طابع اجتماعي وتربوي » لمثل ذلك الاصلاح ، حتى يستطاع تكسير عنق الزجاجة ·

الذي وجدت الادارة الاستعمارية نفسها فيه ، نتيجة ، فيما يظهر ، لعتاقة التقنيات ولجمود المجتمع التقليدي · ويلخص لنا بيرك هذه المحاولة في صيغة ملفتة للنظر :

« وضع « الجماعة » فوق جرارة الحصاد » · ثم سيكتب بعد مرور ١٧ سنة على بداية تلك التجربة بان : « حركة طبقة المزارعين المغاربة ولدت من الالتقاء بين ملاحظة سوسيولوجية متصلة بحيوية العشائر القروية في بلدان المغرب ، وبين رهان على تجهيز الفلاحة بالمحركات » (٥) ·

رهان على ماذا ؟

الجواب : على ابقاء الاستعمار · والا كيف نفهم ذلك التصريح الذي اعلنه بيرك نفسه بمناسبة تلك التجربة المزعومة : « تتلخص المشكلة فيما يلي جمع وصهر ، صعود السكان المحليين مع العمق الفرنسي ، في حركة واحدة (٦) » ·

كان بيرك يشغل منصب مراقب مدني ، في عهد الحماية الفرنسية ، وقد اثبت في اطروحته لدكتوراه الدولة ، اقامته بالقرب من مدينة مراكش · ومنذ استقراره بباريس ، اخذ يتجاوز اطار المغرب الضيق ليصبح منظرا مستعربا لتصفية الاستعمار · حاول بيرك ان ينظر هذا الانتقال من الاستعمار الى الاستقلال · لكن عندما لا يفكر في انتقال تاريخي بما هو كذلك ، فانه يغدو انتقالا في الفراغ : لقد اسهب بيرك في القول بأنه يفجر الاستشراق ، وبأن البحث بالمشاركة يجب ان يترك الكائنات والاشياء تأتي الينا ··· لكننا متأكدون باننا ، معه ، لن ننتقل الى اي مكان · لماذا ؟ ان هذا الوارث التركيبي للاستشراق في بلدان المغرب ، يجرب عصره وحقل تحليله (« عربه ») وكأنهما الة صغيرة حقيقية تلتهم كل شيء · يمكنكم ان تعاينوا ذلك اذا كان لديكم فضول قراءة ما كتب ، وستجدون انه ينتقل من مؤرخ اجتماعي (مدرسة الحوليات) ليصبح سيميولوجيا قافزا من حالة « نظرية » الى اخرى قبل ان نتمكن من استرجاع نفسنا ·· ها هو يطبق السيميولوجيا على العرب بعد ان كان ظاهراتيا منبضا يستوحي قراءة جد خادعة لما كتبه سارتر في الموضوع (على اننا نعرف المغامرة السيئة لسارتر مع فكر هيدجر) ·· وقد كان بيرك ، قبل ذلك مرة اخرى ، اثنولوجيا متأثرا بليفي ستروس ، ولسنيا بنيويا ، ومحللا نفسانيا لظاهرة تصفية الاستعمار ، ولفورة الاستقلالات الملونة الحماسية ·

ان ما يقوم به بيرك ، باسم التحليل النفسي ، هو دراسة ما لا يمكن استباره من نفسية الاعماق المتصلة ، كما أوضحنا ذلك مرارا ، بتقديم لاهوتي « للاعماق » ·

ومن السهولة بمكان ، ابراز مراحل هذا القفز النظري في اعمال جاك بيرك · الا اننا نؤثر تجنب بعض التفاصيل ، لنتابع تحليل هذا الكل المترنح · على ان هذه السرعة النظرية ، وهذه المهارة التي لا تترك اية موضة نظرية تفاجئها ، قد انتهتا الى تضليل بعض المثقفين العرب · والواقع ان التضليل يصبح كاملا عندما يزيد مستشرقنا ، بجرة اصبع ، من حدة التناقض المصطنع :

« اذا كانت هذه المجتمعات (العربية) لم تتوفر بعد على التاريخ الذي تستحقه ، فان اللغة العربية ليس لها ، بل ما ابعدها عن ذلك ، المجتمعات التي تستحق » (ص ٥٧) ·

ان « عرب » بيرك يقطنون خارج لغتهم ، وخارج اللغة · اين يسكنون اذن ؟ ربما كان بيرك يلمح بشيء اكثر فظاعة : ليكون المرء عربيا حقا ، يجب ان يتبدل كما هو الشأن في قصص العلم الخيالي المستقبلي · لكن لنقتصر على قوله المتناقض ، سنقبل اقتراحه هذا اذا كان يعني ان الكينونة ، بما هي كذلك ، « ضياع » للهوية · وهنا يصح لنا ، فعلا تحديدا للظل الجذري · الظل الممتاز · لكن بيرك لا يهتم مطلقا بالميتافيزيقا · انه مؤرخ اجتماعي ، وعالم اجتماع يحب العرب لنكهتهم · وهذا لغز اخر علينا ان نفكه فيما بعد ·

لنر ، عن قرب ، كيف يتيه العرب في فقدانهم لهويتهم ، وكيف يواجهون تصفية الاستعمار ، والسيطرة التقنية · وايضا ، كيف يكتب العرب الاشعار ، وينفخون في الناي ، ويحكون القصص · باختصار ، لنر كيف يعرض عرب بيرك انفسهم علينا ·

يلزم الالحاح على مسألة استمولوجية ، ترجع فيما يظهر ، الى المناخ اللذيذ للعالم الغربي : ذلك ان بيرك يترك عطور الجزيرة العربية تأتي اليه · ونتيجة لذلك (يمكنكم ان تتأكدوا في النص مما نقول) فقد اخترع بيرك ، في العلوم الاجتماعية ، تقنية الايحاء ، والمفارقة المسترعية للانتباه · انه مثل عراف حسوي ، يرمي نحونا ، من حين لاخر ، لغزا ، ثم ينتقل الى شيء اخر ، الى لغز اكثر غموضا · لا نستغرب اذا كان « عربه » قد انتهى بهم الامر الى العيش في الشبهية !

لنذكر بالسطور الاولى من كتابه « لغات عربية في الحاضر » ، الذي ننتقده مواربة في هذه المقالة · ان تلك السطور تطرح مرة واحدة المسألة الجوهرية : « لماذا العرب ؟ » يتساءل · نعم ، لماذا العرب وليس اللاشيء ؟ سنساير في مساءلته ·· لنستمع الى السؤال المباشر في شكل ثنائي رثائي :

« ــ بوسعك ان تقول دائما لماذا العرب ؟

ــ مجالات اخرى من التبسيطية ، وتواريخ اخرى للانسان ، تسمح ولا شك بمثل هذه الصياغات والامال · لكن قيامي بذلك من خلال خصوصيات نوعية ، بالنسبة لي (وبالنسبة لهم) يجعلها مليئة بالنكهة ·

ــ النكهة ؟ كنت اظنك عالم اجتماع » (ص · ٣٥٥) ·

لا يزال هناك متسع لنعطي الكلمة لبيرك ، يقول :

« غير ان الاسلام لا يتمثل في حضور المقدس من خلال السلوكات والكائنات وتقريبا داخل الاشياء ، بقدر ما يتمثل في توظيف هذه العناصر من خلال كلية للذات ، لا تكون فقط « حلوة » على حد تعبير هيجل ، بل هي حادة ومحازبة ، او في كلمة جامعة : كلية رجولية للذات · الاسلام العربي هو كلية ساخنة » (ص ١٠) ·

كيف ، اذن ، يحدث هذا الوعد ، اي هذا المناخ المتلىء ، الرجولي الساخر واللذيذ النكهة ؟

□

مرة اخرى ، نتساءل من هم عرب جاك بيرك ؟ ما هي الكلمات التي يصوغ من خلالها السؤال ؟

سنعطيه الكلمة مرة اخرى ، يقول :

« ان الاضافة التي يقدمها التاريخ العربي المعاصر لنظرية وممارسة الحضارات ، تتوقف على ما يكون لهذا التاريخ من عناصر مشتركة مع التواريخ الاخرى ، او اكثر من ذلك ، على ما له من عناصر مميزة » ٠

وهذا ، في رأينا بديل مغلوط اعتبارا الى ان الكينونة والهوية ٠ والتغاير تعبر عن « ما هو نفسه (Le Même)وعن ظله » ٠ وما يفهم دائما ليس هو الهوية في حد ذاتها ولا المغايرة لذاتها ، بل العلاقة التي تقوم بينهما ٠ ان ما يميز ثقافة او تاريخا او كينونة هو بالضبط تباعد كبير يستلزم ، لكي يستمع اليه ، احترام ما ليس قابلا للاختزال ٠ وحسب هذا الاستلزام ، فان الاخر لا يمكن اختزاله او ارجاعه الى جوهر ، ولو كان جوهرا فردوسيا ، دافئا ومعطرا ٠ فالظل الذي يجعل من الذات ego اخر للاخر ، هو الخاصة المميزة للفكر وللفن ٠

وكل هذا الذي ذكرنا به في عجالة ، قد اصبح مبتذلا في الفلسفة الغربية المعاصرة ٠ اين يعيش ، اذن ، بيرك ؟ هل هو الاخر يسكن خارج لغته ؟ لكننا لا نتهيب كثيرا من منفاه داخل « كوليج دو فرانس » ، فنطرح نفس السؤال : لماذا العرب وليس اللاشيء ؟

ما فتيء بيرك منذ اصدر كتابه « العرب من الامس الى الغد » (١٩٦٠) يعيد تحديد العرب ، ولكنها تحديدات يوجهها وفاء «ميتافيزيقي» غريب ٠ واليكم اهم افكاره في هذه المسالة ٠

ان ما « يطبع » العرب ، هو أولا كلاسيكيتهم ثم استمرارية ممتازة للهوية ٠ انهم كلاسيكيون بالمعنى الذي يجعل النزعة الانسانية الشرقية تجد عندهم وفاء والتصاقا بماضيهم وانطلاقا نحو المنابع ٠ ويحاول بيرك ان يوضح هذه الانطلاقة وهذا الوفاء بوساطة مصطلحات متعددة تطفو فوقها كلمة اصالة ٠ ان الاصالة تدعو المنبع والاصل من خلال قياس موسيقى ونبض الـ « ما هو نفسه » (وليس الهوية كما يكرر ذلك بيرك) ، على اعتبار ان « الما هو نفسه » ، هو الذي يتحول بصفته تباعدا غير قابل للاختصار ، يربط المغايرة بالهوية في حد ذاتها ٠

لاجل ذلك فان بيرك لم يفهم فكرة المغايرة في عمقها وهو المستشرق المؤسسي الذي يدرس رسميا هوية العرب مطالبا بمنحهم « الحق في المغايرة » ٠ ان هذا الانتقال الفارغ ، يحطم مجموع محاولته ٠ ويسهل التأكد من ذلك من خلال المقولات التي يتلذذ بنكهتها :

هوية/مغايرة تعددي/ ، خصوصية ، اصالة ، جذور ، اسس ، اعادة التجذر ، اللاامتلاك ، استلاب ٠٠٠ مجموعة من المقولات المبعثرة هنا ، تحاول تثبيت قدميها فوق عرب مهتزين ٠٠ ذلك انه منذ فلاسفة ما قبل سقراط الذين يعلن بيرك انتماءه اليهم فسي لحظات ضياعه ، ومنذ القديم ، وفكر الوجود يعرف كيف يميز بين الماهو نفسه ، وبين المطابق (L'identique) منذ القديم عرف ذلك الفكر كيف يغني ويحتفل بالتباعد الخارق الذي يجعل بالامكان ان اكون اخر الاخر ، ومع ذلك اكون انا نفسي منذ فجر الشعر والاسطورة ، تغنى ذلك الفكر بنشوة المغايرة المتشبثة بموقفها ٠

وبقدر ما ، تظل الميتافيزيقا فكرا للوجود وللاوجود ، للواحد وللمتعدد ، فان الاستشراق يظل متوليا لتوضيح تقاليدها وللتحدث انطلاقا من مفاهيمها ٠ لكن يوم يخلف فكر المغايرة الميتافيزيقا ، فانه سيمكن للاستشراق ان يتحرر من نفسه ٠ الا اننا نستطيع ،

في انتظار ذلك اليوم ، ان نزيل بريق مقترحات بيرك مهما بدت مضحكة مثل هذه : « ما هو الشيء الموحد وما هو الشيء المتعدد في العالم العربي ؟ هذه مشكلة ينبغي ، مثلا ، ان تحظى بتوجيه « التربية والثقافة » وهو القسم الذي تكون اخيرا في كتابة الجامعة العربية » ص ٦٣ طابع اخر يطبع العرب في نظر بيرك ، وهو سيطرة المقدس ٠

على هذا الاعتبار ، سيكون المصير الراهن للعرب ، كما رأينا ، يقرره توتر بين المقدس والتاريخي ، توتر الانتقال من احدهما للاخر ٠ لا شك ان هذا مقترح مشترى وشائع في الايديولوجية الاستشراقية ، الا ان بيرك يدقق موقفه عندما يلح على ذلك الذي يظل منطويا في جوف الاسلام : اي الوثنية والطبيعية بالخصوص ٠ ومن ثم فانه يحتفل ايما احتفال بالشعر الجاهلي وبكثافته الغنائية الغريبة ٠ فهذا الشعر المنبعث من الصحراء، يظل تحديا للاسلام الاورثوذوكسي ، في نظره ٠ وسنعود الى هذا الاحتفال « البيركي » ٠ ماذا يقول بيرك عن المقدس ؟

بما انه لم يفكر فيه بما هو كذلك ، في تطابقه مع الالهة والناس والاشياء ، فان المقدس يؤول ، عنده ، الى « مستوى » الوجود ٠ انه يجعل من هذا المستوى تظاهرة تجريبية مبعثرة بين ثنايا اللغة ، والممارسة الطقوسية ، والسلوكات الجماعية ٠ نحن ، اذن ، امام اختزال لاهوتي للاسلام ٠ فاذا كانت هناك اقامة جوهرية للالهة في السماء وفي افئدة الناس ، فان المقدس لن يعطى بالضرورة لدين من الاديان ، ولن يكتب عن طريق الاعتقاد الصادق وحده ٠ ان انبثاق وتلاشي هذه الاقامة ، هما اختبار صوفي صوفية جذرية ٠ وهذا هو جوهر تجربة الشعراء الصوفيين المعلمين العجيبة ٠ لاجل ذلك تنتابنا الدهشة امام سكوت بيرك عن هذا الموضوع وهو الذي يتطوع بالحديث عن المقدس اللعبي ٠ الا يهتم بهذه الاغنية للوجود ، وبديونيسية النداء الابدي الذي عبر عنه الشعر الصوفي برقة لا تبارى ؟

ان ما يكتبه الاسلام الاورثوذكسي ، ليس هو فقط الطبيعة والوثنية ، بل كذلك الفكر الصوفي الذي اقلق اللاهوت وزحزحه عن مكانه ، ولو انه اعتمد على دراسة التقاليد ٠ وكما يقترح الشاعر جان جينه ، فانه يتحتم علينا ان ننصت الى معشوق المتصوفة في معناه المطلق ليكشف لنا الذي يحمله للشعر الاسلامي العظيم الذي لا يمكن اختزاله الى قراءة لاهوتية ٠ ان التصوف ليس مجرد « مستوى » يقع بين الادب وبين العلم والعلوم الدينية والفلسفة والميتافيزيقا ٠ انه السؤال الحاسم للمقدس وللاقامة الربانية في افئدة الناس ٠ انه تاكيد الوجود الديوناسي ، والظل التراجيدي للميتافيزيقا ٠

□

هل يضع الاستشراق ، موضع التساؤل ، المصير المشترك للعرب وللغرب ؟ هل جدد بيرك السؤال ؟

نلاحظ ، من الوهلة الاولى ، ان سؤالا بمثل هذه الاهمية ، سيكون مستعصيا على مستشرق يولي وجهه نحو اية واحدة من سفر الوجود ٠ ماذا سيصير مصير مثل هذا ؟

اما ان المستشرق سيجعل تعارضا بين الشرق والغرب طبقا لتقسيم ماهوي ؟ واما سيجعل من العرب نسخة مختلفة عن الغرب ٠ هذا ما يضطرنا الى ان نسأل بيرك : لماذا العرب وليس اللاشيء ؟

في هذه المسيرة ، يكون اثبات الذات الاكثر صوابا بالنسبة للشعوب المضطهدة ، هو زحزحة كل كلية وكل عالمية ، ومعارضة كل شيطانية كونية بفكر ضروري للمغايرة · ان هذا الفكر هو قدرهم ·

من سيفكر بدلا عنهم ؟

بالتأكيد ليس المستشرق المعتاد على استنتاجات تركيبية مغلوطة حول الواحد والمتعدد ، الموحد والجمعي · اكثر من ذلك ، فانه لا شيء ينفي ، في الوقت الحاضر ، وجود تضامن بنيوي بين الايديولوجية الاستشراقية وبين الشكل الامبريالي للغرب ·· لا شيء يقول لنا بان المعرفة المطلقة قد كفت من ان تسكن الفكر الغربي ولو في فكره الاكثر حذرا ·

منذ اصدر بيرك كتابه « انعتاق العالم » سنة ١٩٦٤ ، وهو يلح على الموضوع الاثير لديه : كيف يمكن ، بالنسبة للعرب ، الحفاظ على هويتهم مع تصنيع مجتمعاتهم ؟ ·

ان بيرك يفكر على عدة مستويات · فالكلية التي يتخيلها ، هي تركيب « ساخن » لمختلف هذه المستويات · الا ان بلاغة كاتبنا نفسها تفقد اهميتها عندما تتوغل في متاهة تجزيئية محاصرة داخل سياج تجريبي · لقد امسك هيدجير ، بكيفية جميلة ، التقنية في جوهرها · فهي عنده ليست مستوى من بين مستويات اخرى · وهي ليست مجرد ازدهار للصناعة وللانماط العلمية ، ولا تضمن فقط توسع الاستهلاك · ان التقنية ، بما هي كذلك ، تضمن وتؤمن المصير الميتافيزيقي للغرب · ليس هناك موضع محقق للتحكم فيها · انها تؤوي خطرا بكرا للكينونة · لاجل ذلك ، لا يمكن القول بوجود : هوية للكينونة العربية من جهة ، وبملجأ نسبي للتقنية من جهة ثانية ·

كيف يتموضع انشقاق الكينونة التاريخية ؟

ان الاستلاب (في معناه عند ماركس) ، يعني الشيطانية المطلقة للانسان ، بالقدر الذي يجعل الاستغلال والفارق الطبقي هذا الانسان غريبا عن وجهه الخاص وعن محيطه الملتصق به · وبعبارة ادق ، فان الاستلاب يصير الانسان مستعصيا على ان يتعرف عليه ، ومن ثم يصبح خطيرا على المسيطر · والواقع ان صعوبة التعرف هذه على وجه الاخر ، قد انجزها بيرك بدون ان يعلم ، حين يقول : « لكن ، لكي يظل العرب ، مثلا ، هم انفسهم مع ارتيادهم للعالم الصناعي الذي يحاصرهم من الخارج ويستثمرهم من الداخل ، فانه يتحتم عليهم ان يطبعوا جميع طرائق حياتهم بنفس طابع ترقية حياتهم المادية · يتوجب ان تتخذ ثقافة الازهر مشروعا لها ، التوضيح الواعي المذهبي والاخلاقي الاجتماعي ، وذلك بنفس الوتيرة التي يتم بها تصنيع مصر » ص ٣٦ · ان هذا الربط اللاهوتي في غنى عن اي تعليق ·

□

المستشرق ، مترجم بالقدر الذي ينقل فيه اشياء من شاطىء لغوي الى شاطىء اخر · وحلمه هو ان يكون مزدوج اللغة : كيف يتجه نحو لغة الاخر ، وكيف يستقبلها في لغته الخاصة ؟

اننا نتحدث عن المستشرق الحريص على مصير الغرب ، والذي يمثل العرب ، في

نظره ، شكلا من الكلاسيكية الغربية · في هذه الحال ، يصبح مصير العرب « مرحلة ميتافيزيقية للغرب » · وبيرك يستوحي هذا الموقف الثاني · صحيح انه يشير في اكثر من موضع الى الاصالة المتفردة للاسلام والعرب ، ويلح على هذه العلاقة التي تجعل العرب جد قريبين وجد بعيدين عن اوروبا · لكن ذلك لا يعدو ان يكون تصريحات مبدئية متأخرة بعض الشيء بالنسبة لبيرك ، وهذا غير هام ·

ان مصير العرب ، عند بيرك ، يتمثل في كون التاريخ فاجأهم وفي كونهم وصلوا الى المسرح العالمي وهو محتل من الحضارة الصناعية ·

ماذا يعني الانسحاب التاريخي للعرب طوال عصور « الانحطاط » ؟ ومنذ متى اصبح انسحاب الكينونة يعني تأخرا ؟ تأخر بالنسبة لاي شيء ؟ لا يهتم بيرك بالاجابة على مثل هذه الاسئلة ويتابع طريقه الى امام · انه يحب ان يحلم بعالمية ، و « بنسق للكون » من شأنهما ان يحفظا تعدد الثقافات والمجتمعات · انه يحلم بجدلية « للموحد والمتعدد » ، ويدعو الى تصفية مطلقة للاستعمار باعتبار ان ذلك يعني : « اعادة اضفاء الطبيعة على الثقافة ، واعادة تثقيف الطبيعة : وهذا هو المعنى الحقيقي لتصفية الاستعمار ، وكذلك لجميع الثورات » (ص ٣٥٥) ·

لكن ما معنى العالمية بما هي كذلك ؟ هل يظن بيرك (هذا الطوبوي عند المناسبة) بان منطق التقنية وارادتها في القوة يمكن مراقبتهما ؟ ان ما نعانيه على الاصح ، هو علامات استعباد فظيع للشعوب ، المصنعة وغير المصنعة · استعباد ندركه لا كتشخيص اخروي ، بل كارادة للقوة تتمدد داخل كينونته الخاصة · مهما يكن ، فاننا لا نريد التبشير بأية غائية ولا نريد ان نوجه اية صرخة قانونية (نسبة الى فرانز فانون) · وفي جميع الاحوال ، يتحتم علينا ان نسير الى ما لا نهاية · واثناء هذه المسيرة ، سنكون مشدودين الى حلم ازدواجية اللغة · الا ان جوهر الشعر هو كونه غير قابل للترجمة · كيف نقترب وننصت الى هذا اللاقابل للترجمة ؟

لقد تساءل الشاعر الالماني هيردر Herder في القرن الثامن عشر : « اين هو المترجم الذي سيكون ، في آن واحد ، فيلسوفا وشاعرا وعالما لغويا ؟ لا بد ان يكون نجمة الصباح لعهد جديد في تاريخنا » ·

معنى ذلك انه لا بد ان يكون المرء مثل نيتشه ليكون مترجما ، اي ان الترجمة هي سعادة استثنائية جدا ، بحيث لا تتم الا من حين لاخر في تاريخ الانسانية · هل يجب ان يكون المرء شاعرا وفيلسوفا اذا كان مستشرقا بكيفية جذرية ؟ نعم ، عندما لا نفصل الفكر عن اللغة التي تؤويها ، ولا الدال عن مدلوله ، ولا الشكل عن المادة · بلا شك نجيب بالايجاب عندما نشق طريقنا نحو فكر للمغايرة · فالنص وحده قادر على اعطاء الكلمة للمغايرة · لماذا ؟ ذلك ان اللغة التي تنقل لغة اخرى ، يجب ان تتحول اثناء هذه الرحلة مع بقائها هي ذاتها · انه تحول غريب ومرعب عندما تنتمي لغتان الى مصادر لسنية متباينة ، والى حركتين ميتافيزيقيتين مختلفتين · وفي هذه الحالة ، لكي يكون النقل واضحا ومقروءا ، فانه يتحتم على هذه الغرابة ان تخضع لفكر مزدوج للمغايرة ، ولتباعد جذري · وبدون هذه الجذرية ، يظل النقل نقلا ، ويظل الاخر اخرا بدون ان يصير داخل نفسي كتجذر جديد وكمنبع لكينونتي ·

ان جوته ، في ديوانه الغربي ـ الشرقي ، يميز بين ثلاثة انواع من الترجمة : ترجمة « تجعلنا نعـــرف الاجنبي من وجهة نظرنا نحن » ، وترجمـــة Parodistique « لا تستهدف سوى امتلاك الفكر الاجنبي ، لكن مع نقله الى فكرنا » ، وترجمة ثالثة « ترمي الى التطابق والتوحد مع الاصل ، وتنزع الى التقرب في النهاية من المعنى الكامن وراء السطور ، فتسهل كثيرا فهم الاصل · وعن طريق ذلك نجد انفسنا ، بغير قصد ، أمام النص في شكله الاولي ، وتتم بكيفية نهائية الدورة التي ينجز من خلالها نقل الاجنبي الى الأهلي، ونقل المعلوم الى المجهول » (٧) · ان جوته يحبذ هذا النوع الثالث من الترجمة ، ولانـــه يتوفر على عبقرية تركيبية فقد أضفى على الاستشراق نبلا فكريا ، وسكنا شعريا ، واهتماما بالجمال عند الآخر · ان جوته يؤسس الاستشراق داخل جذور الكينونة ، ومن ثم فـــان ديوانه ، يساوي بحق مجموع النصوص الاستشراقية ·

والواقع أنه ، باستثناء محاولات متخصصة نادرة وجريئة ، لا يزال الشعر العربـــي ينتظر من يترجمه · ويساهم بيرك ،على طريقته ، في رسم معالم طريق هذه الترجمة ،وهذه هي القيمة الاساسية لكتابه « اللغات العربية في الحاضر » · الا انه يجب ان نوضح مسالة ما يسميه تعدد اللسان Hétérophonie · فالامر يتعلق ، مثلا ، بالكتاب العرب الذين يكتبون بالفرنسية وخاصة عندما يقول : «بدون ان نتقصد اثارة المسالة بجلبة كبيرة ، فاننا نقول بأنه غير طبيعي أن تعبر طليعة من الادباء العرب ، بما فيها من شعراء ، بلغة الآخر · الا يؤدي ذلك الى هجرة من الداخل ؟ بلى ، وهذا جد صحيح » ص ٦٧ ·

نريد أن نثير المشكلة من حيث اتصالها بظل لساني ، يوجد أيضا في رغبة ازدواجيـــة اللغة عند الاستشراق ، ولكن بمعنى معكوس · لعبة مرآة : المستشرق المحترف في حالـة صراع داخل لغته الخاصة ، وصراعه مع منافس خطير ينزع ، بشكل ما الـى احتلال نفس المكان ، ونفس المسرح · من ثم ، نستطيع أن نفهم ، ضمنيا ، الضغينة المتبادلة التي تكمن وراء هذا النوع من الجدال · وما يهمنا هنا ، هو ابراز المسالة في الكلمات المعبرة عنها حقيقة ، بعيدا عن الصياغة البسيكولوجية والتاكتيكية التي يلجأ اليهـــا بيرك · ان كينونة لغة ما ، تتجه نحو كينونة اللغة التي تتجه هي أيضا اليها · انها تسير نحو مـــن يندرج جذريا ، داخل نفسه ، ضمن المسافة القائمة بين الهوية والمغايرة · هذه المسافـــة الفارقة هي مسرح النص ودائرة مراهنته · وفي الادب المغربي المكتوب بالفرنسية ، فـان مثل هذه المسافة الفارقة ـ عندما تصبح نصا وقصيدة ـ تفرض نفسها من خلال « غربتهـا الجذرية » ، أي من خلال كتابة تبحث عن جذورها في لغة اخرى ، وفي « خارج » مطلق · كيف نستطيع ان نقيس ما يمكنه ان يتحول في هذه الغربة الجذرية ؟ اذا كانت رغبتنا هي في عمقها ، مزدوجة اللسان ، فباسم اي شيء يريد بيرك ان يحول بيننا وبين الرد عليه في لغته الخاصة ، وخارج بلاغته المتغطرسة ؟

في كتب جاك بيرك ، يسلك العرب طريق السرية ، مثل العمال المهاجرين من أقطـــار المغرب في حي باريس بالعاصمة الفرنسية · وهذا يدخل في عناصر المنطق الرقيق واللذيذ بطريقة التناول عند بيرك · ذلك ان بيرك ، وهذا تناقض بالنسبة لمستشرق ، لا يحب الاسلام : انه يحب ما قبل الاسلام · حب مشروع ، لكن لماذا ينساق للاوهام حول مواضع رغبته ؟ انه يحتفل بالجاهلية وبشعرها احتفالا تطبعه الحيوية والنوستالجية الطبيعيـــة

والصنمية ، مما يجعلنا نصغي اليه بأذن مزدوجة : اسلامية وجاهلية ، حين يقول : « الصفة الوحيدة التي تخولني الحديث عن الشعر القديم ، هي حبي للشعر العربي القديم · » (ص ١٨٦) · هذا الحب لا يجدد مسألة الاستشراق ، لكن الطريقة التي يترجم بها بيرك بعض المعلقات ، هي ذات أسلوب منجود ، يكاد يغني ، ومرصع بتنغيمات سجعية على شاكلة ما نجده عند سان جون بيرس : ان شيئا صميميا وجوهريا يتكشف عند هذا الرجل الغسقي الذي يمضي وقته في كتابة اسفار مملة ، موادها مهربة ، وذلك ليختفي وراءها فلا تبصره عيناه · ان ما يقوله بشعور أدبي ممتلىء ، عن عدم تمفصل الاصل الذي تنبثق منه رسالة القرآن ، وما يردده بسطحية عن كينونة الشعر او الاطلال المندرسة في صحراء البدو ، يذكرنا بالسراب المتهاوي للغرب كما كان يتغنى به فولني Volney أمام الاطلال الفرعونية ···

لقد دخل الاستشراق ، مع حملة نابليون ، في امبريالية المعرفة المطلقة · ومع جاك بيرك، يلتقي الاستشراق من جديد بالنزوة النوستالجية لاندثاره ·

حاشيـــة II

في معنى نبيل ، يكون المستشرق هو الذي يسهر على فجر الفكر · وهذا اقتراح لا يجب ان نعتبره بمثابة استعارة ظرفية ، بل هو يعبر عن موقف جذري يرى ان الشرق والغرب لا يمكن اختزالهما الى توزيع جغرافي أو الى أية مغايرة ثقافية · انهما يدعوان ، في مسافتهما الغارقة الى المسألة الجوهرية للكينونة حسب بروتوكول فجري وزواجي · بروتوكول لا يحيلنا الى فلسفة نورانية تحور ، عن طريق صور شمسية ، الميلاد اللا مفكر فيه لكل شرق ولكل غرب · ان هذا الميلاد يملي انشودة اليقظة · ومن ثم فانه ، دوما ، حدث خارق للعادة ، لا يعطي قط كموهبة فوق طبيعية من لدن السماء · ان هذا الميلاد، باعتباره موهبة ، وذاكرة ضائعة ، هو احتفال باللامفكر فيه · ذاكرة ضائعة بمقدار ما تهب الموهبة لشركاء لحظة انتشاء · لكن ، لكي ترتاد مثل هذه الموهبة محيط الآخر ، فانه يتحتم عليها ان تكتمل ايضا حسب فكر للمغايرة ·

استشراق جذري · لا شك أن مسألة الشرق الاقصى هي بحد ذاتها متطرفة ، خارجة عن القياس بالنسبة للمسألة الافريقية ـ العربية التي تحدثنا عنها في هذه المقالة · انها متطرفة بما تعد به ، غير أن الشرق الاقصى ليس بأي حال ، فوق ـ طبيعي · انه يستقبل ، على طريقته ، من يسير نحوه ، ومن اتجه باستمرار · كذلك فانه لا يتحتم الانتظار الى ما لا نهاية لمعاودة الحوار · ان العالمية الامبريالية للتقنية لا تعلن بالضرورة قيام فكر موحد يسكن بتمايز في « الماهو ـ نفسه » · انها ، على العكس ، يمكن أن تؤدي الى استبعاد لم يسبق نظيره ·

ان جوته يدلنا على الطريق في قصيدته الرائعة « الديوان الغربي ـ الشرقي » :

الغرب ـ مثل الشرق

يمنحانك تذوق أشياء خالصة

أترك هنا الاهواء والمقشرة

اجلس في الوليمة الكبرى :

فلن نستطيع ولو عابرا
أن تعزف عن هذا المطبق
من يعرف نفسه ويعرف الآخرين
سيعترف بهذا ايضا :
الشرق والغـرب
لا يملكان بعد أن يفترقـا ٠

تعريب : محمد برادة

الحواشي :

1 - Michaux Bellaire : La - mission Scientifique du Maroc , Servicede Renseignement , Rabat, 1925 .

٢ ـ مقدمة هنري توربان لترجمته للملا الشيرازي في :

Le livre de penetrations - metaphysique . TERAN Paris 1964 .

3 - G . Deleuze : Logique du - sens , 10/8 , 1973 . p . 357 .

4 - Maxime Rodinson : the - Western image and Western - Studies of Islam.in the Legacy of Islam , Oxford 1974 .

5 - De Possession du Monde , Le Seuil 1964 .

6 - Bulletin D'information du - Maroc , oct . 1945 .

٧ ـ راجع ملاحظات جوته في الديـوان الغربي الشرقي ، ترجمة

H. Lichtenberger

نشر Aubier ـ ١٩٤٠ ٠

سميح القاسم
الى الجحيم ايها الليلك القدس
منشورات صلاح الدين

تشكل الرواية الاولى للشاعر الفلسطيني في الارض المحتلة سميح القاسم ، خطوة متقدمة كنموذج في الرؤية التقدمية الواقعية لقضية الشعب الفلسطيني والقضايا الانسانية بشكل عام ٠فمن خلال المعاناة الحقيقية والشعور الكامل بالمسؤولية يجسد القاسم في روايته هذه حقيقة المأساة التي منها عانى ويعاني الانسان العربي الفلسطيني والانسان اليهودي ٠ فمنذ بداية « الانشطار » ـ الفصل الاول في الرواية ـ حتى نهاية « القيامة » ـ الفصل السادس الاخير ـ تلمس التوتر والقلق يهيمنان على الواقع الذي تصوره الرواية مما يعلن بوضوح كامل عن عدم الاستقرار لهذا الواقع واستحالة استمراره ٠ وتلمس الاخطاء الفاجعة والافكار الانهزامية والرجعية التي استطاع الكاتب ان يسلط عليها ضوءا كاشفا قويا يجعلك تدرك بسهولة ووضوح حدود المسؤولية القابعة وراء هذه الافكار ـ الكارثة ٠ وخلال ذلك لا يقف الكاتب محايدا ـ فهو محور الرواية ـ هو لا يكتفي بان يعكس هذه الحقائق على صفحات روايته بعبارات مكثفة شاعرية كما لا يكتفي بتحديد المسؤولية وانتظار الحكم بل ينحاز ، يدين الفكر الرجعي الذي خلق المأساة وادى الى استمرارها، ويدعم بكل قواه الفكر التقدمي الثوري ٠

والكاتب من أجل تحقيق ذلك يستنبط الاسلوب الذي يستطيع حمل هذا التجديد٠ فهو لم يرتض الاساليب التقليدية لهذه الرؤية الجديدة ٠ فمع انه كتب على الغلاف الخارجي بان الرواية هي (حكاية اوتوبيوغرافية) الا ان الرواية لا يجوز ان تفهم على اساس انها سيرة حياة الكاتب ٠ فهي « حكاية » تعتمد على تاريخ حياة الكاتب اعتمادا كبيرا او انها حياة الكاتب ادغمها في فهمه لواقعه ورؤياه لمستقبله ٠ هي تاريخ حياة الكاتب كخلاصة لتاريخ حياة شعب تجرع المأساة فصمد ٠٠ وهاجر ٠٠ وعاد ٠٠ وثار ٠ فالرواية تستند فعلا الى مساحات من تاريخ حياة الكاتب رصفها متدمجة برؤياه ـ بفن خلاق واستخرج منها لوحة موزاييكية رائعة ٠

وقد استفاد الكاتب تماما من تلك الاشارة (حكاية اوتوبيوغرافية) في انه اكسب روايته حدا اعلى من تأكيد صدق الاحداث وواقعيتها ولا يبدو ان اشخاص الزواية عند سميح القاسم بعيدون عنهم في رواية « المتشائل » فهم على الاقل متشابهون من حيث المهمات وان اختلفوا من حيث التركيب وطرق التعبير ٠ فسعيد في رواية المتشائل خلال مسيرة حياته

قدم عرضا مفصلا ناقدا لسيرة شعب بأكمله · وقوعه تحت نير الاحتلال ، ومعاناته لواقع هذا الاحتلال واستحالة تكيفه معه مهما حاول وبذل وتنازل مما يفهم منه بشكل واضح في النهاية ان الاحتلال الصهيوني هو الذي يرفض استمرار وجود هذا الشعب على ارضه ـ ولو في ظله وتحت هيمنته ـ ويبذل كل الجهود للتخلص من هذا الشعب لتظل الارض خالية مطواعة لمخططاته ·

هذه الصورة التي قدمها « سعيد » تشكل ايضا حجر الاساس في الصورة التي قدمها القاسم نفسه كشخص من شخوص روايته · فالصورة تتركز بكاملها على واقع فلسطين عام ١٩٤٨ ـ النكبة ـ واستمرار هذا الواقع حتى الان · واللوحة التي تمثل النكبة حرفيا يمكن تجميعها من الفصلين الاول « الانشطار » والثاني « الهاوية » من خلال عبارات مكثفة تصور هذا الواقع بوضوح او توحي به بحدة وبلغة القاسم الشعرية التي تنساب على طول الرواية · فالناس منشغلون مرتبكون ، والنساء اللواتي كن يجدن الوقت والميل لابداء اعجابهن ـ فيما مضى ـ بهذا الفتى ما عدن مهتمات بذلك (اليوم لم ترمقني نساء العين باعجاب · لم اسمع تلك الغمغمات المثيرة ولم تكن هي في انتظاري عند المنعطف · المدارس مسكونة بالجنود اسمهم « جيش الانقاذ ») · « وكولد » تنعكس النكبة في ذهنه بصورة احتجاج وثورة على المفاهيم والقيم المتخلفة التي يتمسك بها والداه من ناحية (الله معنا ! الله معنا ! لماذا اذن يرضى الهكم هذا بان تهدم الطيارة بيت « دنيا » ؟ لماذا يأخذها الهكم مني ؟ لماذا يجعلها لاجئة ؟ هه ! الله معنا · الله يدافع عنا · كفاية ! كفاية !) ومن ناحية اخرى تنعكس على شكل حزن عميق مذهل (انا بعدك عصفور ممزق على الشارع العام ·· دوري مسحوق ·· معسته سيارات العساكر والسياح) ·

وحين يكون هادئا غير واقع تحت التأثير المباشر لفقد « دنيا » ـ فقد اعتاد حقيقة فقده « دنيا » ـ يقدم وصفا سريعا ولكنه ايضا مكثف ذو دلالات شاملة (١٩٤٨ ـ جموع النازحين تتدفق على « الرامة » من الشرق والغرب والجنوب جداول آدمية باهتة تصب في هذه البحيرة الراكدة ثم تتدفق عبر الشاطىء الزيتوني ·· بيد انها تتدفق في اتجاه واحد فقط ·· نحو الشمال ·· تتدفق نهرا بشريا داكنا يلهث ، يعوي وينتحب) ·

وعن جيش الانقاذ ايضا (جاءوا ليدافعوا عنا · فلماذا حولوهم الى مجرد خيارات مكبوسات في سيارة هاربة الى الشمال ؟) ·

هذه اذن مأساة القاسم جزء عذابه ولا وضوحه وتبدده الذي وضعه في اطار من « الليلك » كما وضع جميع الالفاظ التي تحمل اي شيء من مدلولات العذاب واللاوضوح والتبدد (الاشتباه الظن ، المتوقع ·· ·الضرب بالودع ، البصارة ، الهوروسكوب ـ كلها « ليلك ») ·

ومن هنا فان صرخة القاسم (الى الجحيم ايها الليلك) دليل رغبة عارمة في النفاذ من المأساة · رغبة في نفض غبار العذاب واللاوضوح والتبدد والتخلص من ربقتها ، تلك الصفات التي لازمتنا منذ زمن طويل (وكانت « دنيا تحسب فستانها الليلكي ، تلعب فيه وتنام فيه ، وفيه تذهب الى المدرسة) و « دنيا » ترمز هنا الى الشعب الفلسطيني ويمكن ان

نقول بالتحديد ترمز الى الفلسطينيين الذين هاجروا · ولكن ، ما هو مطلب القاسم بالتحديد ؟ هل يكتفي في روايته بمجرد التعبير عن هذه الرغبة في النفاذ من المأساة ؟ · الواقع ، كلا · فصرخة القاسم الحقيقية تتجلى بوضوح هنا :

(سام او حام او يافط · هذه الامور الانتولوجية لا تعنيني كثيرا · المهم انني فقدت وطنا كاملا وحقيقيا بترابه وصخوره واشجاره ·· بناسه ومدنه ودكاكينه وقراه واثاثه وملابسه وقهوته الساخنة ، فقدت وطنا في حالة جيدة وصالحة للاستعمال مئة بالمئة ·· لم يذهب هذا الوطن الى كوكب اخر ·· انه على الارض تعرفون انتم موقعه ·· تعرفون جيدا وطني الذي ضاع بلا اي منطق ·· في زمن من المفروض ان ينتصر فيه المنطق · اريد شبرا واحدا من العدل · هوية واحدة من العدل · « دنيا » واحدة من العدل) ·

فهو يطلب حلا عادلا لقضيته · وهو يعترف بان العدل المطلق امر غير ممكن ولكن هذا لا يجوز ان يكون مبررا لضياع حقه · هو لن يقبل ذلك ومستعد لبذل اي ثمن من اجل استرداد حقه ، انه يهدد ثم يطرح الحل الواقعي من وجهة النظر التقدمية لا من وجهة النظر المستسلمة ·

ومع أن هذه الصرخة تمثل صلب رواية القاسم ، الا انها في الوقت نفسه لا تمثل الا جزءا من الافكار التي عالجها · ما هي ابعاد المأساة ؟ واسبابها ؟ وما علاقتها بالمآسي الاخرى ؟ وهل يمكن النفاذ من هذه المأساة ؟ وكيف ؟ ·

هذه الاسئلة يجيب عليها القاسم في روايته بكل صراحة · ففي بداية روايته باستشهاد من هاملت (ستفهم من يكون هؤلاء الناس لان الممثلين لا يصنعون سرا ويفشون بكل شيء) يعد بان ما بين دفتي هذه الرواية هو لخدمة الحقيقة · ومع ذلك يؤكد القاسم هذا الوعد (ولتذهب الى الجحيم كل الموازين التي تعوق مسيرة الحقيقة ·· سري مع « الليلك » هو جزء من حقيقتي التي ازعم الافشاء بها ·· هذا السر عذبني طويلا ولا ينبغي علي الصمت عليه اكثر مما مضى) ·

وفعلا فالقاسم بر بوعده على طول روايته · ابرز اسباب النكبة بواقعية وبدون تحفظ او انحياز ·

(من هم اليهود يا جدي ؟· ـ هم ناس شريرون يريدون قتلنا واحتلال ارضنا · ـ لماذا هم شريرون يا جدي ؟ ـ لانهم لا يحبون الناس ·· والله لا يحبهم ·· ـ هل الله يحبنا نحن يا جدي ؟ ـ اجل يحبنا يا بني · ـ اذن لماذا لا يحمينا الله من اليهود ؟ ـ سيحمينا !) ·

هذه العقلية التواكلية والاعتماد على القوى الميتافيزيقية هي ولا شك احد اسباب النكبة والكاتب يكشفها في اكثر من مناسبة · كما ان الفهم الخاطيء لليهودي كان ولا شك من اسباب « الانشطار » وتسهيل مهمة القوى الخارجية · وقد يشير الكاتب في بعض عباراته اشارات غير مباشرة ، فهو يصف حماس الرجال الذين هبوا للدفاع عن « الليات » ، ثم يصف احباطهم (افرغوا امشاط رصاصهم القليلة وعادوا قطيعا مذعورا) · اين السلاح ؟ ومن المسؤول ؟ ·

وفي دوامة هذا المأزق يبرز « حسن » الكسيح · الفتى الذي لم يتمكن من الرحيل او البقاء « فلجا » في وطنه الى « الرامة » · فحسن هنا يرمز الى جيل

تشده الرواسب المتحجرة والعقلية المتخلفة التي تعجز عن فهم الاحداث فلا تواكب حركتها (الكسيح يا اولاد لا يستطيع المشي) ·· (لم اكن كسيحا في يوم من الايام كان الكساح في عقولنا وقلوبنا) · واحتضان هذا الكسيح لم يكن شيئا اصيلا ، فقد استمر لبضعة ايام فقط · ثم تعرض للاهمال ، ومضايقة الاولاد وسخريتهم منه وتعذيبه حتى قضى، وهذا يرمز الى رفض الجيل الجديد للعقلية الساكنة المتخلفة ·

ويؤكد الكاتب هذا الرمز بان يشير الى ان حسن الكسيح موجود في الجميع ـ الباقون على الارض ـ فهو ليس محصورا في فئة محددة وانما هو منتشر في الجميع بمقدار ما ، وهو نفسه ـ الكاتب ، فيه شيء من الكسيح (انه هنا في داخلي واشاهده كل يوم · اشاهد كل شيء · واحيانا حين اكون في حالة سكر · مثلا ، ابكي واضحك وابكي منشدا لنفسي : يا سميح انت حسن الكسيح) ·

غير ان ابراز اسباب النكبة واسباب استمرارها لا يقتصر على فصل معين بل هي تظل تدق كاجراس انذار على طول الرواية · وهي لا تخرج عن الاطار الذي حدده الكاتب منذ البداية ولكنها تطل كل مرة بصورة · بموقف · بدوامة جديدة · مؤكدا ان اسباب النكبة في حد ذاتها لا تزال موجودة بل وتتأكد ، وفي كل يوم تضاف اسباب جديدة ترسخ اسباب النكبة وتحتم استمرارها · (كان النصر الكبير في حرب الايام الستة اجمل ميني لبسته تل أبيب ·· كانت تل ابيب تتجول على ارصفة ديزنغوف واللنبي وبن يهودا وحتى في كرم هتيمنم وحي هتكفا ، راقصة مزهوة بذلك الميني) وفي المقهى ·· (حتى زبائننا كانوا مغرمين بالميزة العسكرية) · هذه حتما احدى اسباب استمرار المأساة بل ابرزها : التعنت والغرور الاسرائيليين بعد حرب ٦٧ · والواقع ان هذا التعنت والغرور ليس في « النظام » فقط ، بل هو واضح في عقلية الشباب الاسرائيلي وخاصة الذين وقعوا تحت تأثير الصهيونية ـ ويمثلهم في الرواية « اوري » ـ فالكاتب في بداية روايته ابرز ان بعض اسباب النكبة كان يكمن في الفهم والعقلية العربية ، الا انه يؤكد بعد ذلك ان اسباب استمرار المأساة يكمن في الفهم الخاطيء لطبيعة القضية من قبل النظام والانسان الاسرائيلي على السواء :

« ـ هل استطيع ان اعلم لماذا اطلقت علي الرصاص ؟ قال : ـ لانني اكرهك ، قلت : لماذا تكرهني ؟ قال : ـ لانك تكرهني · قلت : هل حاولت مرة واحدة ان تعثر على جزر الكراهية ؟ قال : ـ تكرهني لانني احب « ايلانة » ! قلت : ـ انا لا اعرف « ايلانة » ، اعرف « دنيا » واحبها ·. ولا تنس انك دمرت حبنا · فلماذا لا ترى ايها الفتى المسكين اثني املك كل المبررات للدفاع عن حبي ، وانت لا تملك اي مبرر للدفاع عن كراهيتك ؟ »

وتتضح الرموز هنا كما تتضح الافكار، « فدنيا » تمثل فلسطين كما تمثل «ايلانة» اسرائيل بينما أوري يمثل الشباب الاسرائيلي · والفقرة السابقة تمثل استنكار الفلسطيني ، للعقلية الاسرائيلية المتحجرة ، مما يؤدي الى الاستنتاج بان العقلية الفلسطينية هي اكثر تطورا في مجال فهم الواقع الموضوعي الذي تعبره القضية الفلسطينية · وتحجر العقلية الاسرائيلية لا يبدو فقط في هذا المجال بل يظهر في الصورة المنغلقة في تصورهم للمقاتلين الفلسطينيين الذين يسعون الى تحقيق

حقوقهم ، وفي فهمهم للشيوعيين الذين يعيشون بينهم وتحاملهم ضد هؤلاء الشيوعيين بسبب فكرهم التقدمي وبسبب دفاعهم عن المناضلين الفلسطينيين (المخربون اعداؤنا ونعرف كيف نعاملهم · اما المصيبة فهؤلاء الشيوعيون القذرون ، الذين يدافعون عن المخربين هنا في بيتنا ! لو ان لدينا حكومة رجال لألقت بهم جميعا في السجن) ·

من خلال اقامة هذه المقارنة بين عقليتين يصل القاسم الى حتمية انتصار الشعب الفلسطيني وحتمية انهزام الفكر الصهيوني الرجعي من خلال صورة مقتل « اوري » في الصدام الذي جرى بينه وبين الفلسطيني · فقد تقدم « اوري » شاهرا سكينه لقتل الفلسطيني فسقط عليه فرع من فروع الشجرة الفلسطينية النادرة الكثيرة التي لا تحصى فمزق جسده · وهنا صرخ الفلسطيني (اوري ايها الفتى المسكين لماذا انتحرت ؟) وذلك هو الواقع ، فالفلسطيني لم يقتله وانما قتله فهمه الرجعي وانغلاقه ·

ونتيجة لهذا الفهم المتناقض لطبيعة القضية بين الفلسطيني والاسرائيلي فان اللقاء بينهما مستحيل ـ وقد عبر الكاتب عن ذلك باللقاء الذي لم يتم بينه وبين « ايلانة » رغم كل الجهود « فايلانة » حبيبة « اوري » تلك الفتاة التي اصيبت بالضياع نتيجة مقتل حبيبها استثارت عطفه · فحدد موعدا الساعة السابعة مساء للقاء بها في مقهى « كسيت » الا ان الفارق بين توقيته وتوقيت ايلانة حال دون هذا اللقاء (اسابيع عديدة ضاعت هباء ونحن نحاول اللقاء · ايلانة في السابعة وانا في السابعة · غير ان ساعات عديدة كأنها قرون بكاملها ظلت تفصل بيننا) ·

ومع ذلك فلا يحمل الكاتب الطرف الاخر مسؤولية استمرار المأساة منفردا · فعجز الفلسطيني عن تقديم صورة تحليلية علمية عن المأساة هو عامل هام · الكسب العاطفي ليس كافيا يجب ان تكسب المعركة في ذهن العالم · وهنا يحاول الكاتب ان يظهر ان هذا النضال السياسي الدبلوماسي لا يقل اهمية عن القتال ، وانه الى جانب ذلك الجزء من العالم الذي لم يفهمنا الا عبر الكلاشينكوف هناك من يستطيع ان يفهمنا فعلا بغير هذه الوسيلة ·· ففي لقاء مع كونراد الشيوعي الالماني الذي التقاه الكاتب في موسكو دار حوار هذا جزء منه :

(·· اريد تحليلا علميا لما حدث ويحدث على ارضكم · حين قلت لكونراد « ان العالم لا يريد ان يفهمنا الا عبر الكلاشينكوف » ، احمرت اذناه وغمغم بلهجة خيل الي انها عاتبة بعض الشيء : « كن واثقا انني افهمكم ·· كن واثقا » ·) وقد عبر عن ذلك باشارة مقتضبة سريعة · فالفلسطيني الذي التقاه في موسكو روى تفاصيل مأساته على ضفتي الاردن بأسلوب دقيق ومؤثر (كانت مياه الاردن تتدفق وتهدأ وتخر وتزحف وتهيج وتلين مع كل كلمات ذلك الفلسطيني التائه · ظل نهر الليلك ، غير المقدس ظل جاريا ، ولا ريب في ان ليلك الاردن هو الذي يبلل مخدتي كل ليلة) · ومع ذلك فالكاتب اشار الى ان هذا الفلسطيني اهداه قداحة ·· وهذه القداحة جميلة ولكنها لا تعمل ·

ومع ان واقع المأساة واسبابها هي من العناصر الرئيسية في الرواية الا ان الكاتب دمج باسلوب فذ بين هذه ورؤياه وتداعياته في صورة واحدة متكاملة الاجزاء متقنة الترابط · فمع انه قسم الرواية الى ستة فصول هي بالترتيب : الانشطار ، الهاوية ، المواجهة ، المستحيل ،

القتل ، والقيامة · الا ان هذا التقييم لا يعني تخصصا في المجال الذي يبـــرزه عنوان الفصل · وبمعنى اخر فمع ان كل فصل من هذه الفصول يبرز لوحة مـــن هذه اللوحات تحمل جزءا من اللوحـات الاخرى · فاللوحات متداخلة لا تمكنك من ان تضع بينها حدودا فاصلة · فمع ان مقدمات المأساة وواقعها هي المحـــور الرئيسي لفصل « الانشطـــار » الا ان الكاتب يظهر بعض الحقائق ويؤكد غيرها بحيث يتعمق الشعور بالمأساة · فهو مثلا يعلن عشقه لارضه وتمسكه بها من خلال اعلانه انه يعشق هذه المرأة الناضجة التي لم يعرفها باسم بل عرفها بان لها ابنـة واحدة وولدان مما يجعلها رمزا لفلسطين· واعلانه لهذا العشق القوي جاء بأسلوب « فولكلوري » (اما انا شخصيا فأفضل الظهيرة العالية موعدا لمقابلة امـــرأة ناضجة) مع ما يحمله تعبير الظهيـــرة العالية مـــن معنـــى الوضـــوح والصراحة في الفولكلور الفلسطينـــي · بينما يعلن أن ما يربطه باسرائيل ليس سوى رابط ضعيف فهو يصفها بالقحبـة العجوزة التي تربطه بها رابطة الطعـام القليل (كالوريات قليلة ربطتني بتلـك القحبة العجوز · قوتي كفاف يومي كان الأضرة الوحيدة بيني وبينها) · وهـــو يؤكد هذا الرمز (وأكثر ما يدعو للدهشة هو احتفاظها بكل هذا العدد الهائل مـــن الحراس المزودين بأحدث ما انجزه العقل البشري من أدوات الحـــرب ومعـــدات الهلاك) ·

ولا يفوته ان يظهر التناقض الـــذي يعيشه الانسان العربي واليهودي ايضا في ظل الديمقراطية المزيفة في اسرائيـــل فليس الكاتب وحده ، غير المزود بتصريح تنقل ، هو الذي تعرض للقلق على حاجز الشرطة ، بل السيدة « روث » التـــي كانت تنقله بسيارتها ليتحدث في حلقـــة « ابناء سام » التي تديرها · وهنا (في هذه اللحظة · في مواجهة هذه الحقيقة المزدوجة المتناقضة ، حقيقة حاجز الشرطة وحقيقتي انا ، بل الحقيقة التي هي نحـن الثلاثة : الشرطة ـ العربي الذي يشكل خطرا على الامن ـ وانـــت ، سيـــدة اسرائيل المرموقة · الان في هذه اللحظة· ماذا يدور في رأسك ؟ هل تشتهيـــن ان تكتشف الشرطة هويتي ، لتخلصينـــي منها فتقدمين بذلك خطوة نحو شاهـــي المحاصر ؟ أم تشتهين ان تنفذي بي عبـر الحاجز حتى لا تقترب الشرطة نحـــو شاهك المحاصر ؟ شاهك الذي حاصرته في حوارنا السابق ؟) وفي «الهاوية» يبدو ان نكبة عام ١٩٤٨ هي المحـــور الاساسي بينما يتضح بتدقيق اقـرب ان نقد العقلية المتخلفة هي الهدف الاساسي لهذا الفصل بدليل ان « حسن » الكسيح هذا قد ثار في نهاية الرواية بعـــد ان نفض عن نفسه غبار الانغلاق والتخلف ·

وتشكل نتائج حرب ٦٧ وما تلاها مـن تعنت وغرور اسرائيليين اساس فصـــل « المواجهة » · ولكن نقـــد العقليـــة الاسرائيلية سواء على مستوى النظـــام او على مستوى الفرد تشكـــل تكملـــة وتعميقا لصورة ذلك التعنت الذي جـــر الضياع على « ايلانة » التـــي تمثـــل اسرائيل ·

وشكل « المستحيل » فصلا هاما مـــن فصول الرواية اذ انه جاء نافذة اخـذت من خلالها احداث الرواية بعدا جديدا ، اذ تمكن الكاتب من خلال هذا الفصـــل من خلق مقارنة بين التعصب الصهيونـي والنازي · كما استطاع من خلال حكايـة « سمير » الشاب الفلسطيني الذي احبته الفتاة السوفياتية « تانيا » ان يرسخ حقيقة انه يستحيل قتل الفلسطيني ·

واكد في الفصل الاخر « القيامة » آمال الكاتب التي هي في الواقع رؤية اكيدة لمحصلة الرؤى التي بثها في الفصول السابقة ، وهي ان الكسيح سيتحرر من افكاره وتقاليده المثبطة ، وسيعود ثائرا يتجاوز ـ بدعم ومشاركة اخوته الفلسطينيين في كل مكان ـ كل العقبات التي تتمثل في الحاجز الذي يقيمه الجيش بعد عملية للفدائيين ، وان الشعب الاسرائيلي المتمثل في « ايلانة » سيكتشف الحقيقة ، ورغم المتعصبين المشبعين بالفكر الصهيوني ستظل « دنيا » فلسطين .

محمود قدري

محمود شقير : الولد الفلسطيني

(دار صلاح الدين ـ القدس ، ١٩٧٧)

يبرز النهج الواقعي الذي هو طابع قصص « محمود شقير » ومادته الحية في مجموعته القصصية التي صدرت مؤخرا عن دار صلاح الدين في القدس باسم « الولد الفلسطيني » .

في « الولد الفلسطيني » انطلقت يد الفنان تستقطب رؤى جديدة عمقتها تجربة النضال الشخصية للكاتب، واندرجت الوان عديدة خارجة عن صرامة الاطار الرمادي المظلل الذي طغى على قصصه السابقة . وامتزج الشعر مع واقع عرف كيف يمزجه بالاسطورة والتراث الشعبي والتقنية الحديثة ، تأتي ضمن لغة بسيطة مشحونة بنبض ايحائي لا يغلق طريقها في اسار واقع جامد ، او يحلق بعيدا عنها في الرمز والغموض .

وبامكاننا ان نستخلص ثلاث ملاحظات اعطت جديدا في المجموعة .

اولا : اللجوء الى القصة ـ المقاطع لتصوير النغم الكلي ، واستخدام هذا الشكل بما يعزز تطور الحدث عبر صور تجمعها الحركة الداخلية المشتركة . وترد المقاطع متماثلة في جوها الشعري في قصة « الوطن » ، متداخلة في الحاضر والماضي في قصة « رجل وامرأة » متبادلة المضمون في قصة « التراب » ، ومختلفة الاتجاهات في قصة « ثلاث قصص قصيرة جدا » .

في قصة « الوطن » ينطلق من احدى البديهيات البسيطة التي يمارسها مواطن في ظل الاحتلال ، ثم يفرز التناقض كاشفا لنا عن حدة التجربة . « كنت اتأمل سور المدينة حينما داهمني الجندي وصاح : هيه قف ، ما الذي تفعله هنا ؟ قلت : هذه مدينتي وانا اتأمل سورها . قال : مدينتك ، هذا هراء » . واذ يقتل الجندي الذي دفعه امامه بوحشية تتعقبه المصفحات ودوريات الجيش مضيقة عليه الحصار ، فانه يفلت من اسار الواقع الى حرية ممارسة الحلم ، لكن الحلم يعود مرتدا الى ارض الواقع . « تلفت في كل الاتجاهات حائرا ، ثم طرت مرفرفا في السماء . وقلت : يبدو انني نجوت . لكنهم نثروا الشباك والمصايد .

وحاصروني ثم القوا القبض علي ووضعوني في قفص بعد ان نتفوا ريشي · وزجوا بي في السجن بين الزعران » · في السجن لا يصدقه الزعران عندما يخبرهم « كنت اتأمل سور مدينتي فلم يعجبهم الامر » · ها هو حصار اخر يقتنص حلما شفافا يعجزون عن فهمه ، يطالبونه « هيا قص علينا حكاية مسلية » · يتحدث اليهم عن سلطان جائر ، فيعلن الزعران مللهم من السياسة · يحكي لهم عن الجوع فيسأمون من حكاية يعرفونها تمام المعرفة · لكنهم يهللون اذ يخبرهم حكاية المرأة التي خانت زوجها التاجر وهربت مع عشيقها سائس الخيول · وهو هنا منخلال حكاية القهر الجنسي ـ الطبقي يبدي تعاملا حنونا مع اولئك الذين يعكسون وعيا رمزيا تجاه الصراع الاجتماعي الذي لا يدفع ثمنه غيرهم ·

في المقطع الذي يروي فيه قصة الولد وجده الشيخ الذي اعترض الناس على ركوب احدهما الحمار ، او تركه · يذكرنا بالخامس من حزيران ومدلولاته المشابهة التي اعطت احكاما ظالمة تجاه الجيل الذي تحمل نتائج الهزيمة · ثم يعود بنا الى الخيط الذي ينظم الوحدة المتشابكة · يعود الىجو السجن ـ الحصار فيطوره بالفجيعة التي تتمثل في النفي من الوطن ، حين يفاجئه الحراس وهو يستعيد سيرة جده الذي مات في الحرب · « قالوا : كذاب ، انت تعيد النظر في سير التاريخ ، وهذا لا يجوز · قالوا : هيا انهض فنهضت ، نتفوا ريشي ثم عصبوا عيني وحشروني داخل قفص · « يسيرون به على حدود الوطن المنتهك · « قالوا : من هنا تخرج· قلت هذا وطني وارفض اوامركم · قالوا : امامك بلاد اسمها لبنان · وان لم تذهب قتلناك » · عقب الابعاد يتلفت البطل صوب الاسطورة قاصدا البصارة التي تنصحه باطفاء حزنه في اجساد النساء ، فهل يصلح حل التجاوز كي يداوي حالة النفي ـ الحصار ؟ · انه يستعير من «نشيد الانشاد » التوراتي احدى صوره المعبرة· «قلت : احلفكن بوطني المنهوب يا بنات المدينة ان تدنين اجسادكن من جسدي، فأنا وقد ضيعت وطني يسربلني الحزن · » ان عقدة الذنب كامنة في صميم معضلة الاستلاب التي يعانيها ، وهو هنا يعاود رواية الحدث تاركا للصورة الشعرية ان تتأصل عبر ترددها ، وفي المرتين يأتي الجواب واحدا ·· « من ترك وطنه نهبا للطامعين كتب على نفسه الحرمان من متعة الاجساد » · انه يمضي في ادانة العجز الذي وقع فريسته ، فهو مطرود بحد السيف ، ولكنه ـ اساسا ـ يتحمل وزر الجريمة· وفي شوارع المدينة يبزغ الجفاف وعدا مزيفا ، فان من تبتسم له بحنان ليست سوى تمثال من الشمع معروض في احدى الواجهات · وان ذهابه الى البحر لا يمنح السلوى ، فالبحر فلاح متعب يتحدث بنبرة رتيبة فاترة · وان شواهد القبور في مقبرة الشهداء تحكي كل شيء عن الوطن ولكنها اعجز من ان تمد جسرا بين ماضيه وحاضره · ان استعادته لماضي القمع والابادة بين القبور لا تشعل شحنة التفجر الكامنة ، اذ انها لم تشكل نقيضا موضوعيا لحالة القهر ، وها هو يستأنف مسيرته منكفئا على نفسه ، عائدا الى غرفته مروعا مما شعر به من تحجر واحتباس · وفيما كان الفاشيست يحرقون جسد بيروت ، تتسرب اليه عبر الليل ترنيمة حزينة يميز فيها صوت امه ، صوت الخلق البشري الذي يهب ميلادا جديدا يزيح مسامير التحجر ، ويخلق نقيضا موضوعيا لاستلابه وضياع انتمائه · يخرج الى الطرقات فيواجه فتى اسمه « ابو ذر » يحمل سلاحه في احد المنعطفات · ها هو الجدلي يأتي

من تناقضات الوقائع · فشخصية ابو ذر تكشف صراعا طبقيا تتوضح عبره صورة الحرب · يسأله الفتى عن حزنه ، وفي لحظة المكاشفة تطرح المبادرة التي تحل اشكال الغربة ـ الاستلاب ، وينخرط في الصراع الذي يحمل قضيته ·

في قصة « رجل وامرأة » تولد علاقة صراعية نابعة من الفقر والقمع ، متشوقة الى التقاء الحب الحقيقي بين رجل وامرأة· اثنان يجمعهما بؤس واحد ولكن لحظة اللقاء الذليلة تجهز على امكانيات التلاقي· « توقفنا قرب عدة شجيرات متشابكة ،حدق فيها واستثارته قسمات وجهها ، مد يده في محاولة لمداعبتها ، ولكنها استبقته بسرعة لم يكن يتوقعها ، فانطرحت على الارض فوق الاعشاب الميلة ، وتراخى جسدها ، فأحس انه امام جثة ، اقشعر بدنه وصاح في برود قاتل : انهضي ·· أقول لك انهضي » · في مقطع اخر يورد توضيحا يفسر انحدار تلك المرأة بشؤم الموت الذي لحق جميع من ارتبطت بهم ، وهو هنا يكافح القدرية التي يلصقونها بالموت الفلسطيني الذي حدث خلال الحروب واساليب الابادة المتعددة · ثم يعود الى الالتقاء بها حين تبدي رد فعل انساني يجذبه نحوها ، ولكنها لا تسقط امامه من جديد ، وانما تهرب خوفا على كيانها من المجازفة لحظة الالتقاء بالاخر ·

عبر انارات من وقائع السجن والمحاكمة، يسقط عليها رجع ماض قديم يطلقه في رد فعل عصبي بدائي ، أنه يلاحقها بضراوة فيما هي تهرب منه · وحينما يسترجع فعل الالفة والحنان وهو يعود الى وعيه ، تكون سيارات الشرطة قد وصلت كي تطوق المكان ·

قصة « التراب » يستعين فيها ببلاغات « جيش الدفاع الاسرائيلي » الذي يطالب قرية بالاستسلام ، واصفا حالة الذعر الذي يعم المكان واحاسيس الخذلان والهزيمة · « قالت : يا ساتر يا رب ، ابعدها عن وجهي ، وقت نجد ما رأينا مراجلك ، ما الفائدة الان » · مسترجعا حاله من الطفولة التي تتقمص المرأة وهي تعبث بالتراب الذي يرد رمزا مناقضا للعجز الجنسي الذي يعم رجال القرية اثر الاحتلال · وحين تبدأ المقاومة يتوحد فعل الحب مع الانخراط بها ضمن فعل جماعي · « ثم التصقت به واصبحنا جسدا واحدا ، وظلا وقتا طويلا وهما ملتحمان ، نهض وواصل الحفر فيما هي ترتدي ملابسها · اخرج كيسا من الخيش بداخله بندقية ، قبض عليها وسار في اتجاه الوادي ، ثم توقف والتفت صوبها قبل ان يبتعد: لا تقلقي لست وحدي »·

في القصة الاخيرة التي تمثل هذا الاتجاه « ثلاث قصص قصيرة جدا » ، نجد مقاطع لا يجمعها في الحدث سوى منظور واحد يمثل شرك القمع · الاولى تظهر قمع المثقفين امام قضايا يعجزون عن الفعل فيها · « قلت انا ذاهب الى البحر (كان صوتي متحشرجا) وقلت : انا ذاهب الى المطعم لتناول وجبة ساخنة (كان صوتي متلعثما) وقلت انا على موعد مع حبيبتي، وبعد لحظات انزل الى الشارع لمقابلتها (كان صوتي فاترا) · وقلت : انا ذاهب الى المكتبة للقراءة (وكان صوتي ميتا)·

الثانية تمثل قمع المواطن العادي على الحواجز التي تهدر انسانيته · والثالثة عن قمع الشرطي البائس الذي يخضع لحراسة مصالح سادته التي تتناقض مع مصالحه ·

ثانيا : دور اللغة المحكية في تطوير القصة واعطائها جوا حميما ينقذها من التفلت والتسيب كما حدث في قصة

«القرار» · تتحدث القصة عن شاب بسيط وقع فريسة لملاحقة رجال المخابرات حين يحاولون اجباره على العمل معهم · تبدو عفوية الشاب وقلة خبرته بمثابة المصير المحتوم في السقوط والانجدار · الا ان اللغة تحتل دور الفعل، فالحوارات الشعبية التي يستعيدها الشاب تساهم في اذكاء روح الجماعة والتضامن ، وتنجح فيعكس الوجه اليومي لحياة الناس في ظل الاحتلال ، بما يبرر خطوته اللاحقة في التمرد على شروط الاعداء وتهديداتهم ·

ويبرع « محمودشقير » في استخدام اللغة العامية المشحونة بانفعالات دقائق الحياة في قرية يسعى المختار واعوانه ، لدفع اهلها الى الهجرة في قصة «الخروج»·

نلاحظ ايضا دور اللغة في التقدم نحو الرمز الذي يحمل ابعادا متعددة في قصة « رجل قادم من بين الاحياء » حين يكون السرد مرتبطا بالاسطورة ـ الرمز ، انها قصة الفدائي الذي يأخذ وجه مسيح يفتش عن حبيبته · « قال يا احبائي جسدي مكشوف في السهول والوديان والجبال ، في القرى والمخيمات والمدن ، ثم ما جئت لكي اختبىء » · تتصفى اللغة الشعرية بوهج الاسطورة مطلقة أجمل ما لديها حين يمنح الفدائي ـ المسيح قدرة الاخصاب للمرأة العاقر ، عبر صور تستقطب رموز الجنس ـ الحلم · « نثر شعرها وقال : بدمائي تغسلين هذا الشعر ويكون لك اولاد بعدد اوراق الشجر · تلوت المرأة والدماء تقطر من ذؤابات شعرها ، وقال : انزعي ثوبك عن صدرك ايتها المليحة بين النساء ، كانت المرأة تفور مثل البركان · شقت ثوبها ، فبان نهداها الابيضان مثل حمامتين مقطوعتي الرأسين ، وحينما بالدم تعفر نهداها استلقت على الارض وراحت تتلوى فى حبور » ·

ثالثا : هناك اربع قصص كتبها « محمود شقير » في الاصل للاطفال ووضعها ضمن المجموعة · (الزيارة ـ الجندي واللعبة ـ الولد الفلسطيني ـ جمال الزين) · واسلوب هذه القصص المميز هو الحوارات المختصرة التي تطلق نبض الطفولةوالعفوية حين قراءتها من قبل الكبار · الا ان روح الكبار تطغى عليها في بعض المواضيع التي يقصدبها التأثير على الصغار · ففي قصة «جمال الزين» : «اطلق الاعداء النار على جمال الزين وقتلوه فاكتست الارض بالعشب الاخضر ، وصار الوطن الذي احبه جمال الزين اكثر بهاء » · ان تمجيد الموت مهما كان ساميا بطريقة رومانسية لا يكون مقنعا امام الاطفال · وقصة «الزيارة» تعطي نفخة من الحزن والكآبة امام عجز فراس عن اخراج والده من السجن ، دون بديل منطقي يرادف همه الكبير حيناكتشافه السجن · تتجاوز قصة « الجندي واللعبة » هذا المأزق حين ترمي أمينة قطعة الحلوى التي اعطاها اياها الجنديالاسرائيلي تحت الاقدام ، بعد ان مزق لعبتها · الا ان قصة « الولد الفلسطيني » تعبر قنطرة التردد بين عالم الكبار والصغار ، فتصلح لكليهما عبر توحيدها لمشاعر الحزن والغضب والمقاومة لدى استثارتها سؤالا يمنحها حركتها الغنية بالحيوية والمجابهة·

«فقلت : يقولون ان لهم اولادا مثلنا ، يا ترى صحيح ؟· قال علي عفانة : انا لا اصدق ، دائما اراهم دون اولاد ، لديهم اسلحة فقط · وسألني : هل رأيت ولدا في دباية » · وحين يقتل علي عفانة وهو يضربهم بالحجارة ، ينفجر السؤال صارخا · « لماذا يقتلون الاولاد ؟ » ويكون ذلك هو الجسر الذي يعبره الولد الفلسطيني صوب المقاومة ·

ليانة بدر

الامم المتحدة
الجمعية العامة

اللجنة الخاصة المكلفة باستقصاء الممارسات الاسرائيلية التي تؤثر على حقوق الانسان للمدنيين في الاراضي المحتلة ٠

انشأت الجمعية العامة لمنظمة الامم المتحدة في ١٣ كانون الاول (ديسمبر) ١٩٦٨ ، اللجنة الخاصة المكلفة باستقصاء الممارسات الاسرائيلية التي تؤثر على حقوق الانسان لسكان الاراضي المحتلة ، وكان تفويضها يجدد كل عام ، وتم ذلك مؤخرا في ١٣ كانون الاول (ديسمبر) ١٩٧٧ ٠

وتتكون اللجنة الخاصة من ممثلين لكل من السنغال ، وسري‌لانكا ، ويوغوسلافيا ٠

واستمعت اللجنة اثناء تأديتها لاعمالها الى حوالي ٣٠٠ شخص أدلوا بشهادتهم فيما يتعلق بالظروف التي يعيشها السكان المدنيون في الاراضي التي احتلت في عام ١٩٦٧ ٠

وترى اللجنة الخاصة أنه من الملائم ، لكي تكون على دراية بما يجري بقدر الامكان ، ان تستعلم عن الظروف القائمة في هذه الاراضي ما وسعها ذلك ٠ ويرجى من اي شخص لديه معرفة بالممارسات التي تؤثر على حقوق الانسان لسكان الاراضي التي احتلتها اسرائيل في حزيران (يونيه) ١٩٦٧، ويكون مستعدا للشهادة أمام اللجنة الخاصة ، سواء في جلسة عامة ، أو في جلسة خاصة ، أن يقدم طلبا الى امين اللجنة الخاصة ـ قسم حقوق الانسان ، مكتب الامم المتحدة ، قصر الامم ، الاتحاد السويسري ـ ١٢١١ جنيف ١٠ ـ موضحا اسمه ، وعنوانه ، مع تقديم ملخص سريع للمعلومات التي يكون مستعدا للادلاء بها ٠

Secretary of the special Committee
Division of Human Rights
United Nations
1211 Geneve 10 - Suisse

صدر عن دار الفارابي

دفاتر فلسطينية

تأليف :

معين بسيسو

جدول بالعمليات العسكرية لقوات الثورة الفلسطينية ١٤/٢ - ٤/٤/١٩٧٨

تاريخ العملية						خسائر العدو البشرية		خسائر العدو المادية	خسائر المقاومة			المصدر - البلاغ العسكري	
الرقم	اليوم	الساعة	موقعها	نوع العملية	السلاح المستعمل	قتيل	جريح		شهيد	جريح	مفقود	رقم	تاريخ
١	١٤-٢-٧٨	٢٠ر٢١	شارع اسطانبا - حي جيفولا - القدس	تفجير	عبوات ناسفة موقوتة	٢	٤٥	- تدمير الياس تدميرا تاما تحطم زجاج الابنية المجاورة	-	-	-	٧٨-٩	١٥-٢-٧٨
٢	٢٩-٢-٧٨	١٥ر١٠	الجامعة العبرية - القدس	تفجير	عبوات ناسفة موقوتة	غير محدد	غير محدد	- قتل وجرح عدد غير محدد من افراد العدو تحطم زجاج بعض الاقسام القريبة من مكان الانفجار .	-	-	-	٧٨-١٠	١٩-٢-٧٨
٣	١٦-٢-٧٨	٥ر١٥	القدس - المدرسة الزراعية - اليهودية	تفجير	عبوة ناسفة موقوتة	-	غير محدد	اصابة عدد غير محدد من افراد العدو اصابة معتبرات المدرسة باضرار بالغة	-	-	-	٧٨-١١	١٧-٢-٧٨
٤	٢٠-٢-٧٨	٥ر١٩	عكا - بناية التمقيق التابعة لشرطة العدو	تفجير	عبوات ناسفة موقوتة	-	غير محدد	اندلاع النيران في طوابق المبنى واتلاف جميع محتوياتها . اصابة عدد غير محدد من افراد العدو	-	-	-	٧٨-١٢	٢١-٢-٧٨
٥	١٧-٢-٧٨	١٥ر١٧	تابلس - ملتزه جمال عبد الناصر	كمين	اسلحة اوتوماتيكية وقنابل يدوية	غير محدد	غير محدد	قتل وجرح جميع من في السيارة . اشتعال السيارة بالنيران .	-	-	-	٧٨-١٣	١٨-٢-٧٨
٦	٢٥-٢-٧٨	٢٠ر٤	رفح - محطة القطار	تفجير	عبوة ناسفة موقوتة	غير محدد	غير محدد	اصابة عدد غير محدد من الافراد حراسات العدو . - اصابة المبنى باضرار بالغة	-	-	-	٧٨-١٤	٢٦-٢-٧٨
٧	٢٥-٢-٧٨	١٥ر١٢	الطريق المؤدية الى مدخل مدينة نابلس	تفجير	لغم ارضي	-	٧	- تدمير التراكتور تدميرا تاما . - اصابة سبعة مستوطنين بصابة	-	-	-	٧٨-١٥	٢٦-٢-٧٨
٨	١-٣-٧٨	١٠ر٨ صباحا	تل ابيب - مادار يوسف	تفجير	عبوات ناسفة موقوتة	١	٩٠	- تدمير اثنتين تدميرا تاما . - اصابة عدد من السيارات المجاورة . - تحطم معظم زجاج الابنية المجاورة . - مقتل وجرح ما يزيد عن (١٠) من افراد العدو .	-	-	-	٧٨-١٦	١-٣-٧٨
٩	٤-٣-٧٨	٧ر١٥ صباحا	القدس - شارع الايمام الصمة - رامات اشكول .	تفجير	عبوات ناسفة موقوتة	غير محدد	غير محدد	- احراق عدد من السيارات واصابة الكثيرين باضرار بالغة .	-	-	-	٧٨-١٧	٤-٣-٧٨
١٠	١١-٣-٧٨	٨ر١٨	المنطقة الساحلية بين حيفا وتسل ابيب .	اشتباك	قنابل يدوية واسلحة رشاشة	٢٧	٨٣	- تدمير الاوتوبيس تدميرا كاملا . - تدمير شاحنتين لجنود العدو .	٣	٢	-	٧٨-١٨	١١-٣-٧٨
١١	١٦-٣-٧٨	٩ر١٥ صباحا	الطريق الرئيسي المؤدي الى مدينة نابلس من طولكرم .	هجوم	اسلحة رشاشة وقنابل يدوية	غير محدد	غير محدد	- تدمير السيارة تدميرا تاما . قتل وجرح جميع من فيها ،وعددهم (٣)	-	-	-	٧٨-١٩	١٦-٣-٧٨
١٢	١٦-٣-٧٨	٢٠ر١٦	صفد المركز التجاري .	تفجير	عبوات ناسفة	غير محدد	غير محدد	الحاق اضرار مادية كبيرة بالمركز . - احداث خسائر بشرية في صفوف العدو - نسف الات الصفر التابعة لشركة مكروت للمياه .	-	-	-	٧٨-٢٠	١٧-٣-٧٨
١٣	١٧-٣-٧٨	١) ١٥ر٢١ ٢) ٥ر٢٢	١) كفار اوتر - شارع برميامور ٢) تل ابيب - شارع الشمسور	١) تفجير ٢) هجوم	١) عبوة موقوتة ٢) قنابل يدوية	١) - ٢) -	١) غير محدد ٢) غير محدد	١) اصابة سيارتين وجرح عدد من افراد العدو . ٢) اصابة السيارة باضرار بالغة وجرح عدد من افراد العدو المتواجدين في داخلها .	-	-	-	٧٨-٢١	١٨-٣-٧٨
١٤	١٨-٣-٧٨	صباحا	القدس - مدخل مقيم فلفيا	تفجير	عبوة حارقة	غير محدد	-	- احراق السيارة . - قتل جميع افراد العدو المتواجدين بداخلها	-	-	-	٧٨-٢٢	١٩-٣-٧٨
١٥	١٩-٣-٧٨	٢١ر٠٠	القدس - الحي الفرنسي	هجوم	قنابل حارقة	١	غير محدد	- احراق السيارة وقتل سائقها . - قتل وجرح عدد من افراد العدو .	-	-	-	٧٨-٢٣	١٩-٣-٧٨
١٦	٢٠-٣-٧٨	٠٠ر٠٠	[illegible] - بنك هابوعليم	[illegible]	[illegible]	[illegible]	-	[illegible]	-	-	-	٧٨-٢٤	٢٠-٣-٧٨

١٨	٢١-٣-٧٨	٧ر٣٥ صباحا	بيت لحم ـ سيارة تابعة للشرطة العسكرية .	تفجير	عبوات ناسفة موقوتة	غير محدد	غير محدد	ـ	ـ	ـ	٢٦-٣-٧٨	٢١-٣-٧٨
										ـ اصابة عدد من رجال الشرطة بجراح ـ تدمير سيارة فورد تابعة للعدو . ـ اصابة عدد من السيارات المجاورة لمكان الانفجار .		
١٩	٢٢-٣-٧٨	صباحا	منطقة رام الله ـ باص تابع لشركة دان العسكرية	تفجير	عبوات ناسفة	ـ		ـ	ـ	ـ تفجير الباص بواسطة عبوات بعد اخلاء جميع ركابه من المدنيين .	٢٧-٣-٧٨	٢٢-٣-٧٨
٢٠	٢٢-٣-٧٨	٧ر١٥ صباحا	منطقة رام الله ـ اللفتنانت صالح احمد باصات شركة دان العسكرية	هجوم	قنابل حارقة	ـ		ـ	ـ	ـ اندلاع النيران في الباص واحتراقه بالكامل	٢٨-٣-٧٨	٢٣-٣-٧٨
٢١	٢٣-٣-٧٨	ظهرا	مطار قلنديا ـ خروج ـ شمال مدينة القدس .	تفجير	عبوات ناسفة موقوتة	ـ		ـ	ـ	ـ ادعى البوليس الصهيوني ان العبوات اكتشفت وان الخبراء ابطلوا مفعولها . ـ تم اغلاق المطار في وجه حركة السير .	٢٩-٣-٧٨	٢٣-٣-٧٨
٢٢	٢٣-٣-٧٨	٦ر٠٠ مساء	القدس ـ شارع ابي عكيبا المدرسة العسكرية التابعة للجيش	تفجير	عبوات حارقة موقوتة	غير محدد	غير محدد	ـ	ـ	ـ اتلاف واحراق معظم محتويات مكاتب المدرسة وتصدع احد جدرانها .	٣٠-٣-٧٨	٢٤-٣-٧٨
٢٣	٢٣-٣-٧٨	١٨ر١٥	القدس ـ شارع يافا النجمة المركزية .	تفجير	عبوات ناسفة حارقة	ـ		ـ	ـ	ـ اندلاع النار في جميع انحاء المنجرة ـ تدمير خسائر العدو المادية بمليون ليرة . ـ لم تحدد الخسائر البشرية .	٣١-٣-٧٨	٢٤-٣-٧٨
٢٤	٢٢-٣-٧٨	١) ١٠ر١٦ ٢) ـ	١) طريق قرية بيت مرسم ـ دورا ٢) كريات حداد ـ بيت جبرين	١) تفجير ٢) هجوم	١) النام مضادة للدبابات ٢) سلاح فردي رشاش	١) غير محدد ٢) ١	١) غير محدد ٢)	ـ	ـ	١) مقتل جميع من في السيارة وتدميرها تدميرا تاما . ٢ ـ اصابة السيارة اصابة مباشرة ومقتل جندي واصابة اثنين اخرين .	٣٣-٣-٧٨	٢٥-٣-٧٨
٢٥	٢٥-٣-٧٨	١٥ر٢٢	حيفا ـ بناية هامشير التابعة لمخابرات العدو .	تفجير	شحنة ناسفة موقوتة	ـ		ـ	ـ	ـ ادعى العدو انه تم اكتشاف العبوات وبدات السلطات بتحذير المواطنين وقامت بتمشيط عدة اماكن في حيفا .	٣٣-٣-٧٨	٢٦-٣-٧٨
٢٦	٤-٤-٧٨	٢٠ر٠	القدس ـ تجمع لجنود العدو بالقرب من متحف روكفلر .	هجوم	اسلحة رشاشة	غير محدد	غير محدد	ـ	ـ	ـ اصابة عدد غير محدد من افراد العدو بين قتيل وجريح . ـ تضرر عدد من السيارات المتواجدة في المنطقة .	٢٤-٤-٧٨	٥-٤-٧٨

٩) اعترف العدو في نشرته الاخبارية الساعة ٨ر٠٠ ، يوم السبت في ٤-٣-١٩٧٨ بانفجار عبوة ناسفة في القدس قائلا : « انفجرت عبوة ناسفة في الساعة السابعة والربع من صباح اليوم، تحت سيارة واقفة في شارع الايام الستة في رامات اشكول في القدس » .

(رصد اذاعة اسرائيل ، العدد ١٤٣٢ ، ص ٥٢ ، الساعة ٨ر٠٠ ، السبت ٤-٣-١٩٧٨) .

١٠) اعترف العدو في نشرته الاخبارية الساعة ٨ر٠٠ بالعملية قائلا : « واغلقت الطرق المؤدية الى الضفة الغربية وقطاع غزة ، وحظر تنقل العمال في هذه المناطق . ويفيد مراسلنا ان عدد القتلى الذين ذهبوا ضحية العمل « التخريبي » الاثم ٣٧ قتيلا ، وعدد الجرحى يتجاوز الثمانين » .

(رصد اذاعة اسرائيل ، العدد ١٤٣٩، ص ١٣٧ ، الساعة ٨ر٠٠ ، الاحد ١٢-٣-١٩٧٨) .

٢٥) اعترف العدو في نشرته الاخبارية الساعة ٧ر٠٠ يوم الاحد بالعثور على عبوة ناسفة ، وقال انه تم تعطيلها دون وقوع اية اضرار ، واضاف بان العبوة وجدت قرب مبنى هامشير .

(رصد اذاعة اسرائيل ، العدد ١٤٥٢، ص ٣٠١ ، الاحد ، الساعة ٧ر٠٠ ، ٢٦-٣-١٩٧٨) .

مروان حميد